

فصل في بيان
الصفات التي يجب
على المؤمن
أن يتحلى بها
والتدابير التي
يجب أن يتخذها
لئلا يقع في
الفتنة والنجس
والفساد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي
جعل في دينه
الهدى والنجاة
والعافية

المفكر في النفس
مروان بن جعفر شيخ الإسلام

٢

ح دار أطلس الخضراء ، ١٤٤٠ هـ

مهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك حمد الحامد

المفرد النفيس من فوائد جعفر شيخ ادريس . / مبارك حمد

الحامد الشريف - الرياض، ١٤٤٠ هـ

١٦٣٨ ص ، ١٧ X ٢٤ سم

ردمك ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٣٣-٥-٤

١- المقالات العربية

أ- العنوان

ديوي ٠٨١

١٤٤٠/٦٤١٦

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦٤١٦

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١٢٣٣-٥-٤

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار أطلس الخضراء

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٤٢٦٦١٠٤ - ٤٢٦٦٩٦٣ فاكس: ٤٢٥٧٩٠٦

جوال: ٠٥٤٤٨٩٦٦٥٤

www.facebook.com/DARATLAS

twitter: @ dar-atlas

dar-atlas@hotmail.com

المِفْرَدَاتُ النَّفِيسَةُ

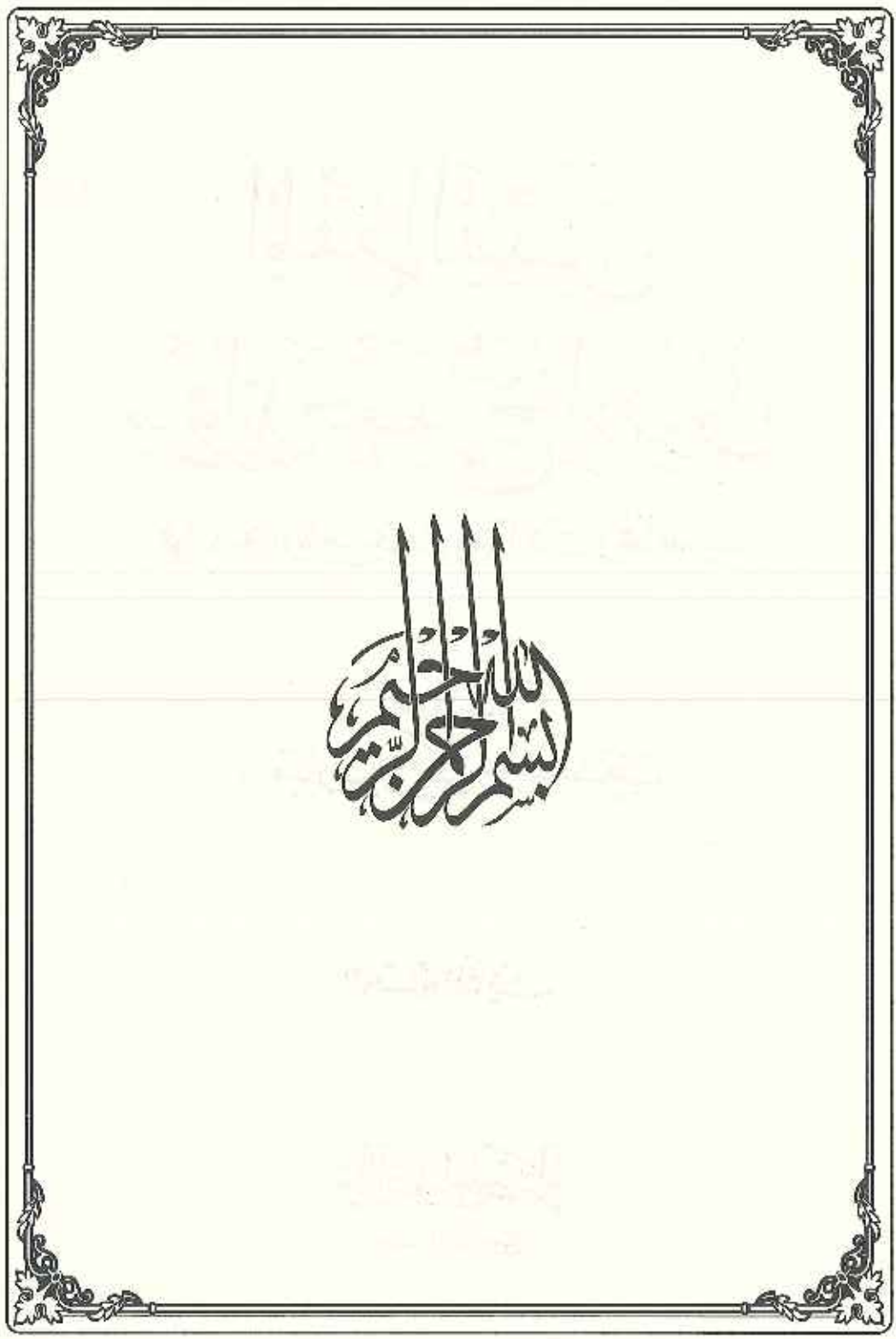
مِنْ فَوَائِدِ جَعْفَرِ بْنِ شَيْخِ إِدْرِيسَ بْنِ

فَوَائِدُ مُخْتَارَةٌ مِنْ بَحْثٍ وَمَقَالَاتٍ وَمُحَاضَرَاتٍ

بِجَمْعٍ وَأَعْدَادٍ
د. مَبَارَكُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَامِدِ الشَّرِيفِ

الجزء الثاني

دارُ الطَّلَبِ لِلتَّحْقِيقِ
للنَّشْرِ وَالْمُتَوَسِّعِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدانا لهذا

الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

فائدة: ليس من اللائق أن يقال أن المشايخ يعيشون في جهل بسبب عدم

معرفتهم ببعض العلوم الطبيعية:

أنا لا أرى من اللائق أن تقول المشايخ يعيشون في جهل، وما أظن أن شيخاً معتبراً الآن يقول هذا الكلام، لكن ليس كل من انتسب إلى الدين وتكلم فيه فهو شيخ كبير، ولا تتوقع أن يعرف كل شيء في العلوم الطبيعية كما أنك أنت لا تعرف كثيراً من أمور الدين، فإذا كنت أنت مقصر في أمور الدين، وهو مقصر في أمور الدنيا، فهو خير منك، فلماذا تعيب عليه تقصيره؟ ولا تعيب على نفسك أنك مقصر في شيء أهم من الذي قصر فيه، لا يضره كثيراً أنه لا يعرف أن الأرض كروية أو ليست كروية، لكن يضرك كثيراً أنك لا تعرف بعض الأحكام التي جاء بها الرسول ﷺ خصوصاً فيما يتعلق في مسائل العقيدة.

فأرجو أن لا تتكلموا عن شيوخكم وعلمائكم كلاماً غير لائق، بعض الناس عندهم ظلم وبخس لحق العلماء، لا تتوقع ولا حتى من الشيخ ابن باز أن يكون عالماً بكل شيء، يكفيه أنه تخصص في شيء مهم جداً وهو أهم شيء ويرشد الناس ويعلمهم فيه، أما أن أتوقع أن يكون محيطاً بعلوم الجغرافيا والتاريخ والعلوم النفسية ومواكب للعصر والسياسة والفيزياء لا يمكن، هذا نعم كان من علمائنا من له إمام بهذه المسائل في الماضي، وما زال عندنا فلا تتوقعوا منهم ذلك خصوصاً إذا نظرتهم إلى الطريقة التي درسوا بها، فالإنسان أحياناً ضحية بيئته فهو ما درس هذه الأشياء فكيف تتوقع منه أن يعرفها، لكن

نعم أقول له لا تتكلم في أشياء لا تعرفها^(١).

فائدة: مناقشة الملاحدة عن وجود الخالق:

بالنسبة لوجود الخالق أيضًا لا تستسلموا لما يقوله لكم الملحدون واسألوهم وناقشوهم كما يسألونكم هم، يعني الملحدين الآن يظن أن المؤمن هو المطالب بالدليل، وأنه يجلس مرتاح حتى يبرهن له يعني كأن المؤمن هو في قفص الاتهام فهو الذي يثبت، أو أن المؤمن هو المدعي فعليه أن يثبت الدعوى الناس يفكرون بهذه الطريقة لكن هذا ليس بصحيح.

فأنا كنت كثير ما أقول لهم نحن عندنا مشكلة وهذا حلّي لها، قل أيضًا أنت ما هو حلك لها؟ ماهي المشكلة؟ المشكلة أن عندي هذا الكون أنا وأنت نسأل من أين جاء؟ أهذا سؤال مشروع وإلا غير مشروع؟ بعض العلماء في الماضي كانوا يظنون أن العلم قد جعل هذا السؤال غير مشروع غير ذي بال لماذا؟ قالوا: لأن هذا الكون كما قلت لكم في مسألة الذرات أنه مكون من ذرات لا نهاية لعددها، فإذا السؤال عن من أين جاءت؟ أو إنها هي نفسها أزلية، يقول لك كما أنك تقول أن الخالق أزلي ما له بداية، ولذلك لا يسأل عنه من أين جاء، فكذلك هذه الذرات طيب. لكن الآن هذا السؤال وهذا الكلام لا يقال الآن؛ لأنه بحسب النظرية التي

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٠١).

قلت لها لكم مادة الكون محدودة، فالعلماء يعرفون أن هذه المادة ليست أزلية.

فإذا السؤال من أين جاءت سؤال مشروع، أنا حلّي للإشكال إني قلت خلقها خالق أزلي كذا كذا، ودليلي هذه المادة نفسها الدليل الذي قلته فأنت ما هو دليلك؟ أقصد ما هو حلك؟

لنفرض أن هنالك مشكلة اجتماعية في بلد من البلاد، أحد الناس قدم نظرية قال أنا في رأيي أن هذه المشكلة تحل بالطريقة الفلانية، هل ينال الآخرون ويتظنون حتى يرهن هو أن كلامه صحيح أم أن عليهم أن يبحثوا كما بحث هو؟ فهذه من الأشياء التي تنبهم إليها فقل له يا أخي هذه مشكلة كبيرة لا تظن أنها تخصني إنها تخصك أنت أيضاً؛ لأن الإجابة عليها يترتب عليه أشياء كبيرة في الحياة وربما بعد الحياة، ربما يكون كلامي صحيحاً فما تفعل أنت عندما تموت وتجاهه بأن هنالك بعث؟ لا بُدَّ أن تثيره حتى يأخذ الموضوع مأخذ الجد وإلا إذا كان مجرد مجادلة فقط يعني يكون هدفه أن يسكتك أنت فحتى إذا كان هذا هدفه فحاول أنت أن تسكته.

قريباً قبل سنة كنت في السويد في مسألة تتعلق بالدعوة، وفي محاضرة جاء بعدها شاب طيب يعرفه بعض الإخوة السودانيين هنالك، وجاءني وبدأ يناقشني وبطريقة متعالية يعني مادام أن هذا رجل دين معناه ما يعرف شيء في العلوم ولا في المنطق؟ فعندما بدأت أجادله وبعض الأسئلة سككت عنها وقال لي: أنت متمرس على هذه الموضوعات وأنا لست متمرساً عليها، وبدأ يعتذر، قلت له: هذه قضية

مهمة وليست مسألة تخصص في فرع من فروع المعرفة، إذا كنت مهتمًا بها فعلاً فتمرس وحاول أن تعرف كل الإجابات على هذه الأسئلة التي تثيرك، أما أنك تظن أن كل الناس سذج ويمكن أن تسكتهم بمثل هذه الأسئلة فأنت تضر نفسك، فلا بُد أن تشعره بأن هذا الموضوع مهم، وأن بعض الأفكار التي في ذهنه أفكار ساذجة، وأن بعضها مما أثبت العلم بطلانه فلا تشعره ولا تجعله يشعر أن العلم في صفه هو، والعقل في صفه، لا.

فترجع مرة ثانية فأقول: سأقول له يا أخي نتكلم الآن عن مادة الكون هذه من أين جاءت أنت قل لي؟ أنا أقول لك ليس هناك إلا ثلاثة أشياء أو فروض إذا عندك رابع، قل لي وإذا كنت تعتقد أن أحد هذه الاحتمالات أو أحد هذه الفروض أحسن من الذي اخترته فقل لي، إما أن أقول: إنه جاء من لا شيء، وإما أن أقول: بأنه أوجد نفسه، وإما أقول: إنه أوجده شيء من الخارج، أو أقول وطبعًا هذا سيكون شيئًا آخر غير الذي نتكلم عنه، أو أقول إنه أزلي لا بداية له.

إذا اتفقنا أن له بداية فلا بُد من واحد من هذه، أما إذا كان أزليًا لا بداية له لا تنطبق عليه هذه الأشياء؛ لأن الشيء إذا كان موجودًا منذ الأزل لا نسأل كيف جاء هو؟ ما جاء من مكان هو موجود، لا نسأل كيف جاء فلا تنطبق عليه هذه الأسئلة، فإذا إذا قال جاء من العدم وبعض الناس يقولون هذا لكي يتفادي مسألة الإيمان بالله يفضل أن يقول جاء من العدم، فأقول يا أخي: هذا شيء غير معقول كيف يكون عدم محض، ثم يأتي منه شيء، ثم إذا قال يعني أصر على رأيه أقول:

له طيب يا أخي لماذا وصلت إلى درجة أن تقبل الشيء جاء من العدم؟ فلماذا تعيب على إنسان يقول إنه خلقه خالق؟ لنفرض أنكم الآن استويتم، هذا: قال جاء من العدم، وهذا قال: خلقه خالق، ما الذي جعلك أنت أفضل من هذا؟ ما هو العلم أو العقل الذي تظن أنه في صف العدم أكثر من أن يكون في صف الخالق؟ بعضهم أيضًا قال: خلق نفسه، لكن بلف ودوران.

هنالك حجة لا أريد أن أتعبكم بها لكارل ماركس مؤسس الشيوعية يقول: إن الإنسان هو الذي أوجد نفسه لكن فيها مغالطات فأيضًا هذه إذا أوضحتها لشخص أن الشيء لا يمكن أن يوجد نفسه؛ لأنه لكي يوجد لا بُدَّ أن يكون موجودًا أليس كذلك كيف يوجد وهو ليس موجود؟

وإذا كان موجودًا فلا يحتاج إلى أن يوجد فهذه فيه تفاصيل لها كما قلت لكم أن بعض العلماء وكذا، بل هنالك عالم وهو الآن تراجع عن رأيه قال وكان له نظرية غير النظرية التي كلمتكم عنها، النظرية التي يسمونها (بق بانق) كانت له نظرية أخرى والنظريتان أساسهما ظاهرة واحدة، وهذه الظاهرة غريبة اكتشفها العلماء وهي أن هذا الكون الذي نعيش فيه يتباعد عن بعضه، يعني إذا كان عندنا مثلًا هذا وهذا وأنا فلاحظوا أن هذه الأشياء تتباعد، لكن لاحظوا أيضًا شيئًا غريبًا أنه بالرغم من أن بعضها يتباعد إلا أن كثافة المادة في نطاق محدود ثابتة، يعني أنا أضرب لها مثل دائمًا تصور أنك في دار رياضة هنالك آلاف من الناس، ثم فتحت الأبواب وبدأ الناس يخرجون، وبعد ساعة ألتفتنا فإذا العدد كما هو، هذه المسألة حيرتهم كيف أنه يتباعد ثم العدد كما هو، فهذا كانت له نظرية تقول إن الخلق

مستمر، هنالك خلق في الوقت الذي هذه تكون هذه قد خرجت وبعدت بالمرّة عن النطاق الذي يمكن أن نراها فيه حتى بالآلات المكبرة يكون في هذا الوقت خلق شيء وحل محله، لكن قالوا من أين يأتي هذا الشيء نحن عندنا مثلاً مساحة كهذه وعندنا فيها أربعة أو خمسة أشياء، بعد قليل كلها خرجت المفروض أن يكون هناك فراغ، لكن مازال عندنا خمسة من أين جاءت هذه؟

قال هنالك ذرات تخلق من العدم، وهو ملحد الآن ما فيه ذرة بعد ثانية فيه ذرة، فثار عليه كثير من العلماء، والغريب أن بعضهم ثار عليه؛ لأنه ظن أن حجته هذه ستؤيد الدين حتى أنني ناقشت بعضهم، فقلت: يا أخي هذه لا تؤيد الدين هم ظنوا أن يقول أن الله يخلق الأشياء من العدم، فهم ظنوا أن هذه النظرية سيكون فيها تأييد للدين، قلت لهم: هذه ما فيها؛ لأنه لو كنا نعتقد أن الأشياء تأتي من العدم المحض بطريقتها هذه لما كان فيه لزوم أن نقول أن الكون له خالق هذه لا تؤيد الدين، لكن المهم أنهم ثاروا عليه، ثم تراجع عن رأيه.

فأقول بأن الأشياء تأتي من العدم المحض شيء لا يقبله عقل وإن كان بعض الناس يقولون به، ومن قراءاتي لهم ما يقولون به إلا لأنهم لا يريدون أن يقولوا أن الكون له خالق، مستعدون أن يدفعوا هذا الثمن، أن يقولوا إن الشيء يأتي من العدم ولا يقولوا إن له خالق، فإذا ما بقي أن نقول أن هذا الكون له إن الشيء هذا المادة، هذه لها يعني خلقها شيء غيرها ما هو هذا الشيء؟ يمكن أن نفصل هنا بعض التفصيل الذي لم أذكره في المرة الماضية.

نقول: إن أولاً هذا الشيء الذي خلق لا يمكن أن يكون كهذا الذي خلق بضم الخاء؛ لأنه لو كان مثله وحادثاً سنسأل عنه نفس الأسئلة، نفس الثلاث احتمالات، فإذا بالعقل نقول إن الخالق النهائي لا بُدَّ أن يكون أزلياً، ولذلك علماؤنا كانوا يقولون إن وجود الحادث هو نفسه دليل على وجود خالق غير حادث، يعني هي ليست مجرد إيمان واعتقاد لا، ولذلك نسمي هذا الكون آيات الله فالأمر نفسه برهان كأن كل جزء من أجزاء الكون يشير إلى خالقه، فهو نفسه دليل على أن له خالقاً غير حادث أزلي، فنقول إنه إذا عرفنا صفتين من صفاته أنه أزلي وإذا كان أزلياً لا بداية له فهو أبدي لا ينتهي؛ لأن الذي لا يبدأ لا ينتهي أيضاً هنالك حجة لهذا، ثم نقول إنه كان قد خلق فلا بُدَّ أن يكون قد خلق بإرادة وإذا كان خلق بإرادة فلا بُدَّ أن يكون حياً، وإذا كان خلق بإرادة وحياة فلا بُدَّ أن يكون عالماً وهكذا كثير من الصفات التي وردت في القرآن الكريم يمكن أن نصل إليها بالتفكير العقلي.

وكما قلت لكم: إن هذا التفكير العقلي أسسه موجوده في القرآن الكريم، يعني مثلاً ألا يعلم من خلق إذا قلت إنه خلق فلا بُدَّ أنه أن تقول إنه يعلم، فإذا كان قد خلق لا بُدَّ أن يكون عالماً، وهكذا في صفات الله *سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى* يمكن الاستدلال عليها، فالتفاصيل ليست في البرهان على وجود الخالق، البرهان يسير جداً وهو الذي عندما يقول الناس إيمان العجائز، في الحقيقة إن إيمان العجائز هو مرتكز على هذا البرهان من غير هذا التفصيل الذي قلته؛ لأن الإنسان بعقله يعلم أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد جاء من العدم، إذا لا بُدَّ له من خالق بس، وهذا يكفي

التفاصيل تكون في الرد على الشبهات التي يثيرها الآخرون، وفيه كتاب أنا قرأته من زمن طويل لا أدري ما رأيي فيه الآن، لكن عندما قرأته استفدت منه كتاب اسمه قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر، قصة الإيمان بين الدين والفلسفة والقرآن أو هكذا، وأظنه موجود في الأسواق أنالي مقال صغير اسمه (نقض الأسس الفلسفية للمذهب المادي)، وهناك أيضًا رسائل رأيتها في بعض المكتبات وأظنها جيدة لا أحفظ الآن المؤلفين، لكن في نقض الإلحاد أو نقض المذهب المادي ووحيد الدين خان كتب بعض الكتابات في هذا الموضوع، كتابات الشيخ الزنداني عن الإعجاز العلمي ولها علاقة بهذا الموضوع^(١).

فائدة: التخيل شيء وإدراك المعنى شيء آخر:

هنالك فرق بين أن تعرف معنى الشيء أو أن تتخيله، فالتخيل شيء وإدراك المعنى شيء آخر الناس يدركون معنى أزلي، لكن لا يستطيع أن أتصور وأتخيل أضع له صورة، يعني لو قلت لي: جبل أضع له صورة في ذهني، اثنين، ثلاثة، كلما كثر العدد صعب علي التصور، فإذا قلت لي: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]، التخيل انتهى، ما أستطيع كل هذا الشجر الذي في الأرض أقلام وكل قلم يغمس في البحر

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٦٠١).

ويكتب ويكتب، وإذا انتهى البحر جاء بعده سبعة أبحر، هذا قريب من اللانهائي، لذلك القرآن الكريم وضعها في صورة جزء منها يتخيل، لكن الإنسان بعد قليل يعرف أن هذا الخيال لانهائي لا يمكن.

ففرق يا أخي بين أن لا تستطيع أن لا تتصور وتخيّل وبين أن لا تعرف وإلا الناس يعرفون في الرياضيات اللانهائي ويستعملون الكلمة، حتى بعض الأشياء التي يستعملها الفيزيائيون لا يتخيلونها، وإنما يصلون إليها بالحجة يعني لما تقول لي: إن العالم المكان منحنى هو فاضى ومنحنى كيف، أو تقول الأبعاد أربعة لا تتصور أن الأبعاد بدل ما تكون طول وعرض وارتفاع، ومعاه كمان زمان لا تتصور ففرق بين أن لا تستطيع أن تفهم المعنى وبين أن لا تتصوره فنحن في حدود العقل ما دمنا نقول إنه أزلي بالمعنى، وعندما نقول نبدأ بالمحسوس ليس معناه أننا نريد أن نقف عند حدود المحسوس؛ بل نريد أن نقول إن هذا المحسوس نفسه يدلنا على وجود شيء لا نحسه الآن.

وبالمناسبة علماء المسلمين ما كانوا يقولون إن الله غير محسوس ما كانوا يقولون، بل بعضهم يقول هذا التعبير خطأ، نقول لا نحسه الآن لا نراه لكن في الجنة إن شاء الله نراه فهو محسوس، بهذا المعنى يرى في الجنة ﴿ وَنُحْوٍ يَوْمَهُدٍ نَّافِرَةٌ ﴾ (٢٢) وَإِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴿ [القيامة: ٢٢-٢٣]، فحتى بعض علماء المسلمين كشيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنه لا يمكن أن يكون هنالك شيء موجود، ولا يمكن أن يحد إطلاقاً تحت أي ظرف من الظروف، ولأي حي من الأحياء لا يمكن، فنحن لا نقول إن الله غير

محسوس ولكن نقول لا نحسه الآن، ولكن الأشياء التي نحسها هي نفسها تقول لنا إن هنالك شيء، إن هنالك هذا الخالق الذي لا تحسونه الآن أو لا ترونه الآن^(١).

فائدة: هل القرآن كله عن الحقائق الغيبية؟

هذا الكلام ليس بصحيح القرآن فيه كلام عن الجاهلية والعرب وعاداتهم، وفيه كلام عن النبي ﷺ، وفيه كلام عما سيحدث في المستقبل، وفيه كلام عن المطر والرعد والبرق والجبال والأنهار هل هذا كله غيبي؟ ليس غيبي والغيبي حتى لا يفصل فيه كثيرًا، فهذا الكلام أيضًا خطأ؟ عندما قلت إن المعلوم يتغير نعم حتى هذا بالنسبة للقرآن؛ لكن يظل العلم صحيحًا يعني إذا قال القرآن عن فلان الفلاني أنه فعل كذا، وأنه سرق، أليس معنى أنه سرق أنه موجود؟ طيب إذا مات نقول الكلام صحيحًا بحسب هذا الوصف الذي جاء أنه في الوقت الفلاني كان حيًا وسرق الآن مات ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، هذا الكلام يقال للرسول ﷺ وهو حي الآن أصبح تاريخًا، ليس هناك رسول حتى يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وما قاله القرآن الكريم عن منات واللات والعزى، هل نقول لي الآن إن ما في القرآن ليس صحيحًا؛ لأنه ما فيه منات

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٠١).

ولافيه عزي، لأن هو قاله في وقت كانت فيه هذه الأشياء موجودة فما قرره صحيح، لكن الشيء يتكلم عنه الآن لا وجود له؛ وكذلك على فرض وقلت على فرض لاني لا أعتقد أن الأرض ستكون مكعبة، لكن على فرض أن شكل الأرض تغير فصارت مكعبة القول بأن الأرض كرة أو كروية لا يكون باطلاً؛ لأننا قلنا أنها كرة حتى عام كذا إذا بعد ذلك تغير الذي علمناه فنحدث علمًا جديدًا يعني يتمشى مع الأمر الذي جد^(١).

فائدة: أثر الشيعة على الدعوة للإسلام في الغرب:

من أخطار الشيعة التي أرها في العصر الحديث أنها شقت وأحدثت فتنة بين الدعوة المسلمين، كنا نذهب إلى البلاد فنجد أن العاملين للإسلام من الشباب كلمتهم واحدة، وجماعتهم واحدة، ثم جاء الشيعة فأحدثوا بينهم خلافات، وبعضهم صاروا متحمسين لإيران فأحدثوا خلافات وأثروا في بعض المسلمين الجدد فتنة، أنت تمنعهم وتكلمهم عن الإسلام عن أصول الإسلام والتوحيد، فيأتونه ويعطونه كتاب عن الأئمة الاثني عشر، فأحدثوا بعض الفتن فأرجو أن يكون لكم معرفة حتى لو لم تكن محاضرة هنا، أنا رأيت في قائمة الكتب كتاب عن الشيعة والسنة، على الأقل هذا الكتاب اقتنوه وهنالك في المكتبات كتب في هذا

(١) المحاضرة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٠١).

الموضوع، لكن من أراد منكم أن تكون له حجة أقوى فليقرأ في كتبهم الحديثة ويقرأ ما يكتبونه في الصحف، ولا تكتفي بما يكتب على سبيل الدعاية؛ لأن الأشياء التي تكتب باللغة العربية تكتب للدعاية فقط، وهناك رسالة جيدة جدًا قرأتها قريبًا للشيخ أبو الحسن الندوي ستجدونها في الغالب في أمريكا، فأرجو أن تطلعوا عليها وهو يناقش كتابًا للخميني مكتوب باللغة الفارسية^(١).

فائدة: سبب التأثر بالأفكار المنحرفة أو انكار بعض الحق الذي يقرره

المخالفون لنا:

إن مما سبب الانحراف في مجادلة الأعداء - كما قلت لكم - أن بعضنا في السابق وفي الحاضر تأثر ببعض أفكارهم، أو أنكر بعض الحق الذي قرره. فما سبب هذا؟ سببه أن كثيرًا من الذين يتصدون لمثل هذه الأفكار لا يكون علمهم بالقرآن والسنة وبأقوال السلف، لا يكون لهم كبير باع في هذه المسائل، ولكنهم أناس طيبون وفضلاء يريدون أن يدافعوا عن الإسلام بقدر ما يستطيعون، فنحن لا نريد أن يتكرر هذا الأمر، وإن كنت أرى أنه قد تكرر أيضًا، فأريد من إخواننا الطلاب المشتغلين بعلوم القرآن والسنة وأقوال السلف وقراءة كتبهم والتبحر فيها، أريد ممن يستطيع منهم أن يلم أيضًا بهذه العلوم المعاصرة وبهذه التحديات العقلية

(١) الحضارة المعاصرة في الميزان، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ضمن برنامج الطلبة المتبعثين للدراسة في خارج المملكة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٦٠١).

التي تواجه المسلمين، وأن يستعمل ذلك السلاح الذي أعطاه الله إياه - سلاح هذه النصوص وأقوال السلف، وسلاح العقل - في دفع هؤلاء الأعداء الصائلين على المسلمين، أما أن نترك الأمر لأناس طيبين مخلصين، لكن علمهم بالكتاب والسنة وبأقوال السلف ضئيل وبضاعتهم فيه مزجاة، فهذا وضع للأمر في غير نصابه.

فأنا رجائي - وإن كانت هذه المحاضرة أفنعت بعضكم بهذا أكون قد نجحت وتحقق هدفي - أريد من بعضكم على الأقل أن يهتم بهذه المسائل وألا يعيش فقط مع كتب هؤلاء السلف؛ ولأن هؤلاء السلف واجهوا أفكارًا في عصرهم وردوا عليها، فنحن نستفيد من ردودهم.

وأنا أقول لكم: أنا درست الفلسفة، وإن كثيرًا من نقدي للفلاسفة وردودي عليهم استفدتها من كلام هؤلاء العلماء، ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية أكثر مما استفدت من مجرد تفكيري، وبمجرد استنباطاتي الخاصة. فأريدكم أن تجمعوا بين هذا وذاك، فما ينبغي أن يصول الفكر الشيوعي ويتناول على المسلمين ولا يجد من يرد عليه ردًا قويًا مفحمًا ردًا عقليًا ونقليًا، لا يجوز أن يتناول الماديون من غير الشيوعيين أيضًا، ولا يجوز أن يتناول الغربيون وأن يتناول الملحدون، هذا العصر سمي بعصر الإلحاد؛ لأنه العصر الذي شاع فيه الإلحاد وراج كما لم يَرُج في عصر من العصور السابقة، ونحن مسؤولون، نحن الذين حبانا الله سبحانه وتعالى بهذه الهداية بالقرآن الكريم الذي هو هدى للقلوب، وهدى للعقول، وهدى للفكر، وهدى للسلوك.

نحن -الذين حبانا الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الهدية الثمينة-، هذا هو واجبنا هو واجب لن نستطيع القيام به من لم يتصل بهذه العلوم، لن نستطيع القيام به من كان نصرانياً أو كان يهودياً أو كان بودياً^(١).

فائدة، المنهج السليم في مجادلة أهل الباطل،

ينبغي أن نحذر في مجادلتنا لأهل الباطل من أن نأخذ عنهم بعض باطلهم، أو أن نرد بعض حقهم؛ فيضعف موقفنا أمامهم، ليس هذا فحسب، بل إن أخذ ذلك الباطل ورد ذلك الحق يعود فيؤثر في فهمنا للدين أثرًا سيئًا جدًا. وكلا الأمرين حدثا في تاريخ الإسلام.

أكرر هذه المسألة مرة أخرى، إنك حين تحاول أن ترد على الكفار والمنحرفين تقرأ حججهم لأنك تريد أن ترد عليها، فاحذر من أن تتأثر ببعض القواعد والأصول التي يؤصلونها، فهذا يكون انحرافاً، واحذر أيضًا من أن ترد بعض الحق الذي يقولون به فيسبب لك هذا أيضًا انحرافاً. كيف يحدث هذا الانحراف؟

يقول الإنسان لنفسه ويعتقد وهو محق في اعتقاده: أن هؤلاء ما داموا كفارًا فهم على باطل. لكنه يستنتج من هذا نتيجة ليست بصحيحة، فيظن أن كل ما قالوا هو إما من أسس باطلهم أو من لوازم باطلهم، وهذا ليس بصحيح، فالإنسان قد

(١) علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٧٦٥).

يلتزم مذهباً باطلاً ولكنه في داخل هذا المذهب يقول بعض الحق ويقرر بعض الحقائق، فلا تذهب في ردك لباطله وتبالغ حتى ترد بعض الحق الذي قال به.

قلت لكم: إن هذا حدث في تاريخ الإسلام، كلا الانحرافين حدث. مثلاً: الجهمية، يقول الإمام أحمد في كتابه المشهور الرد على الجهمية -يقول كلاماً فحواه- أن سبب ضلال الجهم أنه التقى جماعة من الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق، أظن اسمهم السمنية، فقالوا له: ما هذا الرب الذي تعبد به؟ هل رأيت به عينك؟ قال: لا. سمعته بأذنك؟ قال: لا. شممت رائحته؟ قال: لا. ذقته؟ قال: لا. لمستته؟ قال: لا. قالوا: إذا أنت تتحدث عن لا شيء. إذا كان الشيء لا يعرف بهذه الحواس الخمس، فإذا هو ليس موجوداً، ولا وجود له، فتحير مدة من الزمان ثم جاءهم وقال لهم: وجدت الرد عليكم. قالوا له: ماذا؟ قال: هل لكم عقول؟ قالوا: نعم. قال لهم: رأيتموها بأعينكم؟ قالوا: لا. شممتموها؟ لا سمعتموها؟ لا. وهكذا كل الأسئلة التي سألوها إياها عن الله سألوهم إياها عن العقول فأفحمهم، لكن هذا كان بداية شر عظيم عليه وعلى المسلمين. كيف؟

تلاحظون أنه هنا مثل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْعَقْلُ، والعقل عرض، العقل ليس شيئاً موجوداً في الخارج، وإنما هو عرض، فالتزم إذن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو شيء كالعقل، فالتزم لوازم كل هذا التصور، ما دام هو شيء كالعقل، إذن لا يمكن أن يكون في جهة، إذن لا بُدَّ أن تؤول الآيات التي تقول ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وكذا وكذا. ما دام هو كالعقل فلا يمكن أن يوصف بأنه سميعٌ وبصيرٌ وعالمٌ وكذا وكذا؛ لأنه لا يوصف به، أما أن يوصف بأن له يد ووجه وكذا فهذا من

باب أولى. ألم تسمعوا كثيرًا هذه الحجة تتردد الآن؟ كثير من الناس إذا أرادوا أن يردُّوا على الماديين، يقولون لهم كلامًا كهذا الذي كان يقوله الجهم! فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَالْعَقْلِ، اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذات موجودة في الخارج، ليس فكرة، ليس شيئًا ذاتيًا كما يقال في التعبير اليوم، وإنما هو شيء - كما يقال في التعبير اليوم أيضًا - موضوعي هو موجود في الخارج، وإذا كان موجودًا في الخارج فلا بُدَّ له من صفات، لا بُدَّ له من كذا... - كل الكلام الذي قاله أهل السُّنَّة - لكن هذا كان سبب ضلالهم، وأخذَ هذا الكلام كثير، فتأثر بهذا الكلام عقول كبيرة - كما تعرفون -، أبو حامد الغزالي، الفخر الرازي، وقادهم هذا إلى أن يقولوا إن الله ليس داخل العالم ولا خارج العالم ولا كذا وكذا.

فقال لهم العلماء من أهل السنة: ليس هناك إلا العالم وخارج العالم، فإذا لم يكن الشيء داخل العالم ولا خارج العالم فإذن لا وجود له. هذه مسألة عقلية فينبغي إذن أن نحذر من هذا^(١).

فائدة: هل الرد على شبهات أهل الألباح والضللال أمر مشروع؟

هل الانشغال بالرد على مثل هذه الدعاوى أمر مشروع أم أنه تضييع للوقت وانشغال بما لا يفيد؟ كثير من المنتسبين إلى الأديان سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين يرون رأيًا كهذا، يقولون: ينبغي ألا نشتغل بالرد على مثل هذه

(١) علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٦٠١).

الدعاوى، وأن الدين ماضي في طريقه، وأن حجج الدين واضحة لمن أراد أن يطلع عليها فلا ننشغل بالرد عليها.

لكننا نقول: ونحن معشر المسلمين دعاة إلى الخير، والخير أحياناً تحول بينه وبين الإنسان عوائق فكرية -شبهات-، يصعب أن يصل الخير إلى قلب إنسان قامت في ذهنه شبهات، خصوصاً إذا كانت هذه الشبهات متعلقة بالعلم ومتعلقة بالعقل ومتعلقة بالحس، يعني إذا وقر في صدره أن الدين يخالف العقل، يخالف الحس، يخالف العلم، فإذا هو لن يهتدي، ولن يستمع حتى تزول الشبهات، فلذلك لا بُدَّ من إزالة الشبهات هذه حتى نستطيع أن نوصل الخير هذا إلى الناس، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى عندما أمرنا بالدعوة فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال بعد هذا: ﴿وَرَحِدْ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فنحن مأمورون بالدعوة، ومأمورون أيضاً بالمجادلة حين يستدعي الأمر هذه المجادلة.

وعلمائنا كانوا يقولون: إن المجادلة من قبيل الجهاد والدفع عن الإسلام؛ لماذا؟ لأن صاحب الشبهة أو صاحب البدعة قد يستطيل بها على الناس، وقد يقول: إنه صاحب عقل، وإنه صاحب علم، وأن معارضيهِ -إن كان هو ملحدًا- من المؤمنين أصحاب خرافة أو قومٌ يتبعون عواطفهم وأهواءهم، أما أنا فأتبع المنهج العلمي، وأبحث عن الحقائق، وكذلك إن كان صاحب بدعة اعتبر مخالفه من أهل السنة أيضاً أصحاب عقولٍ ضعيفةٍ وأناسٍ نصيون، لا يفكرون، يحفظون فقط، وهكذا. فإذا لم تجادل، وإذا لم تبين ضعف حجته، وإذا لم تقهره، استطال على

الناس، وهذه الاستطالة تكون حاجزاً ليس بينه هو وبين الدين فقط (بين الدين الصحيح)، ولكن بين كثير من الناس من غير العلماء، ومن الضعفاء الذين قد يتأثرون بمثل هذه الشبهات، فتكون حائلاً بينهم وبين معرفة الحقيقة، فكما أنك تدافع عن ضعفة المسلمين وتصد عنهم عوادي المعتدين بالقوة المادية، فكذلك يجب أن تدافع عن ضعفة المسلمين وتصد عنهم عوادي الفكر والشبهات المخالفة للدين، ولا تدافع فقط عن المسلمين، وإنما تدافع أيضاً عن كل إنسان يريد الحق، أو في قلبه ميلٌ إلى الحق، إذا كانت هذه الشبهات تحول بينه وبين الوصول إلى ذلك الحق. إذن لا بُدَّ من الرد على أصحاب الشبهات^(١).

فائدة: وجود الأدلة والحجج العقلية في القرآن التي تدل على أن الله

سبحانه هو الخالق الواحد الذي يستحق العبادة وحده دون سواه وأن محمداً ﷺ رسول الله :

القرآن مليء بالحجج العقلية البينة الصادقة يقول تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]، في القرآن الكريم إذا كان هناك سؤال استنكاري فمعناه ينبغي أن تعرفوه بعقولكم، معنى هذه الحجج القرآنية أن أي شيء إما أن تقول إنه جاء من العدم ما خلقه شيء ولا أثبت شيء كان قبله، وهو عدم وفجأة جاء هل يقول هذا عاقل؟ الآن من المبادئ التي تبنى عليها العلوم الطبيعية أنهم يقولون

(١) علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٦٠١).

لا يأتي شيء من لا شيء، هذه الحجة وهذا الكلام كلام صحيح من وهو مقتضى العقل وتبنى عليه العلوم فهو الذي يبنى عليه الدين.

فإذا نقول هذا لا بُدَّ منه أم هم الخالقون هو الذي خلق نفسه مثلاً، أنا أقول ما جئت من العدم أنا خلقت نفسي، لكي أخلق نفسي لا بُدَّ من أن أكون موجوداً، إذا كنت موجوداً لا أحتاج أن أخلق نفسي فالذي يقون إن الشيء خلق نفسه يفترضه موجوداً ويفترضه معدوماً في نفس الوقت، هذه الدعوى التي الآن أنتم ضحكتم بأنها غير معقولة، قال بها بعض كبار المفكرين أعني بذلك ماركس.

وأنا سأقول لكم كلام ماركس بشيء من التفصيل، ماركس قال عنده كتاب اسمه (المخطوطات الفلسفية والاقتصادية لعام ١٨٨٤ م) بهذا الكتاب ماركس يقول الإنسان خلق نفسه، ثم يلعب بالألفاظ كيف خلق نفسه، يقول الإنسان أوجده إنساناً حتى نفرض أنه خلقه إنساناً، هل هو خلق نفسه؟ كأنه يقول خلقه إنساناً غيره، ولكنه يلعب بالألفاظ، يقول: قال لا تسألني من أين جاء الإنسان الأول، لماذا لا نسألك قال: لأنك إذا قلت من أين جاء هذا فأنت تفترضه غير موجود، وإذا كان هو غير موجود فأنت غير موجود، وإذا أنت كنت غير موجود لا تستطيع أن تسأل، فأنا قلت للطلاب هذا كإنسان مثلاً حدث له حادث، وجد نفسه في غرفة العملية بالمستشفى، ووجد الأطباء حوله فقال للأطباء: كيف جئت أنا؟ فقال له الطبيب: لا تسأل هذا السؤال؛ لأنك إذا قلت من أين جئت هنا تفترض أنك لست هنا، وإذا لم تكن هنا لا تستطيع أن تسأل هذه حجة ماركس في إلحاده.

وأنتم تعرفون أن إلحاد ماركس انتشر في أوروبا وفي العالم هذه هي الحججة التي بنى عليها كلامه، وهي حججة ذكرها القرآن الكريم السؤال الواحد وتكلم عنها كثير من العلماء المسلمين وقال مستحيل عقلاً، الآن القرآن الكريم كأنه يقول إذا كان لا يمكن أن يأتي من العدم، وإذا كان لا يمكن أن يخلق نفسه فلا بُدَّ أنه خلقه غيره وهذا الذي خلقه لا يمكن أن يكون مثله؛ لأنه إذا كان مثله يحتاج أيضًا إلى لمن يخلقه.

ولذلك قال الله تعالى أن الله ليس كمثله شيء والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ الْأَزْلِيُّ الَّذِي لَا بَدَايَةَ لَهُ وَالْأَبَدِيُّ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ، هذا دليل عقلي من القرآن، يأتي واحد يقولن اقتنعنا أنه خالق فلماذا يكون واحدًا هذا الخالق، لماذا لا يكون خالقان. هناك في القرآن الكريم آية فيها دليل على هذا وعلى هذا بنصه، ولكننا نركز على هذا الجانب، يعني السموات والأرض لو كان يعبد فيهما إله غير الله لفسدنا.

فنحن نركز الآن على أن الخالق لا بُدَّ أن يكون واحدًا، لنفرض أن هذا هو الكون العظيم وهذا خلقه، هذا الجهاز وهذا خلقه، هذا الجهاز يعني مثلًا الشمس خلقها رب، والأرض خلقها رب، هذا يقول أنا أريد اليوم أن تشرق إذا اختلفوا فسدت الكون، إذا اتفقوا قال العلماء معناها أن كل واحد منهم ما أصبح له السيطرة الكاملة على مخلوقاته إلا بموافقة الآخر. فأصبح هذا ناقص وهذا ناقص ولذلك لا بُدَّ أن يكون إله حقيقي، هذه الحجج حجج منطقية.

الآن نأتي إلى حججة عقلية خُلُقِيَّة، إذا ماهي العبادة؟ العبادة شكر من الذي

يشكر الذي قلنا أحسن إليك، إذا اعتبرنا أن الله هو الذي أحسن إليك فإذا نشكره، فإذا نشكره إذا كان هو المحسن الوحيد فهو الذي يعبد، أما إذا كنت أنا أعبد غيره ولا أعبده فكأنك مثلاً أنا أعطيتك هدية بدل ما تقول لي شكراً، قلت لهذا شكراً، أنا أقول أنا أعطيتك هذه الهدية هذا حال الذي يعبدون غير الله ما عندهم عقل، والذي يقول والبعض يقولون شكراً لله وشكراً لهذا، فالذي يعبد الله ويعبد شيء آخر مع الله كأنه شكر الله على ما أعطاه وشكر هذا على ما أعطاه، فلذلك لا يشكر أحد غير الله شكراً أصلياً، وإنما إذا شكر الناس يشكرون شكراً فرعياً أن هذه النعمة من الله، ولكن جعل هذا وسيلة إليه هذا بالنسبة للشكر.

لكن قالوا في تعريف العبادة أنها غاية الحب مع غاية الخوف؛ وكذلك عندنا أدلة كثيرة على أن محمداً رسول الله ﷺ جاء بالقرآن، وهذا القرآن كلام أوحاه الله إليه ليهدي به الناس، هل تتذكرون أن المسلمين هم الأمة الوحيدة بالعالم التي تقول كتابها هو كلام الله، علماء اليهود وعلماء النصارى يعرفون متى كتبت كتبهم، ويعرفون أنها كتبها بشر، إذا علمائهم لا يقولون إنها كلام الله.

عند المسلمين العالم والجاهل والصغير والكبير يقولون أن القرآن كلام الله، وكلما ازداد الإنسان علم بالقرآن ومعرفة بالرسول ازداد يقين بأن القرآن كلام الله، وهم كلما ازدادوا معرفتهم بكتبهم ودرسوها دراسة عميقة وعرفوا تاريخها كلما ازداد شكهم بأن هذا كلام الله، فالعلم عندهم يزيد الشك والعلم عندنا يزيد اليقين.

نرجع الآن دليلنا أن القرآن هو كلام الله إذا آمننا بأن الله تعالى هو الخالق، وهو الذي أنعم علينا بهذه النعم التي نحتاج إليها في أبداننا، ونحن نعلم أننا لسنا أبداناً

فقط، وإنما نحن أيضًا روح وعقول، ونحن نحتاج كما أننا نحتاج للأكل والشراب نحتاج كيف نتعامل مع بعضنا؟ كيف ننظم حياتنا الاجتماعية؟ كيف نحدد العلاقة بين النساء والرجال؟ كيف يكون تنظيمنا في الجانب السياسي؟

فالإله الذي أعطانا كل ما نحتاج إليه من الناحية المادية لا يعطينا ما نحتاج إليه من الناحية الروحية، إذا بالعقل فقط نقول إن هذا الإله لا بُدَّ أن يرسل لنا رسولاً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِّنْ سَمَوَاتٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، يعني الذي يقول ما أوحى الله إلى بشر أبدًا ما قدر الله هذا معناه أن الإنسان إذا عرف الله فبعقله أن هذا الإله لا بُدَّ أن يرسل رُسلًا، ولا بُدَّ أن يرسل رسالة لنفرض أن إنسان جلس وفكر وعرف أن للكون خالق واحد، وأن هذا الخالق الواحد هو الذي ينبغي أن يعبد، وقال: أنا أريد أن أعيش نهاية الحياة بطريقة ترضي هذا الإله، فأين أجد هذا الإله يذهب إلى النصراني؟ ويقولون له هذا كتاب مقدس، يقول لهم هل هو كلام الرسول، يقولون: لا، هل هو كلام الله؟ يقولون: هو كلام كتبه بعض المؤمنين بعيسى، فيقول إذا أنتم لستم متأكدين أنه هو كلام الله ويذهب إلى اليهود، ويقولون له نفس الكلام، ويذهب إلى البوذيين ويقولون نفس الكلام، ويذهب إلى المسلمين ويقولون نعم هذا القرآن كلام الله.

إذا كان عاقلاً حتى قبل أن ينظر إلى القرآن يقول في نفسه: ما دامت أنا أفتنعت أن الله لا بُدَّ أن يرسل رسالة، وما دام أن ما في أحد بالدنيا ادعى أن ما عنده هو رسالة الله إلا هؤلاء المسلمين، إذاً هذا لا بُدَّ أن يكون حق، لكن بعد هذا يأتي ويقرأ القرآن ويجد في القرآن أدلة على أنه لا يمكن أن يكون كلام البشر مثلاً القرآن نفسه يعطينا

مقاييس عقلية، يقول قيسوني بها لكي تعرفوا أني كلام الله وإلا بأني لست كلام الله، هذا القرآن كلام الله أم ليس كلام الله، فلو كان من عندي غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

الاختلاف والتناقض يناقض العقل وأن الكلام المتناقض كلام باطل، فالله هنا يقول لنا لا يمكن لأي مخلوق بشر ولا غير البشر أن يكتب كتاباً، أو يقول كلام بحجم هذا القرآن، ولا يقع فيه اختلاف فعدم وجود الاختلاف فيه يدل على أنه من عند الله.

الآن أريد أن أفصل لكم بعض الشيء، الإنسان إذا قال كلام قليلاً في وقت قصير يمكن أن لا يقع فيه خطأ، كلما كثر الكلام زاد احتمال التناقض، كلما طالت المدة زاد احتمال التناقض، مثلاً لو إنسان يكتب عموداً في صحيفة يكتب هذا العمود ويراجعه، وقد لا يكون فيه تناقض، لكن يكتبه اليوم ويراجعه لمدة أسبوع ويستمر إلى عشر سنوات، هو نفسه إذا جاء وراجع ما كتبه يضحك على نفسه يقول: كيف أنا قلت هذا، وقلت هذا فيه تناقض، وإذا كان الموضوع واحداً قد يقل التناقض، إذا تعددت الموضوعات زاد احتمال التناقض والأخطاء، إذا كان يكتب في السياسة فقط يقل احتمال الاختلاف، إذا كان يكتب في السياسة، ومرة يكتب هذا العمود في الاقتصاد، ومرة في علم النفس، ومرة في الأخلاق، ومرة في العبادات، عاد احتمال الاختلاف يزداد ونحن هذا في كتابات وفلسفة ماركس، هدفه السياسي أن يحرر الناس لكن نظامه الاقتصادي جعل الناس عبيداً.

فالبشر أحياناً يكون له أهداف سياسية واعتقاداته الاقتصادية تتناقض مع

أهدافه السياسية وتصرفه في السياسة تتناقض مع مبادئه الخلقية، والقرآن فيه كل هذه الأشياء فيه السياسية والدين والأخلاق والعبادات، ثم إن القرآن نزل على النبي ﷺ في ٢٣ عامًا، كل هذا ما وجدنا فيه اختلاف هذا مستحيل أن يحدث في كتاب من صنع البشر.

والدليل على أن القرآن كلام الله أنه منذ أن نزل القرآن إلى الآن من ١٤٠٠ سنة، وتطور العلوم تطور هائلًا، وما وجدنا في كل ما اكتشفناه يناقض ما قاله القرآن، وهذا لا ينطبق على أي كتاب بالدنيا غير القرآن، كل الكتب التي كُتبت مما قبل القرآن أو في زمن القرآن أو بعد القرآن بل إلى ما قبل ١٠٠ عام أو ٥٠ عام، سواء في السياسة أو في غيرها كل ما تطور العلم نجد فيها أخطاءً، هذه بعض الحجج العقلية.

وهناك في العقيدة لا بُدَّ أن اقتنع أن لا إله إلا الله وإن محمدًا رسول الله. وإن القرآن كلام الله بهذه الحجج بعد أن اقتنعت نقول له: أنت عرفت أن هذا كلام الله، إذاً هو حق، إذاً تلتزم به، تستمسك به، ولا نقل لماذا قال القرآن كذا؟ لماذا قال الرسول كذا؟ إلا على سبيل الفهم، لكن لا تسأل سؤال اعتراض ولا تقول أنا ما أفعل هذا ولا أصدق، إلا من بعد أن يعطوني حجة، تكفيك الحجة الأساسية أنك اقتنعت بأن هذا كلام الله، ولا أن الله يقول إلا بحق، ولا يأمرنا إلا بما هو خير، ولا ينهانا إلا بما هو شر، فتروض نفسك بعد هذا على أن تقبل هذا الحق ولا تقدم عليه أي كلام آخر، لا تقدم عليه كلام البشر، ولا تقدم عليه العادات التي تأصلت في بلدك، ولا تقدم عليه الموضوعات والمسائل الفكرية.

وأرجع مرة أخرى إلى المثال، إذا كان كل الناس بسبب الحضارة الغربية يعتقدون أن الزواج من امرأتين أسوأ من الزنا، فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تعتقد هذا، يمكن للمرأة المسلمة أن تقول لزوجها أنا لا أريد أن تتزوج مرة أخرى، لكن إذا قالت أنا من رأي أن الرجل لا يتزوج إلا واحدة، تكون قد ناقضت كلام الله، ويكون هذا كفر، فلا بُدَّ أن نفرق بين آرائنا وبين أن نكون مشرعين شرعاً مخالفاً شرع الله^(١).

فاحدة: لا يقال أن الإنسان إذا قال كلاماً بدوافع سيئة أن كلامه خطأ فصواب الكلام وخطأه لا علاقة له بمقاصد القائل ودوافعه:

إذا قال الإنسان كلاماً ولكن قاله بدوافع سيئة أو أن هذا الكلام يقوله بعصية، فهل نقول إن هذا الكلام خطأ أو نقول صواب، يعني كونه خطأ أو صواب لا علاقة له بدوافع الشخص الذي قاله، وإنما خطؤه وصوابه بالكلام الذي يقوله، كثير من الناس يسلكون في هذا سلوكاً غير عقلياً، يقول أنه إذا بين الدوافع السيئة فقد أقام الدليل على أن الكلام خطأ، مثلاً يقول هذا الكلام كلام تقوله الصهيونية أو الماسونية أو الرأسمالية أو الشيوعية، إذا هذا خطأ، القرآن يعلمنا أو لا أن الكلام خطأ، إذا كان خطأ ثم يبين أن دوافع الشخص سيئة أو نقول إن الكلام هذا صحيح، ولكن هذا الذي قاله ما قاله؛ لأنه صحيح، فلا بُدَّ من الأمرين معاً.

(١) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٣٧).

أحياناً أيضاً من عدم العقل أن بعض الناس يكرهون الحق؛ لأنه جاء من شخص يكرهونه هذا مختلف عن الأول، أو يكرهون الحق إذا كان في مصلحة من يكرهونه مثلاً، إذا قلت هذا الكلام الحق سيستفيد منه العدو فأنا أغيره، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ۭٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨]، هذا شيء يقتضيه العقل لكن كما قلنا ما كل شيء يقتضيه العقل يستطيعه كل الناس، فالإيمان يعطينا قوة على أن نقبل مقتضيات العقل^(١).

فائدة: وجود الحق في مذهب أو قول ليس مسوغاً لقبول الباطل في

بقية كلام القائل أو مذهبه:

من الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أنه يجد في بعض المذاهب أو عند بعض الناس كلاماً حقاً، يعجبه هذا الكلام فيؤمن بقية الكلام كله، وهذا كان من أكثر الأسباب التي انتشرت به الشيوعية في العالم، يأتي الشيوعي مثلاً يقول نحن ندعوا إلى إنقاذ العمال وهو يرى أن هذا الكلام معقول، ولكنه بسبب هذا الذي أقتنع به يقبل النظرية الشيوعية كلها، أذكر أني قلت لأحد زملائي كان شيعياً، قلت له: إن كارل ماركس ألحد قبل أن يضع النظرية الماركسية، فقلت له: إنه ألحد وعمره سبعة عشر سنة، وقلت له: إن إلحاده لا علاقة له بالإشتركية، فقال: كنت أقول في

(١) الصحيح العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس

(سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،

١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٣٧).

نفسي إذا قلت نصف العمال، أقول ما فيه إله ولكنني قبلت هذا ثمنًا لهذا، أو إنسان يسمع الخميني يقول كلام إن أمريكا ظالمة وعلينا نصره المظلومين بالعالم، ولا بُد من نصر الثورة هذا الكلام يعجبه، ويقبل المذهب الشيعي، مع أن المذهب الشيعي فيه أشياء باطلة؛ لأنه ما من مذهب مهما كان ضالًا إلا وبه بعض الحقائق، هل كل ما تقوله الكاثوليكية باطل؟ لا، هل ما يقوله الماركسية باطل؟ لا، فالإنسان لا يقبل المذهب كله؛ لأنه أعجبه أحيانًا^(١).

فائدة: لا يجوز للمسلم أن ينسب كلامًا لمن كان معاديًا ثم يقله ويظن أن هذا من نصره الدين والدفاع عنه:

من عدم العقل، الإنسان إذا رأى إنسانًا شرييرًا أو معاديًا للدين ينسب إليه كلامًا لا يقوله هذا الشرير، ويظن إن هذا من الدفاع على الدين، هذا قريب من المثل الذي قلناه أن اعدلوا ولو كان ذا قربي، فينبغي للإنسان العاقل لاسيما إذا كان مسلمًا أن لا ينسب إلى الناس حتى ولو كانوا أعداء للدين لا ينسب إليهم كلامًا لا يقولونه^(٢).

(١) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٣٧).

(٢) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٣٧).

فائدة، وجود الأدلة والحجج العقلية في القرآن على البعث:

إذا قال إنسان ما الدليل على هناك دار بعد البعث، بعد الموت، نقول له:
 أولاً: هل تؤمن بوجود الله، إذا قال: نعم، نقول: إذا نبأ معك بهذا، ونقول:
 نعطيك دليل عقلي من القرآن، يقول تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ السُّلَيْمِينَ كَالْجُرْمِينَ ۗ مَا لَكُمْ
 كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، هل يصح من الخالق الحكيم العادل أن يجعل مصير
 الذين يعملون السيئات مثل مصير الذين يعملون الحسنات؟

لا يمكن إذا لم تكن هناك دار الآخرة كانت الدنيا هذه كلها مبنية على
 لاعقلانية؛ لأن الدنيا لا تصلح إلا ببعض أعمال الخير، ولكن ما كل الذين
 يعملون الخير يجدون جزاءهم في الدنيا، إذا لا بُدَّ من دار آخرة غير هذه الدار
 يجد فيها المحسن جزاء الإحسان، ولا بُدَّ من أن يكون هناك دار آخرة.

بعض الناس سيقولون: نعم، لا بُدَّ لكن كيف يبعث الناس بعد أن يموتوا،
 وكان العرب يأتون إلى النبي ﷺ بعظام لأموات يفتنونها أمامه ويقولون: كيف
 هذا يبعث؟ هل تعرفون الإجابة على هذا السؤال من القرآن، إذا كان هو خلقها
 وما كانت موجودة ما يستطيع أن يخلقها الذي يخلق أول مرة، هل ما يستطيع أن
 يخلق ثاني مرة؟

إذا الدليل من القرآن أن البعث ممكن وليس مستحيلاً عقلاً، وأنه مقدور الله
 يقدر على ذلك، وأن صفات الله ورحمته وعدله يقتضي أن يكون هناك بعث إذا
 لا بُدَّ من بعث، وفي القرآن الكريم أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى يحيي الأرض بعد موتها، فالذي

يحي الأرض بعد موتها يستطيع أن يحي البشر بعد موته^(١).

فائدة: عقائد الشيعة وعلاقتها بالكتاب والسنة:

نريد أن نأخذ بعض الأمثلة من عقائد الشيعة ونرى هل لها دليل من الكتاب والسنة أم لا؟ هل تعرفون بعض العقائد التي عليها الشيعة؟ يقولون إن الأئمة معصومون، ما معنى العصمة؟

إن كل كلام يقوله الواحد من هؤلاء لا بد أن يكون صحيحًا، وإذا قلنا إن هذا كلامه صحيح أن هؤلاء الأئمة صاروا مثل الرسول ﷺ؛ لأن الإنسان إذا كان معصومًا كلامه صحيح دائمًا، والرسول دائمًا كلامه صحيح، فأصبح ما فيه فرق بين الرسول وبين الأئمة صاروا من الناحية العملية بدل من أن يقولوا لا إله إلا الله وإن محمدًا رسول الله كأنهم يقولوا لا إله إلا الله وإن محمدًا وعليًا وكذا وكذا رسول الله.

ونحن عندنا دليل على أن المعصوم هو النبي ﷺ فقط مثلًا قال تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ما قال هذا عن أحد غير الرسول، وقال تعالى عن الرسول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]، والله قال: ﴿بِآيَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، يعني لا تجعلوا أي كلام غير كلام الله والرسول مقدم على كلام الله

(١) انحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والنهرسك، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كتوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٨٣٧).

وكلام الرسول، والمسلمون الصحابة أجمعوا أن كل إنسان بعد الرسول يخطئ ويصيب.

عندنا أدلة كثيرة على أن المعصوم هو الرسول ﷺ، إذا قال الإنسان أنه هناك يوجد من هو معصوم غير الرسول فلا بُدَّ من دليل، ثم إذا كان هؤلاء جميعاً معصومون فلا بُدَّ أن يكون كلامهم جميعاً صحيحاً، وإذا كان كله صحيحاً لا يمكن أن يكون فيه تناقض، لكننا نجد فيما ينسبونه إلى الأئمة كلاماً متناقضاً، هذا يقول كلاماً وهذا يقول كلاماً مخالفاً بل أحياناً ينسبون إلى الإمام الواحد كلاماً متناقضاً، التقيهِ أنا في رأيي من السهل أن أناقش شيوخاً ولا أناقش شيعياً؛ لأن الشيوعي عنده كتب يعترف بأن هذه كتب الشيوعية، وإذا قلت له: كارل ماركس كان يقول كذا ويقول انجلز كذا يقول: نعم، الشيعي بسبب هذا المبدأ الذي عنده (التقيهِ) إذا رأى الناس أغلبهم من أهل السنة يقول أنا موافق يُقر، الشيعي بسبب التقيهِ ينكر ما يعتقده، فإذا صعب أناقشه أمام الناس تقول له: فلان وفلان، يقولون: كذا، يقول: لا أنا، لا أقول وإذا كان الجو مناسب معه نقول له: أنتم تقولون كذا، يقول: نعم، نقول وهذا معناه أن المذهب كله مبني على إباحة الكذب، والكذب هو أبعد ما يكون عن الدين.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وأن المؤمن ممكن أن يزني وممكن أن يشرب الخمر، ولكنه لا يمكن أن يكون كذاباً يعتاد الكذب؛ لأن صفة الكذب

تتناقض مع الدين، فهذا هو أيضًا مبدأ ما له علاقة بالدين، مثلًا من أشياء المتعة عند الشيعة هي أسوأ من اتخاذ الخليلات بنظام الخليلات، الإنسان يكون له صديقة واحدة دائمًا، ولكن في نظام المتعة يمكن أن يذهب إلى امرأة ويقول أنا أتزوجك ثلاثة أيام، ويعطيها شيء يسير من المال ولا يكون لها حق عليه أبدًا غير هذا الذي أعطاه، حتى إذا ولدت منه ولد لا يرثه.

فالشيعة ينام اليوم مع هذه المرأة، واليوم الثاني مع امرأة ثانيه، واليوم الذي بعد مع ثالثة وهكذا، حتى قالوا ولو مع الأب كله جائز، لو كان المسلمون يفعلون هذا لانتشر الإيلز بين المسلمين من عشرة قرون، لكن الله سلم. لو كان كل دين الشيعة صحيحًا إلا هذا الذي قلناه فصحة ذلك لا تسوغ قبول هذا الباطل، وهم أنفسهم لا يعدونك شيعيًا إذا ما قبلت هذا الباطل، ومثل ما قلت لك حتى الماركسية والكاثوليكية فيها أشياء صحيحة.

الإيرانيون الآن لا يقولون هذا فقط بل يفعلونه، أنا أعرف بعض البنات المسلمات اللاتي يدرسن في أمريكا وكنا من أهل السنة، وبعد الثورة صرن من الشيعة، فصرن يمارسن المتعة. وأفرض أن دوافعي سيئة فهل هذا الكلام الذي قلته على الشيعة صحيح أم لا؟ إذا كنت لا تصدقني لا تقول إن كلامنا خطأ ربما يكون خطأ، وربما يكون صحيح، وأذهب وأبحث في كتبهم، إن من عقائدهم أنهم يقولون إن كل الصحابة ارتدوا وكفر ماعدا أربعة، أكثر من يكرهون من الصحابة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وأبو بكر وعمر كانا أقرب صحابين إلى رسول الله ﷺ، ويتحدثون عن عائشة وهي زوجة الرسول ﷺ، أنا لا أرضى إن أحد يتحدث عن زوجتي، ولا أحد منكم يرضى أن أتحدث عن زوجته، وهل يرضى الرسول ﷺ أن يتحدث عن زوجته ويتهمها، الرسول ﷺ مات بين يدي عائشة فهل هذه تكون امرأة فاسدة، الذي يطعن في عائشة ويطعن في أصدقاء الرسول كأنه يطعن في الرسول ﷺ، إذا كان لي أصدقاء وصادقتهم لمدة عشر سنوات وجاء إنسان وقال لي: أنت رجل طيب وكذا، وأصدقائك كلهم فاسدون، وهذا يتهمني بأحد أمرين إما أنه يقول أنني أعرفهم ولا أقول بهذا، أو أنني مغفل وأجلس معهم عشر سنوات وأعاشهم ولا أعرفهم، هل يمكن الرسول ﷺ يكون كذلك، ولذلك بعض العلماء يقول إن الذي يطعن في أبي بكر وعمر أو أنه يطعن في عائشة فهو كافر؛ لأن القرآن برأها والذي يتهمها يكذب القرآن، وأما بالنسبة لأبي بكر وعمر؛ لأن هؤلاء كانا أحب الناس إلى الرسول الله ﷺ من أصحابه، وكان الرسول يحبهم، فهذا طعن في الرسول ﷺ وإذا كان كل الصحابة ضالين إلا أربعة، من أين عرفنا هذا الدين؟

بعض الشيعة قالوا إن هذا القرآن غير صحيح، من الذي نقله إليك هؤلاء الأربعة فقط، ولذلك بعض الشيعة قالوا هذا القرآن ليس بصحيح، قالوها أو ما قالوا سوف ينتج عن كلامه يعني إذا كان الصحابة كذابين ويفترون على الرسول ﷺ، يقولون أن الرسول قال: علي هو الخليفة ويعارضونه ويتآمرون ويجعلون أبو بكر الخليفة الذي يفعل هذا لا يؤمن على نقل القرآن، فينتج من اعتقاد الشيعة هذا إن الإسلام انتهى منذ وفاة الرسول ﷺ.

ولذلك اخترعوا ديننا من عندهم لا على كتاب الله ولا على سنة نبيه، لكن مع الأسف في الواقع يسمون أنفسهم مسلمين ويفعلون بعض الأشياء الإسلامية، ويفعلون بعض الأشياء الإسلامية ويضعون بعض العبارات الإسلامية، ويسمون أنفسهم جميعاً من مسلمين، بل بعض الناس مع الأسف يقول إنهم مثل أهل السنة أو أحسن، ولكن لنفترض أن فعلاً الثورة الإيرانية حركة المسلمين، لنفرض هذا سنقول إن هذا ولكنه لا يسوغ الجوانب السيئة، بل إن هذا شيء عرضي والأصل هو الفساد؛ لأنه أحياناً الناس يتحركون حتى بسبب بعض الآراء والحركات الباطلة، فهل نقول إن هذه حركة المسلمين معناها أنها صحيحة، لا تقيسوا الشيعة بمجرد الشعارات الشيعة مذهب له عقائد وله كتب وله رجال ينشرون هذا المذهب في العالم، ولا نقول؛ لأن هؤلاء يتكلمون ضد أمريكا معناها أن كلامهم صحيح أكثر من كان يتكلمون ضد أمريكا، ويخرج في مظاهرات ويقف حاجزاً دون سيطرتها على بعض البلاد كانت الشيوعية في أسوأ حالتها، ولذلك كثير من الناس في العالم ما رضوا سقوط الشيوعية، قالوا هذا سيخلق جو لأمريكا، فهل نقول إن الشيوعية حسنة؛ لأنها تعادي أمريكا؟^(١).

(١) الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والنهرسك. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،

فائدة: أهمية معرفة اللغة في المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق

الدين الإسلامي:

إذا كان المصدر الأساس للعلوم الطبيعية موجودات محسوسة، فإن المصدر الأساس للعلوم الشرعية النقلية نصوص مقروءة. ومن البديهي أن أول شرط لمعرفة ما يتضمنه النص المقروء - أي نص كان - هو معرفة اللغة التي كتب بها. وأول حقيقة يديها الناظر في القرآن الكريم - إذا كان على علم بشيء من العربية - أنه مصوغ بلسان عربي، فإذا ما بدأ يقرأ فيه وجد في الكتاب نفسه آيات تؤكد على هذه الحقيقة.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٣٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ اعْتَكَبَتْ مَوَاطِنَ آلِهَتِهِمْ فَأْتَاهَا قُرْآنًا عَرَبِيًّا يَرْجُو تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣]. لكن اللغات يحدث فيها على مر الزمان تغيير قد يكون كبيراً وقد يكون قليلاً. فالبون شاسع بين اللغة اليونانية التي كتبت بها نصوص فلاسفة اليونان المشهورين، وبين اللغة التي يتحدثها اليونانيون اليوم، بل إن هنالك اختلافاً غير قليل بين اللغة الإنجليزية التي كتب بها شكسبير شعره في القرن السادس عشر الميلادي، وبين اللغة التي يتحدثها الإنجليز في القرن العشرين. لا يكفي إذن لمن يريد معرفة المعنى الحقيقي لنص ما أن يعلم نوع اللغة التي كتب بها، بل لا بُدَّ أن يكون على علم بهذه اللغة كما كانت تفهم في الزمان والمكان الذي كتب فيه النص. وإلا فهو قمين أن يفهمه على غير مراد من تكلم به،

إذا أعطى بعض كلماته أو بعض تعبيراته معاني طرأت عليها بعد العصر الذي كتبت فيه. إن الالتزام بهذه القاعدة المنهجية يستدعي:

أ) إعطاء المفردات الواردة في القرآن والسنة المعاني التي كانت تعرفها العرب منها في زمن الرسالة. هذا كما قلنا هو تطبيق للقاعدة البديهية التي يلتزم بها كل من يريد فهم نص من النصوص، أيًا كانت لغته، وأيًا كان قائله. لكن أصحاب المعتقدات الباطلة وجدوها قيدًا مانعًا لهم عن تحريف كلام الله وكلام رسوله، فاطرحوها جانبًا حتى يفتروا على الله ما شاءوا فممن أمثلة ذلك:

- إن الذين جعلوا دينهم بغض أصحاب رسول الله ﷺ، وأقرب الناس إليه، قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]؟ أي عائشة. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤]؟ أي أبا بكر وعمر. والذين اعتقدوا في وحدة الوجود، فلم يفرقوا بين خالق ومخلوق، قالوا: صح قول فرعون ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] (١)، وقرؤوا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

فقالوا في تفسيره: قالوا هذا عارض ممطرا، أحسنوا الظن بالله. ريح هي الراحة عذاب أليم هو عين النعيم. تدمر كل شيء من الذنوب. إلا مساكنهم: قلوبهم (٢).

(١) ابن العربي، النصوص.

(٢) المرجع السابق.

والفلاسفة ترجموا كلمة فيلوسوفوس اليونانية بعبارة -حب الحكمة، ثم استدلوا بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، على أن القرآن يمدح الفلسفة، والذين جعلوا الله تعالى شيئًا مجردًا كالعقل، فأنكروا لذلك أن يوصف بأي صفة توصف بها الموجودات، راحوا يؤولون كل صفات الله الدالة على كونه موجودًا وجودًا حقيقيًا خارجًا عن الأذهان، بأن يعطوا اللفظ معنى لا تدل عليه اللغة أصلًا، أو معنى تدل عليه في غير السياق الذي وردت فيه الآية، أو بشروط لم تتوفر في السياق. فقالوا في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أي: استولى، وفي قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، أي: جرح قلبه بالحكم والمعارف تجريحًا^(١). وفي قوله لما خلقت بيدي أي بقدرتي، وهكذا^(٢).

فائدة، حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ أن المباشر من الكتاب

والسنة،

(أ) أن فهم القرآن يحتاج إلى مهارة في اللغة العربية، لم تعد متيسرة للناس في عصرنا.

(ب) وأنه يحتاج مع ذلك إلى معرفة بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وهي أمور لا يستطيع المتأخر معرفتها معرفة مباشرة من قراءته للقرآن الكريم.

(١) ابن القيم، الصواعق، (ج: ١) (ص: ٢١٧).

(٢) المنهج العلمي الموصول إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٥٣).

ج) وأن الأحاديث النبوية من الكثرة بحيث لا يمكن للمتأخرين أن يحيطوا بها، مع أن الإحاطة بها مهمة لمعرفة الأحكام المتعلقة بأي أمر من أمور الدين كالصلاة أو الزكاة أو الجهاد، وإلا تصور الإنسان لهذه الأمور قاصرًا، وقد تمكن العلماء الأئمة المتبوعون من مثل هذه الإحاطة، فما علينا إلا أن نكتفي بأقولهم.

د) أن الأحاديث النبوية فيها - كما في القرآن الكريم - ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، وفيها ما هو حوادث عين، وما هو أحكام عامة، وغير ذلك. فإذا هجم إنسان لا علم له بهذا كله على كتب الحديث وبدأ يقرأ فيها، ويستدل بكل حديث يصادفه فيها على تخطئه هذا الإمام أو ذلك، أن الإفتاء في هذه المسألة أو تلك، كان حريقًا أن يضل ويضل.

ه) أن الأخذ المباشر من ذينك المصدرين الأساسيين يؤدي إلى اختلاف أكثر مما هو موجود الآن؛ وذلك أنه إذا كان أهل السنة الآن مختلفين في الفقه إلى مذاهب أربعة فقط، فإن عدد المذاهب آنذاك سيكون بعدد الآخذين من الكتاب والسنة. نبدأ ردنا على هذه الحجج بملاحظة عامة عليها قبل الدخول في الرد الخاص على كل منهما فنقول:

أولاً: إن هذه الحجج كلها قائمة على افتراض أن من يدعو إلى الأخذ من الكتاب والسنة يدعو إلى أن يكون جميعًا مجتهدين اجتهادًا مطلقًا، وهذا ليس بصحيح. إن كثيرًا من الناس يظنون أن المرء إما أن يكون مقلدًا تقليدًا أعمى، لا يعرف نصًا ولا يفهمه، ولا يستطيع الاستدلال به، بل إنما يفعل ما يأمره به علمًا مذهبه، وإما أن يكون قد بلغ درجة من الاجتهاد تمكنه من النظر المستقل في

النصوص واستخراج الأحكام منها في كل أمر من الأمور. لكن الواقع أن بين هاتين الدرجتين درجات أخرى يستطيع الوصول إليها الألوّف من الناس.

ثانياً: أن هذه الحجج تفترض كذلك أن الدعوة إلى الأخذ المباشر من الكتاب والسنة، معناها الاستغناء الكامل عن كل ما كتب العلماء، لا يبدأ مجتهداً، وإنما يتعلم تلاوة القرآن من القراء، ويتعلم تفسيره من المفسرين الأحياء والأموات، وقل مثل ذلك عن تعلمه للسنة، واللغة العربية، وغير ذلك من العلوم، بل إنه حتى بعد أن يبلغ درجة الاجتهاد لا يسعه الاستغناء عن النظر في أقوال غيره من العلماء، ولا سيما صحابة رسول الله ﷺ.

فالدعوة إذن إنما هي إلى أن لا يعد التقليد هو الأصل الذي يلزم به كل الناس. إن الأصل هو أن يحاول كل إنسان أن ينال من العلم ما يجعله الله به قادراً على فهم أولي آيات القرآن الكريم إذا تليت عليه، ولأحاديث الرسول ﷺ إذا رويت له. ثم يتدرج بعد ذلك في سلم العلم، فيزيد علمه بالقرآن وبأحاديث الرسول ﷺ. أمثالاً لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١٤٤]، ولقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وفقه الدين إنما هو فقه كتاب الله تعالى، وفقه أحاديث رسوله ﷺ.

إن التقليد هو الدرجة الدنيا التي لا يلجأ إليها المرء إلا مضطراً، ولذلك أجاز العلماء للجاهل أن يقلد قياساً على الأعمى الذي لا بُدَّ له من تقليد غيره في التوجه نحو القبلة، إذ أنه يستحيل عليه أن يعرفها استقلالاً. فكيف تجعل هذه الحال هي الحال التي يجب أن يكون عليها كل الناس؟

ثالثًا: إن التقليد الذي تدعو إليه هذه الحجج يلزم عنه أمر شنيع ما أظن أحدًا من القائلين به يمكن أن يوافق عليه، إن الذي يلزم عنها هو الاستغناء الكامل عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال صحابته رضوان الله عليهم، بل وأقوال الأئمة المتبوعين أنفسهم، بوصفها مصادر للعلم بالدين، والاستعاضة عن ذلك كله بما كتبه المتأخرون من رجال المذاهب، وعزوه إلى الأئمة المتبوعين، وهذا اللازم كما قلت أمر شنيع، لا يمكن أن يقول به إنسان في قلبه إيمانًا؛ لأن الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ خاتمًا للأنبياء، وتكلف بحفظ النور الذي جاء به، ليكون هاديًا للناس إلى يوم القيامة. فكيف يسوغ للناس في أي عصر من العصور، مهما بعد عن عصره النبوة، أن يستغنوا بأقوال العلماء -مهما كانوا- عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهدى أصحابه رضوان الله عليهم.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد: ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض نقله عن أمر الله ورسوله ويبقى كل إمام في إتباعه بمنزلة النبي ﷺ في أمته، وهذا تبديل للدين يشبه ما عاب الله به النصارى في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

رابعًا: إن هذه الدعوة الحارة الملحة إلى التقليد دعوة متناقضة؛ لأنها هي نفسها اجتهاد، وهي بعد اجتهاد مخالف لإجماع أولئك الأئمة الذين تدعو إلى تقليدهم، والتقييد بمذهب واحد منهم وعدم مخالفته؛ وذلك أن كل واحد من

هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم وأجزل ثوابهم حذروا الناس من مثل هذا التقليد، وعده انحرافاً عن الدين^(١).

فائدة: من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أن فهم القرآن يحتاج إلى مهارة في اللغة العربية، لم تعد متيسرة للناس في عصرنا،

إن كل المقصود بها أن إتقان اللغة العربية إتقاناً يجعل الإنسان مجتهداً لم يعد سهلاً فنعم. وأما أنه متعذر فلا؛ لأن الله تعالى الذي تكلف بحفظ نصوص هذا الدين قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، لا يمكن أن يكون قد عني حفظ هذه النصوص حفظاً متحفيّاً كما تحفظ النصوص المكتوبة بلغات مصر القديمة مثلاً. وإنما عني بحفظها حفظ ألفاظها ومعانيها. هذا يستلزم حفظ اللغة التي صيغت بها. يؤكد هذا حديث الرسول ﷺ المشهور: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»^(٢).

تري هؤلاء الظاهرين على الحق في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة هم ظاهرون به بمجرد حفظهم للنصوص القرآنية والحديثية من غير فقه لها؟ كلا! فإن الله تعالى ذم أقواماً مضوا ما كان حفظهم من العلم بكتابهم إلا تلاوته، فقال:

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٥٣).

(٢) البخاري، من حديث معاوية رضي الله عنه.

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

فكيف يمدح رسوله ﷺ أقوامًا من أمته لا يكون لهم من علم القرآن والسنة إلا حفظهما؛ ذلك إذا كان المقصود أن يكون الإنسان مجتهدًا أما إذا كان قصده أن يفهم الآيات والأحاديث فهما أوليًا يمكنه من معرفة وجه استدلال العلماء بها، ويمكنه كذلك من الأخذ بها وترك ما خالفها من أقوال، فإن الأمر في غاية اليسر بحمد الله تعالى.

كما يدل عليه حال الآلاف المؤلفة من العلماء وطلاب العلم المعاصرين، حتى من دعاة التقليد. ثم إنه قيل إنه لا يمكن للناس في هذه العصور المتأخرة أن يعرفوا اللغة العربية معرفة تمكنهم من فهم كتاب الله تعالى، فليقل أيضًا إنها لا تمكنهم من فهم كتب الفقه، خصوصًا وأن المتأخر منها -والذي هو الشائع بين طلاب العلم اليوم- مكتوب بلغة يجد الطالب من الصعوبة في فهمها أكثر مما يجد في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية^(١).

(١) المنهج العلمي العوصول إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٥٣).

فائدة، من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أنه يحتاج إلى معرفة بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وهي أمور لا يستطيع المتأخر معرفتها معرفة مباشرة من قراءته للقرآن الكريم،

هذه الحجة مبنية على افتراض أن من يدعو إلى الارتفاع عن طور التقليد إنما يدعو كل من هب ودب إلى قراءة نصوص الكتاب والسنة، واستخراج الأحكام منها من غير استعانة بالكتب التي تفسرها، وبدون الرجوع إلى العلماء العارفين بها. وإنما الذي ندعو إليه هو أن تدرس نصوص الكتاب والسنة كما تدرس كتب الفقه المذهبي، بالقراءة على العلماء، وبالاستعانة بالشروح التي تفسرها. فإذا سلك الطالب هذا الطريق عن الناسخ والمنسوخ؛ لأن العلماء جزأهم الله خيراً اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة، فهم لا يذكرون في تفاسيرهم للقرآن وشروحهم لأحاديث الرسول ﷺ نصّاً إلا بيّنوا أناسخ هو أم منسوخ؟ وإذا كانت مسألة الناسخ والمنسوخ عقبة في فهم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فإنها لعقبة أشد بالنسبة لأقوال أئمة المذاهب. فما منهم إلا وقد حذر من أن الرأي الذي يراه اليوم قد يغيره غداً إذا بدا له أنه خطأ.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمعه مني فإنني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد^(١). بل إن أصحابه قد يكتشفون بعض أخطائه بعد موته، إذا اطلعوا على أحاديث لم يتيسر له الاطلاع عليها.

(١) الألباني، الصلاة (٤٧).

ولهذا، لما اجتمع أبو يوسف - وهو أفضل أصحاب الإمام أبي حنيفة بالإمام مالك فسأله عن مسألة الصاع، وصدقة الخضروات، ومسألة الأجناس، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك فقال: «رجعت إلى قولك يا أبا عبد الله، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعت»^{(١)(٢)}.

فائدة: من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أن الأحاديث النبوية فيها - كما في القرآن الكريم - ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، وفيها ما هو حوادث عين، وما هو أحكام صامتة، وغير ذلك.

ما من شك في أن علماءنا الأوائل كانوا جبلاً في العلم، وقد هيا الله تعالى لعدد كبير منهم معرفة واسعة بالأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة! لكن لا أحد من الناس - ولا حتى من الصحابة - بلغ درجة الإحاطة بكل أحاديث الرسول ﷺ.

قال الإمام الشافعي: «لا نعلم أحداً جمع السنن فلم يذهب عليه منها شيء. فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها، أتى على السنن. وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره»^(٣). وقد كان للجهود الكبيرة التي بذلها أوائل في جمع الأحاديث وتبويبها وبيان درجتها الفضل الكبير في تيسير العلم بها لمن جاء بعدهم، فنحن بفضل الله تعالى

(١) الفتاوى، (ج: ٢٠) (ص: ٢١١).

(٢) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨٥٣).

(٣) الرسالة (٤٣).

- ثم بفضل تلك الجهود- لا نحتاج اليوم إلى كبير عناء في دراسة الآثار النبوية. لذلك لم يخل عصر - بما في ذلك عصرنا- من علماء وفروا أنفسهم لدراسة السنة الشريفة، وبلغوا في ذلك درجات عالية، حتى إنك لا تكاد تسأل أحدهم عن حديث إلا أستطاع أن يبين لك مصدره وروايته، ودرجته، ولو أننا أصلحنا نظامنا التعليمي، فأعطينا هذا النوع من الدراسة عناية أكبر، لتضاعف عدد أمثال هؤلاء العلماء الأفاضل، لكننا نكرر بأن الإنسان لكي يرتفع عن حضيض التقليد إلى الإبداع للسنة، وطريق الصحابة لا يحتاج إلى هذا التبجر في العلم، بل يكفي أن لا يتقيد بقول إمام واحد، وأن يقدم القول الذي يسنده الدليل الصحيح على القول الذي لا دليل عليه، أو ما عليه إلا دليل ضعيف^(١).

فائدة: من حجج بعض دعاة التقليد في إمكانية الأخذ المباشر من الكتاب

والسنة أن الأخذ المباشر يؤدي إلى اختلاف أكثر مما هو موجود الآن؛

هذه من أغرب الحجج التي سمعتها -وقد سمعتها فعلاً من أحد إخواننا- هدايا الله وإياه إلى سواء السبيل... إن الاختلاف بين أفراد المسلمين في بعض القضايا ليس أمراً مستغرباً، ولا مضرّاً فالاختلاف كما قال العلماء هو نتيجة العلم الناقص. وبما أن نقصان العلم أمر لازم لكل مخلوق، فإنه حتى الملائكة يختلفون كما جاء في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْمَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، لذلك وقع الخلاف حتى بين أصحاب الرسول ﷺ، وأئمة الهدى من بعدهم، وفي قوله

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٥٣).

تعالى: ﴿فَإِنْ نُنزِعُكُمْ فِي شَيْءٍ قُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، دليل على إمكانية وقوع الخلاف بين المسلمين، لكن الخلاف إن كان راجعاً إلى مجرد نقصان في العلم فإن ضرره قليل، وعلاجه ممكن، كما تبين الآية الكريمة. وإنما يكون الخلاف فتنه، وشرًا ماحقًا ونزاعًا يسبب الفشل، ويذهب بريح المختلفين، إذا كان مبناه على الهوى.

وشر أنواع الخلاف المبني على الهوى هو الخلاف الجماعي. أعني الخلاف الذي يكون سببه التعصب لحزب، أو طائفة، أو جماعة، أو بلد، أو شيخ، أو مذهب. إن الأفراد المتعصبين لشيء من هذا لا يسألون عما يتلقونه من هذه الجهات: أحق هو فيتبع؟ أم باطل فيطرح؟ وإنما يقبلونه، ويقولون به، ويدافعون عنه، لمجرد خروجه من تلك الجهات التي نصبوها مصادر يأخذون منها الحقائق.

وهذا يقودهم إلى أن يخالفوا كل من لا يوافقهم على تقديس تلك المصادر التي قدسوها. وبذلك يتحول الخلاف بينهم وبين غيرهم إلى خلاف جماعي يشترك فيه كل من ينتمي إلى حزبهم أو جماعتهم أو مذهبهم، عالمًا كان أو جاهلاً.

أما الخلاف الفردي - ولا سيما العلمي منه - ولا ينتج عنه مثل هذا الضرر؛ لأن الفرد من الناس سيخالف فردًا آخر في قضية، ويوافق ثانيًا في القضية نفسها. ثم قد يوافق - في قضية ثانية - من كان خالفه في القضية الأولى، وقد يخالف فيها من كان وافقه في تلك. ولهذا لا يكون الاختلاف العلمي الفردي سببًا في تقسيم أفراد

الأمة إلى فرق أو مذاهب ثابتة متناحرة^(١).

فائدة: القرآن هو المصدر الأساس للحقائق الدينية، فهو أيضاً - بما أن

بعضه يفسر بعضاً ويبينه - الوسيلة المعنية على اكتشاف حقائق ذلك المصدر:

الذين يؤلفون الكتب في عرض آراء المفكرين وشرحها يحرصون على جمع ما استطاعوا من مؤلفاتهم وأقوالهم حتى يستطيعوا أن يخرجوا منها بتصور متكامل لما كان يعتقده المفكر. وتراهم يستعينون على بيان ما قاله في موضع بما قاله في موضع آخر ومناسبة أخرى. وهذا منهج سديد. إذا كان هذا هو مقتضى العدل والإنصاف في كلام بشر يخطئون ويتناقضون، فالأولى أن يكون هو المنهج الذي يتبع في كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، كتاب قال عنه منزله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، كتاب متسق المعاني، محكم التركيب، لا يشذ معنى فيه عن بقية المعاني، بل يشبه كل معنى فيه سائر معانيه ويمت إليها بسبب. ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفَسِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [النزوم: ٢٣].

لهذا كان من شرط التفسير الكاشف عن مضمون آيات القرآن الكريم، أن لا يعطي آية منها معنى يتناقض مع آية أو آيات أخرى، وأن لا يؤخذ المنسوخ ويترك

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ: (ص: ٨٥٣).

الناسخ. بل كان من شرطه أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن من طريقة هذا الكتاب العزيز أن يجعل في مكان ما قد يفسره في موضع آخر، وأن يختصر في مكان ما قد يبسطه في موضع آخر. نخذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ أَقِدْنَا الْعَصْرَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١ صِرَطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾ [الفاتحة: ١-٧]. من هم الذين أنعم الله عليهم؟ إن المعنى اللغوي العام لمن أنعم الله عليهم مفهوم. لكن سياق الآية يحدد أن المقصود بالإنعام هنا الإنعام الروحي لا المادي.

بدليل مقابلة من أنعم الله عليهم بالمغضوب عليهم وبالضالين، هذا المعنى العام الذي فهمناه من اللغة ومن السياق، تفصله لنا آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝﴾ [النساء: ٦٩]، وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ حَرَّوْا سُجَّدًا وَمُكِبًا ۝﴾ [مريم: ٥٨]، ففي آية النساء بيان للشرط الذي يجعل الإنسان في زمرة من أنعم الله عليهم؟ إنه طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ.

وفي الآية الثانية: بيان لبعض الصفات السابقة التي امتاز بها السابقون ممن أنعم الله عليهم. وفي الآيتين تفصيل؛ لأنواع الناس الذين يشملهم وصف من أنعم الله عليهم، ليس هذا فحسب، بل إن المعبر لآيات القرآن بعضها ببعض يستطيع أن يدرك الروابط بينها، فيدرك أن المعنى الذي قرره هذه الآية يلزم عنه لزوماً عقلياً المعنى الذي قرره تلك الآية، وأن القاعدة العامة التي قررتها آية كذا، يدخل تحتها

الحقائق والأحكام التفصيلية التي قررتها آيات كذا وكذا، وكل هذا يعطي الدارس دربه على أن يدرج تحت هذه القاعدة العامة حقائق وأحكامًا أخرى لم ترد بنصها في الكتاب العزيز، أو في السيرة النبوية. فالقرآن إذن أنه هو المصدر الأساس للحقائق الدينية، فهو أيضًا - بما أن بعضه يفسر بعضًا ويبينه - الوسيلة المعنية على اكتشاف حقائق ذلك المصدر^(١).

فائدة: السنة المطهرة هي وسيلة للكشف عن حقائق القرآن الكريم، وبما أن بعضها يفسر بعضًا فهي أيضًا وسيلة لكشف المعاني التي تضمنها هذا المصدر السنّي؛

والسنة المطهرة هي الأخرى مصدر ووسيلة إنها وسيلة للكشف عن حقائق القرآن الكريم، وبما أن بعضها يفسر بعضًا فهي أيضًا وسيلة لكشف المعاني التي تضمنها هذا المصدر السنّي.

إن بيان السنة للقرآن هو في الحقيقة من بيان القرآن؛ لأن القرآن هو الذي أحالنا على السنة النبوية فقال تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وهو الذي جعل التسليم لحكم الرسول ﷺ شرطًا لا يكون بغيره إيمانًا. فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

(١) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٥٣).

وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِن نَنزَعْنَهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولُ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]، إلى غير ذلك من عشرات الآيات الأمرة بالاستمسك بسنة الرسول ﷺ، والمخرجة لمن أنكرها عن زمرة المؤمنين، وقد امتثل الرسول ﷺ لأمر ربه فيين كتابه أوضح بيان، وترك الناس على المحبة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، لذلك قال العلماء إن منزلة السنة من القرآن أنها مبينة وشارحة له تفصل مجملة وتوضح مشكلة وتقيد مطلقة، وتخصص عامة، وتبسط ما فيه من إيجاز.

من أمثلة هذا البيان النبوي:

(أ) بيانه للمقصود الشرعي الذي لا يدل عليه مجرد المعنى اللغوي لبعض الألفاظ، من ذلك بيانه أن المقصود بالظلم هو الشرك في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] وتفسيره للحساب اليسير - بالعرض - في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿ [الإنشاق: ٧-٩].

وتفسيره للبر والإثم بقوله: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس. رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتفسيره للخمر تفسيراً عاماً - لا يجعلها محصورة فيما يصنع من شيء معين بقوله: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام»^(١).

(١) مسلم، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وتفسيره للسبيل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي بَأْتِيَكَ الْفَلْحَشَةَ مِنْ إِسْكَابِكُمْ فَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، بقوله: «خذوا عني. خذوا عني. خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً. البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»^(١).

(ب) وكشفه عن معاني شرعية لبعض الآيات لا تتبادر إلى ذهن القارئ وإن كان عربياً فصيحاً، من أمثلة ذلك أن أم المؤمنين عائشة لما قرأت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قالت: «يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: لا يا ابنة الصديق. ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم»^(٢).

(ج) ومن بيانه لما أجمل القرآن بيانه لتفاصيل الصلاة، وأوقاتها، وعدد ركعاتها، وكيفياتها، وما هو فرض منها، وما هو نفل، وهكذا؛ كذلك بيانه لتفاصيل الصيام والزكاة والحج. وقد بين ﷺ كل ذلك بالوصف القولي المفصل أحياناً كما في وصفه الصلاة للأعرابي الذي أساء أداءها ولفعله أحياناً.

فقد كان الناس يشهدون كيف يصلي وكيف يحج، وكيف يقرأ، فيفعلون كما

(١) مسلم.

(٢) ابن كثير، التفسير وعزاه على الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول.

يفعل ثم يصفون ما رأوا؛ لأنه ﷺ كان يقول صلوا كما رأيتموني أصلي^(١).
ويقول: «خذوا عني مناسككم»^(٢) بل حتى في مسائل الإيمان وأحوال الآخرة
جاء ﷺ بتفاصيل تعين المؤمن على فهم ما ورد من ذلك في القرآن الكريم،
وتصوره تصوراً صحيحاً، ويدخل في تفسير السنة للقرآن وكشف حقائقه معرفة
سيرة الرسول ﷺ وخلقه وشمائله؛ لأنه ﷺ كان المثل الأعلى للمؤمن الملتزم بما
في كتاب الله تعالى. فقد كان خلقه القرآن كما قالت عنه زوجته أم المؤمنين عائشة
رضي الله عنها، ولا شك أن رؤية المثل العملي الواقعي أمر ضروري لمعرفة ما ورد في
القرآن الكريم من وصف لأحوال المؤمنين الباطلة والظاهرة وبيان لما ينبغي لهم
فعله ويجدر تركه من الأقوال والأفعال.

كما أن القرآن يفسر القرآن فكذلك تفسر السنة. ففي الحديث الذي ذكرناه
أنفاً قال ﷺ كل مسكر حرام، ثم زاد هذا بياناً في حديث آخر. فعن جابر رضي الله عنه أن
رسول الله ﷺ قال: ما أسكر كثيره فقليلة حرام^(٣).

ثم بين ﷺ أنه إذا كان الخمر ينبذ فما كل ما ينبذ حرام. فعن ابن عباس
رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ ينبذ له الزبيب في السقاء، فيشركه يومه، والغد
ويعد الغد وإذا كان مساء الثالثة شربه وسقاه فإن فضل شيء أهراقه»^{(٤)(٥)}.

(١) البخاري.

(٢) مسلم.

(٣) بلوغ المرام، وقال المصنف رحمه الله: أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان.

(٤) مسلم.

(٥) المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا.

وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا

لتنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٨٥٣).

فائدة: منزلة أقوال الصحابة:

أقوال الصحابة نوعان:

(أ) أقوال أجمعوا عليها فهي داخلة في باب الإجماع الذي ذكرناه آنفاً؛ بل إن الإجماع المعتبر بالمعنى الثاني هو إجماعهم لا غير؛ لأنه بعد ازدياد عدد المسلمين وتفرق علمائهم في البلد لم يعد من الممكن التحقق مما هو موضع إجماع بينهم.

(ب) وأقوال اختلفوا فيها، فيختار العالم منها ما يراه أقوى دليلاً، ولا يستحدث رأياً جديداً. لماذا هذه المكانة الخاصة لأقوال أصحاب رسول الله ﷺ؟ لم يعطهم العلماء هذا الوضع؛ لأنهم يعتقدون في عصمتهم فالمعصوم هو الرسول ﷺ وحده، ولم يعطوهم هذه المكانة لمجرد أمر عاطفي، وإنما أعطوهم إياها، وأجمع الأئمة الأربعة على إعطاؤهم إياها لأسباب علمية موضوعية. فأصحاب رسول الله ﷺ هم أعلم الناس باللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ.

فقد كانت هذه اللغة لغتهم التي يتحدثونها في حياتهم اليومية. وهم أعلم الناس بالمناسبات التي نزلت فيها الآيات القرآنية وقيلت فيها الأحاديث وحدثت فيها الأفعال النبوية. وهم أفقه الناس بدين الله بشهادة رسول الله ﷺ. فقد قال عنهم: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١).

وقد سمعت البعض لا يقدر هؤلاء الأصحاب حق قدرهم، يقول للناس إن هذه الخيرية إنما هي خيرية صحبتهم للرسول وليس فيها ما يدل على علمهم، أو

(١) البخاري.

كلامًا قريبًا من هذا، لكن هذا القائل نسي أن الرسول ﷺ ربط بين الخيرية والعلم في حديث آخر، إذ قال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»^(١).

ومن الأدلة على سعة علمهم وحسن فقههم وجودة عقولهم ما روى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ مِثْلٍ. هَذَا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ﴾ [المنكوت: ٤٢]؛ وذلك لأن رؤية الرسول ﷺ ليست مجرد رؤية حسية، وإلا لاستوى فيها المؤمن والكافر. ولكنها رؤية معها إيمان، ورؤية الرسول ﷺ مع الإيمان به تثمر اهتمامًا بأمره، وسيرته وأحواله.

وكل هذا يثمر حبًا له قَلَّ أَنْ يَتَأْتِيَ لِمَنْ يَرَهُ. هذا لأن الذي يراه معها ما يشع منها من دلائل صدقه، وتقواه، وقربه من الله تعالى، فيزداد إيمانًا وله حبًا. ألم يقل عبدالله بن سلام إنه لما رأى النبي ﷺ عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب؟ ومن كان هذا حاله من رسول الله ﷺ، فحري به أن يصغي لكلامه، ويحرص على مراقبة أحواله وينفعل بهذا كله. فأين يكون العلم بدين الله إن لم يكن مع هؤلاء^(٢).

(١) البخاري ومسلم.

(٢) المنهج العلمي الموصول إلى حقائق الدين الإسلامي، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨٥٣).

فائدة: الحقائق والمبادئ الإسلامية للتعايش السلمي مع الأديان غير

الإسلامية :

التعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية مبدأ إسلامي أصيل دلت عليه النصوص، وطبقه المسلمون طوال تاريخهم. فهو إذن ليس أمراً يفرضه المسلمون على دينهم أو يلجؤون إليه لأسباب خارجية قاهرة.

إنه مبدأ قائم على الحقائق والمبادئ الإسلامية التالية:

- إن الإسلام هو رسالة الله الخاتمة إلى عباده التي بلغها خاتم أنبيائه الذي جعله ربه رحمة للعالمين، إنه لا يعقل أن يأمر دين هذه طبيعته أن يشن المؤمنون به حرباً على بقية العالم لإكراه الناس على الدخول فيه.

- لقد أخبر الله تعالى رسوله بأنه ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، فكيف يأمره في الوقت نفسه بأن يكرههم على الدخول فيه؟ هل يأمر بأن يخلي الأرض من كل أحد غير مسلم؟

- ليس هذا فحسب بل إن الرسول يخبرنا أنه لن تخلو الأرض من أناس غير مسلمين، بل إن غير المسلمين سيكونون هم سكان العالم الذين يشهدون نهايته وقيام الساعة بعد أن يموت كل المسلمين.

- يخبرنا الله سبحانه بأنه لا أحد غيره يملك السيطرة على قلوب الناس وعقولهم فالأنبياء لا يستطيعون هداية الناس بمعنى إدخال الهدى في قلوبهم، إن الله تعالى هو وحده الذي يهدي بهذا المعنى، إن الرسل والدعاة من بعدهم إنما يهدون

الناس هداية بيان وبلاغ، ثم يتركون لهم الخيار.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢٢-٢١].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

[الفصص: ٥٦].

- وإذا كان الرسول ﷺ لا يستطيع إدخال الهدى في قلوب الناس فإن الشيطان أيضًا لا يستطيع إدخال الضلال فيها. إن مقدرته محصورة في الدعوة إلى الضلال وتزيينه. لكن الله تعالى تكفل لنا بأن هذا العمل الشيطاني لا يكون له تأثير إلا على الذين يستجيبون للشيطان بإرادتهم، ووعد سبحانه بأن يهدي إلى الحق كل من علم في قلبه إرادة له.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي

وَلَوْلِمَا أَنفَسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا

أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

- ولأن الدين هكذا في أصله مسألة قلبية، فهو بالضرورة أمر إرادي، إنه أمر

يعترف به الإنسان ويطبقه بإرادته. فلا أحد إذن يمكن أن يجبره عليه.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ
وَسَاءَتِ مُرْتَفَقًا ﴿الكهف: ٢٩﴾.

- وعليه فإن الآية القرآنية الكريمة الشهيرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا
انْقِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ليست كما قد يظن البعض خطأً، أنها آية
منعزلة، الآية الوحيدة التي تقر هذه الحقيقة. بل إنها متسقة مع غيرها من الآيات
التي ذكرنا بعضها في أنه لا يمكن إكراه أحد على الدين. لكن هذه الآية أمراً زائدا
وهي تأمر المؤمنين بأن لا يحاولوا هذا الأمر المستحيل.

لكن الأمر بعدم الإكراه ليس مبنياً في الإسلام على إنه من حق كل إنسان أو
من مصلحته أن يختار ما شاء من عقائد كما تقول الليبرالية؛ لأنه من المؤكد أن
بعض المعتقدات مبينة على أباطيل فلا يمكن لذلك أن تكون في مصلحة معتقدها
أو مصلحة المجتمع الذي تشيع فيه. فالإسلام لا يأمر بعدم إكراه الناس على
الدخول فيه؛ لأنه يقر معتقداتهم المخالفة له؛ إنه لا يقرها. لكن الإسلام يفرق في
المعاملة بين المعتقدات والمعتقدين. فبينما يدعو إلى دعوة المعتقدين بالتي هي
أحسن، بل إلى بر من لم يعتد منهم؛ فإنه لا يتردد في نقد معتقداتهم نقدا صارما
واقامة الحجج على بطلانها. انظر مثلاً كيف يدعو إلى معاملة النصاري بالتي هي
أحسن، ويحكم بحل طعامهم ونسائهم، بينما يؤكد أنه لا عيسى بن مريم ولا غيره
يمكن أن يكون ولداً لله تعالى؛ لأنهم مخلوق والمخلوق لا يكون ولداً لخالقه؛ إن
الأب يلد ابنه ولا يخلقه. إن الهدف من معاملة غير المسلمين معاملة حسنة وعدم

إكراههم على الدخول في الإسلام؛ لأن هذه هي أفضل وسيلة لبيان الحق لهم وتسهيل رؤيتهم وقبولهم له.

ولهذا فإن التأكيد في الإسلام إنما هو دائماً على الدعوة وبيان أهميتها وبيان أحسن طرقها، وبيان أنها هي الوظيفة الأساس لرسول الله ولكل الدعاة من بعدهم، وهكذا. ولذلك فإن الله تعالى يذكر رسوله دائماً بأن مهمته إنما هي البلاغ، وأنه إنما هو مذكر، وأنه لا يستطيع هداية من يجب هدايته، وأنه لا يستطيع إكراه الناس على قبول الحق، وأنه يجب أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة. والمسلمون مأمورون بأن لا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَسْنَا وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدِمَتْ آيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] (١).

فائدة: الحاجة إلى التعايش السلمي في عصرنا

إننا نعيش في زمان وجد فيه الناس أنفسهم مضطربين؛ لأن يعيشوا متجاورين في قرية عالمية واحدة تتداخل فيها مصالحهم رغم اختلافاتهم العرقية والدينية واللونية والثقافية. لكنها مليئة بالأسلحة التي تسمى بالتقليدية والتي يمكن أن تلحق أضراراً بالغة بكل ما هو ضروري لحياة الناس، وبالأسلحة تسمى بأسلحة

(١) تصور إسلامي للتعايش السلمي. كتاب صراع الحضارات للدكتور جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ (ص: ٨٢). وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٩٥٨).

الدمار الشامل التي تملك الولايات المتحدة وحدها منها ما يمكن أن يمحو كل سكان الكرة الأرضية كما يقولون! إنه لمن الواضح إذن أنه لا خيار لسكان الكرة الأرضية لتفادي تلك الكارثة إلا أن يقرروا أن يتعيشوا في سلام. لكن مجرد الرغبة في ذلك التعايش لا تكفي. إنه لا بُدَّ من اتخاذ الخطوات اللازمة لجعل ذلك التعايش ممكناً. ولعل من أهم مقتضيات ذلك التعايش:

(١) وجود مؤسسات عالمية تضمن السلام، وتلتزم بالقيم الخلقية لا يمكن لها أن تؤدي وظيفتها إلا بها، لا بُدَّ لهذه المؤسسات من أن تقوم على العدل.

(٢) وعلى الدول الكبرى أن تدرك أن هذا العدل هو في النهاية خير لشعوبها مما قد يبدو لها من مصالح وطنية وقتية ضيقة، إن على الدولة التي تستخدم قوتها الاقتصادية أو العسكرية لإخضاع دولة ضعيفة بحجة أنها إنما تدافع بذلك عن مصلحتها الوطنية أن تدرك أنه خلقياً لا فرق بين منطقتها هذا، ومنطق إنسان ينهب ممتلكات آخر بحجة أنه يريد تحسين مستواه المعيشي.

(٣) وعليه. فإنه لا يمكن لمؤسسات عالمية مثل الأمم المتحدة أن تؤدي مهمتها إذا ما صارت أداة في يد دولة كبرى كالولايات المتحدة. ولكن هذا مع الأسف الشديد هو الحاصل الآن. وحصوله ليس ادعاء تدعيه الدول الضعيفة وإنما هو أمر تعترف به الدول الكبرى نفسها، بل تتباهي به:

إن التصور الغالب بين النخبة للأمم المتحدة - كما عبر عنه بوضوح في عام ١٩٩٢ فرانسيس فوكوياما هو أن الأمم المتحدة مستخدمة كأداة فعالة لسياسة أمريكا الانفرادية، والتي قد تكون في المستقبل هي الآلية لتلك السياسة، لكن هذا

معناه أنه عندما تهدد الولايات المتحدة أو تعاقب قُطرًا ما بحجة عدم تنفيذها لقرارات الأمم المتحدة؛ إنما تهدده في الحقيقة؛ لأنه لم ينفذ أوامرها هي.

(٤) إن الالتزام بالمبادئ الخلقية السامية ولا سيّما مبدأ العدالة هو في النهاية الضمان الوحيد لعدم انتشار أسلحة الدمار الشامل، إن الدول الأضعف لن تشعر بالحاجة إلى مثل هذه الأسلحة إذا ما تأكدت بأنه لن يكون في عدم امتلاكها لها خطر على وجودها أو على سيادتها، سيرون أنه من الأعمى لهم أن ينفقوا القليل الذي يمتلكونه على أشياء أكثر أهمية والحاحًا. وأما إذا ما تأكدوا بأنهم سيهانون بسبب عدم امتلاكهم لها فإنهم قد لا يترددون في السعي للحصول على أي نوع وأي كم مهما كان الثمن وبغض النظر عن أية معاهدات يضطرون للتوقيع عليها.

(٥) إن الالتزام بالمبادئ الخلقية السامية ولا سيّما مبدأ العدالة هو في النهاية الضمان الوحيد لعدم انتشار أسلحة الدمار الشامل. إن الدول الأضعف لن تشعر بالحاجة إلى مثل هذه الأسلحة إذا ما تأكدت بأنه لن يكون في عدم امتلاكها لها خطر على وجودها أو على سيادتها سيرون أنه من الأعمى لهم أن ينفقوا القليل الذي يمتلكونه، وأما إذا ما تأكدوا بأنهم سيهانون بسبب عدم امتلاكهم لها فإنهم قد لا يترددون في السعي للحصول على أي نوع، وأي كم مهما كان الثمن وبعض النظر عن أية معاهدات يضطرون للتوقيع عليها.

(٦) إن على أولئك الذي يتحركون بدافع السيطرة على الآخرين أن يتذكروا بأن هنالك دافعًا أقوى، دافع العزة. إن في العالم أناسًا كثيرًا مستعدون؛ لأن يبذلوا

أرواحهم لحماية عزة شعوبهم والمحافظة عليها.

(٧) إن على الذين يمتلكون الأسلحة أن يكفوا عن استعمالها بغير حق لا بدافع تلك المبادئ الخلقية التي ذكرناها فحسب، ولكن لأن ذلك في مصلحتهم؛ وذلك أن التطور الهائل في صناعة الأسلحة قد يؤدي قريباً إلى اختراع نوع منها صغير الحجم خفيف الوزن شديد الفاعلية يسهل على الأفراد والجماعات الصغيرة أن تحصل عليه.

(٨) إن بعض الناس قد يرون أنه أن تفرض عليهم معتقدات وقيم مناوئة لمعتقداتهم وقيمهم أشد خطراً عليهم وأكثر إهانة لهم من حرمانهم بغير حق من بعض خيرات بلادهم.

وعليه، فإن الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية يجب أن لا تتحول إلى منابر للدول الكبرى تفرض بها قيمها، ولا سيّما العلمانية منها على آخرين يكرهونها.

إن أعضاء الأمم المتحدة لا يتمون فقط إلى دول مختلفة وإنما يتمون أيضاً إلى ثقافات مختلفة في عقائدهم وقيمهم وتقاليدهم وتاريخهم. إنه لكي يعيش كل هؤلاء تحت مظلة واحدة ليتعاونوا على مواجهة المشكلات التي تواجههم بوصفهم سكان كرة أرضية واحدة، تجعل من الضروري عليهم أن يعترفوا بهذه الفروق والاختلافات وأن يتسامحوا في العيش معها، وأن لا يلجؤوا لذلك إلى غير الوسائل السلمية لحلها. فاستعمال هيئة عالمية مهمة كالأمم المتحدة لفرض مثل

هذه التغيرات على الناس لن يشجع إلا على عدم احترام هذه المؤسسة، وعدم الإكتراث لقراراتها. لكن هذه مع الأسف هو الذي يؤمن به كثير من الناس في الغرب. إنهم يريدون لكل الناس أن يكون نظامهم السياسي مثل نظامهم، وأن يفهموا دينهم بالطريقة نفسها التي يفهمون هم بها دينهم، وأن تكون علاقاتهم بين الجنسين مثل علاقاتهم، وأن لا يتصرفوا بطريقة تراها دولة كالولايات المتحدة غير خادمة لمصالحها^(١).

فائدة: من مبادئ الشريعة الإسلامية تحصيل المصالح وتكثيرها وتعطيل

المفاسد وتقليلها:

هذا المبدأ يقول إن الشريعة إنما جاءت لتحصيل المصالح وتكثيرها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. وقد رأى بعض العلماء أنه يمكن حصر هذه المصالح في خمسة أنواع هي: الدين والعقل والنفس والنسل والمال. ولكن بما أن الإسلام دين يقوم على هداية من الله تعالى موحى بها ومضمنة في كتاب؛ فإن هذه المصالح الدينية والدينية مصبوغة بصبغة تلك الهداية.

أعني إن اعتبار ما هو مصلحة ومفسدة ليس متروكاً أمره كله لتقديرات البشر وآرائهم، وإنما هو محكوم بتلك الهداية الربانية. غير أن الهداية الإلهية لا تتناقض مع المقتضيات العقلية، بل كل ما ثبت بصريح العقل أنه مصلحة فهو بالضرورة

(١) تصور إسلامي للتعاشيش السلمي. كتاب صراع الحضارات، للدكتور جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ (ص: ٨٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٩٥٨).

موافق لهدي الوحي. على أساس هذا المبدأ الكبير (أعني مبدأ تحصيل المصالح وتكثيرها وتعطيل المفسد وتقليلها) تقيم الجماعة المسلمة حياتها، وفي ضوءه تقيم علاقاتها مع غيرها من الدول والجماعات، أي أن الجماعة المسلمة تهدف إلى تحقيق هذه المصالح لها ولغيرها.

وبما أن المصلحة الدينية هي أم المصالح وأساسها بل منبعها؛ فإن أهم ما تتغياه الدول المسلمة في علاقتها مع الآخرين هو تحقيق ما يمكن تحقيقه من هذه المصلحة لهم^(١).

فائدة: ما المصلحة الدينية في نظر الإسلام وما علاقتها بالشؤون

السياسية:

الإنسان في التصور الإسلامي مخلوق مفضل على الخير، فكل ما فيه من شر أمر طارئ عليه يمكن تنقيته منه. تدل على ذلك نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۗ ﴿٧﴾ فَأَهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧-٨]، فالنفس في أصلها سوية لكن قد يحدث لها ما يجعل واقعها مخالفاً لحقيقتها، فيأتي الشرع ليدلها على اجتناب ما يفسدها وليهدها إلى الوقاية منه. ومنها قول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء»^(٢).

(١) أصول إسلامية للعلاقات الدولية، كتاب صراع الحضارات، للدكتور جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ (ص: ٨٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٩٥٨).

(٢) البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة.

والدين الإسلامي بكل أصوله وفروعه قائم على هذه الفطرة ومثبت لها وهاد إلى الحياة العملية المناسبة معها. ﴿ فَأَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]، أصل هذا الخير الفطري هو اعتراف الإنسان بأنه مخلوق لرب واحد، هو وحده الذي يستحق أن يعبد.

هذا الاعتراف الفطري هو اعتراف الإنسان بأنه مخلوق لرب واحد، هو وحده الذي يستحق أن يعبد. هذا الاعتراف الفطري بالعبودية لله هو الذي يمثل جوهر الإنسان وأصل الخير فيه، لكن في الإنسان أنواعاً أخرى من الخير الفطري هي المبادئ العقلية وأصول الفضائل الخلقية، والقيم الذوقية. وهي كلها ذات ارتباط وثيق بذلك الأصل التعبدية الذي يمثل جوهر الإنسان، تقوى بقوته وتضعف بضعفه. يأتي الدين الحق - كما أسلفنا - ليبنى على هذه الأصول الفطرية ويثبتها ويبلغ بها غاياتها؟^(١).

فائدة: الآثار السياسية للتصور الإسلامي للإنسان:

أولاً: إن الإنسان حين يعترف بالعبودية لله يتحرر من العبودية للبشر، فلا يرضى بهم مشرعين له يأمرونه وينهونه؛ لأن السمع والطاعة المطلقة هي من لوازم العبودية. فهو لا يرضى إذن بدكتاتورية فردية، ولا بدكتاتورية أغلبية كما هي

(١) أصول إسلامية للعلاقات الدولية، كتاب صراع الحضارات، للدكتور جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ، (ص: ٨٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٩٥٩).

الحال في الديمقراطيات الغربية، إذ إن كلا منهما يجعله عبداً لمن يشرع له. فالحكام المسلمون أناس تختارهم الأمة لا ليحكموا بأهوائهم، ولا باسم أهواء أغلبية شعوبهم، ولكن لينفذوا حكم الله، أي ما شرعه في وحيه إلى رسوله ﷺ.

ثانياً: بما أن مشاعر الإخوة هي من الخير الذي فطر الله الناس عليه، وبما أن هذا الخير يورثي ثماره كاملة حين تكون الإخوة مرتبطة بالإيمان بالله تعالى، فإن الناس في المجتمع لن يكونوا أفراداً يسعى كل منهم لمصلحته الشخصية المحدودة كما يعتقد أنصار الفردية Individualism، ولن يكونوا جماعة يذوب فيها الفرد وتضيع حقوقه كما هي الحال في المذهب الجماعي Collectivism، بل سيكونون أفراداً متأخين، لا تقتصر مصلحة الواحد منهم على نفسه بل تشمل كثيرين غيره إبتداءً بوالديه وأسرته وأقربائه ثم بسائر مجتمعه؛ فخير البشر قاطبة جاء رحمة للعالمين كافة.

ثالثاً: بما أن الله تعالى هو خالق الناس جميعاً، فهو الذي يعطيهم من الحقوق ما شاء. فما يسمى بحقوق الإنسان لن يكون إذن مبنياً على مجرد قرار تتخذه الأمم المتحدة وتسميه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وإنما يكون قائماً على حقوق أعطاه الله تعالى للأفراد، وحرّم التغول عليها.

رابعاً: بما أن مكارم الأخلاق هي مما فطر الله الناس عليه، وجعل الالتزام بها جزءاً لا يتجزأ من الإيمان به وعبادته، فإن الدولة الملتزمة بشرع الله ستعد الالتزام بها من المصالح التي تسعى لتحقيقها، ولن تجعلها مجرد أداة تلتزم بها حين يكون الالتزام خادماً لمصالحها بالمعنى الضيق، العنصري أو القومي. وهي في هذا

تختلف عن نظرية هوبز الذي كان يعد العلاقات الدولية علاقات وحوش في غابة يأكل القوي فيها الضعيف. وتختلف أيضًا عن نظرية ما كيا فيلي التي تجعل كل غاية مسوغًا لكل وسيلة مهما كانت. وتختلف أيضًا عن نظرية (السياسة الواقعية) Realpolitik التي هي في حقيقتها تطبيق للمكيا فيلية على المستوى العالمي. لكن الالتزام بمكارم الأخلاق على المستوى العالمي لا يعني الغفلة وعدم اعتبار الواقع، وإنما يعني أن لا تتخذ الدولة الكذب والخيانة والاستغلال وعدم الوفاء وما شابهها من مساوئ الأخلاق هي القيم التي تلتزمها ابتداءً في معاملتها لغيرها.

خامسًا: بما أن المصالح الأخرى هي أيضًا مما شرع الإسلام العمل لتحقيقها، فإن الدولة الإسلامية لا تقصر تعاملها مع غيرها على تحقيق تلك المصلحة الدينية العليا مع خطورتها، بل تعمل أيضًا لتحقيق كل المصالح الدنيوية الأخرى مع أي دولة تساعد على ذلك؛ لأن المصالح الدنيوية لا تنفصل في الإسلام ولا في الواقع عن المصالح الدينية.

سادسًا: تسعى الجماعة المسلمة لتحقيق ما يمكن تحقيقه من تلك المصالح بحسب مقدرتها، وبحسب حالها وحال عصرها؛ لأن في الدين نفسه مبدأ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فالأوامر والنواهي الإسلامية العملية - أعني التي لا تتعلق بالإيمان القلبي - ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بالإمكان.

فإذا كانت الجماعة المسلمة عاجزة عن القيام ببعض الخير الذي أمرها الله به فإنها تحقق منه ما تستطيع ولا تكلف بما تطيق. وإذا لم يكن خيار إلا بين شرين؛

فإنها ترتكب أقلهما ضرراً. وإذا لم تكن مخيرة إلا بين جلب مصلحة أو دفع مفسدة فإنها تقدم الأولى على الثانية. كل هذه المبادئ التي قد يحسب بعض الناس أنها مبادئ عقلانية بحتة لا علاقة لها بالدين، هي من صميم الدين الحق.

سابعاً: وبما أن أيسر الطرق وأحسنها لتحقيق هذه المصلحة الدينية الأساس، بل لتحقيق ما يبنى عليها من بقية المصالح، هي حال السلم الذي يتمكن فيه الطرفان من التواصل والحوار وتبادل المصالح الدنيوية المادية والمعنوية، فإن حال السلم هذه هي الحال الطبيعية العادلة التي يفترضها الإسلام في علائق الناس بعضهم ببعض.

لكن الحال الطبيعية لا تكون هي دائماً الحال الواقعة فعلاً، ففي الناس ظلم وفيهم بغي وفيهم حب للتسلط وفيهم كراهية للحق والسعي للصد عنه. ولذلك فقد تعتدي دولة على الدولة المسلمة؛ لأنها تريد للإسلام أن ينتشر، أو لا تريد للجماعة المسلمة أن تقوي اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً، فتضطر الدولة المسلمة للدفاع عن مواطنيها أو للدفاع عن دينها بالطرق التي تراها مناسبة لحالها وظروفها وظروف العالم الذي تعيش فيه، فتلجأ إلى كل ما هو أقرب إلى المصلحة من حرب أو مسالمة أو معاهدة أو غيرها سعياً لتحقيق ما يمكن تحقيقه من المصلحة بتلك المعايير التي ذكرناها كانت علاقة الدولة الإسلامية الواقعية مع غيرها من الدول في زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، بل من بعدهم بحسب قوة التزامهم بالدين.

ففي السنين الأولى من بداية الإسلام كان الذي قبلوا الإسلام وكونوا نواته

الأولى قلة قليلة بالنسبة لمجتمعهم المكي. وكان مجتمعًا جاهليًا شديد التعصب لما ورث من آباءه، شديد العداوة للدعوة الجديدة المخالفة لمعتقدات الآباء، لذلك سعوا بكل الوسائل لإيقاف مدها، فكانوا يعذبون كثيرًا ممن آمن بها في محاولة لإجباره على الارتداد عنها. ولجؤوا إلى مقاطعة المسلمين مقاطعة تشمل كل شيء حتى مصادر الرزق، وكانوا يضطرون بعضهم للخروج من وطنهم وهكذا، ومع كل هذا أمر المسلمون أمرًا حاسمًا بأن لا يرفعوا يداً لمقاومتهم، بل بأن يقيموا الصلاة ويصبروا على الأذى. لماذا؟ لأنهم لو حاولوا أن يقاوموا وهم في تلك الحالة من الضعف لأعطوا عدوهم أحسن فرصة للقضاء عليهم وإطفاء نور رسالتهم. فالمصلحة - مصلحة الدين والنفس - كانت إذن تقتضي تلك السياسة مع الأعداء. فلما استطاع المسلمون أن يهاجروا وأن تكون لهم شيء من قوة أذن لهم في القتال ولم يؤمروا به، وبينت الأسباب العادلة لذلك القتال.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(٢٨) أذن للذين يقتلوك بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير^(٢٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولنصرنا الله من ينصره إن الله لقوي عزيز^(٣٠) الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلوة وأاتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴿[الحج: ٢٨-٤١].

فالإذن بالقتال كان إذن لأسباب في غاية العدل والسمو هو أن هؤلاء الناس قوتلوا فلم يكونوا هم البادئين بقتال، وأن قتالهم كان ظلمًا، وأنهم نفوا من أوطانهم،

وأن هذا النفي كان هو الآخر من أظلم الظلم؛ لأنه كان اعتداء على أسمى وأهم حق للإنسان هو أن يعبد ربه لا يشرك به. وهذا الإذن بالقتال كان؛ لأن أهل الحق إذا لم يدافعوا عنه بالقوة لم يكتف عدوهم بمخالفتهم في الاعتقاد، بل حاربهم وخرب حتى بيوت عبادتهم. ثم إنه أذن؛ لأناس إذا تمكنوا في الأرض بهذا القتال استعملوا تمكنهم فيها لتحقيق اسمى الغايات: عبادة الله، وإحساناً إلى خلق الله، وأمرًا بكل ما فيه نفع لهم ونهيًا عن كل ما فيه إضرار بهم. ثم لما ازدادت قوة المسلمين وازداد أذى أعدائهم وحربهم لهم أمروا بمقاتلة كل من قاتلهم، فأصبح القتال الآن واجبًا لا شيئًا مآذونًا به فحسب. وهنا أيضًا ذكر الله سبحانه وتعالى مسوغاته، فقال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَأُ بِعَايَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَرُوا أَيْمَنَهُمْ مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَرُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْنَ مَنْ نَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿[التوبة: ٧-١٥]﴾^(١).

(١) أصول إسلامية للعلاقات الدولية، كتاب صراع الحضارات، للدكتور جعفر شيخ إدريس، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ، (ص: ٨٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٩٥٨).

﴿ مصادر محاضرات الدعوة ﴾

١- أزمة الأمة وخطوات نحو الحل^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن اعتداء العراق على الكويت أو دخول القوات العراقية إلى الكويت، ووجود القوات الأمريكية والغربية في منطقة الخليج.

٢- استعمال القرآن الكريم للغة التجارة^(٢).

في هذا الدرس، يتحدث الشيخ عن إن القرآن الكريم يستعمل لغة التجارة في الدعوة إلى حقائق الدين في القرآن، مثل: البيع والشراء والربح والخسارة والعمل والضمن والأجر، وغير ذلك فكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لِلنَّاسِ: استعملوا هذا المنطق التجاري حين تتعاملون مع الحقائق الدينية، فاعتبروا الأعمال الصالحة تجارة رابحة، والمعاصي أعمالاً خاسرة واعتبروا الأموال التي تنفقونها في سبيل الله قرضاً تقرضونه ربكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ليجزيكم عليه أكثر مما أقرضتموه.

(١) وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في

أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠م.

(٢) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

٣- الأقوال والأعمال تدل على ما في القلوب (١).

في هذا الدرس، يذكر الشيخ أننا لا نستطيع أن نطلع اطلاعاً مباشراً على ما في قلوب الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى أرانا أن هنالك أقولاً وأعمالاً تدل على ما في القلوب، فإذا رأينا هذه الأعمال والأقوال استدللنا بها على ما في قلب الإنسان من هذه الآيات، هذه الآية «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ أَلْسِنَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» [محمد: ٣٠]، كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: إنه لا يمكن أن يرينا الإنسان شيئاً إرادة جازمة، ثم لا يكون منه هو في الظاهرة ما يدل على هذه الإرادة.

٤- التربية الدينية أو الإرشاد الديني (٢).

ذكر الشيخ في هذه المحاضرة، أن للتربية غايتين: غاية داخلية وهي تنمية الفضائل في الإنسان بحيث يصير إنساناً حقيقياً ولا يتحول إلى حيوان، وتربية ممكن أن نقول أنها خارجية وهي التي تُعد هذا الإنسان؛ ليكون كما يقولون عضواً صالحاً مواطناً صالحاً في المجتمع، ثم يبين الشيخ ذلك بشيء من التفصيل.

٥- التعريف بالإسلام وبيان حقيقته (٣).

تحدث الشيخ في المحاضرة عن معنى الإسلام بمعناه العام، وعن الإسلام

(١) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

(٢) ندوة عن التربية الدينية أو الإرشاد الديني في الرياض، شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

(٣) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

الذي هو دين الأنبياء جميعاً والإسلام الذي بعث به الرسول محمداً ﷺ.

٦- التنظيمات الإسلامية المعاصرة^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن تجارب الإسلاميين لما أرادوا أن يعملوا عملاً جماعياً للوصول إلى هدف إعادة الدولة الإسلامية، وأنه لم يكن أمامهم من أمثلة يحتذونها إلا هذه الهياكل التنظيمية الحزبية، فتنبؤا كما هي مع بعض التعديلات الشكلية الأسمية، فاستبدل بعضهم بكلمة حزب كلمة جماعة، وبكلمة الديمقراطية الشورى، وبالسكرتير العام، الأمين العام، وهكذا. أما المسميات التنظيمية التي تشير إليها تلك الأسماء فهي الموجودة في الأحزاب الأخرى، فكان هذا التقليد بداية الانحراف، وفصل الشيخ في بيان الأخطاء التي وقعوا فيها.

٧- الدعوى بأن لله ولداً^(٢).

بين الشيخ في هذا الدرس، المقصود بقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

٨- السؤال عن أصل الخلق^(٣).

في هذا الدرس، يتحدث الشيخ عن السؤال عن أصل الخلق هل الإنسان

(١) محاضرة ألقاها الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس في الخرطوم بالسودان، ونشرتها مجلة

(الحرس الوطني) الصادرة في شعبان ١٤٢٢ هـ - الموافق ١٩٩٢ م.

(٢) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

(٣) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

في أصله شرير أم أنه خلُق محايدًا بين الخير والشر أو أنه في أصله خير؟

٩- الصحوة الإسلامية بين مفهومين^(١).

يتحدث الشيخ عن الصحوة الإسلامية بين مفهومين:

فالمفهوم الأول: هو أن تكون صحوة إسلامية صحيحة.

والمفهوم الثاني: هو المفهوم الذي يريد لها الأعداء أن تكون هلوسةً شيطانية، فهذه الهلوسة هي أن تستعمل الألفاظ الدينية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية؛ لتمكن للفكر العلماني غير الإسلامي فكثير من الناس بدأوا يفعلون هذا، بل ظهر بعض الكتاب من الشيوعيين يكتبون كتب إسلامية هذا كما قلت لكم دليل على قوة الصحوة، ثم يذكر الشيخ أن هذا يستدعي منا يقظة أكثر، وصحوة أكثر، لكي نميز بين الغث والسليم، وبين المخلص والمنافق، وإن هذا الانحراف أو هذه الهلوسة الشيطانية تريد لهذه الصحوة أن تنحرف عن مسارها الصحيح.

١٠- الطريق إلى المجتمع الإنساني^(٢).

يتحدث الشيخ في هذه المحاضرة، عن أن للإنسان حقيقة هي التي تمثل جوهره، هي التي نسميها إنسانية الإنسان، هذه الحقيقة المعنوية الباطنة في الإنسان ليست دائمًا هي الحقيقة الواقعة المتمثلة في سلوكه الواقعي، فحين

(١) محاضرة ألقاها الدكتور في منى بمكة المكرمة في موسم الحج.

(٢) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الموسم الثقافي لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت بالتعاون مع جامعة الكويت.

يكون سلوك الإنسان الخارجي صورة لحقيقته الداخلية يكون الإنسان إنساناً حقيقياً، ويكون المجتمع المتكون من هؤلاء الأفراد مجتمع إنسانياً، وحين تكون حياة الإنسان واقعية مخالفةً لحقيقته الباطنية، نقول عنه بالتعبير الحديث: إنه إنسان مغترب، إنسان لم يجد نفسه، لم يجد ذاته، فبقدر ما تكون حياة الإنسان الواقعية مطابقةً لحقيقته الإنسانية يكون إنساناً، وبقدر ما تكون مخالفةً لها يكون مغترباً عن ذاته، ويكون أقل من الإنسان، ثم يناقش الشيخ كيف نصل إلى هذا الإنسان الحقيقي؟ وكيف نصل إلى مجتمع يتكون من أناس كهؤلاء؟ أو من أناس قد حققوا على الأقل درجة ليست بالقليلة من حقيقتهم الإنسانية.

١١- العلاقة بين الفرد والمجتمع^(١).

تحدث الشيخ في هذا الدرس عن العلاقة بين الفرد والمجتمع وأيهم الثابت؟ أيهم الأصل؟ وذكر أن الفلاسفة الغربيين انقسموا في هذا إلى فلسفات كان لها نتائج حقيقية واقعية اجتماعية، انقسموا إلى فريقين جماعة قالوا: إن الأصل هم الأفراد، وإن وجودهم في المجتمع وجود طارئ عليهم، وقال الآخرون: لا بل إن الأصل هم الجماعة وأن الفرد لا يعني شيئاً من غير جماعة.

فالقول الأول: أدى إلى الرأسمالية.

والثاني: أدى إلى الاشتراكية.

وختم الشيخ محاضرتَه بأن الذي نشاهده في الناس حتى من كانوا ليسوا مؤمنين نرى فيهم بذرة هذه الأخوة، فالإنسان عنده عطف وعنده حتى نوع من

(١) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

التضحية لما هو قريب منه سواء كان الوالدان، أو كان من الأولاد، أو كان من الأصدقاء؛ بل أحياناً يشعر الإنسان بالعطف حتى لو كان ليس مؤمناً يشعر بالعطف، ويحب أن يساعد من يراه من الناس مسكيناً ويشعر بالسعادة في هذا، وكل هذا من الفطرة التي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِمْ.

١٢- العمل الجماعي الإسلامي^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن العمل الإسلامي الجماعي بوصفه أو باعتباره أداة من أدوات التغيير، وقد بدأ محاضراته بمقدمة عن التصور الإسلامي العام لمسألة التغيير، ثم تحدث عن بعض مسوغات العمل الإسلامي الجماعي.

١٣- القرآن الكريم كلام الله تعالى^(٢).

تحدث الشيخ في هذا الدرس عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فكان هذه الآية تعطي الناس دليلاً عقلياً على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، يعني كأنها تقول لهم: إذا أردتم أن تعرفوا بعقولكم أن هذا القرآن هو كلام الله وليس كلام أحد من البشر، فتدبروه وستجدون أنه لا اختلاف فيه، والاختلاف معروف أن يقول القائل كلاماً في مكان، ثم ينقضه أو يقول كلاماً مختلف عنه في مكان آخر والسبب هذا النوع من الاختلاف، والتناقض هو أن البشر ليس كاملين، الإنسان يقول كلاماً ثم

(١) محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا.

(٢) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

ينسى ما قال فيقول كلامًا مختلفًا عن الذي قاله، أو يقول كلامًا يناقضه ويكون جاهلاً بأن ما قاله الآن يتناقض مع ما قاله بالأمس، أو قبل شهر أو كذا وكل هذا لا يتناسب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم بكل شيء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا ينسى فلا يمكن أن يكون في كلامه نوع من التناقض.

١٤- المسلمون في الغرب^(١).

تحدث الشيخ عن واقع المسلمين في الغرب، وذكر الواجب المتعين عليهم في الالتزام بدينهم ودعوة الغرب إلى الإسلام بأسلوب يجعلهم يدخلون فيه ويقبلون عليه.

١٥- أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها^(٢).

تحدث الشيخ عن أهمية العقيدة وأثر الاعلام الغربي عليها وقد ذكر الشيخ بعض الأمثلة والتي منها:

١- التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي أن تكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون يارجاعها إلي سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي.

٢- مبدأ النسبية: أعني نسبية الحقائق، والقيم: لقد أصبح من المسلمات

(١) ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢هـ، مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي.

(٢) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي إنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها، وهكذا.

٣- الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية.

٤- الهجوم على المسلمين ولا سيّما العرب، باتهامهم بعدم الأصالة وبعدم المقدرة على التحضر، وبالإرهاب، بل وبالتواكل وبالقدارة، ثم يقال: إن سبب هذا كله هو الإسلام وغيره من الآثار الأخرى.

١٦- أين الخلل؟^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن موضوع الخلل في الأمة الإسلامية؛ وذلك من خلال الاجابة على بعض الأسئلة التي أورده وهي: أين الخلل؟ ما الذي حدث لهذه الأمة؟ وما العمل؟ كيف نصلح هذه الأمة؟

١٧- عوامل انحطاط الأمة الإسلامية وسبيل النهوض بها^(٢).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن إن الانحطاط بعد الارتفاع عقوبة، إنه زوال نعمة، وقد بين القرآن الكريم السبب الأساسي لزوال النعمة: «ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، ثم ذكر أن السبب الأساسي لانحطاط المسلمين بعد

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.
(٢) ندوة شارك فيها الدكتور جعفر في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا بالاشتراك مع اسماعيل راجي الفاروقي رَحِمَهُ اللهُ.

ارتفاعهم وتقدمهم لا بُدَّ أن يكون كاملاً في أنفسهم، والتوجيه القرآني، تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، فالسبب الأساسي سبب إرادي، إنه ليس شيئاً مفروضاً على الأمة من خارجها.

١٨- فرفرة دجال^(١).

وهذه المحاضرة رد على أفكار الترابي بشيء من الصراحة والوضوح.

١٩- منهج أهل السنة في التغيير السياسي^(٢).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن قواعد تمثل منهج أهل السنة والجماعة في التغيير السياسي ثم ذكر المخالفات والأخطاء التي يرتكبها بعض الدعاة والحركات الإسلامية في هذا الباب.

٢٠- موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى^(٣).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى والذي لخصه في سؤال واحد هو: سلام أم صدام؟ ثم ذكر أن الموقف الذي يراه هو أن يجنح المسلمون إلى السلام، وأن يكونوا من الدعاة المخلصين له لا أعني هنا السلام مع إسرائيل، وإنما أعني موقف الإسلام عامة من الحضارات والأديان الأخرى، أن يكون موقفهم هو موقف السلم، وأن يكون مع ذلك مستعدين استعداداً كاملاً للصدام؛ لأن هذا في رأي لا يتناقض مع ذلك.

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١/٣/١٤٢٧ هـ الموافق ٢٥/٤/٢٠٠٦ م.

(٢) محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا.

(٣) محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦ هـ.

٢١- موقف المسلم من حكومات العالم الإسلامي^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن أنواع الحكومات، ثم ذكر موقف المسلم منها.

٢٢- ندوة التعاون الإسلامي^(٢).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن التعاون لنصرة الإسلام، وذكر نوعاً آخر من التعاون، وهو التعاون مع الحكومات، وهو من أهم أنواع التعاون، وقال الشيخ جعفر أنا أذكر كلمة لشيخنا الشيخ عبدالعزيز بن باز مرة قال: «كان يتكلم وينصح الحجاج، ويتكلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وقال: «من أهم وسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الاتصال بالحكومات وإن كانت كافرة».

٢٣- ندوة تجديد الفكر الإسلامي^(٣).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن تجديد الفكر الإسلامي، وذكر أن الإسلام هو ديننا، والدين يراد به معنيان: يراد به ما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ من كتاب وسُنَّة، والدين بهذا المعنى لا يبلى ولا يحتاج إلى تجديد، فهو تكفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه، ويراد بالدين أيضاً: ما يدين به الناس ويعتقدونه، ما يدين المنتسبون إلى الإسلام ويعتقدونه، وهذا الذي يعتقده

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في المنتدى الإسلامي بلندن - بريطانيا.

(٢) ندوة في المنتدى الإسلامي بلندن.

(٣) ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والأستاذ محمد قطب والدكتور جعفر شيخ إدريس.

الناس قد يبلى، وقد تحدث فيه انحرافات وهو الذي يحتاج إلى تجديد، وتجديده يكون بجعله موافقاً للدين الذي أنزله الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وأنواع البلى والتغير هي التي تصيب الدين بالمعنى الثاني.

٢٤- نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن ما المنهج الإسلامي في النظر إلى الواقع سواء كان واقعاً إسلامياً أو غير إسلامي، ثم تحدث عن الخصائص التي يمتاز بها الناظر المسلم، ثم ذكر الشيخ الأسباب الحقيقية لسقوط الخلافة.

٢٥- هل الإنسان يولد ومعه علم^(٢).

تحدث الشيخ في هذا الدرس عن أن الإنسان يولد وهذا الدين في فطرته، لكنه لم يتحول إلى علم وإنما هو كالبذرة التي تنمو مع نمو عقل الإنسان وتكتمل بما يأتيه به رسل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فالإنسان يكتسب العلم، والعلم المكتسب هذا يحصل بواحد من هذه الوسائل الثلاثة السمع والبصر والفؤاد، أو قل الحس والعقل.

٢٦- وجود الخالق **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**^(٣).

تحدث الشيخ في هذا الدرس عن معنى الآية ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْفُونَ** ﴾^(٣٥) **أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ** ﴿ [الطور: ٣٥-٣٦]، فكان

(١) محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا.

(٢) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

(٣) في برنامج آية وقضية في قناة دليل.

هذه الآية فيها دليل من أقوى الأدلة العقلية لعلها أقوى دليل عقلي على وجود الخالق، فكان الآية تقول للمؤمنين لا يؤمنون بوجود الخالق: «إذا لم يكن هنالك خالق هو الذي خلقكم فكيف جئتم» ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يعني خلقوا من غير شيء خلقهم كما يقولون في التفسير، يعني جئتم من العدم ما فيه شيء خلقكم، ما فيه إنسان عاقل يقول مثل هذا؛ لأنه من العدم لا يأتي شيء من العدم لا يكون إلا عدم، لا يمكن أن يكون لا شيء، لا شيء، ثم فجأه يأتي شيء من هذا العدم؛ وكذلك ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني إذا لم تكونوا قد جئتم من العدم هل أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟! أيضًا الإنسان العاقل يقول: هذا مستحيل؛ بل هذا تناقض؛ لأنني لكي أخلق نفسي لا بد أن أكون أولاً موجوداً، وإذا كنت موجوداً فأنا لا احتاج لأن أخلق، فالقول بأن الشيء يخلق نفسه كلام متناقض.

٢٧- تصور إسلامي للتعایش السلمي^(١)؛

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن الحقائق والمبادئ الإسلامية التي يقوم عليها التعایش السلمي بين الأديان، ثم ذكر بعض النماذج التاريخية للتسامح عند المسلمين، وختم الشيخ مقاله بالحاجة إلى التعایش في هذا العصر.

٢٨- أصول إسلامية للعلاقات الدولية^(٢).

تحدث الشيخ في هذه الندوة عن الأصول الإسلامية التي تؤسس عليها

(١) كتاب صراع الحضارات للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٨٢).

(٢) وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في ندوة الإسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة، تايبيه -

بتايوان، ١٤٢٥ هـ - الموافق ٢٠٠٤ م.

العلاقات الدولية، ثم تحدث الشيخ عن الإنسان في التصور الإسلامي وأنه مخلوق مفلطح على الخير، فكل ما فيه من شر أمر طارئ عليه يمكن تنقيته منه، ويبيّن الآثار السياسية لهذا التصور.

٢٩- وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام^(١).

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن المسؤولية في تحقيق الوحدة بين المسلمين: مسؤولية الحكومات، مسؤولية العلماء، مسؤولية المنظمات الإسلامية الرسمية، مسؤولية المنظمات الإسلامية الشعبية، مسؤولية وسائل الإعلام، مسؤولية الشعوب.

٣٠- بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام

الحضارات^(٢).

تحدث الشيخ في هذه الندوة عن بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات.

(١) وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في مؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظّمته رابطة العالم الإسلامي سنة ٢٠٠٥م.

(٢) وهي ورقة عمل قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس لندوة العالم وثقافة الكراهية حول التعصب والهيمنة وصراع الثقافات، والذي شارك فيها مع الدكتور جعفر كل من الدكتور علي النملة، والدكتور محمد الجوز ضمن ندوات المهرجان الثاني والعشرين للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بالبحرين عام ١٤٢٩هـ - الموافق ٢٠٠٨م.

٣١- الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما

تلاها^(١).

تحدث الشيخ في هذه الندوة عن علاقة الثقافة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأنها وثيقة، ثم تحدث عن أنواع الثقافات وهي: الثقافة الإنسانية، والثقافة العصرية، والثقافة المحلية، وأشار إلى أن الإسلام هو الثقافة الإنسانية؛ لأنها هي الثقافة التي تمثل جوهر الإنسان، وجوهر الإنسان هو أن يكون عبداً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها، بعنوان (الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها) وشارك مع الدكتور جعفر الدكتور سامي الدلال والتي عقدت في الدوحة - قطر، من ٢٠-٢٢ يناير ٢٠٠٣ م.

فوائد بحوث ودراسات وكتب الثقافة

فائدة: المنهج السليم في فهم الموضوعات الواردة في القرآن الكريم:

القرآن الكريم ليس كتابًا موبًا حسب الموضوعات بالطريقة المألوفة لدينا، فأسماء السور مثل نوح، وإبراهيم، ومريم، ومحمد... إلخ لا تقتصر فقط على موضوعات تتعلق باسمها، ولكن الاسم يدل على إشارة وردت داخل السورة. فموضوع كالحرب والسلام -على سبيل المثال- يمكن أن نجد إشارات له في العديد من السور، وهذا يرجع إلى أن آيات القرآن قد نزلت على النبي ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عامًا. ولتكوين صورة شاملة ونزيهة عما ذكره القرآن حول موضوع معين، فإن على المرء:

أولاً: أن يحصي الآيات المختلفة في السور المختلفة التي أشارت إلى الموضوع.

وعليه ثانياً: أن يفهم كل آية من هذه الآيات في سياقها النصي والتاريخي. وثالثاً: عليه أن ينظر إليها في إطار السياق العام للمبادئ والأهداف الرئيسة للدين الإسلامي.

ثم أخيراً: ينظر إلى تفسير هذه الآيات من خلال أقوال وأفعال النبي ﷺ. وبعد هذا الوصف لطبيعة الآيات القرآنية، فإنه من السهل على أي شخص أن يستدل بآية أو بعدد من الآيات، لكي يورد دليلاً محرفاً لما نص عليه الإسلام حول أمر معين.

فعلى سبيل المثال، يمكن أن يقول قائل إن الإسلام يأمر المسلمين بقتل أي شخص غير مسلم أينما وجد، ويستدل بالآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَثْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]؛ كذلك يمكن لآخر أن يقول: إنه لا وجود للحرب في الإسلام ويستدل بالآية: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] (١).

هائدة: الإكراه في الدخول في الإسلام مستحيل:

الدين الإسلامي قد قرر أنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقد ذهب بعض المفسرين الأوائل للقرآن الكريم إلى هذه الآية تقرر حقيقة أن الأمر بعدم الإكراه مبني على هذه الحقيقة، والمعنى: أنه من المستحيل إكراه شخص وإجباره على أن يكون مسلمًا حقيقيًا، ولذا فيما الجدوى من محاولة المستحيل، وهذه الحقيقة هي واحدة من تلك التي تستوجبها طبيعة رسالة الإسلام نفسها. فما هي هذه الرسالة؟ الكلمة العربية (إسلام) لا تعني فقط الدين الإسلامي، إنها تعبير في جوهره، يعني الاستسلام لله في العبادة وليس لأحد غيره.

وبحسب القرآن فإن هذه هي الرسالة التي جاء بها جميع أنبياء الله من نوح وإبراهيم إلى موسى وعيسى، وبصفة خاصة فهي الرسالة التي أمر محمد ﷺ، وهو آخر الأنبياء، بإبلاغها لكافة البشرية.

(١) الإسلام: دين سلام.. وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢٠٠٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٥٤).

ولهذا نقول: إن رسالة هذا النبي هي رسالة عالمية لكل الناس منذ اليوم الذي بعث فيه إلى قيام الساعة، وعلى أساس هذا الاستسلام لله بنيت كل التشريعات التي جاء بها جميع الأنبياء، والتفاوت في نوعية وحدود التشريعات يعتمد على الأحوال الخاصة بالقوم الذين أرسل إليهم كل نبي؛ ولأن محمداً ﷺ هو آخر الأنبياء وأرسل للبشرية جمعاء، فإن رسالته شاملة وعالمية، فهي لا تقتصر على زمن معين أو ثقافة معينة.

الإسلام أمر متعلق بالقلب وهو فعل إرادي يختاره الشخص بالإقرار والالتزام به طواعية، ولا يمكن أحداً إجبار أحد ليكون مسلماً. ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] (١).

هائدة: الله وحده المسيطر على القلوب:

هذا اعتقاد أساس في الإسلام، فالأنبياء لا يمكنهم إجبار الناس أن يكونوا مؤمنين. ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَقُّهُ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾، فالله يهدي أولئك الذين يستحقون الهداية ويعلم أنهم يقبلون الهدى، فهو لا يهدي الذين يعلم نيتهم رفض الهدى والإيمان.

(١) الإسلام: دين سلام... وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢٠٠٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٥٤).

وهذا يعني أن الله لا يرغم شخصاً ما على قبول الإيمان. والشيطان ليس في وسعه إرغام الناس على رفض الإيمان والهدى. ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَوَدْتُمْ فَأخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (١).

فائدة: الإسلام دين الأخلاق:

وصف القرآن الكريم الدين الإسلامي بأنه دين الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. هذا الأمر الفطري عند البشرية يتكون بصورة أساسية من إقرارهم بحقيقة أن الله وحده هو الذي يجب أن يُعبد. وهذا الأمر -أيضاً- مرتبط بكل ما هو حسن عند البشرية كالعقلانية والقيم الأخلاقية والحس الجمالي وهكذا.

فكلما كان الشخص أكثر إخلاصاً في عبادته لله، كان أكثر إنسانية ووجد أنه من السهل عليه التصرف بكل عقلانية وأخلاقية، فالقيم الأخلاقية أساس في دين الإسلام، والإسلام يأمر بقيم أخلاقية راقية مثل العدل وقول الحق والوفاء

(١) الإسلام: دين سلام... وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجها الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦هـ -الموافق ٢٠٠٥م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٥٤).

بالعهد ومساعدة المحتاجين والتراحم، وسهل كذلك الطريق للناس لكي يطبقوا هذه المبادئ بتقوية الوازع القلبي الذي يزيده من التمسك بالسلوك الأخلاقي، فلا عجب -إذن- أن يكون من أرسل لتبليغ هذا الدين قد وصفه الله عزَّجَلُ بأنه رحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن الانحراف عن المبادئ الأخلاقية هذه - لا سيَّما العدل - هو الذي يجعل الناس يلجؤون للنزاعات والحروب غير العادلة.

ولهذا فإن الإسلام يحض على الالتزام المطلق بهذه المبادئ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، وقد علق ابن كثير على هذه الآية بقوله: «هذا يعني أن العدل واجب على كل أحد مع كل أحد في كل حال»^(١).

فائدة: التعايش السلمي بين الناس:

إننا في زمن يختلف عن الأزمان السابقة، فالיום نرى الناس من مختلف المعتقدات والجنسيات والألوان والأعراف يجدون أنفسهم ملزمين بالعيش جنباً إلى جنب في قرية كونية حيث ترتبط صالحهم بعضهم مع البعض، لكنه في الوقت نفسه عالم به كميات هائلة مما يعرف بالأسلحة التقليدية التي يمكن أن

(١) الإسلام: دين سلام... وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيتاء للنشر عام ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢٠٠٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٥٤).

تحدث خرابًا هائلًا للبشر ومقومات الحياة على هذه الأرض، وهو عالم مليء بمخزون من أسلحة الدمار الشامل يكفي ما هو موجود منها في الولايات المتحدة وحدها للقضاء على الإنسانية كلها.

ويبدو أنه لا مناص للبشر -لتفادي هذه النتيجة المروعة- غير القبول بالعيش بسلام بعضهم مع البعض مهما كانت الخلافات بينهم، ولا يكفي مجرد رغبة سكان العالم في التعايش السلمي بل عليهم أن يعززوا من الحاجة إلى مؤسسات دولية تقوم بصون هذا السلام، لكن عليهم أكثر من ذلك الالتزام بالمبادئ الأخلاقية التي بدونها لن تعمل هذه المؤسسات بصورة جيدة.

(١) ينبغي أن تقوم المنظمات الدولية على العدل، وعلى الدول العظمى أن تعي أن هذا العدل في النهاية هو في مصلحة شعوبها، وهي مصلحة يجب الإقرار بها حتى تكون أكثر أهمية بالنسبة لهم من مصالحهم المادية، يمكن لأية دولة عظمى أن تستخدم قوتها الاقتصادية والعسكرية لقمع وإخضاع الدول الضعيفة، وأن تبرر ذلك الادعاء أن ذلك حماية لمصالحها القومية، وحقيقة الأمر أنه لا يوجد أدنى فرق أخلاقي بين هذا المنطق، وذاك الذي يقول به شخص قام بسلب ممتلكات شخص آخر بذريعة تحسين وضعه المعيشي.

(٢) سوف تفقد المؤسسات الدولية -مثل الأمم المتحدة- وظيفتها كوسيلة لصون السلم العالمي إذا ما أصبحت أداة في أيدي الدول العظمى، لكن وللأسف هذا هو الوضع الآن، وليس هذا هو الوضع الذي ارتضته الدول الضعيفة، ولكنه الوضع الذي أراده ممثلو الدول العظمى؛ بل أكثر من ذلك فهم

يتباهون به، إن هيمنة وجهات نظر الدول العظمى فيما يخص هيئة الأمم المتحدة قد عبر عنه في العام ١٩٩٢م فرنسيس فوكوياما -الذي عمل في وزارة الخارجية الأمريكية في فترة إدارة كل من الرئيسين السابقين رونالد ريغان وجورج بوش الأب- عندما ذكر أن الأمم المتحدة هي أداة لخدمة السياسة الأحادية للولايات المتحدة، وحقاً ربما يكون تكون الآلية الرئيسة التي يمكن بها تطبيق السياسة الأحادية هذه في المستقبل.

إن الغرب يحاول وسوف يستمر في محاولة الحفاظ على أوضاعه والدفاع عن مصالحه بحجة أنها تمثل مصالح (المجتمع الدولي)، لقد أصبحت عبارة (المجتمع الدولي) التي حلت محل عبارة (العالم الحر) في نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وسائر القوى الغربية الأخرى.

(٣) إن الالتزام بالمبادئ الأخلاقية -وعلى وجه الخصوص العدالة- هو الضمان الوحيد ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل، إن الدول الضعيفة لن ترى أنها بحاجة إلى امتلاك هذه الأسلحة إذا ما شعرت أن عدم امتلاكها لن يعرض بقاءها وسيادتها للخطر، وسترى أن من الحكمة إنفاق ما يُنفق على هذه الأسلحة على أشياء أكثر أهمية منها، ولكن إذا ما شعرت هذه الدول بتعرضها للإذلال بسبب عدم امتلاكها هذه الأسلحة فسوف تعمل جاهدة لامتلاكها مهما كان ثمنها وبغض النظر عن المعاهدات التي وقعتها في هذا الشأن.

(٤) المدفوعون بنزعة الهيمنة عليهم أن يتذكروا أن هناك الكثيرين

المدفوعين بغريزة حماية وصون كرامتهم وهي دافع أقوى مما لديه، فالكثيرون يمكن أن يضحوا بحياتهم من أجل كرامة شعوبهم.

(٥) ليست القيم الأخلاقية وحدها التي يمكن أن تكبح أولئك الذين يمتلكون قوة عسكرية هائلة عن عدم استخدامها بصورة جائرة، وبفضل التطور الذي حدث في الأسلحة وصناعتها يمكن أن نرى قريباً أفراداً أو مجموعات صغيرة تمتلك أسلحة صغيرة الحجم، ولكنها ذات دمار شامل وليس من الصعوبة الوصول إليها.

(٦) لا ينبغي استخدام الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية الأخرى كمنار تستغلها الدول العظمى لفرض قيمها - وبخاصة القيم العلمانية - أو غيرها، إن أعضاء منظمة الأمم المتحدة لا يتمون لمختلف البلدان فحسب، بل لمختلف الثقافات والقيم والمعتقدات، ولكي يجتمع هؤلاء الناس تحت مظلة واحدة ويتعاونوا على مواجهة المشكلات فإنه من الضروري جداً لهم أن يعترفوا بهذه الاختلافات الجوهرية، وأن يلجؤوا للوسائل السلمية لحل هذه الخلافات، إن التغيير الثقافي سواء كان للأفضل أو الأسوأ يأتي تدريجياً واختيارياً، وإن استخدم منظمة مثل هيئة الأمم المتحدة لإحداث التغيير الثقافي للشعوب سوف يولد نوعاً من عدم الاحترام لهذه المنظمة، وبالتالي يشجع الدول على عدم الالتفات إلى قراراتها، وإنه لمن المؤسف أن هناك الكثيرين في الغرب الذين يعتقدون أن أسلوب حياتهم هو الأسلوب الأمثل لكل من ينشد حياة عصرية.

إنهم ببساطة يريدون من الآخرين أن يختاروا النظام السياسي الذي اختاروه

هم، وأن يفسروا الدين بالطريقة التي يفسرون بها الدين، وأن تكون العلاقات بين الجنسين هي العلاقة السائدة في مجتمعاتهم، وأن يمتنعوا عن التصرف بأية طريقة تعتبرها دولة - مثل الولايات المتحدة - لا تخدم مصالحها القومية^(١).

فائدة: تعريف الإرهاب:

تقول جماعة أمريكية معنية بدراسة الإرهاب: إن الإرهاب بطبيعته أمر يصعب تعريفه... حتى حكومة الولايات المتحدة لم تستطع أن تتفق على تعريف واحد. فالمثل السائر يقول: إن الإرهابي عند شخص هو مناضل من أجل الحرية عند شخص آخر.

تعرف موسوعة Encarta الإلكترونية الأمريكية الإرهاب بأنه:

«استعمال العنف، أو التهديد باستعمال العنف، من أجل إحداث جو من الذعر بين أناس معينين. يستهدف العنف الإرهابي مجموعات اثنية أو دينية، أو حكومات، أو أحزاب سياسية، أو شركات، أو مؤسسات إعلامية».

أما الكونغرس الأمريكي فيعرف الإرهاب بأنه:

«عنف واقع عن قصد وترو وبدوافع سياسية تستهدف به منظمات وطنية،

(١) الإسلام: دين سلام... وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناه للنشر عام ١٤٢٦هـ - الموافق ٢٠٠٥م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٥٤).

أو عملاء سريون جماعة غير محاربة يقصد منه في الغالب التأثير على مستمعين أو مشاهدين».

وأما وكالة التحقيقات الفدرالية: «F.B.I. فتقول عن الإرهاب إنه استعمال -أو التهديد باستعمال- غير مشروع للعنف ضد أشخاص أو ممتلكات لتخويف أو إجبار حكومة أو المدنيين كلهم أو بعضهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية. في هذه التعريفات كلها خلل أساس هو نسيانها أو تناسيها للمعنى اللغوي الأصلي للكلمة وهو معنى تتفق عليه الكلمتان الإنجليزية والعربية.

يقول لنا أحد قواميس اللغة الإنجليزية إن كلمة Terror تعني: «استعمال العنف لتحقيق أغراض سياسية ثم يعطينا على هذا الاستعمال مثلاً بجملة تقول: «إن حركة المقاومة بدأت حملة من العنف Terror ضد قوات الاحتلال».

فالإرهاب إذن قد يكون أمراً مشروعاً ومحموداً، وبهذا المعنى المحمود المشروع استعملت الكلمة في القرآن الكريم. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا اللَّهَ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فكلمة الإرهاب هي إذن ككلمات القتال والحرب قد تدل على معنى محمود كما قد تدل على معنى مذموم بحسب نوع الإرهاب أو القتل أو الحرب.

وعليه، فلكي تؤدي المعنى المذموم الذي يراد لها أن تؤديه في الاستعمال الذي بدأ يشيع الآن، فلا بُدَّ من تقييدها بوصفٍ مثل العدواني أو الظالم، هذا أمر لازم ولا سيّما للمسلمين، إنه لا يجوز أبداً أن نحصر كلمة الإرهاب في المعنى

المذموم ما دام كتاب ربنا قد دل على أنها يمكن أن تستعمل بمعنى محمود.
لذلك أعود فأقترح أن نقيّد المعنى المذموم للإرهاب بأنه الإرهاب
العدواني، وأنذاك سيكون معناه الأساس واضحاً، أما الزيادات التي تجعل التعريف
اصطلاحياً فيبدو أنه ليس من الصعب الاتفاق عليها، ولا سيّما إذا قلنا كما يقول
بعض دارسي الإرهاب في الولايات المتحدة إن التعريفات الاصطلاحية تختلف
باختلاف الغاية منها.

فتعريف الكونغرس يقصد منه إحصاء العمليات الإرهابية في العالم،
وتعريف وكالة الاستخبارات يقصد منه تتبع المعتدين على الولايات المتحدة.

نعم، سيبقى هنالك اختلاف فيما يعد مشروعاً وما لا يعد، لكن هذا أمر
يرجع إلى ثقافات الناس وأديانهم وفلسفاتهم، وهي أمور يمكن أن يدور فيها
حوار عقلائي راشد، فمهمتنا إذن باعتبارنا مسلمين أن نبين للعالم ما الذي نعده
إرهاباً عدوانياً، وكيف نقي الناس شر هذا العدوان^(١).

فائدة: العلاج الإسلامي لمشكلة الإرهاب:

إن الإسلام هو أبعد شيء عن إرهاب الناس وترويعهم وقتلهم، إنه حين
يفعل ذلك ببعضهم إنما يفعله ردّاً على عدوانهم أو إيقافاً له أو عقاباً على جرم
ارتكبه، وإن هذا الدين لا يكتفي بإدانة الإرهاب العدواني؛ بل يتعدى ذلك إلى

(١) الإسلام والإرهاب، ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وانظر كتابي:

جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع،

الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٦٧).

وضع وسائل لعلاجه، فهو يعالجه علاجًا نفسيًا علميًا، وعلاجًا تنظيميًا،
وعلاجًا عقائبيًا، وعلاجًا إصلاحيًا.

العلاج النفسي العلمي: العلاج النفسي هو العلاج الأساس؛ وذلك لأن
أعمال الناس خيرها وشرها إنما مبعثه تصوراتهم ومعتقداتهم وقيمهم وعلومهم.
فالإسلام يعالج كل أنواع الظلم البشري بهداية الناس إلى الإيمان بالله تعالى الذي
هو أساس كل خير فيها، والذي هو أهم مكون للفطرة التي فطر الله الناس عليها،
فإذا ما ذاقت النفس حلاوة الإيمان سهل عليها العمل بالطاعات واجتناب
المنهيات.

ثم تأتي العبادات التي هي أقوى داعم للإيمان، وأهمها الصلاة «إن الصلاة
تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر»، فإذا ما تهيأ القلب هكذا لاستقبال
أوامر الله ونواهيه، جاءت الأوامر التي تفصل له أعمال الخير كي يأتيها وتفصل
له أعمال الشر كي يجتنبها.

الهدى الإلهي المتمثل في هذه الأوامر والنواهي شامل لكل شأن من شؤون
الحياة الإنسانية بما في ذلك شأن الإرهاب والقتال، فنحن مأمورون بأن يكون
جهادنا - الشامل للإرهاب والقتال - خالصًا لإعلاء كلمة الله تعالى، وأن يكون
لذلك في حدود القيم الرفيعة التي يحبها الله تعالى، وألا يتجاوزها إلى الوقوع فيما
لا يرضي الله عز وجل من الظلم والبغي والكذب والغش والغدر، واتباع أهواء
الغضب والانتقام للنفس، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلَاحِظُونَ سَعْيَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ

وَلَا أَلْتَمِدْ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠﴾ [المائدة: ٢٠]، مما قاله الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي ولا يحملنكم بغض من كانوا صدوكم عن المسجد الحرام؛ وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد... فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال».

قال بعض السلف: «ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السماوات والأرض».

هذه الموقف الإسلامي الداعي إلى العدل وإلى عدم العدوان ليس موقفاً تكتيكياً مؤقتاً وإنما هو موقف نابغ من أصل هذا الدين وطبيعته، وذلك: أولاً: لأن هذا الدين - كغيره من أديان الحق التي بعث بها رسل الله تعالى - إنما هو دعوة إلى تعريف الناس بربهم وهدايتهم إلى عبادته، وأن يعيشوا بهذه العبادة سعداً في هذه الحياة الدنيا، وفي الدار الآخرة.

ثانياً: لكن الاهتداء الحقيقي أمر قلبي لا يجدي معه ترويع أو تهديد بالحق أذى أو بقتل، وإنما الذي يجدي معه - لمن كان مستعداً للهداية - أن يعرف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ معرفة يستقينا قلبه.

ثالثاً: ولذلك كانت المهمة الأولى لرسل الله جميعاً - بما فيهم رسولنا الكريم - ومهمة أتباعهم الراشدين من بعدهم هي تبليغ هذا الحق تبليغاً بيناً،

والمجادلة عنه بالحجج والبراهين التي تزهر كل شبهة تثار حوله.

وعليه، كان الجهاد الأول والدائم هو الجهاد بالقرآن. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ، جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

رابعاً: ولهذا كان للمتسبب في هداية إنسان إلى هذا الحق أجر عظيم، دونه أجر قتله حتى حين يكون القتل مشروعاً.

روى البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ عِدَا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَيَّ يَدِيهِ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَنَّهُمْ يُعْطَى فَعَدَّوْا كُلَّهُمْ يَرْجُوهُ، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيٍّ، فَقِيلَ: «يَسْتَكْبِي عَيْنِي»، فَبَصَقَ فِي عَيْنِيهِ وَدَعَا لَهُ فَبِرًّا كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: «أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا»، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَيَّ رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرَ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»، قَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي (الفتح) معلقاً على هذا الحديث: «يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله».

خامساً: وبما أن حال السلم حال أدمى إلى الاستماع والنظر والتفكير في الإسلام حين يعرض على من لم يسلم فإنها مفضلة في الإسلام على حال الحرب. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، وسمى الله تعالى صلح الحديبية فتحاً. فأى فتح كان؟

يجيبنا الزهري بقوله: «فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديدية، إنما كان القتال حيث التقى الناس. ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وآمن الناس كلّم بعضهم بعضًا، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكَلِّم أحد بالإسلام يعقل شيئًا في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر».

قال ابن حجر مؤيدًا للزهري: «فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام، جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية».

وقال ابن هشام أيضًا مؤيدًا للزهري: «وبدل عليه أنه ﷺ خرج في الحديدية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد ستين إلى فتح مكة في عشرة آلاف».

نستخلص من كلام هؤلاء العلماء الثلاثة: «إن الفتح تمثل أساسًا في كثرة عدد من دخلوا في الإسلام بسبب الصلح»، وقد يسأل سائل: إذا كان السلم والصلح والموادعة هي خيار الإسلام، فلماذا إذن يدعو إلى إعداد القوة الحربية؟ ولماذا إذن يدعو للجهاد القتالي ويجعل للمجاهدين تلك الدرجات العالية التي نعرفها؟

الجواب يسير: إن الله تعالى الذي خلق الخلق يعلم أن بعضهم لا يكتفي بالكفر بالحق، بل إنه ليكرهه ويكره المستمسكين به ويبدل أقصى ما في وسعه لعدم انتشاره. لا بُدَّ للحق إذن من قوة مادية تحميه وتحمي المستمسكين به من مثل هذا

العدوان. فالجهاد إنما شرع لمحاربة المعتدين، بل وحتى لمحاربة البغاة من مسلمين، لكن الإسلام يضع حتى لمثل هذا القتال المشروع من الضوابط الخلقية ما لا يضعه الفكر الغربي لما يسميه بالحرب العادلة. من ذلك:

﴿الأمم بالعدل حتى مع الأعداء وعدم العدوان عليهم، وأنهم لا يقتلون أو يقتلون بسبب كفرهم بل بسبب عدوان المعتدي منهم على الدين الحق، أو على المستمسكين به.﴾

﴿تشجيع المقاتلين على قبول السلم والمساواة إلى قبوله إذا ما عرضوه.﴾
﴿عدم الغدر.﴾

العلاج التنظيمي: إن المسلمين مأمورون بأن يجاهدوا عدو الله وعدوهم، وأن يدفعوا عن دينهم وأنفسهم، لكن الجهاد عمل جماعي لا يستقل به فرد أو بعض أفراد، ولا يؤتي ثماره إذا صار عملاً فردياً، ولا سيما جهاد عدو قوي يملك من العدد والعدة الشيء الكثير، لذلك كانت أمور الحرب في الإسلام مهمة الدولة المسلمة، فهي التي تقرر زمانه ومكانه وهي التي تزن مضار القتال ومصالحه في كل حال من الحالات، في ضوء إمكاناتها وإمكانات عدوها، تفعل ذلك كله بعد استشارة الناس؛ لأن أمر القتال يهمهم جميعاً ويؤثر فيهم جميعاً.

هكذا كان يفعل الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، ثم كثير ممن أتى بعدهم من ولاة أمور المسلمين، ولا يشترط في التعاون مع ولي الأمر الذي يؤدي هذه المهمة نيابة عن الأمة أن يكون حاكماً عادلاً صالحاً؛ بل إنه ليقاتل معه وإن كان فاجراً.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا بُدَّ للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة». قالوا: هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ فذكر من فوائد الفاجرة أنه يُجاهد بها العدو، لكن بعض إخواننا صاروا يفتنون في السنين الأخيرة بأنه يجوز حتى للأفراد أن يتولوا قتال الأعداء مستقلين عن الحكام، وهم يستدلون على جواز ذلك بقصة أبي بصير.

وهذا من عجائب الاستدلال الذي يوشك أن يكون من اتباع المتشابه، إذ كيف تؤخذ حادثة واحدة دليلاً على مخالفة أمر تضافت على تقريره النصوص القولية والتطبيقات العملية؟ وكيف حين يجعل هذا قاعدة مطلقة لا استثناء مقيداً بشروط؟ على أن المتأمل في قصة أبي بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لا دليل فيها على ما سيقمت لتسويغه، فأبو بصير لم يكن -من الناحية الرسمية كما يقال اليوم- تابعاً للمجتمع الإسلامي ولا خاضعاً لسلطته، وإنما كان تحت سلطة كافرة منعه من حق من حقوقه، وهو الانتقال إلى بلاد المسلمين التي هداه الله للدخول في دينهم، فلما منعه من ذلك تمرد عليهم وأتعبهم حتى أجابوه إلى طلبه، فلما التحق بالمجتمع المسلم وصار تحت قيادة الرسول ﷺ كف عن فعله.

فالاستدلال الصحيح بقصة أبي بصير يكون على أفراد في مثل حاله تابعين لدول كافرة تمنعهم ظلماً وعدواناً من الهجرة إلى بلاد المسلمين، ويرون أنفسهم قادرين على إلحاق الأذى بدولتهم المعتدية إلحاقاً يجبرها على الاستجابة لهم، ولا يلحق بالمجتمع المسلم ضرراً.

يقول بعضهم: لكن الرسول ﷺ هو الذي أشار لأبي بصير أن يفعل ما فعل،

وإن كانت إشارته بطريقة غير مباشرة. ونقول: إنه ليس في هذا أيضًا دليلًا على جواز أن يتولى الأفراد أمر القتال مستقلين عن الجماعة المسلمة متمثلة في ولاية أمرها؛ لأنه إذا كان أبو بصير قد فعل ما فعل بإشارة من النبي ﷺ لم يعد فعله أمرًا فرديًا؛ لأن الذي يؤدي عملاً من أعمال الجهاد بأمر ولي الأمر يكون عمله ضمن خطة عامة فلا يكون إذن عملاً فرديًا.

يقول بعضهم: ماذا إذا لم يكن الحكم في بلدنا إسلاميًا. نقول: انتقل إلى بلد يكون الحكم فيه إسلاميًا، وإن لم تستطع فعد نفسك تابعًا له حيثما كنت.

يقول بعضهم: ماذا إذا لم يكن على وجه الأرض كلها حاكم مسلم؟ نقول: هذه إن صحت تكون مشكلة أكبر من قتال الكفار، فالعمل على علاجها يكون مقدمًا على القتال، اللهم إلا إذا كان القتال دفعًا لعدو غزا المسلمين في عقر دارهم. العلاج الحسي: وأعني به إجبار الإرهابي المعتدي على إيقاف اعتدائه ومعاقبته على الاعتداء، لعل أقرب مثال إلى الإرهاب العدواني بمعناه الاصطلاحي الحديث: هو عدوان أهل البغي. فهؤلاء أيضًا جماعة تخرج على الحاكم المسلم الشرعي وتقاتله بغرض إزالته، أو تقاتل جماعة أخرى من المسلمين. فالله تعالى يأمرنا بأن لا نقف مكتوفي الأيدي في مثل هذه الحال بل نقاتل الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» وبالطريقة التي فصلها لنا الله تعالى في قوله: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما...».

العلاج الإصلاحي: وأعني به فتح باب الأمل أمام مرتكب العدوان، وعدم

تثبيسه من الكف الطوعي عن عدوانه وهذا يكون بأمرين:

أولهما: أن يكون العقاب عادلاً لا يتجاوز الحد، وإلا كان هو نفسه ظلماً وعدواناً.

وثانيهما: ألا يكون العقاب نهاية المطاف، بل يعقبه استعداداً للتفاوض مع المعتدي ومصالحته وقبوله. إن إغلاق باب التوبة والأوبة على المعتدي من شأنه أن يغريه بالاستمرار في عدوانه، إما دفاعاً عن نفسه وإما يأساً من وجود مخرج. ولهذا فتح الله تعالى هذا الباب حتى للمفسدين في الأرض المحاربين لله ورسوله، فقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] (١).

فائدة: نسبية الثقافة،

تعرف حقوق الإنسان بأنها حقوق للإنسان بما هو إنسان لا بما هو منتم إلى عنصر أو دين أو مكان معين، يلزم عن هذا المفهوم لحقوق الإنسان أن هنالك قيماً أخلاقية عالمية مطلقة هي الحاكمة على الثقافات والعادات والتقاليد المحلية، لكن من الكتاب الغربيين أنفسهم من ينكر هذا ويقول: «إن المعايير الخلقية معايير نسبية. فلكل أهل ثقافة» (وهي عبارة تشمل الأديان والقيم والعادات والتقاليد) الحق في أن يقوموا الأمور بمعاييرهم، ولا يحق

(١) الإسلام والإرهاب، ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٦٧).

للآخرين أن يحاكموهم إلى معاييرهم هم أو يفرضوها عليهم، وبعدون هذا نوعاً من الاستعمار الثقافي.

وعليه، فإنهم يرون أن ما يسمى بحقوق الإنسان إنما يعبر عن وجهة نظر حضارة معينة هي الحضارة الغربية، وأنه لا يجوز لذلك أن يفرض على أصحاب الثقافات الأخرى، بما في ذلك الثقافة الإسلامية. القول بنسبية الثقافة هذا مما ينكره الكتاب الذين أناقش آراءهم، وأنا معهم في هذا الإنكار كما سأبين بعد، لكنني أعلم أن القول بالنسبية يعجب نوعين من المسلمين: يعجب بعض الإسلاميين المخلصين لدينهم الكارهين للتسلط الغربي؛ لأنهم يرون فيه إنصافاً للإسلام، وتعليلاً معقولاً لمخالفته لبعض ما ورد في الإعلان عن حقوق الإنسان، بل قد يرون فيه المخرج الوحيد للإسلام من تهمة إنكاره لبعض حقوق الإنسان، لكنه يعجب أيضاً بعض الحكام؛ لأنه يعطيهم مسوغاً لبعض اعتداءاتهم على هذه الحقوق، مع أنهم لا يرتكبون هذه الاعتداءات في الأصل لأسباب دينية، أو انطلاقاً من قيم محلية، وإنما لتحقيق مآرب شخصية، لقد ظن كثير من الكتاب، من الإسلاميين ومن الغربيين ممن اهتموا بقضية حقوق الإنسان في الإسلام، أن هنالك موقفين لا ثالث لهما:

- فإما أن تنكر النسبية الثقافية، فتكون نصيراً للإعلان عن حقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة.

- وإما أن تقول بالنسبية الثقافية وتجعلها مستنداً لك في دعواك بإنكار الإسلام لبعض تلك الحقوق، لكن الحقيقة المبشرة أن هنالك موقفاً ثالثاً، هو في اعتقادي الموقف الإسلامي الصحيح.

ملخص هذا الموقف: هو أنه لا تناقض بين قول الإنسان بوجود قيم خلقية عالمية تعد معيارًا لتقويم القيم المحلية، وبين قوله بأن بعض ما يدعى بأنه قيم عالمية ليس في الحقيقة عالميًا، بل هو معبر عن ثقافة أو حضارة معينة. إنه لا يلزم من إقراري بوجود قيم عالمية مطلقة، الإقرار بعالمية كل ما ادعى له العالمية. ثم إن القول بنسبية الحقيقة أو القيم الخلقية يتناقض مع القول بعموم الرسالة المحمدية. إن عموم الرسالة يعني أن ما جاءت به من حقائق وقيم هي أمور مطلقة صالحة لكل البشر بما هم بشر. إن كثيرًا من نصوص الكتاب والسنة تؤكد بأن للبشر جميعًا فطرة واحدة فطرهم الله تعالى عليها، وأن الإسلام هو دين هذه الفطرة.

وهذا يعني أن كل ما جاء به من عقائد وعبادات وقيم سلوكية ونظم اجتماعية موافق لهذه الفطرة البشرية. قَالَ تَمَّالِي: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] (١).

فائدة: عالمية حقوق الإنسان

للعالمية معنيان ليسا بمتلازمين؛ فهي قد تعني: كون الشيء موجودًا أو منتشرًا في العالم كله، وقد تعني كون ذلك الشيء متعلقًا بفطرة الناس ومهم لها. فالشيء قد يكون عالميًا بالمعنى الأول ومضرًا بالناس، وقد يكون عالميًا بالمعنى الثاني وغير منتشر في العالم، إذا غضضنا الطرف عن معارضة بعض الدول لبعض

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، مناقشة لأفكار غربية الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٧٢٤).

ما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فيمكن أن نقول إنه عالمي بالمعنى الأول. لكن عالميته بهذا المعنى، وإن كانت قد تصلح لإلزام الدول الموقعة عليه بتنفيذ ما جاء فيه، فإنها لا تصلح دليلاً على كون كل ما جاء فيه هو عالمي بالمعنى الثاني، أي بكون كل ما جاء فيه هو أمر مرتبط بكرامة الإنسان بما هو إنسان، لكن هذه هي الحجة الأساس التي اعتمد عليها بعض من كتب من الغربيين في الإسلام وحقوق الإنسان، وضرورة أن يلتزم بها المسلمون وغيرهم. وهذه الحجة حجة واهية من عدة نواح:

أولتها: هل هذه الحقوق المعلنة إنسانية؛ لأن الإعلان قال إنها كذلك، أم أن الإعلان قال إنها حقوق؛ لأنها كانت حقوقاً قبل الإعلان؟ وبعبارة أخرى: هل الإعلان هو الذي جعل منها حقوقاً، أم أنه كان مقرراً لكونها حقوقاً؟ هل كان الإعلان منشئاً ومانحاً لها أم كان معبراً عنها؟ لا بُدَّ أن يكون الأخير هو الصواب.

ثانيتها: أنه من حق كل إنسان ينكر هذه الحقوق كلها أو بعضها أن يعطى أدلة قوية على كونها حقوقاً ينبغي عليه أن يؤمن بها. فإذا ما كانت الأدلة في نفسها من شأنها أن تقنع كل إنسان عاقل، فلا يضر بعد ذلك عدم اقتناع بعض الناس بها. أما أن يقال لدولة تحفظت على بعضها، أو لأشخاص مفكرين مخلصين في تحفظهم عليها إنه يجب عليهم أن يؤمنوا بها فذلك مما ينبغي ألا يقول به عاقل.

ثالثتها: هل هذه الحقوق جامعة مانعة بحيث لا يمكن أن يزداد عليها ولا ينقص منها، أم أن ذلك ممكن؟ لا بُدَّ أن يكون ممكناً، فلا أحد يقول عن اجتهاد بشري إنه قد كُتِبَ له الكمال. وإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يكون للداعي إلى إضافة أو حذف حجة يعتمد عليها. فماذا يمكن أن يقول، إذا لم يكن لهذه

الحقوق المعلنة مستند غير كونها مما أعلنته هيئة الأمم المتحدة؟

رابعها: أن هذه الحجة تقسيم الدعوة إلى حقوق الإنسان على أساس واه لو كان هو وحده أساسها لما آمن بها ولا احترمها ولا التزم بها إلا قلة من الناس، إذ ما أكثر القرارات التي تتخذها هيئة الأمم ثم لا تجد من يصغى لها. لكننا نعرف المشكلة التي اضطرت كثيرًا من هؤلاء الكتاب والكاتبات إلى هذا الموقف، إنهم إن أرادوا إرساءها على قاعدة فلسفية مشتركة بين جميع الأمم فلن يجدوا إليها سبيلًا، وإن أرسوها على فلسفة غربية فقدت صفة العالمية، بل واتهموا بأنهم عملاء للاستعمار الثقافي. إن الأسس الحقيقية التي يقوم عليها التزام الناس بما يلتزمون به مما جاء في الإعلان هي:

- (أ) إن بعضهم -ككثير من الغربيين وكالمسلمين- يجد لكثير منها أساسًا في ثقافته الخاصة كما ترون في الأوراق المقدمة من بعض الإخوة المسلمين.
- (ب) إن بعضهم يلتزم بها تقليدًا للغرب؛ لأنه يرى أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر، فكما أنهم يحاولون أن يهجموا نهج الغربيين في عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم، فكذلك يحاولون تقليدهم في التزامهم بهذه الحقوق.
- (ج) الضغط السياسي والاقتصادي والفكري الذي تمارسه الدول الغربية على غيرها للالتزام بقيمها، ولا سيّما فيما يحقق مصالحها^(١).

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، مناقشة لأفكار غربية الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٧٢٤).

هائدة: كيف يقرر المسلم ما إذا كانت الحقوق التي في إعلان الأمم

المتحدة متوافقة مع دينه أم غير متوافقة؟

إن بعض الكتاب الغربيين يقترحون على المسلمين أن يبدووا بالتسليم بأن هذه الحقوق المعلنة هي حقوق يجب الإيمان بها والالتزام بها، ولكن بما أنها لا يمكن أن توجد في دينهم التقليدي فلا بُدَّ لهم من إعادة تفسيره ليجعلوه متوافقًا مع ما يسمونه بالمعايير العالمية لحقوق الإنسان، لكن هذه الطريقة لا تليق بإنسان أمين مسلمًا كان أم غير مسلم، إنه من الافتراء أن تنسب إلى بشر ما كلامًا لم يقله. فكيف بالله خالق البشر؟ لو أن فيلسوفًا ما معجبًا بفلسفة أرسطاليس يحاول دائمًا أن يعيد تفسيرها؛ ليجعلها متوافقة مع بعض ما يشيع في عصره، لاعتبر رجلًا غير أمين، وغير جدير بأن يعد في زمرة دارسي الفلسفة الأكاديميين.

فكيف بالافتراء على الله رب العالمين. كيف؟ والمسلم يقرأ في كتاب ربه:

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [يونس: ٦٩]، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِفِتْرِهِ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

إن للعالم المسلم منهجًا علميًا يتبعه لمعرفة ما هو من دينه وما ليس منه، إنه أولاً يأخذ كلام ربه مأخذ الجد، فيجتهد ويخلص في معرفة مراد الله تعالى بكلماته التي أنزلها، موقفنا بأن كل ما يقول الله تعالى أو يقول رسوله ﷺ فهو الحق الذي لا ريب فيه، وأن كل ما يأمر به الله أو رسوله فهو الخير الذي لا ريب

فيه، معتقداً اعتقاداً جازماً بأن الله علام الغيوب، وأنه لم يربط هداه بمرحلة زمنية معينة، أو رقعة أرضية معينة، وإنما جعله هدى ورحمة للناس كافة منذ أن بعث رسوله، وإلى قيام الساعة، ويكون همه بعد سلوك الطريق الصحيح لمعرفة ما أنزل الله تعالى أن يؤمن به ثم يجتهد في العمل به إن كان يقتضي عملاً ظاهراً، إنه يأتي إلى كتاب ربه وسُنَّة نبيه ليهتدي بهما لا ليهديهما ولا ليقترح عليهما، إنه لا معنى للإيمان ولا للتدين إلا هذا.

وكلما عرضت للعالم المسلم مسألة جديدة فكرية كانت أم عملية، كقضية حقوق الإنسان، فإنه يرجع إلى كتاب ربه وسُنَّة نبيه ليلتمس فيها الهداية، فإن وجد في نصوص الكتاب والسُنَّة ما يؤيد الأمر آمن به، وإن وجد فيهما نصوصاً تبطله أنكروه، وإن لم يجد لا هذا ولا ذلك اجتهد بحسب قواعد اجتهاد علمية معروفة في علم يسمى أصول الفقه؛ ليصل إلى الحكم الإسلامي في المسألة.

فالاجتهاد ليس كما يريدنا أن نفهمه بعض الغربيين من المهتمين بالإسلام وسيلة لتحريف الدين وتبديله ليتناسب مع أهواء العصور المتغيرة، إنه منهج علمي لاكتشاف الحقيقة التي تدل عليها النصوص، وهو في هذا أشبه ما يكون بمنهج علماء الطبيعة في اكتشاف الحقائق الكونية، أما إذا اعتقد الإنسان أن في القرآن أو في السُنَّة ما يتناقض مع مسائل عصرية يراها مهمة وضرورية؛ لتحقيق مصالح الناس، فما عليه إلا أن يكون شجاعاً ويعلن عدم إيمانه بأن القرآن كلام الله، وأن محمداً رسول الله؛ لأنك لا يمكن أن تعتقد بإخلاص أن القرآن كلام

الله، وأن محمدًا رسول الله ثم تعتقد مع ذلك أن فيهما ما هو باطل أو مضر^(١).

فائدة: مناهج الوصول للحقائق المختلفة:

إن ما يُعد حقيقة وما لا يُعد - في أي علم من العلوم الدينية والدينية - ليس أمرًا متروكًا لأهواء الأفراد وتلذذاتهم مهما كان علمهم وكانت شهرتهم، وإنما هو أمر تقتضيه وتفرضه طبيعة العلم المبحوث فيه، فإذا كان مجال حقائقه مما يمكن أن يُشاهد بالحس المباشر، أو كان مما يمكن أن يُستدعى بالتجربة، جعلنا المشاهدة والتجربة دليلًا أساسيًا على صحة دعوى وجود حقيقة من هذا النوع، ولم نقبل - حتى في حياتنا اليومية، ودعك من مجالاتنا العلمية المتقدمة - دعاوى تقوم على مجرد الرأي، أو الرؤى.

وإذا كان مما يمكن أن يُشاهد، ولا يُمكن أن تجرى عليه التجارب، كالحقائق الفلكية، اشترطنا المشاهدة وحدها. وإذا كان مما لا يمكن أن يشاهد ولا يمكن أن تجرى عليه التجارب، بحثنا عن منهج آخر مناسب له يوصلنا إلى حقائقه، فإذا كان مجاله حقائق الأحكام الشرعية التي جاء بها الرسول ﷺ، لم نقبل دعوى تتصل بها ما لم تكن مستندة بطريق مباشر أو غير مباشر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١) الإسلام وحقوق الإنسان، مناقشة لأفكار غربية الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠ هـ - الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠١ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٧٢٤).

إن علماء الشرع - كعلماء الطبيعة - لا يقبلون الدعاوى القائمة على مجرد الرأي أو الرؤى المنامية ما لم يستند عليها دليل، والدليل بالنسبة لعلماء الطبيعة هو المشاهدة، وبالنسبة لعلماء الشريعة هو نصوص الكتاب والسنة، لكن علماء الطبيعة وعلماء الشريعة يقبلون الأدلة العقلية المستندة إلى أدلتهم الأساسية؛ وكذلك الأمر بالنسبة للحقائق المتعلقة بالحديث النبوي، إن طبيعتها هي التي تحدد منهج الوصول إليها، ومن ثم الدليل على صحة الدعاوى المتعلقة بها أو زيفها^(١).

فائدة: الرواية هي المنهج العلمي الوحيد المعتمد لمعرفة سنة

الرسول ﷺ^(٢):

لا طريق لمعرفة سنة الرسول ﷺ إلا طريق الرواية، يشاهد المعاصر للرسول ﷺ حاله ويسمع مقاله، فينقل ذلك إلى من جاء بعده، وينقله هذا بدوره إلى الجيل الذي يليه، وهكذا.

إن الرواية هي المنهج العلمي الوحيد المعتمد لمعرفة سنة الرسول ﷺ، حتى لو كان التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل الصوتي أو الفيديو موجودًا في زمن

(١) البخاري غير معصوم.. لكن كل ما في كتابه صحيح، دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ٤/١١/١٤١١هـ وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٧٥).

(٢) البخاري غير معصوم.. لكن كل ما في كتابه صحيح، دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ٤/١١/١٤١١هـ وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٧٥).

الرسول ﷺ، وحتى لو أذن الرسول بأن تلتقط صورته ويسجل صوته، لما أغنى ذلك عن الرواية! كيف نتأكد من أن الصورة التي نشاهدها هي صورته، وأن الصوت صوته، إلا بشهادة من عاصره وعرفه؟

إن كبار المؤرخين الذين بلوا هذه الأمور يعرفون أن التصوير والنحت المنقوش لا تمثل دائماً الحقيقة الواقعة، بل قد تكون تعبيراً عن رأي أو اعتقاد، أو تسجيلاً لأمني وآمال لم تتحقق، ها هم العرب الجاهليون يصورون إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزام، حتى قال الرسول ﷺ: «قاتلهم الله! أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط» هذا المنهج الذي يقنضيه العقل هو الذي جاء به الشرع.

فأنت إذا تأملت أحاديث الرسول ﷺ في هذا الأمر وجدته قد حدث أصحابه على الرواية بل وضع كل الشروط التي تجعل منها منهجاً علمياً موصلاً إلى الحقيقة، فقد كان ﷺ كثيراً ما يدعو أصحابه الحاضرين إلى الحرص على تبليغ ما سمعوا إلى إخوانهم الغائبين تبليغاً أميناً لا زيادة فيه ولا نقصان، من ذلك قوله لهم في حجة الوداع: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه» فالرواية كانت مهمة، وكانت وسيلة ضرورية من وسائل نشر العلم، حتى في الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ بين ظهراني أصحابه؛ فما من أحد من هؤلاء الأصحاب كان دائماً معه ﷺ يشاهد كل أحواله، ويسمع كل أقواله، لذلك كان الغائب منهم يعتمد على ما يحدثه به الشاهد حتى في ذلك الوقت المبكر.

فهذا عمر بن الخطاب وهو من أصدق الناس صلة بالرسول ﷺ يقول: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد من عوالي المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»، الرواية إذن طريقة علمية للوصول إلى الحقيقة، وهي الطريقة الوحيدة الموصلة إلى أكثر الحقائق التي لا نستطيع الاطلاع عليها اطلاعاً مباشراً، بل إن الرواية هي أهم طرق نشر العلم بين الناس، حتى ما كان منه متعلقاً بالحقائق الحسية.

إن عددًا قليلًا جدًا من العلماء المختصين هم الذين يعرفون حقائق العلوم الطبيعية هذه معرفة تجريبية مباشرة. أما سائر الناس من عامة عباد الله -علماء كانوا أو غير علماء- فإن وسيلتهم الوحيدة إلى معرفتها إنما هي ما يرويه لهم الذين شاهدوها أول مرة أو ثانيها أو ثالثها، بأن أعادوا تجربة العالم الأول ليتأكدوا من صحة نتائجها. فلو لم تكن الرواية وسيلة معتمدة للمعرفة -أيًا كانت- لما كانت هنالك كتب، ولما كانت مدارس ولا جامعات، ولا غيرها من وسائل الإعلام، ولا نحصر العلم في تلك القلة من الناس التي أمكنها أن تطلع على الحقائق اطلاعاً مباشراً.

الرواية إذن طريقة معتمدة للوصول إلى الحقيقة، لكن الناس يكذبون والناس ينسون، فكيف نتأكد من أن ما قالوه صحيح ونحن لا نستطيع أن نسمع أو نرى ما ادعوا أنهم سمعوا أو رأوا؟ الطريقة الوحيدة للتأكد من صحة الرواية التي تفرضها علينا هذه الحقيقة، هي ألا نأخذ إلا عمن عرفنا أنه لا يكذب وأنه

جيد الحفظ، وهذان هما الشرطان اللذان عبر عنهما علماء الحديث بالعدالة والضبط، وهما أشمل من مجرد الصدق وجودة الحفظ.

«فالعدالة تشمل جميع الصفات التي تشترك في تكوين الثقة بصدق الراوي، من حسن العقيدة، والقيام بأوامر الشرع واجتناب ما نهى عنه، وترك كل ما يخل بالمروءة، والاتصاف بالورع والتقوى، ومحاسن الأخلاق.

والضبط يعني كمال الملكات العقلية، والنباهة وعدم الغفلة، واليقظة، وحسن الفهم والحفظ والمعرفة بأحوال الناس»، لكن مقصود الشرطين هو كما ترى التأكد من أن الراوي حكى لنا ما سمعه أو شاهده كما هو فلم يغير فيه عن قصد فيكون كاذباً، ولا عن سوء فهم أو نسيان فيكون غير حافظ.

العدالة والضبط هما إذن الشرطان الأساسان اللذان يجب توفرهما فيمن يعتد براويته. فإذا كان كل رواية حديث ما عدوً لاضابطين، وكان كل منهم قد سمع ممن حدث عنه، ولم يكن في الحديث المروي شدوذاً ولا علة، كان الحديث صحيحاً لا محالة.

لذلك عرّفوا الحديث الصحيح بمثل قولهم: «ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، وسلم من الشذوذ والعلة».

فائدة: عدم العصمة لا يقتضي حتمية وجود الخطأ في كل ما يروي غير المعصوم، وإنما يقتضي احتمال وجود الخطأ.

إن عدم العصمة لا يقتضي حتمية وجود الخطأ في كل ما يروي غير

المعصوم، وإنما يقتضي احتمال وجود الخطأ، وإذا كان الأمر كذلك فإن على من يدعي وجود الخطأ، ألا تكون حجته مرتكزة على مجرد عدم عصمة الكاتب أو الراوي؛ لأن صيغة حجته ستكون عندئذ كما يلي: الكاتب غير معصوم، إذن احتمال الخطأ فيه وارد، إذن هو مخطئ، وهي كما ترى حجة فاسدة؛ وذلك أن احتمال الخطأ هو بالضرورة العقلية احتمال للصواب، إذن فعلى من يدعي وجود الخطأ أن يأتي بحجة مستقلة تثبت وجوده، ولا يعتمد على مجرد احتمال وجوده^(١).

هائدة: لماذا كتاب البخاري أحاديثه صحيحة:

قال لنا البخاري: إنه لم يدخل في كتابه هذا من الأحاديث إلا ما كان صحيحاً، بشروط الصحة الموضوعية المتفق عليها، والتي ذكرناها سابقاً، ثم إن البخاري دفع بكتابه هذا الذي قضى في تأليفه وتنقيحه ست عشر سنة، إلى علماء جهابذة، منهم الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث.

قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري، فهي صحيحة، وسمع هذا الكتاب من فم البخاري تسعون ألفاً من طلاب علم الحديث النبوي، والذين أثنوا على الكتاب وشهدوا له بإصابة الصواب، ومدحوا مصنفه وعظموه، لم يكونوا كما قد

(١) البخاري غير معصوم.. لكن كل ما في كتابه صحيح، دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ٤/١١/١٤١١هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٣٧٥).

رأيت من عامة الناس، بلا ولا من عامة العلماء، وإنما كان «معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحذاق المتقنون».

إن احتمال أن يخطئ البخاري أمر وارد ما في ذلك شك. أما أن يكون في كتابه خطأ لم يكتشفه أحد من تلك الآلاف المؤلفة من العلماء الجهابذة الأتقياء على مر العصور، ثم يعثر عليه شخص في زماننا هذا، فأمر لا يقول به عاقلٌ أمينٌ يعي ما يقول. إن مثل احتمال اكتشاف خطأ جديد في كتاب الجامع الصحيح، كمثل احتمال وجود خطأ في مسألة حسابية، روجعت عدة مرات ووجدت صحيحة. هب أن أستاذًا كلف طالبًا معروفًا بنجابته في الرياضيات أن يحل مسألة رياضية معقدة، فحلها الطالب، وراجع حله عدة مرات فلم يجد فيه خطأ، ثم جاء شخص من أمثال هؤلاء الموسوسين فقال للأستاذ: كيف تأمن أن يكون هذا الحل صحيحًا؟ إنك وطالبك بشر غير معصومين فكيف تأمنون أن يكون حلكم لهذه المسألة هو الحل الصحيح؟ فشرح له الأستاذ كيف أنه وطالبه راجعا حلها عدة مرات، ولذلك وثقا من صحته.

لكن الرجل ظل مُصرًا على احتمال وجود الخطأ، فتناول الأستاذ آلة حاسبة، وحل بها المسألة أمامه، فجاءت النتيجة موافقة لحل الطالب. لكن الرجل أصر على احتمال وجود الخطأ حتى على الآلة الحاسبة بحجة أنها من صنع بشر غير معصوم! إن الذي يصر على احتمال وجود الخطأ في كل عمل بشري مهما رُوجع، يلزمه إن كان مسلمًا أن لا تكون له ثقة بهذه المصاحف التي بين أيدينا، فهي بالطبع لم تنزل علينا مكتوبة هكذا من السماء، وإنما نسخها بشر

من أمثالنا، فما الذي جعلنا نشق بها، ونجزم بأنه لا خطأ فيها؟ وثقتنا بها لأننا نعلم أنه لا ينسخ المصحف إلا رجل حافظ للقرآن الكريم، بصير بقواعد الرسم العثماني، وأن المصحف لا يُنشر إلا بعد أن يراجعه مراجعة دقيقة عدد وافر من القراء المتقنين المختصين بمعرفة الرسم القرآني، ويزد ثقتنا أن العالم مليء بحمد الله تعالى بأمثال أولئك الحفاظ المتقنين الغيورين على كتاب الله تعالى.

فعدم اعتراضهم عليها دليل على أنهم لم يجدوا فيها خطأ، على أن خلو كتاب ما من الخطأ ليس قاصراً على كتاب البخاري، أو المصاحف القرآنية، بل لا يتطلب حتى أن يكون المرء مسلماً، ودعك أن يكون معصوماً!

هب أن كاتباً غير مسلم مختصاً بعلم الفيزياء قرر أن يؤلف كتاباً يجمع فيه ما يُعد حقائق أصولية في هذا العلم، ولم يشترط على نفسه استيفاء كل هذه الدقائق، لكنه اشترط ألا يدخل في كتابه هذا إلا ما يعده أرباب هذا العلم حقائق مقطوعاً بصحتها، وألا يدخل فيه من هذه الحقائق الفيزيائية التجريبية القطعية الأصولية، إلا ما اطلع هو نفسه على أوراقه الأصلية التي كتبها العلماء الذين أثبتوا هذه الحقائق.

وهب أنه بعد أن ألف كتابه هذا، دفع به إلى عدد من علماء الفيزياء المختصين في فروعها المتعددة، وأن هؤلاء المختصين وافقوه على أن كل ما أدخله في كتابه هو فعلاً مما يعدونه حقائق فيزيائية أصولية مقطوعاً بصحتها، إلا أن عدداً قليلاً منها قرر أن يخرج من كتابه.

وهب أنه بعد أن نشره كتابه هذا أثنى عليه عدد كبير من العلماء

المختصين بفروع الفيزياء المختلفة، وأجمعوا على أنهم لم يجدوا فيه ما لا يعدونه حقيقة تجريبية قاطعة. فهل يسوغ بعد هذا لإنسان أن يقول إن الكتاب ربما كانت فيه أباطيل ظنها هذا المصنف من علم الفيزياء لأنه رجل غير معصوم؟ وإذا كان هذا أمراً ممكناً في كتاب إنسان غير مسلم، وفي علم دنيوي، فما الذي يمنع تحققه في كتاب إنسان جمع الله تعالى له شرطي العدالة والضبط في أعلى صورتيهما؟

فمن المعروف عن الإمام البخاري أنه كان آية من آيات الله تعالى في جودة الحفظ، فقد قالوا عنه إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرّداً، وقال هو عن نفسه: «كُتبت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث» وأنه كان مثلاً للمسلم التقي الزاهد الورع، يكفيك في هذا قوله: «خرجت كتاب الصحيح من ستمائة ألف حديث، وما وضعت فيه حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين»، ولكن هب أن أولئك العلماء الجبال في علم الحديث كانوا قد أجمعوا على أن البخاري أخطأ في عدة أحاديث، فظنها صحيحة وهي في الواقع ضعيفة، وهب أن عدد هذه الأحاديث كان ثلاثين حديثاً، ثلاثون من زهاء ثلاثة آلاف، أي واحد بالمائة. فهل كان من الإنصاف في شيء أن نشيع القول بأنه ما كل ما في البخاري صحيح بسبب خطئه في واحد بالمائة مما جمع؟ إن الإنصاف حتى على افتراض وجود تلك النسبة من الأحاديث الضعيفة كان يقتضي أن نشي على الكتاب ونقول إن كل ما فيه صحيح إلا أحاديث ذوات عدد هي كذا وكذا وكذا. إن الفرق بين هذا القول المنصف وذلك القول الجائر، أن هذا الأخير

يشكك في الكتاب كله ويزيل الثقة به، إذ أن سامعه من عامة المتدينين سيظن بكل حديث يُقال له إنه رواه البخاري أنه قد يكون غير صحيح، فمن باب أولى ما يرويه غيره، فتبطل بذلك الثقة بكل الأحاديث النبوية الشريفة، وهذه فتنة عظيمة، نسأل الله تعالى أن يُجنبنا إياها وسائر المسلمين^(١).

فائدة: الأسلوب المناسب للحديث للغربيين عن تراثنا الفكري،

لقد درجنا في محاولتنا لاستجلاب احترام الغربيين لتراثنا الفكري أن نركز على منتجات هذا الفكر في مجال العلوم الطبيعية والفلسفة، فكأننا نريد أن نقول لهم: إذا كنتم تفتخرون بتقدمكم العلمي فاعلموا أننا نحن الذين اعطيناكم المنهج العلمي الذي تقوم عليه هذه العلوم، وإذا كنتم الآن قد سبقتمونا في مجال العلوم الطبيعية التجريبية، فتذكروا أننا كنا سابقين لكن فيها وأنكم انما بنيتم على ما خلفناه لكم. وإذا كنتم تعدون حضارتكم امتداداً للفكر اليوناني، فتذكروا أننا نحن الذين نقلنا لكم هذا الفكر، بعد أن أضفنا إليه شروحاتاً وتعليقات ومسائل كانت من ابتكارنا.

وربما يكون هذا الأسلوب قد حقق شيئاً من مقصده، إلا أنني أرى عدم الاستمرار فيه، أعني عدم التركيز على تينك المسألتين وذلك:

أولاً: لأن في هذا التركيز ظلماً لتاريخنا الفكري، إننا وإن كنا قد أشرنا

(١) البخاري غير معصوم... لكن كل ما في كتابه صحيح، دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ١٤١١/١١/٤هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٣٧٥).

لمشاركتنا المحترمة في مجالات العلوم والفلسفة، إلا أن الشيء الذي ميز فكرنا هو كونه كان فكراً مهتدياً بهدى الوحي، ومركزاً على العلوم والأحوال والأخلاق والمؤسسات التي تساعد الإنسان على أن يحيا في هذه الدنيا حياة نفسية واجتماعية سعيدة؛ ليستقل بعد موته حياة أسعد وأدوم.

والرجال الذين كانوا قادة لهذا الفكر المهتدي، وأئمة لجماهير المسلمين في العلم والسلوك ليسوا هم الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وإنما هم فقهاء الأمة من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي كثيراً مما تعرض له علماء الكلام، وعلماء أصول الفقه، وعلماء الحديث، بل علماء اللغة والمؤرخون، فحصر مشاركتنا الفلسفية في كتابات من سموا بفلاسفة الإسلام ممن تأثر بالفلسفة اليونانية، حصر مجحف.

وثانياً: لأن السرعة الهائلة التي تسير لها حركة التقدم في مجال العلوم التجريبية وما يتبع هذه السرعة من تراكم مدهش في كمية الحقائق التي تكتشف يوماً بعد يوم، تجعل ما اكتشفه الأقدمون من المسلمين وغيرهم بالنسبة إليه كأنه قطرة في بحر، لكن الغريب أنه كان من نتائج هذا الإنجاز الكبير للعلوم التجريبية أن طأطأ من سورة الافتتان بها؛ لأنه أوضح أنها مهما عظمت فإن مجالها محدود، وأن هناك قضايا تهتم الناس لا تستطيع أن تقول فيها شيئاً، أي أنها لا تغني عن الدين كما كان يرجو المفتنون بها، ثم أن العلوم الإنسانية حين اصطنعت مناهجها لم تأت بشمار مفيدة تساعد في حل تلك القضايا الإنسانية التي لا تدخل في مجال العلوم الطبيعية.

قلت: كل هذا لأقول أن كثيرًا من الغربيين أصبحوا الآن مفتوحين الأذهان لسماع شيء جديد في هذه المجالات الإنسانية التي هي في الحقيقة مجالات الدين الحق، ومن هنا تأتي دعوتي للتركيز على هذه المجالات وعلى مفكرينا الذين أدلوا فيها بدلاء عادت بالخير الكثير^(١).

فائدة: الحقائق التي يحتاج البشر إلى معرفتها هي الحقائق التي

جاءت بها الرسل:

الحقائق التي جاءت بها أنبياء الله تعالى، ولا سيّما صورتها الكاملة التي أرسل بها محمد ﷺ إلى الناس كافة، هي أهم الحقائق التي يحتاج البشر إليها معرفتها، ثم الإيمان بها؛ وذلك أن الإنسان بوصفه كائنًا عاقلًا ذا إرادة إنما يتصرف في حياته بحسب تصوراته، فكلما كانت تصوراته أقرب إلى الواقع، كانت تصرفاته أصح وأنفع، لكن بعض الحقائق أهم من بعض والتصرفات التي تبنى عليها أخطر من سائر التصرفات الأخرى.

يبد أن الإنسان لا يستطيع بقواه الذاتية وحدها أن يدرك كل هذه الحقائق الخطيرة، ولهذا تفضل الله سبحانه وتعالى فعرفه بها عن طريق رسله، فكانت نعمة الهداية إلى هذه الحقائق أجل نعمة على عبادة؛ لأن حاجتهم إليها تفوق حاجتهم إلى كل ما عداها.

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة التي عقدها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

«وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسل كحاجتهم إلى الشمس والقمر، والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال».

«والدنيا كلها ملعونة، ملعون ما فيها، إذا ما أشرقت عليه شمس الرسالة، وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا مادامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت الكلية، خرب الله العالم العلوي والسفلي، وأقام القيامة»؛ ولأن حاجة الناس إلى الرسالة بهذه الخطورة، فقد تكرم الله تعالى فأرسل إلى كل قوم رسولاً ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وكان من حكمته تعالى أن اختار أكثر الناس أمانة، وأحسنهم فهمًا، وأقواهم على اتباع الحق، وأشدهم رحمة بالخلق فجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ هذه الحقائق وبيانها للناس قولاً ومثالاً عملياً، كما كان من حكمته - حين صار العالم كله بمثابة الأمة الواحدة في الأزمان الماضية - أن أرسل إليه رسولاً واحداً بأكمل رسالة، وجعل حاملها النبي الخاتم لأنبيا الله؛ ذلك هو محمد بن عبد الله ﷺ (١).

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة التي عقدتها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

فائدة: منهج الدعوة والمجادلة،

القاعدة العامة: في منهج الدعوة أيا كانت وسيلتها، وأيا كان المخاطبون بها هي قول الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالحكمة تشمل:

(أ) تعريف المخاطب بالحق بأدلته.

(ب) مراعاة حال المخاطب.

(ج) وتقديم الأهم فالأهم.

وأما الموعظة فهي بيان العواقب الحسنة الدنيوية والأخروية المترتبة على قبول الحق، وبيان العواقب الوخيمة المترتبة على إنكاره، أو أقل إنها تقدم الحق بطريقة جذابة تعطف النفوس إليه، وتحببها فيه. وهذا كله يكون بالحكمة بالمعنيين الثاني والثالث، بعد الدعوة تأتي المجادلة وهي الرد على الشبهات والاعترافات التي يثيرها أو يتعرض لها المخاطب، والتي قد تكون حاجزاً بينه وبين قبول الحق.

إن المجادلة بالتي هي أحسن قد تكون سبباً في اقناع المجادل وإغرائه بقبول الحق، وأما إذا كان المجادل عنيداً متعنتاً، فإن إفحامه يفيد المتأثرين به إذ يكسر الحاجز الذي أقامه بينهم وبين الحق، والمجادلة بالتي هي أحسن، أي بالرفق والابتعاد عن الغلظة والمخاشنة مما تقتضيه الحكمة؛ لأنه -إلا في حال الظالمين- مما يساعد الإنسان على الانصياع للحق حين تستبين له معالمه. هذا

المنهج إذن يقتضينا كما ذكرنا آنفاً أن نعرف من مخاطب، وحال هؤلاء
المخاطبين كي نعرف ماذا نقول لهم وكيف نقول ما نقول^(١).

فائدة: ما يميز صاحب الفكر الغربي الخالص،

إن مما يميز صاحب الفكر الغربي الخالص:

١- اعتقاده أن ما امتازت به الحضارة الغربية من سبق لغيرهم في ميادين
العلوم الطبيعية، وما بُني على هذه العلوم من تقنية وتقدم مادي هائل، وما أدى
إليه هذا التفوق المادي من سيطرة على العالم غير الغربي.

مرده أولاً: إلى ما امتازوا به من جوده التفكير التي لا يباريهم فيها أهل
حضارة أخرى، وإنهم عريقون في هذا التفوق الفكري؛ لأن حضارتهم امتداد
للحضارة اليونانية وما امتازت به من فكر فلسفي وعلمي عميق، حتى أن
بعضهم يصل به الغرور بهذا التفوق الفكري درجة تجعله يعتقد أن قوانين الفكر
كالقول بأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ليس شيئاً مشتركاً بين عامة
البشر وإنما هو من خصائص الفكر الأوروبي.

ومرده ثانياً: إلى ما امتازوا به من نظرة علمانية إلى الحياة.

٢- إن تفوقهم على غيرهم ليس قاصراً على التفوق المادي والفكري؛ بل

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة
التي عقدتها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ
الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته
- بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

هم متفوقون أيضًا في نظمهم السياسية والاقتصادية رأسمالية كانت أم اشتراكية، وإن سبب هذا التفوق راجع أيضًا إلى تلك النظرة العلمانية الجديدة إلى الحياة.

٣- إن أديانهم إذا كانت باطلة، وهم بهذه الدرجة من التفوق الفكري، فالأحرى بغيرها من أديان الشعوب المختلفة أن تكون أشد بطلانًا.

٤- إن العلوم التجريبية بمناهجها العلمية، وتفسيراتها العقلانية للظواهر الكونية والإنسانية بأسباب من داخل هذا الكون، حلت محل التفسيرات الدينية الماورائية فأبطلت الدين أو أضعفت من موقفه، فأغتننا بذلك عنه أو قللت من حاجتنا إليه.

٥- إن كل أمة تريد أن تتقدم تقدمهم لا مناص من أن تأخذ بنظرهم هذه، بل إن كل أمة تأخذ عنهم العلم الطبيعي، وتستفيد من تقنياتهم لا محيد لها -عاجلاً أو آجلاً- من الأخذ بهذه النظرة العلمانية إلى الحياة، أي أن هذه النظرة أصبحت الآن أمرًا حتميًا لازماً للتقدم العلمي والتقني.

وعليه، فإن ما نشاهده من مظاهر التدين في البلاد غير الغربية التي بدأت تأخذ بأسباب التطور المادي التي أخذ بها الغرب، إن هو إلا مرحلة زائلة، طالت أم قصرت، وستعقبها كما أعقبها في البلاد الغربية مراحل العلمانية السائدة اليوم^(١).

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة التي عقدتها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤١٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

فائدة: ليس ظهور التيار العلماني في الغرب نتيجة الأخذ بالعلوم

التقنية:

إن مما ينبغي أن نفطن إليه أن ما حدث في البلاد آفة الذكر لم يحدث على النسق الذي تفترضه النظرية حتى يكون فيه تأييد لها. أعني أنه لم يحدث في أي منها أن بدأ الناس بأخذ العلوم التقنية، ثم نتج عن هذا الأخذ ظهور التيار العلماني، بل الذي حدث ولا يزال يحدث في هذه البلاد أن الناس يأخذون العلوم والتقنية ويأخذون معها - في الوقت ذاته - كل ما عند الغربيين من فلسفات وآداب وفنون وقيم، بل وعادات وتقاليد في مسائل الأكل والشراب واللباس، ظناً منهم أن الحضارة كل لا يتجزأ، وأن ذلك الأخذ للعلوم والتقنية لا يؤدي ثماره إلا بما لابسه في الغرب من هذه (الثقافة) (١).

فائدة: أهمية دراسة البيئات الثقافية التي يراد دعوتها للإسلام:

إن أهمية دراسة ما أسميته بالبيئات الثقافية للفئات التي نريد مخاطبتها، تأتي من كون حقائق الإسلام لا تقدم للناس في فراغ، وإنما تقدم لهم ليحلوها محل عقائد وتصورات سبقت إلى عقولهم، فلا بُدَّ إذن من إقناعهم بفساد ما عندهم من تصورات، وبيان تفوق التصورات الإسلامية عليها في الحجج العقلية والعلمية التي تسندها، وفي العواقب المفيدة الناتجة عن الإيمان بها.

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة التي عقدها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٨٣).

هكذا فعل الرسول ﷺ مع العرب، وهكذا فعل الدعاة المسلمون من بعده في كل بلد ذهبوا إليه، بل هكذا فعلوا حتى مع المسلمين الذين تأثروا ببعض الثقافات غير الإسلامية كالفلسفة اليونانية، كما تشهد بذلك كتب العقائد وأصول الدين.

نعم، إن الغرض الأساسي من الدعوة هو إحلال الحق في القلوب، ولكن بما أن تحلية القلوب بالحق لا تتم إلا بتخليتها مما يضاد، كان الاهتمام بإزالة الأباطيل التي استقرت في عقول المخاطبين أمرًا لا بُدَّ منه في دعوتهم إلى قبول الحق الذي لم تعهده العقول، بل الذي تجد نفورًا منه بسبب ما استقر فيها من التصورات المنافية له. لا بُدَّ إذن من تقديم الرسالة المحمدية لهؤلاء الأقوام بألستهم، ووضعها لهم في بيئتهم الثقافية وضعًا لا يحرفها؛ بل يساعدهم على فهمها، ويعيننا على مخاطبتهم بما يعرفون. ألم يقل أمير المؤمنين عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «خاطبوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما أنت محدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

لكننا وإن كنا نعطي البيئة الثقافية هذا الاهتمام في مخاطبة الإنسان بحقائق الإسلام، إلا إننا لا نذهب مذهب الغلاة القائلين بأن الإنسان إنما هو ابن بيئته، وإن عقله إنما هو الذي تكيفه وتصنعه هذه الثقافة أيًا كان نوعها. لا نذهب هذا المذهب لأننا نعتقد أن الإنسان -أيًا كان- له فطرة خيرة سابقة لثقافته، وعليه فإذا كانت هذه الثقافة مخالفة لتلك الفطرة، فإنما تكون بمثابة القشرة التي تغطي جوهرة الإنسان المتمثل في تلك الفطرة. لكن هذا الجوهر وإن أمكن تغطيته

بقشرة ثقافية سميكة أو رقيقة، لا يمكن إزالته عن الإنسان بالكلية.

﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠]،
والإسلام كما تدل الآية هو امتداد لهذا الجوهر، فهو يخاطب الإنسان بما هو
إنسان، لا بما هو عربي أو عجمي، زراعي أو صناعي، متحضر أو بدوي^(١).

فائدة: أهمية الدعوة إلى الإيمان بوجود الخالق:

كثيراً ما يكرر بعض علمائنا المعاصرين ما يجدونه في كتب العلماء السابقين
من القول بأن الناس مُقَرَّبِينَ بتوحيد الربوبية، ولهذا ينبغي أن نذهب مباشرة إلى
الكلام عن توحيد الألوهية؛ لأنه هو التوحيد الذي أرسلت الأنبياء لدعوة الناس
إليه. ما من شك في أن توحيد الألوهية هو التوحيد المهم، لكنه لا يتم إلا بتوحيد
الربوبية، لكن ما صدق على الصور الماضية بصفة عامة يصدق على عصرنا هذا
الذي انتشر فيه الإلحاد - بمعنى إنكار وجود الخالق - انتشاراً لا نظير له فيما
يعرف الناس من تاريخ البشرية، حتى أن كثيراً من الغربيين ليسمونه عصر
الإلحاد. لذلك أرى أن نولي هذا الموضوع عناية أكبر، وأن نستفيد في تقديمه
مما كتبه علماءنا السابقون، ومن بعض الجهود المعاصرة من المسلمين وغير
المسلمين، خصوصاً في مجال الرد على الشبهات التي يثيرها الملحدون

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلافيزات دول الخليج، بحث مقدم للندوة
التي عقدتها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ
الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته
- بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

والمعاصرون استنادًا إلى بعض الفلسفات الشائعة في الغرب، واستغلالًا لبعض الحقائق أو النظريات العلمية المعاصرة^(١).

فائدة: مراعاة العبارات والمفاهيم في الحديث عن الإسلام بلغة غير العربية:

حين نتحدث عن الإسلام بلغة غير العربية، نجدنا مضطرين لأن نستعمل ما نحسبه أقرب الكلمات إلى الكلمة العربية التي تعبر عن المفهوم الإسلامي، لكن هذا وحده لا يكفي؛ بل قد يكون مضللاً ومشوهاً للمعنى؛ وذلك لأن الكلمات العربية نفسها لم تستعمل كلها في القرآن الكريم بمعانيها اللغوية البحتة، وإنما اكتسب بعضها معاني جديدة بسبب الاستعمال الاصطلاحي الجديد، فكيف بالكلمات غير العربية خصوصاً إذا كانت آتية من بيئة دينية تختلف عن الإسلام في مفهوماتها الأساسية؟ إن الألفاظ الإنجليزية مثلاً التي عادة ما نستعملها في مقابل ألفاظ عربية مثل لفظ الجلالة وألفاظ (النبي) و(الرسول) و(الوحي) و(الدين) و(كلام الله) و(القدر) وأمثالها مما يعبر عن مفهومات أساسية في ديننا، لها دلالات مختلفة عن الدلالات الإسلامية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من معنى كل كلمة عن تلك الكلمات العربية. ظن بعض إخواننا من العرب ومن أهل هذه اللغات أن حلّ هذا الإشكال يكون باستعمال الكلمات العربية نفسها حتى حين نتحدث بلغة غير عربية، ولكن هذا لا يفيد إلا المسلم من أهل هذه اللغة الذي سبق له أن عرف

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة التي عقدها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

المعاني الصحيحة لهذه الألفاظ العربية، أما غير المسلم الذي لم يسبق له معرفتها فإنها لا تدل عنده على معنى صحيحاً كان أو خطأ، ولذلك فإن مخاطبته بها تكون عبثاً؛ لأن مقصود الخطاب إنما هو الإفهام، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسَانِ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، إذن لا بُدَّ من شرح هذه المفهومات الإسلامية الأساسية سواء استخدمنا الكلمات العربية أو ما نحسبه مقابلاً لها في لغة من نخاطب، ولكل من الاستخدامين مزية، خصوصاً إذا هداه الله إلى الإسلام.

وأما استعمال الكلمات المعهودة عند المخاطب فإنه يسر عليه تذكر المعنى؛ لأنه لا يكون مشغولاً بأمرين معاً، أمر اللفظ الجديد، والمعنى الجديد. كما أنه يساعد على جعل لغة المخاطب نفسها لغة إسلامية خصوصاً إذا كثرت عدد المنتسبين إلى الإسلام من أهلها^(١).

فائدة: الأسباب التي تجعل الغربيين يعتبرون أن الإسلام دين مُعاد

للغرب، وأن انتشاره خطر على البشرية؛

لقد وقر في أذهان كثير من الغربيين أن الإسلام دين مُعاد للغرب، وأن انتشاره خطر على البشرية ولكل هذا أسباب لا بُدَّ من معالجتها في برامجنا الدينية إذا أردنا لها أن تحقق ثمارها، من هذه الأسباب:

- الصورة المشوهة التي تقدمها لهم كتب التاريخ عن المسلمين إبان

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للندوة التي عقدها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤١٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

الحروب الصليبية، وهي كتب ينشأ عليها أحدهم منذ نعومة أظفاره فتستقر صورها المشوهة هذه في فؤاده، وهذا أمر عرف به كثيرون ممن هداهم الله للمحق.

- الصورة المشوهة للإسلام التي تصورها به كتب المستشرقين والمبشرين، وهي مراجعهم الأساسية عن هذا الدين.

- استعمارهم الطويل لكثير من بلدان العالم الإسلامي جعلهم يشعرون بالتعالي على المسلمين والاستنكاف عن أن يدينوا بدينهم.

- الفرع الذي تغرسه في قلوبهم وسائل إعلامهم الحديثة، وهي لا تمل من تذكيرهم بطرقها المثيرة، أن هذا العدو التاريخي اللدود أخذ يقوى وينهض من جديد، وأنه اكتسب الآن أهمية سياسية وجغرافية أكثر من ذي قبل، وأنه - وهذا مصدر خطره الحقيقي الجديد - يمسك الآن بالشریان الذي يمد الصناعة الغربية - وبالتالي الحياة الغربية الرغيدة بالدم الذي لا حياة لها بدونه.

إن هذا واقع لا يكاد يتصوره الغربي ذوي العقلية التي وصفناها آنفًا، لقد كان يعتقد أنه يتفوقه الفكري والعلمي يستطيع أن يفعل ما يريد، وأن سير الحثيث نحو النمو الاقتصادي والمستوى الحياتي الرفيع لن يقف في طريقه عائق، فكيف يقال له الآن فجأة أن هناك عائقًا كبيرًا وأنه يتمثل في العالم الإسلامي؟ لقد صدمت هذه الحقيقة عددًا كبيرًا منهم حتى جعلتهم يهدون بضرورة إعادة السيطرة الاستعمارية على هذه المنطقة^(١).

(١) البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج، بحث مقدم للنقد التي عقدتها كلية الدعوة والإعلام بجامعة محمد بن سعود الإسلامية في ١٩ رجب ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٩ مارس ١٩٨٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٣٨٣).

فائدة، كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يكمن وراءه تصور معين للإنسان؛

من الحقائق التي عرفها وقال بها كثير من المفكرين المعاصرين: إن كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يكمن وراءه تصور معين للإنسان قد يعيه صاحب الرأي أو النظرية فيقول به وقد يفترضه ولا يشعر به، ولذلك فإن النظر في الإنسان ومحاولة الوصول إلى تصور له يطابق حقيقته ينبغي - من الناحية المنطقية - أن يسبق كل محاولة للنظر في المبادئ الاقتصادية أو النظم السياسية أو المناهج التربوية؛ لأن معيار هذه المبادئ والنظم والمناهج هو مدى صلاحيتها للإنسان، ولا يمكن أن نعرف مدى صلاحيتها له إلا إذا عرفنا أولاً من هو؟ إننا إذا لم نتبين هذا الأمر ونكون على وعى به فقد نضع مناهج تعليمية ونعتمد طرقاً تربوية نحسبها إسلامية وما هي بإسلامية؛ لأن الإنسان الذي نفترضه ليس هو الإنسان الذي بين لنا خالقه حقيقته، وقد ننقل عن غيرنا مناهج وطرقاً لا نرى بأساً في نقلها مع أن النظر إليها من خلال هذا التصور قد يكشف عن خللها وقصورها، ظانين أن كل ما قالوا به فهو صالح لنا، مع أن وزنه بمعيار التصور الصحيح للإنسان قد يثبت عدم صلاحيته.

هذه بالطبع ليست دعوة إلى إيقاف كل جهد لإصلاح التعليم وتقريبه من هدي الإسلام حتى يتم الاتفاق على هذا الأمر، ولكنها مجرد تذكير بأهمية الموضوع ودعوة للمهتمين بشئون التعليم على أن يولوه عنايتهم ويحاولوا

اكتشاف الصلة بينه وبين فروع المسائل التي تشغل بالهم^(١).

فائدة: من هو الإنسان؟

هذا سؤال عن طبيعة الإنسان عن الخصائص التي تشكل في مجموعها هذا الكائن المتميز الذي نسميه الإنسان. والسؤال عن طبيعة الإنسان سؤال:

١- عن طبيعته الجسدية: ما هو التركيب الجسدي للإنسان؟ وما هي القوانين التي تحكم هذا التركيب، وما الذي يناسب هذا التركيب من أنواع المآكل والمشرب والبيئات والعلاقات؟

٢- وعن طبيعته النفسية: ما هو التركيب النفسي للإنسان، وما الذي يناسب هذا التركيب من القيم والأفكار والأحوال؟

٣- وعن الصلة بين الطبيعتين: والذي يهمنا بشكل أساسي في هذا البحث هو الطبيعة النفسية، فهل للإنسان تركيب نفسي معين كما أن له تركيباً جسدياً معيناً، حيث إن أي خلل فيه يسبب له أمراضاً نفسية، كما أن الخلل في تركيبه الجسدي يؤدي إلى علل جسمانية؟ وإن كان له تركيب فما هو؟

نظرية الحياد: فالنظرة الحيادية لا تنكر أن للإنسان تركيباً جسدياً معيناً،

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢). (صفحة: ٦١-٨٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨١١).

وإنما هي خاصة بتركيبه النفسي، وهي إما أن تقول:

أولاً: أن الإنسان لا تركيب نفسى له حين يولد وإنما البيئة الثقافية والبيئة الحسية هي التي تضع نفسه وتبني من لا شيء شخصيته، وإذا صححت هذه النظرة فإن مثل الإنسان يكون كمثل الطين الذي يضع منه الأطفال أشكالاً مختلفة من الناس والحيوانات والطيور والمنازل، ولكن إذا لم يكن في طبيعة الطين ما يحدد نوع الأشكال التي تصنع منه، كذلك ينبغي أن لا يكون في طبيعة الإنسان ما يحدد الصورة النفسية المناسبة له، أي أن طبيعة الإنسان لا تصلح معياراً نقيس به صلاح البيئة أو فسادها، وأن هذه البيئة بيئة المناهج التربوية والنظم السياسية والأوضاع الاقتصادية هي التي تضع هذه الطبيعة الإنسانية وتشكلها.

وهذا يعنى أنه بمقياس الطبيعة الإنسانية، فإن أي منهج وأي نظام وأي وضع هو مماثل لأي منهج أو نظام أو وضع آخر، ولكن إذا لم تكن طبيعة الإنسان هي المعيار الذي نقيس به صلاح هذه النظم أو فسادها فبماذا نقيسها؟ لست أعرف أحداً من القائلين بفكرة الحياد هذه يقبل هذه النتيجة التي تستلزمها نظريته، فإنك لا تكاد تجد واحداً منهم إلا وهو يتقصد بعض النظم الاقتصادية أو العلاقات الإنسانية أو النظم السياسية... إلخ. على أساس أنها تمسخ الإنسان وتشوهه أو أنها لا تناسب طبيعته... إلخ، فكارل ماركس مثلاً يقول في مكان: إنه ليس للإنسان طبيعة ثابتة، وما الإنسان إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية، والعلاقات الاجتماعية متغيرة، ولكنه في مكان آخر يتهم الرأسمالية

بأنها شوهدت حقيقة الإنسان وجعلته شبيهاً بالحيوان.

ولعله لم يفطن إلى أن هذا القول الأخير يناقض الأول؛ لأن القول الأول: ينكر أن تكون للإنسان طبيعة ثابتة، والقول الثاني: يفترض وجود هذه الطبيعة ويعتبرها طبيعة خيرة.

وإما أن تقول: ثانيًا: أن للإنسان تركيبًا نفسيًا معينًا، ولكنه تركيب محايد بالنسبة للخير والشر، وأنه يميل إلى هذا أو ذاك بعد أن يولد إما بإرادته الخاصة أو بسبب عوامل خارجية، ولكن هذا معناه أنه ليس في تركيبه النفسي ما يجعل الخير ملائمًا له أو الشر مناقضًا له.

وهذا معناه أن ما نسميه خيرًا كالصدق والإخلاص والشكر وحب الحقيقة ليس خيرًا بالنسبة لنفسه؛ وكذلك ما نسميه شرًا ليس كذلك بالنسبة لها. فكيف إذن يقنع نفسه بأن ذاك خير ينبغى أن يفعل وهذا شر ينبغى أن يترك؟ ما هو المعيار؟ إن الحياد بهذا المعنى يجعل النفس الإنسانية كالآلة، فالسكين مثلًا لا يؤثر فيها فواكه قطعت بها أو أحشاء بريء مزقت بها. إنها معدة لأن تقطع فحسب؛ وكذلك النفس الإنسانية معدة لأن يفعل بها الخير أو يفعل بها الشر، ولا تأثير لأحد الفعلين عليها هي. فهل هذا هو الواقع؟ كلا: فإن نفس الإنسان يشقيها ويعذبها الكذب والنفاق والاستكبار والبخل والهوان ويسعدها الصدق والإخلاص والتواضع والجودة والعزة. ثم لو كانت نفس الإنسان محايدة لم يكن هنالك معنى لعبارات الأمراض النفسية والصحة النفسية.

نظرية أصالة الشر: وأما النظرة التي تقول بأصالة الشر في النفس الإنسانية

فإن الإشكالات عليها أعظم وانفصالها عنها أعسر إن لم نقل أنه مستحيل، ما معنى أن نقول أن الإنسان في أصله شرير؟ إما أن نقول إن للنفس الإنسانية تركيباً معيناً، وأن الشر هو مادة هذا التركيب ولحمته وسداه، ولكن يلزم عن هذا أن يرتاح الإنسان نفسياً حين يفعل الشر ويشقى حين يفعل الخير؛ لأن الراحة النفسية إنما هي أن تكون أقوال الإنسان وأفعاله مناسبة لطبيعته، أو نقول أن معناه أن الإنسان يولد حين يولد والشر لاصق بنفسه لصوق الدرن بجسم الإنسان وأنه إن ترك من غير تهذيب بقى هذا الدرن في نفسه وازداد، ولكن إذا تعهدناه وتعهد نفسه بالتربية والتركية، انجلى عن نفسه هذا الشر الذي صاحبها منذ ميلادها.

ولكن هذا المعنى يفترض أن الإنسان في أصله خير وأن الشر أمر طارئ عليه ولاصق بنفسه من الخارج، وكل الذي يقوله إن هذا الشر لا يطرأ على النفس بعد الميلاد ولكن قبله وهو قول لا داعي له ولا دليل عليه. لا داعي له؛ لأن الفرض الأقرب أن نقول إن الأمر الطارئ يحدث بعد الميلاد، فكما أن العلل الجسمية تحدث في الغالب الأعم بعد خروج الإنسان إلى الحياة، فكذلك العلل النفسية. ولا دليل عليه؛ لأنه لو كان الإنسان يولد والشر لاصق به لكانت أيام الصبا من أشقى أيام الإنسان وأتعسها وأكثرها أمراضاً نفسية، ولكن الواقع غير ذلك.

والقول بأصالة الشر هو قول المسيحية التي تعتقد أن كل إنسان يولد وارثاً لخطيئة آدم، ولكن هذه العقيدة المسيحية شأن كثير من العقائد المسيحية

الأخرى أخذت أشكالاً غير دينية وتزينت بزى العلم والأدب والفن، فصارت أكثر خطراً على المسلمين. فأنت تجدها في صورة نظرية فرويد التي ترى أن الجنس هو الدافع الرئيسي لكل أفعال الإنسان بما في ذلك حبه لوالديه وعبادته لربه. وصورة نظرية ماركس التي ترى أن البحث عن الطعام هو الذي يسير تاريخ الإنسان عن طريق تحسين وسائل الإنتاج وصورة القصص والشعر والفن الذي يجعل الإنسان الشرير هو الإنسان الطبيعي والإنسان الخير إنسان منافق غير ما يبطن أو متكلف يحاول السير ضد تيار طبيعته.

نظرية أصالة الخير: نخلص من كل هذا إلى أن الرأي الصواب هو الرأي الثالث القائل بأن الإنسان ذو فطرة خيرة، وأن الشر أمر طارئ عليه ومجاف لفطرته. هذا هو الرأي الموافق للواقع الذي نعرفه، والمؤدي إلى نتائج مقبولة، وهو الأمر الذي يقول به الدين الحق كما سنبين بعد. أن يولد الإنسان خيراً هو الأمر الذي تقتضيه رحمة الله تعالى وفضله وحكمته. تقتضيه رحمته؛ لأن الرحمن هو الذي يعطي الخير ابتداءً كرمًا منه وفضلاً؛ ثم يجازي على الإحسان بفضله الله ورحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وسماء وليل ونهار وأنهار وحيوان ونبات.

إن الذي خلق الجسم الإنساني حين خلقه سويًا معتدلاً وخلق له كل ما يناسبه من غذاء وكساء وهواء وضياء، لحري بأن يخلق النفس البشرية سوية، ويسهل لها كل ما يناسب استواءها الفطري هذا ويكمله من آيات كونية وحجج عقلية وهداية سماوية، وهو الأمر الذي يناسب حكمته؛ لأن الحكيم لا يصنع

شيئاً لغاية ما ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك الغاية أو غير مهياً لبلوغها.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلْقَ الْإِنْسَانِ لِيَعْبُدَهُ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكيف يخلق له نفساً شريرة لا تناسبها العبادة، أو نفساً محايدة بين الخير والشر لا يضيرها أطريق عبادته سلكت، أو سلكت طريق التمرد عليه، كلا. من حكمة الله تعالى في خلقه كله أن يخلقه سوياً وأن يهدي كل مخلوق إلى ما قدر له أن يخلقه ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسُوِّىَ ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢-٣] (١).

فائدة: الفطرة في القرآن وفي السنة:

في القرآن الكريم وفي السنة النبوية نصوص تدل على أن الإنسان مفطور على الخير دلالة صريحة، وأخرى تدل عليه بطريق اللزوم، وفيما يلي نذكر جانباً من النوعين مع تعليقات موجزة:

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إِنَّمَا خَلَقَ النَّاسَ لِعِبَادَتِهِ وَأَرْسَلَ لَهُمْ رُسُلًا مِنْهُمْ؛ لِيُبَيِّنُوا لَهُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ، ولكن هذا الدين الذي جاء به الرسل من عند الله ليس شيئاً غريباً على الإنسان؛ بل أن أصله مغروس في نفسه.

هذا الأصل هو المشار إليه بالفطرة في قوله تعالى: ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ - الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧ م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢)، (صفحة: ٦١-٨١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٨١١).

حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الرُّوم: ٣٠﴾.

فالإنسان حين يسدد وجهه للدين الذي شرعه الله ويستمر عليه كما يأمره ربه تعالى إنما يلزم فطرته السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره فالدين الإسلامي، هو إذن الدين الطبيعي الذي لا يولد إنسان إلا به، ولذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣١]، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك.

ولهذا قال ابن عباس وجماعة من السلف: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لدين الله، وهو المشار إليه بالنور في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن القيم: «قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم، وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبه والإيمان به وذكره وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به في الناس وأصله في قلوبهم».

وقال: «قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله، ولكن لا مادة له من نفسه، فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته، فازداد نورًا بالوحي

على نوره الذي فطره الله تعالى عليه، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثرًا، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته فيكون نورًا على نور»، وهو المشار إليه بالتسوية في قوله تعالى: ﴿وَتَقِيرُ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۗ ﴿٧﴾ فَأَلَمَّهَا نُجُورَهَا وَتَقَوَّيْنَاهَا ۗ ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا ۗ ﴿٩﴾ وَقَدْ جَاءَ مَنْ دَسَّيْنَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿وَتَقِيرُ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ أي: خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. ولعل هذا الأصل هو المصرح به في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَكُوا كَلِمَةَ اللَّهِ مَثَلًا لَكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۗ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۗ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

فالكلمة الطيبة، كما جاء في تفسير السلف هي كلمة التوحيد، فهي كشجرة طيبة أصلها ثابت في قلب المؤمن، وأكلها هو الأعمال الصالحة الناتجة عنها، الصاعدة على السماء المقبولة عند الله تعالى.

وأما الكلمة الخبيثة، المضادة لكلمة التوحيد فلا أصل لها ولا قرار ولا ثمرة زاكية، وهو المشار إليه بالإشهاد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۗ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ

قَبْلَ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْهَلَكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٣-١٧٤].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن الرأي بهذا المراد قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم، ﴿مِنْ ظُهُورِهِ﴾ ولم يقل من ظهره، ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالوا، فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال ﴿أَنْتَ تَقُولُوا﴾ أي: لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: التوحيد، ﴿غَافِلِينَ﴾.

وفي السنة المطهرة عدة أحاديث فيها مزيد بيان لما قرره القرآن من فطر الإنسان على الخير، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة - وفي رواية - على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها جدهاء؟»
ففي هذا الحديث: دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور، كما أن الحال التي تولد عليها البهيمة هي السلامة من العيوب الجسمانية من قطع أنف، أو أذن، أو شفة وغيرها، فكذلك الحال التي يولد عليها الطفل هي السلامة من العيوب النفسية والاعتقادية من يهودية ونصرانية ومجوسية، وكما أن تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها، فكذلك هذه العيوب تطرأ على الإنسان بعد ميلاده.

والدليل على أن الفطرة المقصودة في هذا الحديث ليست السلامة، بمعنى الحياد؛ بل بمعنى وجود الخير في النفس أنه ﷺ قال: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» ولم يقل ويجعلانه مسلمًا؛ لأن الإسلام هو الأمر الطبيعي وكل هذه العقائد انحرافات عنه، وهذا المعنى جاء مصرحًا به في الرواية الأخرى للحديث «كل مولود يولد على هذه الملة».

ويزيد هذا المعنى تأييدًا وقوة ما جاء في صحيح مسلم، عن عياض ابن حمّار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»؛ وكذلك ما جاء في جزء من حديث رواه الإمام أحمد وأخرجه النسائي في سننه، عن الأسود من سريح من بني سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها»، وأما الآيات والأحاديث التي تدل بطريق اللزوم على أن الإنسان مفطور على الخير فأكثر من أن نحصى في بحث كهذا.

إن الكلمات المعبر بها عن الشر تدل كلها تقريبًا على أن الشر ليس شيئًا أصيلًا وإنما هو انحراف عن الخير، وتبديل له مع أن الكلمات المعبر بها عن الخير ليس فيها ما يدل على أنه نقيض الشر، وإنما في الكثير منها ما يدل على الزيادة والإنماء والمحافظة على خير أصيل.

من ذلك قوله تعالى في الآيات التي ذكرناها سابقًا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧)

﴿فَأَلَّهَمَّهَا هُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فبالإضافة إلى كلمة (سواها) التي تدل دلالة صريحة على أصالة الخير في الإنسان فإن الكلمات «الفجور» و«التقوى» و«التزكية» و«الهدس» أيضًا تستلزم هذه النتيجة.

فالفجور هو الإفساد والعدول والميل عن الأمر الطبيعي، والتقوى من الوقاية والتزكية تعني النمو كما تعني التنظيف والتنقية، والهدس يعني الإخفاء والدفن فالذي يفجر ويفسد، والذي يحمي ويحافظ عليه، والذي يزكو وينمو، والذي يهدس فيمنع من النمو، إنما هو الشيء الصالح السوي المستقيم. وهذا هو الذي تستلزمه كلمات الفساد، والفسق، والكفر، والإلحاد، والزيغ والظلم والضلال وكثير من الكلمات الدالة على الشر. وكثير من كلمات الإيمان، والذكر والشكر واليقين، والطمأنينة والاستقامة وكثير من الكلمات الدالة على الخير. فالذي يفسد هو الأمر السليم والفسق خروج عن شيء سابق، والكفر تغطية وإخفاء لشيء موجود، والإلحاد والزيغ، انحراف، والظلم وضع الشيء في غير موضعه. والضلال عدم الاهتمام إلى الغاية المرجوة. والإيمان تصديق بحق يضمنى على النفس أمنًا، والذكر إنما يكون لأمر كان في الأصل معروفًا، والشكر اعتراف بفضل أسدي. إن في الكلمات الدالة على الخير معاني الثبوت والاستقرار والأصالة والإيجابية.

وأما الكلمات الدالة على الشر ففيها معاني النفي، والتغيير، والسلبية وما ذلك إلى لأن الخير هو الأساس وأن الشر إنما هو نفي الخير. هذا الذي يبدو لي على وجه العموم، ولست أزعم أنني استقصيت كل الكلمات فوجدتها مندرجة

تحت هذا القاعدة. لقد وجدت في بعض الكلمات الدالة على الخير معنى السلبية، ثم تأملتها فإذا هي لا تخرج على القاعدة بل تؤكدتها، فالإصلاح إنما يكون للشيء الفاسد، والتوبة والأوبة رجوع عن شر، فهل يعني هذا أن الفساد والشر هما الأصل؟ كلا، فالإصلاح إزالة للفساد وعودة إلى الأمر الطبيعي والتوبة والأوبة رجوع من طريق الشر إلى الطريق الطبيعي.

إن في القرآن الكريم والسنة المطهرة - إلى جانب تلك الكلمات - ما يدل بطريق اللزوم على أن نفس الإنسان كجسمه حالها الطبيعية أن تكون سليمة معافاة، وأن يطرأ عليها مما ينافي تلك الفطرة الأولى هو الأمراض كالأمراض التي تصيب الأبدان. وكما أن الصحة البدنية تكون في المحافظة على الحال الطبيعي، وفي وقايتها من أسباب الأمراض، وفي معالجة البدن حين يصيبه المرض، فكذلك صحة القلوب وسلامتها.

ومهمة الدين هي المحافظة على هذه السلامة ووقايتها من الأمراض وعلاجها حين تمرض، حين أراد منكرو الرسالة المحمدية أن يعتذروا عن إنكارهم بأن قلوبهم في أكنة، وأنها مغلقة غلافًا فطريًا يحول دون نفاذ كلامه ﷺ إليها رد عليهم القرآن، بأن الغلاف ليس سببًا في الكفر وإنما هو نتيجة له ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨]. ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥]. ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥].

والقرآن الكريم يسمي الشر مرضًا يطرأ على القلوب. ﴿ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ

فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴿ [الأحزاب: ٣٢]. ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [الحج: ٥٣]. وبعض هذا المرض مما يمكن علاجه، وأحسن علاج له آيات القرآن الكريم، وبعضه يستحكم بحيث يمنع وصول هذه الآيات إلى القلب فما يزيده العلاج إلا مرضاً. ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَفِيهِمْ مَن يَقُولُ أَإِنَّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى وَبَيِّنَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [النوبة: ١٢٥].

والنبي ﷺ يشبه ما يطرأ على القلوب مما ينافي فطرتها بالصدأ الذي يصيب الحديد، والدرن الذي يعلق بالأبدان، والدنس الذي يلصق ببيض الثياب. كما أن القرآن يسمى الذنوب ﴿رَانَ﴾ يتراكم على القلوب فيحجبها عن رؤية الحقيقة^(١).

فائدة: الخير الذي فطر عليه الإنسان:

ما هو هذا الخير الذي فطر عليه الإنسان؟ جوهر هذا الخير يتمثل في:

١- السلامة من العيوب، «كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من

جدعاء».

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢). (صفحة: ٦١-٨٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٨١١).

٢- الاعتراف بعبودية الإنسان لخالق واحد، «فطرة الله التي فطر الناس عليه»، «كل مولود يولد على فطرة فاعية، ولكن هذا الجوهر ترتبط به أنواع أخرى من الخير الفطري تدل عليها نصوص أخرى دلالة صريحة تارة، وضمنية تارة أخرى.

٣- أصول القيم الأخلاقية، فالله تعالى فطر الإنسان على أن الشكر خير وهو محمود، والجحود شر مذموم؛ وكذلك قل في العدل والجور، والأمانة والخيانة والاعتراف بالحق وإنكاره. قال رسول الله ﷺ: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ومن السنة». فهذا دليل صريح على أن الناس مفتطرون على الأمانة. ويقول الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ويقول: ﴿ أَفَتَجْمَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. فهاتان الآيتان لا تعلمان الإنسان أن جزاء الإنسان ينبغي أن يكون إحساناً، أو أن مصير المحسن ينبغي أن لا يكون كمصير المسيء. وإنما هما تفترضان أن الإنسان يعلم هذا، ولهذا تستنكر أن عليه أن يحكم بغير هذا الذي يعرفه.

٤- ما يسمى بالقوانين العقلية كالعلم بأن الأشياء لا تأتي من العدم، وأن الشيء لا يخلق نفسه، وأن الكلام المتناقض باطل. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]. ويقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

٥- القيم الجمالية كحب الجمال والنظافة والنظام... الخ. إلى جانب هذا الخير المحض الذي فطر الله تعالى عليه الإنسان، فإنه منحه القوى وهي ذاتها

خير لكننا يمكننا أن نتحرف بها فنجعلها شراً. من ذلك:

(١) القدرة على العمل.

(٢) القدرة على التفكير. وإشارة إلى هذين يقول الرسول ﷺ: «أصدق

الأسماء حارث وهمام» أي أن هذه أسماء تدل دلالة صادقة على حقيقة

الإنسان، فهو حارث عامل، وهو همام مفكر.

(٣) القدرة على الاختيار، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

(٤) السعى لحفظ النفس والنوع بالأكل والشرب والسكن واللباس

والنكاح. إذا كان الإنسان مفطوراً على الخير فلماذا إذن يفعل الشر؟ هذه إحدى

الشبهات بل لعلها أقوى الشبهات التي يشغب بها على القول بأصالة الخير في

النفس البشرية، وهي شبهة تشد كثيراً من الناس وتدعوهم إلى الأخذ بنظرية

الحياد. ولعل أساس هذه الشبهة هو التصور الخاطيء لمفهوم الفطرة. فعبارة

الإنسان مفطور على الخير تعني عند هؤلاء، أنه مطبوع على إرادته وفعله طبعاً

لا ينفك عنه. ولكن الواقع أنه ينفك عنه، فإذاً فهو ليس مفطوراً عليه، بل إنما

يولد محايداً، إن شاء فعل الخير، وإن شاء تركه وفعل الشر. ولكن الفطرة

لا تدل على هذا المعنى الذي يجعلها متناقضة مع المشيئة الإنسانية، والذي

يسوي بين فعل الخير وحركات النباتات والجمادات التي لا إرادة لها.

فطر الإنسان على الخير معناه كما قلنا سابقاً:

(أ) إن الله تعالى صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير.

(ب) وأنه تعالى تفضل فجعل المعرفة بهذه الحقيقة أمراً مستقرّاً في نفس

الإنسان لا يحتاج؛ لأن يتعلمه من الخارج. وإن كان العلم الخارجى يزيده قوة، ولكن الله تعالى جعل الإنسان مخلوقاً ذا إرادة، إن شاء سار في طريق الخير الذي تدل عليه فطرته، وإن شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية والآيات الكونية والرسالات السماوية. إن الله تعالى يتفضل فيعرف الإنسان بالخير ويبيئه له ويدعوه إليه دعوة تأتيه من داخل نفسه، ومن دلائل عقله ومن الآيات الكونية ومن الرسالات السماوية، ولكنه يتركه بعد ذلك حراً إن شاء قبل هذه الدعوة، وإن شاء ردها كافراً. وفي معنى هذا البيان الفطري يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] (١).

فائدة: غاية التربية والتعليم في الإسلام،

فغاية التربية والتعليم هي تمكين الإنسان من أن يكون إنساناً حقيقياً، أو تمكينه من أن يكون عبداً صالحاً؛ لأن العبودية هي جوهر الإنسانية، والإنسان كلما ارتقى في سلم العبودية، ارتقى في سلم الإنسانية.

ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله ﷺ بالعبودية في أشرف أحواله. من ذلك قوله تعالى بمناسبة الإسراء: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِمَبْدِيهِ لَيْلًا مِّن

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢). (صفحة: ٦١-٨٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨١١).

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴿ [الإسراء: ١].

وقوله تعالى بمناسبة الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩]. فوصف الإنسان بالعبودية هو الوصف الجوهرى العام الذي يحتم كل أوصافه. إذن فكل فهم لصفة من صفات الإنسان أو خاصة من خواصه يجعلها متناقضة لصفة العبودية فهو فهم خاطئ. وهو الوصف الأساسى وكل الأوصاف الأخرى بالنسبة له ثانوية، ولذلك فينبغى أن لا يقدم واحد منها عليه.

وبهذه المناسبة: أحب أن أشير إلى صفتين تفهمان أحياناً فهماً يخرج على

هذه القاعدة:

الأولى: وصف الإنسان بأنه مخلوق روجى، استدلالاً بقوله تعالى:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فالوصف صحيح والاستدلال صحيح ولكن

فهم الروحية هذه بأنها عنصر إلهى حل في الإنسان هو الفهم الخاطئ، خطأ شنيعاً ينافى العبودية والتوحيد ويجعل الإسلام - كما تنبه إلى ذلك بعض العلماء - أسوأ من المسيحية، فالمسيحية قصرت الألوهية - بعد الله تعالى - على بشر واحد وهذا الفهم يعممها، فيجعل في كل إنسان عنصراً إلهياً.

أن قول الله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ لا يعنى أن شيئاً من ذاته تعالى خرج فحل

في الإنسان. فالله تعالى لا يخرج من ذاته شيء، وهو أحد ليس كمثل شيء، وهو مفارق وعالٍ على كل شيء. إن إضافة الروح إلى الله تعالى ليست إضافة بعض إلى كل كما تقول (يد الله) و(وجه الله) وإنما هي إضافة مملوك إلى مالكة كما

تقول أرض الله وسماؤه، وكما أن الإنسان ليس روحًا إلهية بهذا المعنى، فإن المسيح عيسى ابن مريم ليس كلمة الله بمعنى أنه خلق وصيغ من الكلمة إن الكلمة ليست عنصره، وإنما هي سببه كما أنها سبب كل مخلوق سواه: ﴿إِذْ مَأْمُرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وكما يقول الإمام أحمد: فإن عيسى ليس هو ال(كن) ولكن بال(كن) كان.

وأما الصفة الأخرى: فهي صفة الخلافة استدلالًا بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولا شك أن الإنسان خليفة ولكن من الخطأ أن تقدم صفة الخلافة على صفة العبودية كما يميل إلى ذلك كثير من فضلاء كتابنا المعاصرين.

ومن الخطأ أن يظن بأن تفسير الخلافة بأنها خلافة عن الله في تعمير الأرض، هو التفسير الوحيد أو المتفق عليه بين العلماء إذ الواقع أن بعضهم أنكر هذه العبارة، وحجتهم في إنكار هنا قوية قالوا أن عبارة: «خليفة الله» لم ترد في قرآن ولا سنة، بل روى أن أبا بكر أنكر على من وصفه بخليفة الله، وقال: أنه خليفة رسول الله، وقالوا: إن الخليفة في اللغة: هو الذي يخلف غيره إذا غاب، والله تعالى لا يغيب، وقالوا: إنه مما يؤيد هذا أنه جاء في بعض الأدعية النبوية وصف الله تعالى بالخليفة، فهو الذي يخلف المسافر في أهله وولده كما يصحبه في سفره.

وعلى كل، فإن الأمر لا يكون خطيرًا إذا فسرت الخلافة بمعنى الحكم، أو بمعنى أن كثيرًا من المخلوقات مسخرة للإنسان، ولكن بعض الكتاب يغلو في تفسير الخلافة حتى ليكاد يشرك بأن الله تعالى قد تخلى عن تصريح جزء من

الكون وترك أمره للإنسان... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١).

فائدة: الاعلان الدولي لحقوق الإنسان،

حرية العقيدة بمعنى أن كل إنسان له الحق في أن يعتقد ما شاء من عقائد تُعد عند القائلين بها حقاً إنسانياً، كفعلة الإعلان الدولي لحقوق الإنسان الذي أجازته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٥/١٢/١٩٤٨ م. لكن هذا الإعلان نفسه رغم صدوره عن الأمم المتحدة، ورغم الدعاية الكبيرة التي أحاطته بها الدعاية الغربية، ورغم أخذ كثير من الدول به وتضمينها له في دساتيرها هو إعلان تحيط به مشكلات كبيرة تكلم عنها المفكرون في الشرق والغرب.

نلخص أهم هذه المشكلات في ما يلي:

أولاً: أنه لا يقوم على أساس متين كما أشار إلى ذلك كثير من المفكرين الغربيين وغير الغربيين. شاركت قبل بضع سنين في ندوة أقيمت في روما عن حقوق الإنسان في الأديان الثلاثة، وكنت أنا والأخ الدكتور جمال بدوي من الممثلين لوجهة النظر الإسلامية، تحدث الدكتور جمال قبلي فأحسن، لكن المتحدثين الآخرين - بمن فيهم كاتبة متخصصة في حقوق الإنسان لم يتكلموا

(١) التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧هـ - الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧م، ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد (١٢). (صفحة: ٦١-٨٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٨١١).

في الموضوعات التي حددت لهم، وإنما كان كلامهم في جملته نقدًا لمواقف المسلمين.

فلما جاء دوري ألقيت بكلمتي التي كنت قد أعددتها جانبًا وقلت لهم كلامًا فحواه: «أنه لم يطلب منكم أن تتحدثوا عن موقف الإسلام، فهذه مهمتنا نحن، وإنما طلب منكم أن تبنوا موقف أديانكم، ثم دار بيننا جدل قال لي فيه أحدهم: إنهم - وهم قساوسة من الكنيسة الكاثوليكية - كانوا هم وراء ذلك الإعلان وأنهم انطلقوا من منطلق ديني، لكن لما كان أعضاء الأمم المتحدة ينتمون إلى أديان شتى، ولما كان بعضهم ملحدًا فقد رأينا أن لا نقيده بمصدر ديني معين. قلت لهم: وإذن فما مستنده؟

قالت الكاتبة المختصة بموضوع حقوق الإنسان: إن مستنده هو إجماع الأعضاء في الأمم المتحدة عليه.

قلت لها: لكنك قلت قبل قليل إن السعودية كانت من بين الدول التي تحفظت على بعض بنوده، فيكف يكون مجتمعا عليه؟ ثم قلت لهم: إنه حتى إجماع الأعضاء في ذلك الوقت عليه لا يجعله فوق النقد ولا فوق التعديل. إنه لا بُدَّ من دليل على صحته غير كون أولئك الأعضاء أجازوه، ولكي يكون صحيحًا فلا بُدَّ أن يستند على أصل مجمع عليه بين الناس، وقد تبين أن فكرة حقوق الإنسان كما وردت في الإعلان لا تستند إلى دين يدين به كل الأعضاء.

ثانيًا: يقول بعض المعترضين عليه إن الدول التي وافقت عليه في عام ٤٨ هي ثلث الدول الموجودة في العالم الآن. فبأي حق يلزم به من لم يحضره ولم يصوت عليه.

ثالثًا: حاول بعضهم أن يجعل مستند الحقوق الإنسانية فلسفة الطبيعة البشرية، أي أن هذه الحقوق أمر تقتضيه طبيعة البشر، لكن هذه الفلسفة نفسها قد كثرت الاعتراضات عليها في الغرب، فلم تعد تصلح قاعدة مشتركة يبنى عليها أمر مهم كحقوق الإنسان.

رابعًا: سخر بعضهم من بعض بنود الميثاق قائلًا: إنها حتى لو كانت شيئًا حسنًا فلا يمكن أن تعد حقًا إنسانيًا. من الأمثلة التي ذكروها على ذلك ما جاء في الفقرة الرابعة من البند الثالث والعشرين من بنود الميثاق « أن لكل شخص الحق في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصالحه»، وما جاء في البند الرابع منه من « أن لكل أحد الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولا سيما في تحديد معقول لساعات العمل، وفي عطلات دورية بأجر».

خامسًا: لكن هذا لا يعني أن كل بنود الميثاق باطلة، وإنما يعني فقط أن الميثاق في جملته ليس أمرًا مجتمعا عليه، ولا حل لهذا الإشكال إلا أن يكتفي فيه بالبنود التي هي موضع إجماع؛ لأن مجرد التصويت في مثل هذه القضايا الأساسية لا يحل إشكالاً^(١).

(١) الردة وحقوق الإنسان بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس لهيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في مشروع مفاهيم في الحريات الدينية (رؤية شرعية) في ٨/٣/١٤٣١هـ - الموافق ٢٢/٢/٢٠١٠م. وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٠٣).

فائدة: التصور الإسلامي للحقوق:

ليس غريباً أن يحصر الفكر العلماني السائد الحقوق في حقوق بشرية أو حقوق حيوانية وينسى حق الله تعالى، لكن الغريب أن يجازيهم في مثل هذا الفكر الإلحادي أناس يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

الحقوق في الإسلام ثلاثة: حق الله تعالى وهو أهمها، وحق للعباد على الله تعالى، وحقوق فرضها الله تعالى للناس على الناس. وقد بين الحديث الصحيح الذي رواه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أن حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، وأن حقهم على الله تعالى إن فعلوا ذلك أن لا يعذبهم. حق عباد الله الذين لا يشركون به تعالى شيئاً هو أيضاً حق كل فرد منهم على كل عباد الله تعالى. هذا الحق هو الحق الوحيد المطلق غير المقيد بشرط من الشروط غير البراءة من الشرك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۙ ﴿١﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [العلق: ٩-١٢]، أي أنه لا يحق لإنسان أن يمنع إنساناً من عبادة الله وحده، فالإسلام لا يتحدث عن الحقوق الدينية بطريقة غامضة ولا يساوي بين حق من يعبد الله تعالى لا يشرك به وحق من يشرك بالله^(١).

(١) الردة وحقوق الإنسان بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس لهيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في مشروع مفاهيم في الحريات الدينية (رؤية شرعية) في ٨/٣/١٤٣١هـ - الموافق ٢٢/٢/٢٠١٠م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٠٣).

فائدة: الحرية الدينية في الدساتير الديمقراطية:

الحرية الدينية التي تكفلها الدساتير الديمقراطية الغربية ليست ولا يمكن أن تكون حرية دينية مطلقة تسوغ لكل معتنق لدين من الأديان أن يمارسه بحسب ما تقتضيه مبادئه، وإنما هي كما نبه إلى ذلك كثير من المفكرين الغربيين المسيحيين حرية في إطار المبادئ العلمانية، أي حرية في إطار القوانين التي تسنها أغلبية الأعضاء في الهيئات التشريعية، ولذلك فإن القوانين قد تأتي - بل لا بُدَّ أن تأتي - بما يخالف بعض التعاليم الدينية لبعض الناس.

هذا أمر لا مفر منه ولا سيّما في دول تتعدد فيها الأديان، من الأمثلة التي يذكرونها على هذه القيود: منع المسيحيين من طائفة المورمون من الزواج بأكثر من امرأة مع أنه شيء يبيحه دينهم. بل الأهم من ذلك بالنسبة للمسلمين أنه لا يمكن لهم أن يطبقوا شيئاً من القوانين المتعلقة بشؤون الدولة كمنع الربا ومنع شرب الخمر، بل إن الزواج بأكثر من امرأة واحدة يعد في بعض القوانين الغربية جريمة يعاقب عليها القانون، بينما لا يعد الزنا أو حتى إتيان الرجال جريمة إذا كان برضى الطرفين.

أنا لا أذكر هذا لأقول إنه لا ينبغي لأهل كل دين في دولة متعددة الأديان والفلسفات والمبادئ أن يفعلوا ما يقتضيه دينهم؛ لأن هذا شيء مستحيل كما قلت، وإنما أريد أن أقول إنه بما أن هذا أمر متعذر في الواقع فإن القول بحرية دينية مطلقة كلام باطل. الحرية الدينية المقصودة عند العلمانيين إنما هي إذن الحرية التي تسمح بها مبادئ الدولة العلمانية التي تجعل الحرية الدينية حرية

اعتقاد فردي، وممارسات تعبدية لا تتدخل في المجال العام Public Space.

لكن حتى هذه الممارسات التعبدية نفسها لا بُدَّ أن تكون خاضعة لقوانين الدولة العلمانية؛ لأنها هي المسؤولة عن تنظيم الحياة العامة. فلا بُدَّ من أخذ إذنها مثلاً حتى في أماكن بناء دور العبادة. الحرية الدينية التي يتحدث عنها الغرب العلماني هي إذن بالضرورة حرية مقيدة، ولكن الناس صاروا ينسون هذه الحقيقة؛ لأنهم صاروا يفترضون أن الأمر الطبيعي في الدولة أن تكون علمانية، فكل قيود توضع على الحرية الدينية غير قيود العلمانية هي القيود التي يتعرض عليها.

لكننا نقول: إنه إذا كان من المستحيل على الدولة العلمانية الديمقراطية أن تعطي مخالفيها من أهل الأديان والفلسفات حريات مطلقة، فكذلك الحال بالنسبة لدولة يكون مبناها على الدين، وهذا هو الشأن في الدولة الإسلامية، إنها هي المسؤولة عن تنظيم الحياة العامة، لكن الدين الذي تدين به يأمرها أن تعطي أصحاب الأديان غير الإسلامية حقوقاً هي في بعض جوانبها أكثر من الحقوق التي تعطيها لهم الدولة العلمانية.

والإسلام في هذا يختلف عن الدول الدينية التي كانت سائدة في أوروبا. لم تكن تلك الدول تكتفي بتنظيم الحياة العامة وتترك لأهل الأديان المخالفة لها حرية التدين في ذلك النطاق، بل كانت تحاول فرض عقيدتها على كل من هو تحت سيطرتها، فإما أن يصير كاثولوكياً مثلاً وإما أن يقتل، وهذا هو الذي فعلوه بالنسبة لليهود في إسبانيا. لقد خيروهم بين أن يتحولوا إلى النصرانية أو يهاجروا أو يقتلوا.

وقد كانت هذه السياسة هي السبب في اشتعال ما سمي بالحروب الدينية التي استمرت لقرون في أوروبا، وكانت هي السبب كما يقول بعضهم في التحول إلى الدولة العلمانية التي تعطي أهل كل دين تلك الحقوق التي تحدثنا عنها. وإذا جاز للدولة العلمانية التي يقال إنها دولة ليبرالية أن تقيّد حرية التدين، فلماذا لا يجوز ذلك لدولة يقوم مبنائها كله على أساس دين منزل من عند الله تعالى؟^(١).

فائدة: عقوبة المرتد والمعترضون عليها:

إن الذين يعترضون على هذه العقوبة منهم من هو كافر بالإسلام، ومنهم من هو منتسب إليه. أما الكافرون به فإنما يعتمدون في اعتراضهم على كون هذه العقوبة مخالفة لمبدأ العقيدة الذي هو حق لكل إنسان. إن الخلاف في أمر ما بين المنتسبين إلى أديان ومذاهب حياة مختلفة لا يحسم إلا بالرجوع إلى معايير متفق عليه بينهم، ولا معايير متفق عليها بين العقلاء من البشر إلا المعايير العقلية والحسية، ولا شيء في الحس ولا في العقل يقول إنه لا يجوز عقاب التارك لدين حق إلى دين باطل.

نعم، إن الخلاف يمكن أن ينتقل بعد ذلك إلى السؤال عما إذا كان الدين المتروك هو دين حق. لكن هذا سؤال آخر إنما يجاب عنه بالمعايير نفسها التي

(١) الردة وحقوق الإنسان بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس لهيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في مشروع مفاهيم في الحريات الدينية (رؤية شرعية) في ٨/٣/١٤٣١هـ - الموافق ٢٢/٢/٢٠١٠م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤١٣).

ذكرناها، معايير العقل والحس. ينني بعض الغربيين اعتراضه على قتل المرتد على اعتبار أن حق الحياة حق مطلق، فلا يجوز لذلك أن تزهق روح مهما ارتكبت من آثام. ولذلك فإن كثيرًا من الدول الأوربية ألغت عقوبة الإعدام. لكن هذه الدول نفسها هي التي ترسل جنودها ليتعاونوا مع الأمريكان في قتل الأبرياء في أفغانستان وفي العراق.

كيف تقول إن حق الحياة حق مطلق لا يجوز التغول عليه، ثم تقتل الأفغان بحجة أنهم هم الذين كانوا وراء أحداث سبتمبر، وتقتل العراقيين بحجة أن دولتهم تملك أسلحة دمار شامل يهدد المصالح الغربية؟ وكيف إذا كان كثير من هؤلاء الذين يُقتلون هم باعتراف الجهات الغربية من الأبرياء؟ إن التعلل بكونهم قتلوا خطأ لا يجدي؛ لأن الذين يشنون مثل تلك الحروب يعلمون يقينًا أنه ستكون من نتائجها قتل بعض الأبرياء.

أما المنتسبون إلى الإسلام فإن اعتراضهم مبني على ثلاث حجج:

الأولى: عدم ثبوت هذه المسألة من الناحية الشرعية، وهذا أمر يحال الحسم فيه إلى الإخوة الشرعيين المختصين.

أما حجته الثانية: فهي أن المرتد لا يعاقب إلا إذا كانت رده مرتبطة بخروجه على الدولة، وهذه حجة واهية:

أولاً: لأن حديث «من بدل دينه فاقتلوه» ذكره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمناسبة تدل غاية الدلالة على نقيض من يقولون. ذكره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمناسبة قتل أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتحريقه لجماعة ممن غلوا فيه وسجدوا له، وقالوا له:

أنت ربنا، فهل يقال عن أمثال هؤلاء إنهم خرجوا على الحاكم؟ وهل رأيت من خضوع لحاكم هو أشد من مثل هذا الخضوع؟

وثانياً: لأن الخارج على الإمام العادل يقاتل مرتدًا كان أو غير مرتد. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطَافِنَايَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [النحرات: ٩]، لكن قتاله لا يلزم عنه قتله كما هو واضح من الآية؛ ولأن الإمام قد يعفو عنه بعد المقدرة عليه إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين.

ثالثاً: لكن هذا معناه أن المرتد الخارج عن السلطة قد لا يقتل، مع أن الأحاديث التي يقر بها القائلون بارتباط الردة بالخروج تأمر بقتل المرتد، أما حججهم الثالثة فهي أن عقوبة المرتد تتعارض مع مبدأ إسلامي مهم هو مبدأ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

مما لا شك فيه أن هذا مبدأ إسلامي ثابت ومهم. إن الآية تنهى عن محاولة قسر الناس على الدخول في دين الإسلام، لكن النهي فيها مبني على أنه لا أحد من البشر يستطيع إدخال الاعتقاد في قلوب الناس، هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وفي كتاب الله تعالى أدلة كثيرة على هذه الحقيقة بالإضافة إلى آية عدم الإكراه المذكورة آنفاً.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾

﴿٥﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١-٢٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، ولهذا قال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾».

قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: لست عليهم بجبار.

وقال ابن زيد: «لست بالذي تكرههم على الإيمان»، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وعليه، فلا يمكن أن يكون القصد من عقاب المرتد هو إجباره على اعتقاد ما لا يعتقد؛ لأن هذا أمر مستحيل. ما القصد إذن؟ لا بُدَّ أن يكون القصد هو منعه من التصريح بهذا الاعتقاد والدعوة إلى ما يخالفه لما يترتب على ذلك من مضار، إذ أن هناك فرقاً بين من يصرح بالكفر قبل أن يعلن دخوله في دين الإسلام، وبين من يصرح به بعد دخوله.

إن الذي يعلن دخوله في دين الإسلام لا يدخله فرداً، وإنما يعلن انضمامه إلى جماعة المسلمين، وهي جماعة مترابطة متآلفة، وليست مجرد كوم من الأفراد. فالذي ينضم إليها ثم يعلن خروجه منها يعلن نوعاً من الحرب عليها؛ وذلك لأنه:

أولاً: يقول بلسان حاله أو مقاله إنه جرب هذا الدين فوجده ديناً باطلاً، أو وجد فيه عيوباً كثيرة، فهو يحذر غيره من أن يكرر تجربته، وإلى هذا الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكَتَافِ: ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَجَهَ النَّهَارِ وَأَكْفَرُوا عَاجِزَةً لِعَالِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٧٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم؛ ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين.

أقول: هذه المكيدة مازالت مستمرة لكنها تأخذ صورًا مختلفة منها في أيامنا هذه أن بعض الدول المعادية للإسلام ترسل جواسيسها ليعلنوا إسلامهم وينضموا إلى جماعة المسلمين في البلد الذي هم فيه ثم يعلنون خروجهم منه. وقد رأينا بعضهم يفعل هذا ثم يكتب كتابًا كاملًا عن المسلمين يملؤه بالأكاذيب والتهم التي يرى أنها ستنتفرق قومه منه.

ثانيًا: إن الذي ينضم إلى جماعة المسلمين يصبح جزءًا من نسيج ذلك المجتمع، فإعلان خروجه منه قد يؤثر تأثيرًا كبيرًا وسيئًا على من كان قريبًا منه من أزواج وأولاد وأصدقاء وجيران ومعارف، لا سيما إذا لم يكن لهم من العلم وقوة الاستمسك بالدين ما يحميهم من هذا التأثير. إن الذين يدافعون عن حق الشخص في الردة لا يريدون الاعتراف بأن في الناس ضعفاء يحتاجون إلى حماية؛ بل يفترضون فرضًا باطلاً هو أن كل الناس سواسية في مقدراتهم العلمية وقواهم الإيمانية.

ثالثًا: إن التهديد بقتل المرتد فيه مصلحة وحماية لكثير من الناس من في

الردة؛ وذلك أن الإنسان قد تعرض له شكوك إذا صرح بها كانت تصريحًا بالكفر، فإذا عرفت عنه فربما أصر عليها واستمر فيها، وأما إذا خشي من أن يعرضه التصريح بها للمقتل فقد يكتمها، ثم يكتشف أنها كانت وساوس شيطانية أنجاه الله تعالى منها، ونحن نعرف أناسًا بأعيانهم حدث لهم مثل هذا، والإنسان قد يراجع نفسه حتى بعد أن يعلن رده، وربما كانت هذه الحكمة في إعطائه ثلاث فرص قبل قتله، وإخواننا الذين يرون عدم قتل المرتد استنادًا إلى الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، يلزمهم أن يطردوا هذه الحرية الدينية على كل تفاصيل الدين كما فعل الغربيون؛ لأنه من التناقض البين أن تعطي الإنسان حرية الخروج عن الدين كله ثم لا تعطيه حرية الخروج عن بعضه، وهذا معناه أن ينكروا كل الحدود وكل أنواع التعزير بحجة تناقضها مع الحرية الدينية.

ويلزمهم لهذا القول بأنه يجوز للإنسان أن يقول إنه مسلم لكن ينكر شيئًا من القرآن، أو ما علم بالضرورة أنه من دين الإسلام، فلا ينكر عليه ممارسة الزنا أو الشذوذ، ولا لشرب خمر وهكذا. لكن نتيجة هذا كله هي أن لا يكون الإسلام نظامًا لدولة؛ لأنه لا بُدَّ للدولة من قانون تنظم به حياة الناس ولا بُدَّ لهذا القانون من أن يتضمن أنواعًا من العقوبات، فإذا كان القانون مبنياً على الدين وكانت عقوباته كلها مبنية على الدين، وكان من حق الإنسان -بحسب مبدأ الحرية الدينية- أن يرتكب المخالفات والجرائم التي تعاقب عليها تلك القوانين، كان من المستحيل أن يكون الدين أساسًا لدستور الدولة وقوانينها.

ماذا لو قال قائل إنكم تتناقضون حين تعطون الإنسان حرية الدخول في الدين لكنكم لا تعطونه حرية الخروج منه.

نقول: إن هناك فرقاً بين حرية الدخول وحرية الخروج، إن منظمين لمحاضرة تلقى في إحدى القاعات قد يقولون إن المحاضرة مفتوحة لا قيد على من يريد حضورها، لكن لا يسمح لمن دخل القاعة أن يخرج منها إلا بعد انتهاء المحاضرة؛ لأن هذا يشوش على المحاضر وعلى المستمعين.

إن الأصل هو دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ثم ترك الأمر إليهم فمن شاء آمن ومن شاء كفر، وقد كانت هذه الطريقة وما تزال هي التي دخل الناس بسببها في دين الله أفواجاً. أما المرتد فحالته حالة شاذة عن هذه القاعدة التي ذكرناها للأسباب التي بينها، ولكنه مع ذلك يعامل في البداية مثل معاملة المدعو إلى الإسلام فيحاور ويجادل ويعطي فرصة لمراجعة نفسه ولا يعاقب إلا بعد أن يصر على الردة^(١).

فائدة: مفهوم أهل السنة والجماعة:

أهل السنة والجماعة ليسوا فرقة كسائر الفرق إنما هم الأصل، الذي حادت عنه وفارقت سائر الفرق. ولذلك سمي أهل السنة هؤلاء المفارقين بأهل الأهواء.

(١) الردة وحقوق الإنسان بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس لهيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في مشروع مفاهيم في الحريات الدينية (رؤية شرعية) في ٨/٣/١٤٣١هـ - الموافق ٢٢/٢/٢٠١٠م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٠٣).

إنه من الخطأ الفاحش، وهو خطأ شائع أن يظن بأن أهل السنة إنما هم فرقة كسائر الفرق التي انقسم إليها المسلمون، أو أن الانتماء إليهم كالاتمء إلى غيرهم من الفرق، هو نوع من التعصب المذموم، والذي ينبغي للمسلم أن يتخلص منه، فلا ينتمي إلا إلى الإسلام المجرد الخالص وما علم أصحاب هذا القول أن مذهب أهل السنة والجماعة هو هذا الإسلام الخالص الذي يتحدثون عنه، إذ مما لا شك فيه أنه لا إسلام أخلص مما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه في زمانه ومن بعده.

لقد حاد عن هذا الأصل الخالص بعض المنتسبين إلى الإسلام، وكان أهم أسباب ضلالهم إنكارهم لسنة النبي ﷺ، وكان من أهم نتائج هذا الضلال ومظاهره مفارقتهم لجماعة المسلمين مفارقة اعتقادية ومفارقة سياسية، فتميز الذين بقوا على الأصل أخذًا بالسنة ومحافظه على وحدة المسلمين بأنهم أهل السنة والجماعة، فهم أهل سنة في مقابل منكريها من أهل الأهواء والبدع، وأهل جماعة في مقابل الذين سعوا إلى الفرقة وخرجوا عن السلطة الملتزمة بالسنة، فأهل السنة والجماعة هم إذن أهل الإسلام، وأهل القرآن الكريم، لكنهم لم يتسموا بذلك كما قلت؛ لأن الذين انحرفوا كان انحرافهم ليس بسبب إنكارهم للقرآن الكريم، وإنما بسبب أنهم حادوا عن سنة الرسول ﷺ.

بعض إخواننا يظنون ظنهم الأول، وهو ظن خطأ، إن الانتماء إلى هذا أو إلى هذا أمر مسموح به، وهذا كما قلت ليس بصحيح^(١).

(١) في سبيل إستراتيجية أهدي وأجدى للحركة الإسلامية، ورقة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الندوة التي نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض في ١٤/٨/١٤١٢ هـ - الموافق ١٧/٢/١٩٩٢ م.

فائدة: بين التسامح وعدم الالتزام:

بعض الناس يظنون أن الانتماء إلى أهل السنة والجماعة هو نوع من التحجر، وهم يخلطون في هذا بين التحجر والانضباط، أو يخلطون بين الانضباط والانفلات، فلو كان السعة بمعنى أن الإنسان قبل كل الأفكار والاتجاهات، وكلما قبل منها أكثر كان هذا دليلاً على سعة الأفق، وعلى التسامح، لكان الذي يقبل النصرانية واليهودية أرحب صدرًا من الذي يلتزم بالإسلام فقط، ولو كان الذي يضيف إلى النصرانية واليهودية أديانًا أخرى أرحب من هذا، وهكذا، ولكن هذا كما يعلمون وكما ترون ليس سعة وليس تسامحًا وإنما هو عدم التزام، إذ لو كان كل حصر للمسير في حدود معينة تضييقًا لكانت حدود الله تعالى تضييقًا. ولكانت مراعاة القواعد التحوية تضييقًا؛ بل ولكان وضع الحواجز على حافتي الجسر تضييقًا، ولكن هذا كما قلت ليس بصحيح، وليس هنالك من تناقض بين أن يكون الإنسان ملتزمًا بمذهب أهل السنة والجماعة، وأن يكون قادرًا على الحركة؛ بل أن هذا هو الذي يلزم عن الالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة. لقد كان أهل السنة والجماعة واقعيين، أئمتهم كانوا واقعيين ويعرفون كيف يتعاملون مع الواقع، لدرجة أن بعض المستشرقين كانوا يعتقدون أنهم من الانتهازيين، حتى قال أحدهم: أنهم كانوا دائمًا يؤيدون كل حكومة من الحكومات، وهذا ليس بصحيح وإنما الذي اقتضى بعض مواقفهم تلك هو نظرهم الواقعية هذه^(١).

(١) في سبيل إستراتيجية أهدى وأجدى للحركة الإسلامية، ورقة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الندوة التي نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض في ١٤/٨/١٤١٢ هـ - الموافق

فائدة: الموقف من الحضارة الغربية:

ينبغي أن يكون موقفنا من الحضارة الغربية موقفًا عقلائيًا رشيدًا وهذا

يقتضي:

أولاً: أن تقدر قوة الغرب وتقديرها الصحيح، وعدم الاستهانة بها
للخضوع والخنوع، ولكن لأخذ الأسباب لكف كل أذى يمكن أن يلحقنا
منها، ومن أهم الأسباب الاستمسك بالدين والتوكل على الله تعالى حق توكله
﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ثانياً: أن تصوره حق تصوره، ليس شيئاً واحداً متجانساً ذا موقف واحد
منها؛ بل هم أقوام مختلفون تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ينبغي أن لا ننسى
هذا.

ثالثاً: أن فيهم من يمكن أن يقبل الحق في كل يوم يسلم عدد من الناس في
الغرب، وحدثني اليوم أحد إخواننا الذين كانوا يعملون في مجال الدعوة بين
القوات الأمريكية هنا، أنه في تلك الأشهر القليلة أسلم منهم سبعة آلاف. إذا
استمر هذا فسيأتي -إن شاء الله- نظام دولي جديد لا يكون فيه الغرب مسيحياً
يهودياً في مقابل العالم الإسلامي، بل تكون هنالك قوة إسلامية في داخل الغرب
نفسه كما أن هنالك قوة يهودية، فعلينا أن نسعى لذلك وأن لا نكون متشائمين.

وأخيراً: علينا أن نستغل اهتمامهم بنا، وفي هذه الأيام يهتم الغرب بالعالم
الإسلامي اهتماماً شديداً فينبغي أن نستفيد من هذا إذا كانوا يريدون أن يعرفوا
عنا نقدم لهم نحن المعلومات، ولا نترك غيرنا من المستشرقين أو العلمانيين

يتحدثون عن المسلمين إذا كانت لهم شبهات ينبغي أن نرد عليها، فنحن أصحاب الدعوة ليس همنا أن نحطم الغرب وإنما همنا أن نهديهم إلى الله «فلئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم»^(١).

فائدة: التركيز على العقيدة لا يعني إهمال الجوانب الأخرى:

إن صحة العقيدة شرط من صحة الإسلام، وصحة العمل الإسلامي، فلا يتقبل الله عملاً إلا إذا كان منبثقاً من عقيدة سليمة خالصة، لكن أناساً من المسلمين غلوا في دينهم وفي تفسير هذه القاعدة، وما زالوا يتحرون الغلو حتى دعوا إلى هجر كل شيء ابتغاء التركيز على العقيدة وحدها. هذا هو موقف قليل العلم والفقه، وهو كذلك موقف سلبي بمقياس العمل والجهاد. ومقولتهم في هذا هي: إن منهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، هو الابتداء بدعوة الناس إلى تصحيح العقيدة حتى إذا ما صححت وتركزت في القلوب جاءت تفاصيل التشريع بناءً معتمداً على أساسها المتين. هذا كله صحيح، إنما جاء الخطأ من عدة أوجه.

فالغلو هنا هو نتيجة الغلو في تفسير القاعدة الأولى؛ وذلك قول البعض: يجب أن نبدأ بالعقيدة كما بدأ الرسول ﷺ فلا ندعو الناس إلا إليها. لا ندعوهم إلى تفاصيل النظم الاقتصادية أو السياسية أو القانونية؛ لأن قبول هذه النظم تابع للتصديق بأنها من عند الله، والذي يؤمن بأنها من عند الله لن يتلجلج في قبولها،

(١) في سبيل إستراتيجية أهدى وأجدى للحركة الإسلامية، ورقة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الندوة التي نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض في ١٤/٨/١٤١٢ هـ - الموافق

ولن يحتاج إلى أن نبين له محاسنها أو فضلها على غيرها من النظم. وهذا التصور يهدم أو يقض العرى الباقية من عرى الإسلام.

١ - فهذا الكلام إذا أخذ بحرفيته، فإنه يؤدي إلى نتائج شنيعة فهو يعني:

ألا نتعرض لتفاصيل الصلاة والصوم والزكاة والحج والأحوال الشخصية، ولا ندعو الناس إلى ترك الخمر والميسر والربا والزنا والظلم الاقتصادي والسياسي، ولا نلزم الدعاة أنفسهم بشيء من هذا ولا نقرأ القرآن المدني ولا نتدبره، ولا أحاديث الرسول بالمدينة ولا نعرف شيئاً عن سيرته بها، وإذا كان هذا شنيعاً وكان لا بُدَّ من الحديث عن هذه التفاصيل فما الذي يمنع من الحديث عن تفاصيل الاقتصاد والسياسة؟ ما الفرق بين هذا وذاك؟

٢ - الدعوة إلى توحيد الله تعالى لم تكن - حتى في البداية - منفصلة عن الإيمان بالدار الآخرة والإيمان بصدق الرسول والإيمان بأن القرآن وحي من عند الله؛ بل لم تكن منفصلة عن الدعوة لمكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس، وكل هذه أمور يحتاج الذي لا يؤمن بها إلى أدلة وبراهين وآيات تبين له أنها حق، فإذا أردنا أن نهج النهج النبوي بمكة فلا بُدَّ من أن نحدث الناس في كل هذه القضايا، لكي نبين لهم أن القرآن كلام الله تعالى، لا بُدَّ أن نريهم إعجازه. وإذا كان العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قادرين على تبين إعجازه البياني فإن أكثر الناس اليوم عاجزون عن رؤية هذا الإعجاز، ولكن حكمة الله تعالى قضت بالألا يكون إعجاز الرسالة الخاتمة مقصوراً على الإعجاز البياني الذي كان مناسباً للأمم التي خوطبت بها أول مرة. لقد جعل الله إعجاز القرآن أمراً مستمراً

تراه كل الأجيال على مدى الزمان وامتداد الأيام.

ومن هذا الإعجاز: الهدى الذي جاء به القرآن الكريم وهذا الهدى يشكل:
الهدى الاقتصادي والسياسي والأخلاقي النفسي والاجتماعي... الخ. لقد كان
الأنبياء - فيما مضى - يدعون أممهم إلى التوحيد ويربطون هذه الدعوة
بالمسائل التي تهم أممهم.

فدعوة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ ارتبطت بمشكلة اقتصادية: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا
قَالَ يَنْفَعُوكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

ودعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ارتبطت بمشكلة سياسية: ﴿فَأْتِيَافِرْعُونَكَ فَقَوْلَا إِنَّا
رُسُلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أُرْسَلَ مَعَنَا بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦-١٧].

ولكن دعوة محمد ﷺ جعلت قرآنا محفوظا وسنة مبينة. دعوة فيها
أصول الحلول لكل مشاكل الإنسان، والداعية البصير يتخير من هذا الهدى
الشامل الذي يجده بين يديه الأمور التي يراها تشغل قومه وزمانه، فيربطها
بدعوة التوحيد وغرضه من هذا ليس هو كما يخشى البعض دعوتهم إلى الالتزام
بهذه القضايا مستقلة عن العقيدة، بل غرضه أن يجعلها ذريعة يعطف بها قلوب
مخاطبيه إلى الإيمان بالله، وبرهانا على أن القرآن كلام الله

٣- القول بأن الإنسان حين يؤمن بالله تعالى ويكون مسلما لا يحتاج لأن
نين له محاسن مما يأمره الله به، أو مساوي مما ينهيه عنه قول يبدو في ظاهره
صحيحا ولكنه غير صحيح.

أولاً: هناك فرق بين الإيمان المجمل والإيمان المفصل، فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال بأن كل ما أمر الله به خير، وكل ما نهى عنه فهو شر، وبين من يعرف - بالأدلة العقلية، أو التجربة الحسية - الخير الكامن في أمور معينة، أمر الله بها، وأمور معينة نهى الله عنها، إن الإيمان الصحيح هو الإيمان الذي يقوم على العلم وإذن، فكلما علم الإنسان وآمن علم كلما ازداد إيمانه - كما هو معروف - يزيد وينقص.

ثانياً: إن المعرفة نفسها درجات فالمعرفة بمجرد الخير، غير المعرفة بالدليل والتجربة، حتى لو كان المخبر هو الله تعالى. قَالَ تَالِي: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال رسول الله ﷺ معلقاً على هذه القصة: «يرحم الله موسى: ليس المعاین كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاینهم ألقى الألواح»^(١).

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُظْمِنَ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ويقول الرسول ﷺ معلقاً على موقف إبراهيم هذا: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً، انظر تفسير ابن كثير. وأبو الأنبياء إبراهيم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.

يقول ابن كثير: «إن الشك المذكور هنا ليس الشك المعهود وإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد وكما ذكر البعض - أن يتقل من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين».

ثالثاً: لو كان الأمر كما يصوره هذا الغلو في تفسير الإيمان لجاءت آيات الأمر والنهي في القرآن الكريم كالأوامر العسكرية غليظة جافة لا تبين حكمة أو سبباً، ولا تعلل أمراً أو نهياً، ولا تسلك الأسلوب الذي تلين له القلوب، ولكن الواقع أنها تفعل كل هذا. انظروا مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾ آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَان مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِد مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتِكُمْ وَلَمَّا كُمُ تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة: ١٨٣-١٨٥].

ولنحاول فقه هذه الآيات ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: إشعار بأن ما أمرتم به ليس شيئاً جديداً، وإنما هو أمر قد جربه الناس من قبلكم واحتملوه. ولكن لأن هذه المشقة وسيلة لا بُدَّ منها لنيل التقوى التي هي هدف كل مؤمن بالله تعالى.

﴿آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ﴾: فأنتم لستم مطالبين بصيام الدهر كله ولا نصفه، وإنما هو شهر واحد، إنها أيام معدودة وتنقضي، ومع هذا ﴿فَمَن كَان مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ

عَلَى سَفَرٍ قَعْدَةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴿١٠٤﴾، ومن كان يتحمله ولكن بمشقة كبيرة فليفطر وليفد، والشهر المطلوب منكم صيامه ليس شهراً كسائر الشهور، إنه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾، وفي بقية السياق مزيد من بيان الحكم والتعليل، ولكن لعل فيما ذكرنا كفاية لبيان ما نريد.

رابعاً: أننا إنما نعرف الله تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته، والذي يدلنا على أسمائه وصفاته هو مخلوقاته وآياته والآؤه، إذن فكلما عرفنا الصلة بين شيء بما أمر به أو نهى عنه، وبين حكمته تعالى أو رحمته أو عدله أو فضله، كلما ازدادت معرفتنا بالله تعالى، وازداد إيماننا به وحبنا له، ولهذا فإن القرآن الكريم لا يقتصر على بيان الثواب والعقاب الأخرويين، بل يبين لنا آثار الإيمان ومنافعه في هذه الحياة الدنيا أيضاً، ويحذرننا من الكفر ويبين لنا أضراره في هذه الحياة الدنيا.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

خامساً: ولو كان هذا الكلام صحيحاً، لما كان هناك مجال لسهم المؤلفه قلوبهم، فاذا جاز أن تؤلف قلوب الناس بالمال حتى تنعطف إلى الإيمان،

فلماذا لا تؤلف بالحديث عن المال أي عن هدى الإسلام في شئون الاقتصاد وهدية في السياسة؟

سادساً: هذا النوع من التفكير أورت بعض الدعاة نوعاً من الجفاء والغلظة في مخاطبة الآخرين مع أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. إن هذه الآية توضح أنه لا يجدي مع الفظاظه منطوق ولا بيان حق، ولا أي نوع من الأغراء، إنها وحدها كافية لفض الناس الخيرين عن الداعية مهما كانت رسالته ومهما كانت حجته.

يقول الشيخ أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الوزير في كتابه (إيثار الحق على الخلق) معلقاً على آية ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]: «هذا كله في الحب الذي هو في القلب والمخالطة لأجل الدين؛ وذلك للمؤمنين المخلصين بالإجماع، وللمسلمين الموحدين إذا كان لأجل إسلامهم من أهل السنة - كما يأتي - وأما المخالطة والمنافعة، وبذل المعروف، وكظم الغيظ، وحسن الخلق، وإكرام الضيف ونحو ذلك، فيستحب بذله لجميع الخلق إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة، فلا يبذل للعدو في حال الحرب كما أشارت إليه الآية ﴿لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ﴾ [المتحنة: ٨]. ﴿وَصَلِحْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، فأمر بالبراءة من عملهم القبيح لا منهم. وهو يرى أن المسلم ليس منهياً عن أن يحب العاصي لخصلة خير فيه ولو كان كافراً. وعصيان المسلم لا ينفي حبه لله ورسوله «ولا تعينوا الشيطان على

أخيكم أما إنه يحب الله ورسوله؟»^(١).

والرسول ﷺ كان شديد الحرص على هداية قومه، كثير الحزن على إعراضهم - بكسر الهمزة - ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَلِّغٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُونَ بِهِذًا الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾ [الكهف: ٦]، كنت أمشي مع أحد الأخوة المسلمين السود في أمريكا. فطفق يعبر عن حرصه الشديد على هداية قومه ورغبته في إنقاذهم مما هم فيه. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان، إنها دمة الرحمة وحب الخير للناس^(٢).

فائدة: خطأ قول من قال أخذ الإسلام كاملاً ١٠٠٪ أو لا شيء؛

إما أن يأخذوا الإسلام كله، وإما أن يدعوهم كله، وهذا غلو حمل أصحابه على الضيق بكل بادرة للخير، وإساءة الظن بكل جزئية من جزئيات الحق والاصلاح، أنهم يريدون إلغاء كل عمل إسلامي ليؤسسوا عملاً إسلامياً كاملاً. إن النهج السليم أن نرحب بكل خطوة خير - ولو كانت من كافر - وأن نطالب كل فاعل خير بالمزيد حتى تدخل في شرائع الإسلام جميعاً، فلقد دعا رسول الله ﷺ إلى التوغل في الدين برفق، والرفق هنا يعني:

(١) تناول الدين برفق.

(١) رواه البخاري.

(٢) في منهج العمل الإسلامي، بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث عشر، محرم - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨هـ، يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤١٢).

(٢) التدرج في السعي نحو الكمال الممكن.

وإنه لمن المشادة الفكرية للدين أن يرفع شعار: إما الإسلام كله... وإما تركه كله. وإنه لمن المشادة العملية للدين أن يحاول أقوام تطبيق هذا الشعار وجعله سلوكًا عمليًا. وإنهم لمغلوبون إن هم فعلوا ذلك «ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه».

الطريقة الصحيحة هي: نشيد صرح الإسلام لبنة لبنة، وأن نعد كل عمل إسلامي إضافة لبنة لهذا البناء، لئن أريد بشعار أو فكرة «خذوا الإسلام كله أو دعوه كله» الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فهذا حق. لأننا مكلفون بالإيمان بالكتاب كله. ولعل الخلط بين هذه القضية وبين تطبيق الإسلام - وفق الاستطاعة - وهو الغلو والفهم الخاطئ^(١).

فائدة: الحذر من كيد الأعداء:

الحذر - كيقظة نفسية وعقلية وسياسية - مطلوب في الحرب والسلام.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوءًا حُدُوءًا فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُولُكَ عَدُوًّا

بَعْضٌ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، لكن الاسترسال الوهمي مع الحذر غلو يحقق

(١) في منهج العمل الإسلامي، بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث عشر، محرم - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨ هـ، يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٤١٢).

أهداف الأعداء من حيث أراد أصحابه أن يحبطوا كيد الأعداء، فالغلو في الحذر يحوله إلى مخاوف تقوض العزيمة، وتربك كل عمل، وتشيع التطير والجزع في صفوف المسلمين، وهذه غاية يسعى إليها المناوئون للإسلام.

ومن أمثلة هذا الغلو في فهم وتطبيق هذه القاعدة:

- كيد الأعداء هو سبب تخلفنا وسبب كل شر أصابنا في ديننا ودنيانا.

- الشعب طيب خير.

- الحكومات وحدها هي التي تعيق تقدم الإسلام والمسلمين.

- والحكومات فريسة للاستعمار والشيوعية.

- والشيوعية والاستعمار فرائس للصهيونية العالمية.

هذه الوسوسة المعقدة - الناتجة عن غلو في فهم الحذر - أصبحت

كالعقيدة المفروغ من صحتها وجدواها.

وفستطيع القول: بأن هذا التصور يتناقض مع منهج القرآن في تحليل

أسباب الضعف والهزيمة والمصائب، فالقرآن الكريم يرد الكوارث والمصائب

التي تحيق بالإنسان إلى أسباب داخلية نابعة من نفسه، ومن انحرافه، ومن

إخلاله بشروط الاستقامة، ومن تجاهله لسنن الله تعالى في المجتمع البشري.

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

[الشورى: ٣٠].

﴿ أَوْلَمَّا أَصَابَكُم مَّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلٌّ هُوَ مِنْ عِنْدِ

أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

﴿فَاعْتَمِ أَنْبَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ

عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَابْتِغْتُمُ الْمَدِينَةَ﴾ [التوبة: ٢٥].

نعم، هناك أسباب خارجية، وهي أسباب حقيقية ولكنها ثانوية، وهذه الأسباب لن تضرنا شيئاً إذا صحت الاستقامة على دين الله، وضح فقها للدين، وضح تطبيقنا له، وضح عزمنا على التفتيش عن أسباب ضعفنا داخل أنفسنا أولاً.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١].

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُلْقِي عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠] فإذا فقها هذا فقد

ترتب على هذا الفقه:

- ١- أن نصارح الشعوب بأنها هي سبب المهزائم والتخلف.
- ٢- وأن نكثف العمل في إصلاح الشعوب ذاتها.
- ٣- أن نسعى لإصلاح الحكم باعتباره صورة من المجتمع أو جزء من واقع الشعوب.

٤- لا نكتفي بمجرد إلقاء الاتهام، بل نبذل جهدًا حقيقيًا في التحقيق والتثبت، وجهدًا إيجابيًا في تغيير الواقع.

٥- أن نستفيد من تضارب مصالح الخصوم متخلين عن النظر إليهم باعتبارهم شيئًا واحدًا ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

٦- أن نحرر القلب الإسلامي من ضغوط الوسواس والتطير والاستسلام لفكرة القوى الخفية التي تدير العالم، فهي ضغوط أصابت الكثيرين بالشلل أو التردد والارتباك^(١).

فائدة: أسباب الاتفاق والتعاون بين الناس:

هنالك أسباب ثلاثة بقدر توفرها في الناس وقوتها يكون الاتفاق والتعاون بينهم، وبقدر ضعفها يكون الاختلاف والتنافر والتدابير.

السبب الأول: هو ائتلاف القلوب؛ لأن ائتلافها يجعل من الأفراد إخوة يحب بعضهم بعضًا، ويثق به ويتجاوز عن سيئاته، فكلما كانت هذه الرابطة القلبية أقوى كان الاتفاق والتعاون أكثر، وكلما كانت أضعف حلت مشاعر العداوة بين الأفراد، وفقدوا الثقة في بعضهم فصعب عليهم أن يتعاونوا. ولما كان منهج الإسلام في الإصلاح يبدأ دائمًا بإصلاح القلوب، كانت الألفة بينها

(١) في منهج العمل الإسلامي، بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث عشر، محرم - صفر - ربيع الأول ١٣٩٨هـ، يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٤١٢).

هي أول ثمرة من ثمار الإيمان المباركة.

قال تعالى ممتناً على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنِهِمْ إِنَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذه الأخوة الإيمانية هي الأساس القوي الممتين الذي تقوم عليه الرابطة بين المسلمين، لكن المسلمين بشر لا يكونون دائماً على حال من الإيمان الذي تركز عليه هذه الأخوة، بل قد يضعف إيمانهم، وقد يعملون لذلك أعمالاً تتناقض مع الأخوة، لكن هذه الأعمال مهما كانت مستنكرة فإنها لا تقوى على إزالة أساس الإيمان ما دامت في دائرة المعاصي التي لا تخرج صاحبها من الملة، فلا تقوى لذلك على إزالة رابطة الأخوة ومحوها من الصدور، تعليقاً على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال في تفسير (الجلالين): «وفي ذكر أخيه تعطفُ داعٍ إلى العفو، وإيدانُ بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان، وكما أن المؤمنين قد يتصرفون تصرفات تتنافى مع ما تقتضيه أخوة الإيمان من تعاون، فإن أصحاب القلوب المتنافرة قد يتعاونون على فعل الشر، فاجتماعهم ليس اجتماع قلوب، وإنما هو اجتماع أجساد». ﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ

جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ سَخَتْ دَلِكَ يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿[الحشر: ١٤].

السبب الثاني: هو العلم بتفاصيل الأعمال الصالحة، التي هي تعبير عن تلك الأخوة ودعم لها، فكلما كان علم الأفراد واسعاً، وكان الالتزام بمقتضياتها شديداً؛ كانت رابطة الأخوة بينهم أقوى، ودائرة التعاون أوسع؛ وذلك إن الله العليم بقلوب عباده يأمرهم بكل ما يقوي رابطة الأخوة بينهم، وينهاهم عن كل ما يضعف تلك الرابطة فيحل الاختلاف والعداوة والبغضاء محلها، وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نصوص كثيرة تعلق فيها الأوامر بأن المأمور به مما يقوي رابطة الأخوة، وأن المنهي عنه مما يتنافى معها من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخُبْرِ وَالْيَسْرِ وَبِضْمِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿[المائدة: ٩١].

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ مِمَّنْ عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يُسَاءُ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَحْتَبِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعْرًا وَبَأْسَالٍ لِيَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿[الحجرات: ١٠-١٣].

وكلما قلَّ العلم، وكثر بسببه الإنكار لبعض حقائق الدين؛ كان الاختلاف، بل كانت العداوة والبغضاء بين المختلفين.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

انظر: كيف جعلت الآية العداوة والبغضاء نتيجة لسيانهم (يعني تركهم أو إنكارهم) لما شرعه الله وذكرهم به. لا يقولن أحد إن هذه الآية وأمثالها إنما نزلت في الكفار فلا تطبقوها علينا نحن المسلمين، لا يقولن هذا؛ لأن المسلم قد يتصف ببعض خصال الكفار وإن لم يكن كافراً، ويقدر اتصافه بها تحدث له النتائج التي رتبها الله عليها؛ وذلك لأن كل المعاصي لا تكون أبداً من آثار الإيمان، وإنما هي من نتائج البعد عنه: «لا يزي الزاني حين يزي وهو مؤمن»؛ كذلك كلما كثر ارتكاب الأفراد لما نهاهم الله عنه من الآثام كثر بينهم الخلاف والتباغض.

السبب الثالث: هو التنظيم الاجتماعي الذي تقتضيه تلك الأخوة الإيمانية، والمقصود بالتنظيم الاجتماعي ما يتعلق بالمسلمين باعتبارهم جماعة، فمما جاءت به الشريعة في هذا:

إن المسلمين جماعة وليسوا مجرد أفراد، ولكي يكونوا جماعة فلا بد لهم من قيادة ينتظم بها شملهم وتوحد بها كلمتهم، وهي القيادة المتمثلة في العلماء والأمراء ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

[النساء: ٥٩].

وقال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من خرج عن الطاعة

وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية». ولتأكيد أهمية الجماعة وكونها لا تتأتى إلا بوجود إمامة جاءت الأحاديث الكثيرة التي تأمر بالنصح لهم، والسمع والطاعة ما لم يأمروا بمعصية، بل حثت على الصبر على جورهم، وعدم الخروج عليهم بالسيف ما داموا مقيمين للصلاة^(١).

فائدة: مبادئ تساعد على التعاون بين الناس؛

(١) أن الاجتماع أصل من أصول الدين؛ فلا يهدم بحجة الاستمساك بأمر هو من جزئياته، وقد كان ابن مسعود مراعيًا لهذا المبدأ لما صلى وراء أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا أتم الصلاة في منى، مع أن السُّنَّة هي قصرها، وعلل متابعتها له بقول: «الخلاف شر».

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل أفتى بأنه «لا تعجز الصلاة خلف أئمة المالكية، ومن صلى خلف إمام مالكي المذهب لم تصح صلاته، ويلزمه إعادة ما صلى خلف الإمام المالكي».

فأجاب: «الحمد لله وحده، إطلاق هذا الكلام من أنكر المنكرات وأشنع المقالات؛ يستحق مطلقه التعزير البليغ... ويدخل صاحبه في أهل البدع

(١) قواعد أصولية... واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام، ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في قاعة الصداقة في الخرطوم، - السودان في الفترة ٢٣-٢٦ جمادى الأولى، ١٤٢٥هـ - الموافق ١٠-١٣ يوليو ٢٠٠٤م، ونشرتها جامعة الخرطوم، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٢٠).

المضلة، فإن مذهب الإمام الأعظم مالك بن أنس إمام دار الهجرة ودار السنة، المدينة النبوية التي سُنَّت فيها السنن وشرعت فيها الشريعة، وخرج منها العلم والإيمان، هو من أعظم المذاهب قدرًا وأجلها مرتبة... وكان لمالك بن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من جلاله القدر عند جميع الأمة: أمرائها، وعلمائها، ومشايخها، وملوكها، وعامتها، من القدر ما لم يكن لغيره من نظرائه، ولم يكن في وقته أجلُّ عند الأمة منه... وكيف يستجيز مسلم أن يطلق مثل هذه العبارة الخبيثة، وقد اتفق سلف الأمة من الصحابة والتابعين على صلاة بعضهم خلف بعض مع تنازعهم في بعض فروع الفقه، وفي بعض واجبات الصلاة ومبطلاتها.

(٢) ارتكاب أخف الضررين، هذا مبدأ عقلي يلتزم به معظم الناس في حياتهم الخاصة، فما من عاقل يخير مثلاً بين أن يقتله اللصوص أو يأخذوا ماله إلا فضل الضرر الثاني على الأول، لكن بعض الناس ينسأه في مجال الحياة العامة؛ وذلك أنهم يظنون خطأ أنه لا مجال في الدين لقبول أنصاف الحلول، فإما الحق كله أو تركه كله، فيخالطون بين منطق العقيدة الذي لا يقبل مساومة ومنطق العمل الذي لا بُدَّ فيه من النقص والتقصير.

منذ أعوام مضت شاعت بين بعض الشباب عبارة: «أخذوا الإسلام جملة أو دعوه»، فصاروا يرون أن لا فرق بين دولة تطبق شيئاً من الإسلام ودولة تركه كله، بل صار بعضهم يعتقد أن الثانية خير من الأولى؛ لأن موقفها صريح لا نفاق فيه، هذا مع أن العبارة لو أخذت بحرفيتها صار كل مسلم، ما عدا الرسول ﷺ مقصراً؛ لأنه ما من أحد بعده ﷺ يمكن أن يأخذ الإسلام كله فيفعل

كل الواجبات والمندوبات ويترك كل المحرمات والمكروهات.

أما في مجال الاعتقاد: فنعم، لا يكون الإنسان مسلماً إذا هو أنكر شيئاً من الدين يعلم أنه منه مهما كان ذلك الشيء كبيراً أو صغيراً، ولكن حتى في مجال الاعتقاد فإن الذي يكفر ببعض الدين أقل شرّاً من الذي يكفر به كله، والذي يكفر به كله أقل شرّاً من الذي يكفر به ويصد عنه، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

ومن هنا، جعل الدين لأهل الكتاب مكانة أخص من التي جعلها لسائر الكفار، ثم إن هذه العبارة ليست دقيقة؛ لأنها تأمر من لا يأخذ بالإسلام كله أن يترك حتى الجزء الذي أخذ به، مع أن النصيح لأمثال هؤلاء أن يأخذوا بما تركوه لا أن يتركوا ما أخذوا به.

ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]: «وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، لكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم.

كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. والعقاب الذي توعد الله به الذين يؤمنون

ببعض الكتاب ويكفرون ببعض في الآية التالية، إنما هو عقاب لهم على ما كفروا به لا على ما آمنوا به: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

(٣) التعاون مع كل من يريد تحقيق أمر هو خير بمقياس الدين، بغض النظر عن كونه مسلمًا أو غير مسلم، براء أو فاجرًا، منافقًا أم صادقًا، حاكمًا أو محكومًا.

وقد عبر عن هذا المبدأ الإمام ابن القيم بما لا مزيد عليه، قال رَحِمَهُ اللهُ فِي بيانهِ للفتاوى الفقهية المستفادة من صلح الحديبية، في كتابه العظيم (زاد المعاد): «ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمرًا يعظمون فيه حرمة من حرم الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمة الله تعالى لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس على محبوب لله تعالى مرض له أجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتب على ذلك المحبوب مبعوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق.

(٤) أن يبني الموقف من الحكومات المسلمة على النصح، الذي يقصد إلى الإصلاح، ويعين عليه، وينهى عن الفساد ولا يشارك فيه، لا المعارضة الجاهلية التي لا غاية لها إلا إسقاط الحكومة بالتركيز على عيوبها والمشاركة في

كل ما من شأنه أن يؤدي إلي ذلك السقوط.

(٥) أن لا تكون الأهواء والمصالح الشخصية أو الحزبية أو التعصب للرأي هي القاعدة التي تبنى عليها الموافقة والمخالفة، بل إن المسلم يسمع ويطيع وإن أصابه ظلم في شخصه؛ لأنه يعلم أن طاعته ليست عبودية لفلان أو فلان من الحكام والرؤساء، وإنما هي طاعة لله تتحقق بها وحدة المسلمين وجماعتهم.

(٦) الوعي بالمخططات والسياسات التي يدبرها الأعداء في الداخل والخارج، وما أكثرها في زماننا هذا! إن من يرى عظم الشر الذي سيصيب المسلمين جراء هذه المخططات يهون عليه كل خلاف بينه وبين إخوانه المسلمين، ويدرك ضرورة تعاونه معهم لدرء تلك الشرور^(١).

فائدة: الكراهية ليست شيئاً مذموماً في نفسه؛

الكراهية ليست شيئاً مذموماً في نفسه كما يشيع الآن في بعض الأحاديث والكتابات الغربية، فكأن المطلوب من كل إنسان أن يكون محباً لا يكره شيئاً، وهذه حماقة لأن الكراهية من مقتضيات الحب؛ أعني إذا كنت تحب فلا بُدّ لك أن تكره؛ إنك لا تستطيع أن تحب الشيء وضده أو نقيضه، ولذلك فإن الذين

(١) قواعد أصولية... واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام، ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في قاعة الصداقة في الخرطوم، - السودان في الفترة ٢٣-٢٦ جمادى الأولى، ١٤٢٥هـ - الموافق ١٠-١٣ يوليو ٢٠٠٤م، ونشرتها جامعة الخرطوم، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٢٠).

يذمون الكراهية ذمًا مطلقًا يقعون فيما يذمون.

فبعض زعمائهم يقول عمّا يسمى بالقيم الغربية إنها قيم حب وتسامح؛ لأنها لا تدعو إلى كراهية الشاذين مثلاً، ولا ضد الصهيونيين، ويقول لذلك على من كان يريد أن يعيش بيننا أن يقبل قيمنا وإلا فليترك بلادنا، ولكن هذا معناه أننا لا نحب أو أننا نكره من يكره الشاذين أو يتعصب ضد الصهيونيين، فمشكلتهم مع الناس إذن ليست في كون الناس يكرهون وهم لا يكرهون، وإنما هي في كونهم يريدون لكل الناس أن يحبوا ما يحبون ويكرهوا ما يكرهون، ولو كان ما يحبون غزواً لبلادهم وقتلاً لمواطنيهم وإهانة وتعذيباً لهم، وتخريباً لاقتصادهم ونهباً لخيراتهم.

فهم الآن يتساءلون في مئات المقالات وكثير من الكتب: لماذا يكرهوننا؟ كأن كل ما يقومون به من اعتداء ليس مسوغاً لمشاعر الكراهية ضدهم. وكثير منهم يعزو هذه الكراهية إلى كل شيء إلا سببها الحقيقي، فهذا زعيم كبير يشير إلى من أمامه من أعضاء مجلسه التشريعي قائلاً: إنهم يكرهون هذا، أي إن كراهيتهم وسبب اعتدائهم علينا هو بفضهم للحرية التي تستمتع بها شعوبنا، وللديمقراطية التي ننتخب بها حكمانا.

لكن كثيراً من عقلائهم يتساءلون متشككين: وهل يقتل الإنسان نفسه كراهية أن ينتخب شعب حكامه؟.

ثانياً: يتبين من هذا أن المشكلة ليست في مطلق الحب والكراهية وإنما هي فيما يحب وما يكره. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّعَلَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١٦﴾. هذا هو المذموم، أما كراهية ما يستحق أن يكره فليست بالشيء المذموم بل هي كحب ما يستحق أن يحب.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿الحجرات: ٧-٨﴾.

ثالثًا: قد تكون لسبب طبيعي مقبول، لكنها ينبغي ألا تؤدي إلي عدم العدل مع من يكره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمْوَالَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَايُنَا قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿المائدة: ٢٠﴾.

فالعادل لا يقتل كل من يكره، لكنهم يقتلون من يقولون إنهم يحبون، وأنت تفضل من يقول لك إنني أكرهك لكنني لن أقتلك بسبب كراهيتي لك، على ما يقول لك إنني أحبك لكنني سأقتلك «كانوا يقولون من الحب ما قتل، وكانوا يعنون أنه يقتل المحب، لكن حب هؤلاء يقتل المحبوب».

رابعًا: هذا يقودنا إلى المسألة الرابعة، وهي التفرقة في المعاملة بين المعتقد والمعتقد، فكل ما خالف الحق الذي جاء به الوحي أو قامت عليه أدلة عقلية أو حسية فهو باطل. فالحقيقة ليست نسبية، بل الحق واحد، وكل ما خالفة فهو باطل.

أما من يعتقد الباطل فإننا مأمورون أن ندعوه إلى الحق بالحكمة
والموعظة الحسنة، وأن نجادله بالتي هي أحسن، وألا نكرهه على التسليم بما
نقول، وأن نبرّه ونقسط إليه ما دام لا يحاربنا.

خامساً: هذا يقودنا إلى قضية الصدام بين الحضارات، إذا كان المقصود
بالصدام، الصدام الثقافي، أعني صدام المعتقدات والقيم فهذا أمر لا مفر منه إذا
كانت هذه المعتقدات متناقضة، وأما إذا كان المقصود أن تناقضها والخلاف بين
أهلها يؤدي حتماً إلى صدام مسلح بينهم أو يحول دون تعاونهم فهذا ليس
بصحيح^(١).

فائدة: الدين الإسلامي محفوظ ولا يستطيع أحد القضاء عليه:

إن محاولات الغرب في القضاء على مقومات الحضارة الإسلامية
والوجود الإسلامي تظل في نهاية الأمر عملية يائسة؛ لأن هذا الدين الذي يشكل
المرجعية العقديّة والفكرية الوحيدة لهذه الأمة هو كلام الله تعالى، إنه الدين
الحق، وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَدَّ بِحِفْظِ دِينِهِ حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يقل سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى فِي مَعْرِضِ الْآيَةِ (نزلنا

(١) بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات، وهي ورقة عمل
قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس لندوة العالم وثقافية الكراهية حول التعصب والهيمنة وصراع
الثقافات، والذي شارك فيها مع الدكتور جعفر كل من الدكتور علي النملة والدكتور محمد العجوز،
ضمن ندوات المهرجان الثاني والعشرين للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بالبحرين الوطني
بالمملكة العربية السعودية عام ١٤٢٩هـ - الموافق ٢٠٠٨م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس
(سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،
١٤٣٩هـ، (ص: ٤٢٦).

الكتاب)، وإنما خص كلامه بلفظ الذكر؛ لأن الذكر معناه أن هذه المحفوظ ليس مجرد كلام في ورق، وهذا ما يؤيده حديث رسول الله ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون».

ونحن قد رأينا مصداق ذلك في أحلك الظروف في الاتحاد السوفيتي المنحل، حيث حافظ كثير من الناس على دينهم، فعلموا أبناءهم الدين في الكهوف تحت البيوت في الأقيية، بحيث يأتي الأب بابنه إلى الشيخ ويتركه معه، دون أن يخرج من البيت حتى لا تعرفه الدولة؛ كذلك هو حال بعض إخواننا في الصين، وجدتهم يتكلمون اللغة العربية التي توارثوها أباً عن جد، ويقرأون في تفسير الجلالين، ولقد حافظوا على دينهم في أحلك الظروف في فترة ما يسمى بالثورة الثقافية.

فهذا الدين محظوظ ومحاوله استئصاله محاولة يائسة، وهنالك أدلة عديدة من خارج المنطق الديني التي تدل على أن الإسلام سيكون بإذن الله تعالى دين البشرية، فمثلاً لم تكن دعوة المسلمين للغربيين سبباً في إضعاف تمسكهم بدينهم، وإنما دراستهم في الدين، حتى قال لي أحد الشباب الأمريكيين ممن هداهم الله تعالى: «أخبرنا أستاذ الديانات المقارنة أنه لا وجود لدين ثابت تاريخياً خارج الإسلام».

ومن يقرأ عن سيدنا عيسى عليه السلام كما يبشر به النصراني يشك في وجوده، ولولا أن الإنسان مؤمن به عن طريق الإسلام لشك في وجوده، ناهيك

عن الشك في الأناجيل وفي ترجماتها والتناقض الذي فيها النابع من دراسات الغربيين أنفسهم. الإسلام له مزايا بالنسبة لعصرنا بعد أن صار تفكير الناس عقلانياً وعلمياً، حيث لا يسلم بالتناقضات أو الأحاديث المخالفة للحقائق العلمية؛ فالدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لا تناقض في داخله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، وهو الدين الذي لا تناقض بينه وبين الحقائق الواقعية فهو الدين الذي يمكن أن يقبل في هذا العصر^(١).

فائدة: أقسام الثقافة:

١- ثقافة أسميها بالثقافة الإنسانية: وهذه لا يقلل بها الغربيون، ولا يؤمنون بوجودها، وأعني بالثقافة الإنسانية تلك التي هي ضرورية لكل إنسان، بما هو إنسان، وبغض النظر عن لونه وجنسه ومكانه وزمانه، هي الثقافة التي تقتضيها فطرة الإنسان وجوهره.

٢- الثقافة العصرية: أي الأفكار التي تنتشر في عصر من العصور، وهذه نوعان: نوع هو مجرد أهواء الناس ينتشر في العالم، لكن لا أهمية له، ولو لم يأخذ به الناس ما ضرهم بشيء، مثلاً: مطاعم (ماكدونالد McDonald) [تعبير عن حالة عالمية الآن؛ وكذلك إذا ذهبت إلى أي بلد من البلاد فالمنتج الثقافي الأمريكي يقولون هو المنتج الثاني، فهل هذه عصرية لأن الناس محتاجون

(١) الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما تلاها، وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر - ٢٠ يناير ٢٠٠٣م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٤٢٩).

إليها!!! الثقافة العصرية التي يحتاج إليها الناس هي الثقافة التي إذا لم تأخذ بها أمة من الأمم في العصر الذي تعيش فيه كان أمة متخلفة وضعيفة، وهذه الثقافة في عصرنا هي الثقافة العلمية، وهذا من أسباب تخلفنا، لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تنهض، وأن تكون أمة قوية إلا إذا استوطن العلم الطبيعي في بلدها - وهذا بالمناسبة ما نجح فيه العراق -.

ولكي يستوطن العلم يجب أن يكون باللغة العربية، وأنه يرتبط بتاريخ الأمة، وأن يعالج من ثم مشكلات الأمة، ليعقب هذه المرحلة ظهور علماء كبار يكتشفون، ثم يبنى على هذا العلم تقنية، ولا بُدَّ أن يستفيد الناس مما في العالم ولكن لا بُدَّ أن يستوطن العلم في البلاد.

٣- الثقافة المحلية: كيف يلبس الناس الملابس وماذا يأكلون...؟ لكن أحياناً يكون تغيير هذه الثقافة المحلية دليلاً على الضعف؛ لا بأس إذا كان الإنسان يتأثر بالثقافات الأخرى في ملابسهم، لكن إذا بدأ يقول إن الملابس اللاتقة بالعصر هي البدلة والكرافتة، وأنه إذا لم يلبس هذا لا يكون إنساناً محترماً، هنا يأتي الضعف. لكن حتى من الناحية الإسلامية فلا ضير أن يلبس الإنسان هذا أو هذا^(١).

(١) الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما تلاها، وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر - ٢٠ يناير ٢٠٠٣م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشميليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٢٩).

فائدة: الثقافة الإنسانية هي الإسلام:

الثقافة الإنسانية هي الإسلام، ولذلك العالم محتاج إلى المسلمين، الثقافة الإنسانية هي الثقافة التي تمثل جوهر الإنسان، وجوهر الإنسان هو أن يكون عبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم أنه يدور حول هذا الدور كل ما في الإنسان من خير وشر، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [النمى: ٧-٨]، والرسول الكريم ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، وقال الله تعالى عنه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فأصل الدين في فطرة الإنسان، وقد جاء ليؤكد الفطرة ويعطينا التفاصيل التي هي لازمة لتلك الفطرة، ثم يدور حول هذه الفطرة كل ما في الإنسان، من خير. مثلاً الخلق الكريم والذوق الجميل، فالمبادئ الفكرية غير متناقضة، فيمكن الناس فقدان الجوهر ولكنهم يحتفظون بكثير من هذا الذي يدور حول الجوهر، وهذا الذي يجعلهم يقبلون الإسلام ويعودون إلى الجوهر؛ لأن الإنسان لو لم يكن فيه خير -وهذا الكلام أكرره لكثير من الناس، أي لا تظنون أن الذي ليس مسلمًا فليس فيه خير أبدًا- لأنه لو لم يكن فيه خيرًا لما رأى هذا الخير، وإذا لم يكن عندهم شيء من النور لا يمكن أن يرى الإسلام حق^(١).

(١) الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما تلاها، وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر - ٢٠ يناير ٢٠٠٣م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٢٩).

فائدة : التعريف الإسلامي للثقافة :

درج كثير من المتحدثين عن الثقافة الإسلامية على حسب أنفسهم في دائرة التعريفات الغربية للثقافة، ثم محاولة بيان ما تمتاز به الثقافة -بواحد من تلك التعريفات- حين تتصف بالإسلامية، والذي ينكر على هؤلاء هو حصرهم أنفسهم في نطاق تلك التعريفات الغربية، أما مجرد استخدامها أو حتى تبني بعضها فأمر قد يكون له ما يسوغه. ومن مسوغاته أن الفكر الغربي صار معروفًا لعامة المثقفين من المسلمين بسبب النظم التعليمية الحديثة المعتمدة في معظمها على هذا الفكر في إنتاجه، وفي طرقه ووسائله، بحيث أن التصور الغربي لكثير من الأمور يكون الذي يسبق إلى ذهن المتعلم من شبابنا، فيكون به بمثابة اللغة التي لا يستطيع التفاهم بغيرها. فلا بأس أن نبدأ معه باستخدام هذه اللغة لتعديل المفهوم الذي سبق إلى ذهنه.

وإذا كان هذا المسوغ مقبولاً بالنسبة لمخاطبة أبناء المسلمين الذين نشؤوا في بيئات إسلامية عربية أو غير عربية، فأولى به أن يكون مقبولاً في مخاطبة من لا يعرفون غير تلك المفاهيم من أبناء الحضارة الغربية. لا بأس من هذا إذن ولكن البأس كل البأس أن نجهل أو نتجاهل المعاني العربية الأصلية للثقافة، وأن لا نفكر في تعريفات ومفاهيم للثقافة الإسلامية مبنية على تلك المعاني الأصلية. لذلك سنحاول فيما يلي تقديم مفاهيم للثقافة مبنية على ذينك الأصلين العربي والإسلامي. لعلنا نستطيع بناءً على المعاني اللغوية لكلمة ثقافة، والمحتوي الإسلامي الذي يمكن أن تعطاه تلك المعاني، أن نقدم تعريفًا

واحدًا شاملاً للثقافة من منظور إسلامي فلنبداً إذن ببيان المعاني اللغوية.

المعاني اللغوية الأصلية لكلمات «الثقافة» و«الحضارة» و«المدنية»:

الثقافة: قال ابن فارس: الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء، ويقال تثقفت القناة إذا أقمت عوجها، وثقفت هذا الكلام من فلان ورجل ثقف لقف؛ وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء، وقد بين صاحب (اللسان) هذه الفروع التي أشار إليها ابن فارس، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أ- تقويم الشيء المعوج وتسويته بالمعنيين الحسي والمجرد: الثقاف حديدة تكون مع القواس والرماح يسوى بها الشيء المعوج، وفي حديث عائشة تصف أباها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أقام أوده بثقافة» تريد أنه سوى عوج المسلمين.

ب- الحدق: ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة، حدقفه.

ج- الذكاء والفتنة: ورجل ثقف وثقف وثقف، حدق فهم. وهو غلام لقن ثقف، أي ذو فتنة وذكاء. ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم.

د- معرفة ما يحتاج إليه: والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب «إني حصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم».

هـ- المعرفة القائمة على حسن التصور والمؤدية إلى حسن العمل: ورجل ثقف لقف، إذا كان ضابطاً لما يحويه قائماً به.

و- الظفر بالشيء بحدق ومهارة: وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا ثَقَفْتَهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ هذا ما اكتفى به صاحب (اللسان) لكن المفسرين يبنوا أن الثقف ظفر فيه مهارة، فقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُهُمْ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم، وأمكنكم قتلهم وذلك هو معنى قوله: ﴿حَيْثُ تَقِفْتُهُمْ﴾، ومعنى الثقف بالأمر الحذق به والبصر يقال: إنه لثقف لقف إذا كان جيد الحذر في القتال بصيرًا بمواقع القتل.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأفرانه يلاحظ في هذه المعاني العربية للثقافة:

(أ) أنها صفات فردية حسنة - بعضها فطري وبعضها مكتسب - يمتاز بها أناس دون آخرين.

(ب) وأنها ليسب قاصرة على المعلومات بل تشمل المهارات العملية.

(ج) وإن المثقف إنسان مهذب مستقيم السلوك.

(د) وإن العلم أو المهارة التي يحدقها شيء يحتاج إليه^(١).

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية، هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩ هـ وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إسبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٤٣٦).

فائدة: خصائص المثقف المسلم:

كيف يكون المسلم مثقفًا؟ ولنجيب عن هذا السؤال سنأخذ صفات المثقف تلك واحدة واحدة لنرى ما صلته بالإسلام، وكيف تكون حين تأخذ شكلاً إسلامياً.

العلم النافع أكثر العلوم نفعًا، هو ذلك العلم الذي يحتاج إليه الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن فترته الزمانية أو بقعته الجغرافية، إنه العلم الذي يعطي الإنسان الإجابات الصحيحة عن تلك الأسئلة الفطرية الكبرى التي يوجهها كل إنسان إلى نفسه حيثما كان مولده وأياً كانت بيئته من أين جئت؟ ولماذا أنا هنا؟ وإلى أين المصير؟ إنه في ضوء الإجابة عن هذه الأسئلة تحدد الأمم أساليب حياتها ويحدد الأفراد مهامهم في الحياة؛ بل وفي ضوئها تتحدد كثير من قيم الأشياء والعلاقات بينها.

وفي القرآن الكريم والسنة أجوبة واضحة قاطعة عن تلك الأسئلة وهي أجوبة تحمل معها الأدلة على صدقها، فالله تعالى هو الحق الأكبر، ومعرفة أهم المعارف وعبادته أجل الاعمال. والحياة التي نعيشها الآن فترة اختبار قصيرة لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لحياة الجزاء والخلود التي ستعقبها، ومهمة الإنسان في هذه الحياة أن يسير في الطريق الذي رسمه له خالقه في كتابه، وعلى لسان رسوله لكي تكون حياته العملية موافقة لمهمته الفطرية التي خلق من أجلها، والتي لا تتم سعادته في هذه الحياة وما بعدها إلا بها.

فالإنسان لا يكون مثقفًا حقًا بالمعيار الإسلامي إذا هو لم يعرف هذه

الحقائق الأساسية ويؤمن بصدقها؛ لأنه بغير معرفتها والإيمان بها لا يكون الإنسان إنساناً حقيقياً، ناهيك أن يكون عالمًا أو مثقفاً، لقد كان العرب الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ أكثر خلق الله مقدره على التعبير اللغوي نثرًا وشعرًا. وأكثرها تذوقًا لهذا التعبير، والتعبير اللغوي نثرًا كان أو شعرًا هو أرقى أنواع الفنون.

وكانت للعرب إلى جانب ذلك بعض الأخلاق الحميدة كالشجاعة والكرم والنجدة، وكانت لهم كما لغيرهم حكم ومعارف نافعة في الحياة العملية، ولكنهم كانوا رغم ذلك كله في حكم القرآن أهل جاهلية لجهلهم بتلك الحقائق التي لا تستقيم حياة غيرها.

فلكي يكون الشخص إنساناً لا بُدَّ له من معرفة محملة بتلك الحقائق؛ وأما إذا أراد أن يكون مثقفاً فلا بُدَّ له من أن ينتقل إلى معرفة أكثر تفصيلاً، وإن لم تبلغ درجة التوسع والعمق التي لا تتسنى إلا للقلة ممن أكرمهم الله من العلماء المختصين. يكفيه لكي يفي بشرط الثقافة أن يلم إمامًا عامًا بالعلوم الإسلامية، فيعرف سيرة الرسول ﷺ، ويحسن تلاوة القرآن الكريم، ويعرف مبادئ تفسيره، ويطلع على بعض دواوين السنة، ويلم بالتاريخ العام للإسلام والاتجاهات الفكرية الصحيحة والمنحرفة التي كانت فيه، وأن يجيد اللغة العربية إذا كان عربيًا، أو يكون له إلمام بها إذا لم يكن عربيًا... الخ.

ولا يبلغ المسلم أن يكون مثقفاً إذا هو لم يجمع إلى هذه المعرفة بدينه إمامًا بأهم معارف عصره وقضاياه، إمامًا يجعله قادرًا على فهم ما يقال عنها في

وسائل الاعلام العامة ومتابعته، فالمسلم المثقف يكون له إلمام بلغة بلده وأدائها بالمعتقدات التي تحكم بلده سواء كانت دينية أم علمانية، ويتاريخ هذا البلد وجغرافيته ونظامه السياسي والاقتصادي والتعليمي، وأهم القضايا والمشكلات التي تواجهه كما يكون له إلمام بالمعارف الحديثة من علوم طبيعية واجتماعية وشيء من تاريخ العالم، وأوضاع الأمم وعلاقاتها... الخ.

وقد يكون مع ذلك مختصاً بعلم من العلوم أو بفرع منه يتقنه، ويعرف تفاصيله ويشارك فيه مشاركة المجتهد الأصيل، إن بعض من يسمون بالمثقفين في بلادنا يريدون أن يكونوا مثقفين بالمعنى الغربي فقط؛ أعنى أن لا يعرفوا إلا ما يتوقع من المثقف في بلد غربي أن يعرفه، فتجد أحدهم يجيد لغة أو أكثر من اللغات الغربية، ويعرف الفلسفة اليونانية ويطلع على تاريخ أوروبا، ويعرف زعماء الغرب المفكرين والسياسيين... الخ، لكنه يجهل الإسلام جهلاً مطبقاً فلا يميز بين الآية والحديث.

فالتصور الصحيح إن الإنسان لا يكون عالمًا في حكم الإسلام بمجرد نطقه بالعلوم وقراءته لها، وإنما يكون عالمًا بفهمه لما يسمع ويقرأ ويحفظ ويتصوره له تصورًا صحيحًا؛ لأن العلم النافع غذاء للروح ومقوم للسلوك فأتى له أن يكون كذلك إذا ظل ألفاظًا يرددتها اللسان أو كلمات يسطرها البنان؟ إن مثل العلم الذي لا يتجاوز اللسان أو البنان كمثّل غذاء مفيد يشم الإنسان رائحته ولا يأكله، أو يلوكه ثم لا يبتلعه، فهل تراه ينفع الجسم بشيء؟ والمؤمن يزداد يقينًا بكل هذا من كتاب ربه. فهو يقرأ فيه أنه إنما أنزل ليعقل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[يوسف:٢]، بل ليكون موضع تدبر متواصل وتذكر دائم ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ
لِيَذَّبَ رُؤُوسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ [ص:٢٩]، وإن عدم تدبره وفهمه دليل على
عمى عقلي أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟

وقد نفى القرآن حقيقة العلم عمّن لم يتجاوز علمه التلاوة ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ
لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨].

العمل بالعلم: العمل هو غاية وثمرته، فإذا لم يكن عمل بالقلب أو بالجوارح
فذلك الدليل على انتفاء العلم. ولذلك ربط القرآن الكريم بين خشية الله والعلم
في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، فمن لا نصيب له
من الخشية لاحظ له من العلم، والعلم الصحيح هو الذي يؤدي إلى الإيمان
بالحقيقة التي عُلمت، ثم يؤدي الإيمان بها إلى إحداث حالة في النفس تناسبها،
ثم تكون هذه الحالة دافعا إلى العمل بمقتضى تلك الحقيقة: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخَفِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤]، وأما الذي يظل علمه بالقرآن قولا
باللسان فقد يكون من أكثر الناس شرا مهما كثرت قراءته له، أو حسن نطقه به؛ فعن
أبي ذر قال: قال: رسول الله ﷺ: «أن بعدي من أمتي - أو قال - سيكون بعدي من
أمتي قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلقهم، يخرجون من الدين كما يخرج
السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه هم شر الخلق والخلقة».

الذكاء والفتنة: هذه بالطبع أمور فطرية سابقة للبيئات الثقافية التي يولد
فيها الناس، لكن هذا لا يعنى أن تكون مبتوته الصلة بتلك البيئات؛ وذلك أن

بعض المعتقدات والتصورات من شأنها إذا استقرت في عقل الإنسان أن تساعده على تنمية ملكاته الفطرية كما أن من شأن بعضها أن يقتل تلك الملكات أو يضعفها، والإسلام بما أنه دين الفطرة فإنه ينمى الاستعدادات الخيرة في الروح الإنسانية ويقويها؛ وذلك لأن ملكات الخير في الإنسان متصل بعضها ببعض؛ إذا أدرك الإنسان حقيقة مهمة واعترف بها فإن هذا يساعد على إدراك حقائق أخرى متصلة بها، وإذا أنكرها فقد يعمى عن رؤية تلك الحقائق، وأيضاً لأن هناك صلة قوية بين الصفاء القلبي والمقدرة على رؤية الحقائق، فالإنسان الصادق الأمين قد يرى من الحقائق ما لا يرى إنسان خبيث النفس وإن كان الأخير في الأصل أكثر منه ذكاء، وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه المعاني التي ذكرتها اكتفى بأمثله منها إذ لا مجال هنا لاستقصاء هذا الأمر.

يعلمنا القرآن الكريم أن هنالك صلة بين الالتزام بالحق واكتمال العقل؛ ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، والإيمان يعطي الإنسان مقدرة عقلية على رؤية حقائق لا ترى بغيره: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، ويعطيه علماً لا يتم العقل إلا به ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، والتقوى تتضمن قوة للتمييز الدقيق بين الحق والباطل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَسْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

الحق والإتقان: في الإتقان جمال وهو أمر ترتاح إليه النفوس وتوجه، وقد جاء في السنة النبوية الحث عليه مهما كان نوع العمل مادام عملاً مشروعاً، فعن

شداد بن أوس رضي الله عنه قال ثنتان حفظتهما من رسول الله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح؛ وليحد أحدكم شفرته، وليمح ذبيحته»، وقال ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه».

السلوك المهذب والذوق الرفيع: الصلة وثيقة بين حسن السلوك وسمو الذوق وكلاهما ثمرة طبيعية للعلم النافع والإيمان الصادق فالرسول ﷺ وهو أعرف الناس بالله وأتقاهم له كان على خلق عظيم، خير الناس لأهله، أحرص الناس على نفع الناس ودفع الشر عنهم، رحيمًا بهم، بعيدًا عن الفظاظة الجفاء، يبلغ به الحياء أن لا يعترض على الناس حين يفعلون ما يؤذيه، ينادي الناس بأحب الأسماء إليهم بل يغير ما سموا به من أسماء قبيحة إلى أخرى حسنة جميلة لا يعجرح شعور المؤمنين بالتصريح بأسمائهم حين يريد أن يتقدمهم، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وحسن المعاملة للناس، ومراعاة مشاعرهم، لكن ينبغي لنا أن نميز هنا بين هذا النوع من حسن الخلق الذي هو أمر محجب ومطلوب في كل زمان ومكان، وبين الآداب الشكلية التي يتواضع عليها الناس في بيئة من البيئات، لا بأس أن يحاول الإنسان الالتزام بهذه الآداب ما دام يعاشر أهلها، وما دام لا يجد فيها مخالفة لدينه، لكن الذي ينبغي أن نحذر منه كل الحذر هو رفعها إلى مصاف الأخلاق الإنسانية التي يلزم الناس الالتزام بها في كل زمان ومكان، كما يفعل الآن كثير من مثقفينا بالنسبة لبعض آداب السلوك التي تواضع عليها الناس في الحضارة الغربية، حتى صار الكثير منهم يحمل التقاليد الغربية في الطعام والشراب واللباس والمخاطبة معياره الذي يقيس به

مدى تحضر الناس وتهذبهم ورفع ذوقهم.

المهارات المفيدة: لا يبلغ المرء أن يكون مثقفاً حتى التثقيف بالمعيار الإسلامي - إذا هو لم يضيف إلى علمه بأمور الدين ومعارف العصر علماً ببعض المهارات التي يحتاج إليها الإنسان في كل زمان، والتي يحتاج إليها الناس في العصر الذي يعيش فيه أو البيئة التي يسكن فيها.

لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجمعون بين تلك العلوم وتلك المهارات، فكانوا يحسنون الرمي واستعمال السيوف وركوب الخيل والبغال والحمير، وكانوا يجيدون فن الحرب، ويعرفون المهارات التي يحتاج إليها الناس في زمانهم في حياتهم اليومية وقد حثهم الرسول ﷺ على تعلم الرمي والركوب، فقال معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ألا أن القوة الرمي وقال ﷺ: «أرموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا»، ولكن مما يؤسف له أن أنظمه التعليم عندنا تفصل بين التعليم الأكاديمي وبين التدريب على المهارات حتى ما كان منها متعلقاً بالحياة الأكاديمية، أظن أن ثقافة الطالب الأكاديمي لا تتم في عصرنا هذا إذا هو لم يعرف الكتابة على الآلة أو استعمال الحاسوب (الكمبيوتر) الشخصي، فكم من طلابنا اليوم يعرف هذا؟

وإذا كان الرسول ﷺ يحثنا على الركوب وعلى الرمي فإن تنفيذ هذا الأمر في عصرنا يعني أن يكون التدريب جزءاً لا يتجزأ من برامجنا التعليمية، وأن لا يتعلم الشباب قيادة السيارات فقط، بل أن يلموا بشيء من الميكانيكا؛ بل لماذا

يكون شيء مهم كالإسعافات الأولية قاصرًا على الشباب الذين ينضمون إلى فرق الكشفة وما شابهها من الجماعات؟

لقد رأيت بعض أبناء المسلمين الذين تربوا في أمريكا يعرفون من هذه المهارات أكثر بكثير مما يعرف الشباب في العالم العربي. فهم يعرفون عن الكهرباء ما يستطيعون به تركيب آلتها المنزلية وإصلاح الكثير من عطبها، وعن الزراعة ما يمكنهم من رعاية حدائقهم المنزلية وهم يعرفون شيئًا من مبادئ التجارة وكيفية طلاء الحيطان، بل فن الطبخ إلى غير ذلك من الحاجات المنزلية وغيرها كالمهارة في السباحة، وأنبتت بأن هذا كله وغيره جزء طبيعي من ثقافة الشباب بأمريكا.

أنا لست من المعجبين بنظام التعليم الأمريكي، فإن فيه عيوبًا كثيرة يشكو منها الأمريكيان أنفسهم ولكن ما ذكرت شيء حميد ومفيد حينًا لو استفدنا منهم فيه، ورأيت على التلفاز الإنجليزي برنامجًا استمر عدة أسابيع يعطي المشاهدين دروسًا في ترميم المنازل وإصلاح بعض الأثاث، بل كيفية صنع بعضه من مواد رخيصة، ورأيت دائرة معارف كاملة تعلم القارئ كيف يقوم بنفسه بصنع بعض الأشياء المنزلية وإصلاح بعضها، حينًا لو ترجمتها بعض المؤسسات إلى اللغة العربية، أو ألقت شيئًا شبيها بها مناسب للناس في بلادنا^(١).

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية، هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩ هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٤٣٦).

فائدة: المفهوم الإسلامي للمثقف:

المثقف هو الإنسان الذي آمن بالله تعالى عن علم وبصيرة، واتبع هدى الله الذي جاء به محمد رسوله، فتنقه في دينه، فزكت نفسه واكتمل عقله، وحسنت للناس معاملته واجتهد في أن يلزم بما استطاع من معارف عصره ومهاراته النافعة، وأن يكون داعية إلى العلم والخير، بلغة جميلة وبيان قوي وقدوة حسنة.

هذا ليس بالطبع تعريفاً جامعاً مانعاً للمثقف المسلم، وإنما هو أشبه بما يسمى في علم المنطق بالقول الشارح، إنه وصف للمثقف المسلم الأنموذج الذي يحاول كل منا الاقتراب منه، لا تعديداً للشروط التي لا يكون المسلم مثقفاً إلا إذا استوفىها جميعها^(١).

فائدة: حاجة الطلاب إلى مادة الثقافة الإسلامية:

لثقافة الإسلاميه بوصفها علماً جديداً نرجو له أن يكون مادة تدرس في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده، وبكل أنواعها وتخصصاتها مفهومًا خاصًا تحدده الغاية من دراستها والدافع إليها، لقد جاءت هذه المادة لتسد أنواعاً من النقص في مناهجنا التعليمية أدت تشوية لصورة الإسلام في أذهان الكثير من شبابنا، سواء منهم من درس في الجامعات الإسلامية أو ما سمي بالجامعات

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية، هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٤٣٦).

المدنية. تتمثل أنواع النقص هذه في:

أ- إن الطالب في كثير من الجامعات الإسلامية، وأن أتقن دراسة بعض جوانب الإسلام وفروعه إلا أنه لا يتمثل صورته العامة وموقع تلك الأجزاء التي درسها منها.

ب- وأن بعض هذه الدراسات تقدم للطالب معزولة عن الواقع الذي يعيش فيه سواء كان واقعاً فكرياً أو لغوياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو سياسياً، إنه يستطيع بتلك الدراسة أن يدرك -بصورة مجملية- الفرق بين ما ينبغي أن يكون بحسب ما علم وما هو كائن بحسب ما يرى ويشاهد، لكنه لا يستطيع أن يؤدي عملاً كبيراً مجددياً في تغيير هذا الواقع وإصلاحه؛ لأنه لا يعرف مؤسساته ولا علومه التي قام عليها، بل ولا حتى لغة أهله لكن لا بُدَّ من الاعتراف بأن خربجوا هذه المعاهد والجامعات هم الذين حفظوا لنا ميراثنا الإسلامي، فكان لهم الأثر المحمود في حياة الناس الفردية تلك التي لا تتغير بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ج- وأما أصحاب الدراسات (المدنية) فقد ضاعت منهم الصورة العامة كما ضاعت التفاصيل.

د- بل وقد حلت في أذهان كثير منهم ذلك بسبب النقص، وبسبب التأثير القوي للفكر الغربي تصورات عامة مخالفة للتصور الإسلامي ومنافية له، آمن بها بعضهم فترك دينه، وحاول بعضهم أن يضع الإسلام في داخل الإطار الغربي الجاهلي، فاضطر لأن ينكر بعض دينه أو لأن يعيد تفسير بعضه وتأويله بحيث

يكون مناسباً لذلك الإطار.

وعليه، فإن مقصود مادة الثقافة الإسلامية هو في تصوري أن يعيد إلى الأذهان تلك الصورة الإسلامية العامة، مقصودها أن تقدم للطالب خريطة للإسلام يرى فيها كل شيء بحسب حجمه وفي موضعه بالنسبة لغيره، كما يرى الفروق بين معالم هذا الإطار الإسلامي والأطر الأخرى السائدة في عصره من ديمقراطية ليبرالية أو أممية شيوعية أو غير ذلك من التصورات والأطر العلمانية.

ليس قصد الثقافة الإسلامية إذن أن تجوّد الطالب فرعاً من فروع العلوم الإسلامية، وإنما مقصودها أن ترسم في ذهنه معالم الصورة العامة لدينه وللأسس والأصول التي يقوم عليها هذا الدين، ولكيفية فروعه من تلك الأصول وعلاقتها بها ومكانتها بالنسبة لها.

المرجو أن تكون نتيجة هذه الدراسة إعانة الطالب على أن يعرف لكل أمر من أمور دينه مكانته، فلا يقدم مهما على أهم منه أو يجعله حاكماً عليه، وأن يدرك كثيراً من حكم التشريع الفرعي حين يرى هذه الفروع في مواقعها من تلك الصورة الكبيرة.

فيعرف مثلاً لماذا أمر الإسلام بإيتاء الزكاة وحرم الرباء، لماذا نهى عن الخمر والميسر، لماذا شدد عقوبة الزاني، لماذا أمر بقتل المرتد؟... الخ. إن هذه التشريعات تكون مشكلة وتصير غير مفهومة وتسبب لكثير من الناس حرجاً؛ لأنهم يضعونها -ربما وهم لا يشعرون- في إطار غير إسلامي يُسَلّمون بصحته.

فإذا افترض الإنسان مثلاً صحة التصور الديمقراطي الليبرالي فلن يجد فيه مكاناً للتفرقة بين المواطنين بسبب الدين، ولا لقتل مواطن بسبب انتقاله من دين إلى دين، أو إلى لا دين.

والمرجو أيضاً أن تُعين هذه الصورة العامة الطالب على رؤية الروابط المنطقية بين أجزاء الإسلام فيزداد ثقة بدينه وإطمئنناً إليه واعتزازاً به^(١).

الفائدة الخامسة: خصائص منهج الثقافة الإسلامية:

ولكي تحقق مادة الثقافة الإسلامية هذه الغايات العظمى لا بُدَّ أن يتميز منهجها بما يلي:

أولاً: لا بُدَّ في محاولة رسم تلك الصورة العامة من التركيز على الحجج العقلية، والحكم التي وردت في الدين نفسه دليلاً على حقيقة، أو انتصار لتشريع، حتى تزول عن نفس الطالب المقابلة بين العقل والدين، أو بأن الدين مجرد مزاعم يسلم بصحتها بغير دليل أو مجرد أوامر ونواه لا حكمة وراءها ولا فائدة لها إلا امتحان المأمور، ثم مكافأته في الدار الآخرة.

ثانياً: التركيز على قضية الإيمان، ببيان الأدلة على وجود الخالق واستحقاقه وحده العبادة، وتفرد بصفت الكمال، والأدلة التي تخاطب العقل المجرد، والأدلة التي تخاطب العقل الذي آمن وسلم، وبيان أن كلا الدليلين في

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية، هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٤٣٦).

القرآن الكريم والاستفادة في هذا كله من جهود العلماء السابقين الذين عنوا بجمع تلك الأدلة، وشرحها وبسطها واستخدامها في الرد على خصومهم. وبيان أنواع الشرك التي وقع فيها كثير من عوام المسلمين ومثقفهم، وأهم أنواع الاتجاهات المنحرفة عن أصول عقيدة التوحيد الخالصة، وبيان ضرورة أن نعرف لهذه العقيدة حقها ومكانتها فلا نقدم أصلاً آخر من أصول الدين - بله فروعه - عليها.

وأن يرى الطالب كيف أن معرفة الله تعالى بصفات كماله تلك تقتضي الإيمان بكتبه ورسوله؛ لأن رحمته تقتضي أن يفيض علينا نعمة الهداية كما أفاض علينا نعم الطعام والشراب واللباس وغيرها من متع الحياة الدنيا. وأن صفات عدله وحكمته ورحمته تقتضي وجود حياة بعد الموت يلقي فيها المحسنون جزاء إحسانهم ويعاقب فيها المجرمون على إجرامهم. ﴿أَفَجَعَلُ الْمُشْرِكِينَ كَالَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

وإن عموم علمه وحكمته ومشيتته تقتضي معرفته بما كان وما سيكون، وأنه لا يمكن أن يحدث شيء إلا بعمله وتقديره وإرادته وقوته سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم يبين للطالب كيف أن هذه الأصول تمثل القاعدة التي تنبثق منها فروع الإسلام الأخرى، كيف أن الإيمان لها ورسوخها في القلب يؤسس القاعدة النفسية لتقبل سائر أحكام الإسلام ﴿وَلَنَكُنَّ اللَّهُ حَبِيبَ إِلَيْكُمْ إِلِيمَنَ وَرَبَّنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٨].

وكيف أن هذه الأوامر والنواهي مع علو شأنها ليست مثالية، بمعنى أنها غير

قابلة للتطبيق في دنيا الواقع بدليل سيرة الرسول ﷺ، ثم الصالحين بعده من جيل الصحابة ومن سار على نهجهم من أئمة المسلمين، وهنا لا بُدَّ من التعرض لسيرة المصطفى ﷺ، لا لسرد حوادثها التاريخية ولكن لبيان ما انطوت عليه من حكم، وبوصفها برهاناً جلياً على صدق قوله تعالى عن رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّيْ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾ [القم: ٤]، وصدق وصف زوجة أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لسلوكه بقولها: «كان خلقه القرآن».

ثالثاً: بعد دراسة تلك الأصول بالمنهج الذي حاولنا أن نبين شيئاً من خصائصه ينتقل الطالب إلى دراسة عامة للعبادات، يكون القصد منها بيان أهميتها للإيمان بوصفها الغذاء الذي يحفظه ويديم حياته ويزيد من قوته وبوصفها الدرع الذي يقي المؤمن شرور الشبهات والشهوات.

رابعاً: ثم يعطي الطالب صورة مجملية عن أصول الأخلاق التي أقرها ودعا إليها الإسلام وعلاقتها بالإيمان وبالعبادات.

خامساً: ثم يعرف الطالب معالم نظام الحياة الإسلامي السياسي والاقتصادي الاجتماعي، يدرس بشيء من التفصيل بعض جوانبها التي تشتد الحاجة إليها بحسب مقتضيات الأحوال.

سادساً: أن تدرس كل هذه القضايا دراسة تصلها بالواقع الذي يعيش فيه الطالب مقارنة لها بدعاوي المذاهب والأيدولوجيات الأخرى في كل هذه المجالات، وبياناً لفضلها عليها ونقداً لهذه في ضوءها، وإستجابة لتحدياتها تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

سابعًا: أن يتضمن منهج الثقافة الإسلامية مقررات تختص بالقضايا الفكرية والعلمية المعاصرة، فلا بُدَّ من دراسة للفكر العلماني بصفة عامة، والرد على الشبهات التي يثيرها أصحابه ضد تطبيق الشريعة الإسلامية، ولا بُدَّ من دراسة للقضايا التي تثيرها الأيدولوجيات الرأسمالية والشيوعية في مجال الاقتصاد والسياسة، ومن دراسة للقضايا التي تثيرها بعض النظريات في العلوم الطبيعية كالنظرية الدارونية، ومن إمام بقضايا الأمة الإسلامية السياسية المحلية والدولية وقضاياها الاقتصادية والتعليمية وما إلى ذلك.

إذا رسخت في ذهن الطالب الصورة الكلية للإسلام بالطريقة التي أوجزناها آنفًا، يكون قد خطى خطوة كبيرة نحو أن يكون تصوره للأشياء وحكمه عليها إسلاميًا، وتكون مادة الثقافة الإسلامية بهذا قد نجحت في تقديم عون كبير للطالب لحل مشكلة من أعقد المشكلات النفسية والفكرية التي تؤذي إليها نظم التعليم (الديني) و(المدني) المعاصرة. إنها نظم تجعل من يكتفي بها ذا شخصية مزقة، فهو إما أن يكون من الذين قضوا وقتهم الدراسي مع كتب العلماء السابقين وقضاياهم وطرقهم في التعبير، فانعزل بفكرة عن واقعة وعاش في هذا الواقع بجسده، فلم يستطع لذلك أن يتعامل معه بشخصيته الإسلامية التي كونتها تلك الدراسة، فصار إما من الذين أعرضوا عن هذا العصر وقضاياه الفكرية فلم يؤثر فيه، أو يتأثر به أو من الذين جذبتهم هذه الحياة المعاصرة فنسى ما درس وانغمس فيها كما ينغمس غيره من الذين لم ينعموا بدراسة إسلامية أو تدين فطري، وإما أن يكون من الذين قضوا وقتهم الدراسي

إلا أقله في دراسة علوم طبيعية أو اجتماعية أو رياضية لا يذكر فيها اسم الله قليلاً ولا كثيراً بل إن حقائقها - ودعك عن نظرياتها - لتعرض على الطالب بأسلوب غربي، وفي إطار فلسفي غربي ينتقل إلى ذهن الطالب مع انتقال تلك الحقائق والنظريات إليه؛ بل إن بعض الطلاب لا يميز فيما يدرس بين ما هو حقائق موضوعية صحيحة، وما هو من قبيل الآراء والفلسفات والأفكار التي كثيراً ما يجانبها الصواب، فيحسب أن هذه كتلك قواطع علمية لا ريب فيها.

وبهذا كله يحدث انفصام في شخصيته بين عمومات الدين التي ورثها عن آبائه وتلقاها من مجتمعه، أو لقنها في المراحل الأولى من دراسته وبين هذا التصور العلماني الذي يأتيه في ثوب علمي، فيلجأ إلى العيش بشخصية مزدوجة مسلماً في عبادته وسلوكه ومأكله ومشربه وعلماً في فكره وتصورات، أو يلجأ إلى تأويل ما عرف من الدين تأويلاً يجعله موافقاً لهذه التصورات التي صارت جزءاً من فكره أو يصير علماً بحتاً فيترك العقيدة والعبادة والسلوك الإسلامي، بل قد يكون حرباً عليه^(١).

فائدة: تصورات غير صحيحة لمادة الثقافة الإسلامية،

وإذا كنا قد بينا ما نراه التصور الصحيح لمادة الثقافة الإسلامية، فيحسن أن نتناول بإيجاز نقد بعض التصورات التي نراها غير صحيحة.

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية، هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩ هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٤٣٦).

أ- فمن ذلك أن بعض الأساتذة المختصين بالعلوم الطبيعية أو الاجتماعية يريدون لمادة الثقافة الإسلامية أن تكون مادة تابعة لتلك التخصصات وخادمة لها: فطالب الزراعة مثلاً يدرس الآيات والأحاديث والأحكام الفقهية المتعلقة بهذا العلم الذي تخصص فيه؛ وكذلك يفعل طالب الطب البشري أو الحيواني أو طالب علم النفس.

إن مثل هذه الدراسة شيء مهم ما في ذلك شك، وهي مما يعين الطالب على أن ينظر إلى علمه الذي اختص به نظرة إسلامية، لكن تحويل مادة الثقافة كلها إلى مادة تابعة للتخصص عليه اعتراضات كثيرة منها:

- إنه من الخطأ أن ينظر إلى مادة التخصص على أنها شيء يستغرق حياة الطالب وفيه بكل متطلباته، إن الإنسان كما أنه طيبب مثلاً فهو أيضاً أب أو أم أو ابن وهو زوج وجار ومواطن... الخ. وهو بكل هذه الصفات محتاج إلى علوم وقيم ومعايير لا يجدها كلها؛ بل قد لا يجد شيئاً منها في مادة تخصصه. وهو قبل ذلك ومعها هو عبد لله، مهمته في هذه الحياة أن يفي بشرط العبودية فيجعل حياته كلها في هذه الدنيا تعبيراً عن شكره لله وعبادته له. وهو بهذا محتاج إلى منهج أوسع بكثير من ذلك الذي يجده في مادة تخصصه حتى بعد أن يضاف إليها ما يناسبها من نصوص الكتاب والسنة.

- إنه قد ثبت الآن ضرر المبالغة في التخصص ضرره على شخصية الإنسان بصفة عامة؛ لأنه يضيق أفقه وضرره من ناحية علمية بعد أن بدأت العلوم كلها تتداخل ويؤثر بعضها في بعض تأثيراً كبيراً، وبعد أن ثبت اتصال

العلوم حتى الطبيعي منها الذي كان يسمى علمًا بحثًا ثبت اتصالها الوثيق بالبيئات الفكرية لأصحابها وتأثرها بها.

لقد نظرت في بعض كتب الثقافة الإسلامية التي تدرس في بعض الكليات الشرعية فوجدت أصحابها قد حولوها إلى مادة فرعية؛ بل مادة تفضيلية تكرر ما درسه الطالب من مواد العلوم الإسلامية وتعرضها بصورة أقل علمية وأكثر تعميمًا؛ لأن أصحابها ليسوا من المختصين بهذه المواد، ولذلك بدأ الطلاب بل بعض هؤلاء المدرسين أنفسهم يشعرون أن الثقافة الإسلامية مادة لا يحتاج إليها طلاب العلوم الشرعية ولا يستفيدون منها؛ لأنها لا تأتهم بجديد لم يكونوا يعرفونه، وقد فات بعضهم أن علاج هذا الأمر يكون بالبحث عن مادة لها تعلق بالإسلام لا يدرسها الطلاب ضمن ما يدرسون من علوم شرعية. ولكن هذا وإن كان سيحل مسألة التكرار ويقدم للطالب شيئًا جديدًا قد يكون أيضًا مفيدًا إلا إنه لا يحل المشكلة التي أنشئت مادة الثقافة الإسلامية من أجلها، إن كل ما يفعله هو تدريس مادة جزئية أو فرعية جديدة تكون في أحسن أحوالها في مستوى المواد الفرعية الأخرى التي يدرسها الطالب^(١).

فائدة: النظرية الإسلامية للتغيير الاجتماعي؛

لعل أفضل طريقة لتقديم الفلسفة الإسلامية للتغيير الاجتماعي - في ضوء

(١) مفهوم الثقافة الإسلامية، هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩ هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٤٣٦).

ما يجب أن نقيم برنامجنا للتحويل إلى الوجهة الإسلامية على أساسه - تتمثل في تعليقنا على تلك الآية القرآنية الشهيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن النقاط الرئيسية التي نجدها في هذه الآية هي:

- ١- إله لديه قوة مطلقة للعمل.
 - ٢- بشر لديهم حرية محدودة للعمل.
 - ٣- تغيير يحدثه الإنسان داخل ذاته.
 - ٤- تغيير في حالة الإنسان يحدثه الله نتيجة لذلك التغيير الإنساني.
- إن تلك النقاط الأربع تُكوِّن الشرح الإسلامي أو فلسفة التغيير الاجتماعي؛ ولذلك فلندرس ما تتضمنه تلك النقاط بإيجاز.

إن النقطة الأولى: تميز مفهومنا للتغيير الاجتماعي عن النظريات المادية والطبيعية التي تفترض عدم وجود الله، ومن ثم تعتنق مبدأ الاكتفاء الذاتي للكون، أي المبدأ القائل: من الممكن تقديم تفسير وافٍ للظواهر في هذا الكون، سواء كانت ظواهر اجتماعية أو خلافها بالاستعانة بالقوانين الخاصة بها.

إن تلك الفكرة الإلحادية - لسوء الحظ - قد تمت مطابقتها مع الطريقة العلمية بشكل كبير، حتى إنه يتم في الحال استبعاد أية إشارة إلى الله في تحليل تلك الظواهر باعتبارها شيئاً يتنافى مع العلم وليس مجرد أنها تتنافى مع الفكر الإلحادي، ومن الواجب أن نحذر من ذلك التشويش الذي لا مبرر له، وأن نُصِرَّ

على أهمية وضرورة واستحسان إدراك دور الله في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية في عالمنا، وتلك النقطة تميز مفهومنا كذلك عن وجهات النظر الإلحادية التي بمقتضاها يُعد الخالق مجرد محرك رئيس، دوره الوحيد هو بدء الخليقة، ثم تركها بعد ذلك لتعنى بأمرها.

وإن النقطة الثانية: تُظهر تفوق مفهومنا للتغيير الاجتماعي على النظريات الحتمية التي تفترض أن الإنسان ليست له فاعلية حقيقية أو حرية للاختيار، وإن كل شيء يقوم به يكون مفروضاً عليه بقوة إلهية أو بواسطة مسببات طبيعية أو اجتماعية.

والإنسان حقيقة لا يستطيع أن يفعل أي شيء ضد مشيئة الله، ولكن الله قد شاء أن يمنحه حرية الاختيار، والحرية في تحقيق بعض نياته وإن تعارضت مع الإرشاد الذي قدمه الله له، وإن واحداً من المجالات المهمة للغاية التي أعطى الله فيها الإنسان حرية العمل هي حالته الداخلية. وبما أن الكثير مما يحدث للإنسان يعتمد على حالته الداخلية؛ فإنه يمكن القول بأن الإنسان يعد مسؤولاً إلى حد كبير عن مصيره.

وإن النقطة الثالثة: تخبرنا عن تغيير يحدثه الإنسان داخل ذاته، فأى نوع من التغيير هذا؟ هل تغيير من الخير إلى الشر أو العكس، أو إنه من الممكن أن يكون أيًا منهما؟ إن التفسير الغالب لتلك الآية الآن هو التفسير الأخير، وإن ما يفهمه معظم الناس الآن من تلك الآية هو أنه عندما يتغير الناس من الخير إلى الشر، يعاقبهم الله بتغيير أحوالهم من الخير إلى الشر والعكس بالعكس، ولكن

ذلك يختلف عن التفسير الذي نجده في التعليقات القديمة؛ فإن المعلقين الأقدمين يبدو أنهم يفهمون أن التغيير الذي يشار إليه في الآية هو تغيير من الخير إلى الشر، ويبدو لي أن هذا هو التفسير السليم؛ لأنه الوحيد الذي يتوافق مع المبدأ الإسلامي الرئيس؛ ولأنه قد تم تأييده بآيات أخرى كثيرة.

وإن النقطة الرابعة: تقول لنا أنه عندما يتغير قوم، ويعاقبهم الله بأن يحرمهم من بعض النعم الرُّوحية والمادية التي منحها لهم وهكذا يجعلهم يعانون الضيق^(١).

فائدة: انعم فضل من عند الله:

النعم - طبقاً للقرآن - لا تمنح للناس في بادئ الأمر نتيجة لأي عمل خير يقومون به، ولكنها تمنح لهم فضلاً من الله، إن الله هو الرحمن؛ وذلك يعني أنه سبحانه هو الذي يبادر بالخير ويمنحه دون مقابل ولا ينتظر حتى يبادر الناس بفعل شيء يتسم بالخير ثم يكافئهم من أجله، إن النعم - سواء كانت روحية أم مادية - تمنح للناس من خالقهم؛ وذلك ينبع من رحمته وفضله، ولو أنهم كانوا شاكرين، فسوف تُحفظ لهم تلك النعم، بل إنها سوف تزداد، ولكن لو أنهم

(١) عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي بشائرها وتحدياتها، وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو، بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية، في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م، ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٦٦).

ارتكبوا أفعالاً تتسم بالجحود، فإن الله يعاقبهم بأن يحرمهم من بعض تلك النعم إن لم يكن منها جميعها، ولكنهم إذا تابوا وعادوا إلى الطريق القويم فإن تلك النعم تعود إليهم.

إن المثل الذي يدل على ذلك تماماً هو مثل آدم، إن الله قد خلق آدم ووضعه في أفضل الحالات ومنحه الطمأنينة ووفر له وسائل الراحة المادية، ولكنه عندما أكل من الشجرة المحرمة (التي لم تكن شجرة المعرفة) فإنه فقد بعض ذلك. وينطبق نفس المبدأ على المجتمعات والأمم الأخرى التي يُشار إليها في القرآن، كالقري، أو أهل القري.

فلنبتدئ بالسُّنن التي تتحكم في سقوط أو هلاك الأمم الجاحدة، ثم نتقل إلى تلك التي تتحكم في بقاء وسطوة الأمم الشاكرة، وفيما يلي بعض الأمثلة مما يحدث للأمم الجاحدة:

- إن أهل سبأ الذين عاشوا بين حديقتين قد أمروا أن يأكلوا مما رزقهم الله، ويكونوا شاكرين لفضله، ولكنهم أعرضوا، ومن ثم أُرْسِلَ عليهم الطوفان (سيل العرم) وبدلاً من الحديقتين اللتين أعرضوا عنهما أعطوا حديقتين بهما فاكهة مرة وأشجار الطرفاء، وقليل من الأشجار الأخرى، يقول الله بصدد ما حدث لهم: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْرَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ﴾ [سبأ: ١٧].

ولقد أخبرنا القرآن أيضاً عن: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامَنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وهكذا فإن السقوط والهلاك هو المصير النهائي

المحتم لكل أمة جاحدة، أي لأية أمة تتمرّد على الله وتّبع طريق الفسوق^(١).

فائدة: كيف يتم هلاك الأمم؟

أ- إن الهلاك أو العقاب لا يقع على أمة إلا بعد أن تُنذَر إنذارًا كافيًا، ومن الممكن أن يأتي إليها هذا الإنذار من خلال وسيط، أي رسول من عند الله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۚ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا مَا مُنذَرُونَا ۗ ذَكَرْنَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩]، أو أنهم يتم إخبارهم بطريقة أخرى أنهم ظالمون حتى يُعدّوا أنفسهم للعقاب.

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (١) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤-٥]، إن معنى تلك الآية يبدو أكثر وضوحًا في ضوء حديث النبي الذي يؤكد أنه لا تُهلك أمة إلا بعد أن تقرر أنها هي وحدها الملوّمة، وأنها هي التي جلبت على نفسها الهلاك وذلك يثبت بالآية: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

(١) عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي بشائرها وتحدياتها، وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو، بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية، في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م، ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٦٦).

نستطيع أن نستنتج من ذلك المبدأ الإلهي أو السنن أنه: إذا كان هناك مجتمعان يتساويان في فسوقهما وجحودهما؛ فإن المجتمع الذي أنذر سوف يهلك قبل المجتمع الذي لم ينذر؛ ومن ثم فإننا نرى من القصص التي تروى في القرآن حول الأمم المندثرة أن هلاك وسقوط تلك الأمم قد جاء بعد رفضها لرسول الله.

ب- إن الهلاك لا يأتي مباشرة، أي إنه لا يتم إهلاك الأمم أو إسقاطها مباشرة بعد أن تُبدي ما يدل على الجحود. ومرة أخرى فإن ذلك يرجع إلى رحمة الله، إن الله يعطي بلا مقابل وبلا حدود ولكنه لا يأخذ ما وهبه دفعة واحدة: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]. ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْعُدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ۝٥٨﴾ [الكهف: ٥٨-٥٩].

ج- إن سقوط كل أمة كما قرأنا في الآية السابقة يكون طبقاً لأجل محدد ليس من الممكن إرجاؤه أو تعجيله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَهَلَّا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝٥٩﴾ [النجم: ٤-٥].

د- قبل أن تهلك الأمة قد تمر بمحن قاسية مما قد يجعلها تتوب وتعود إلى الطريق المستقيم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

هـ- لا يتم إنزال العقاب بالنسبة لجميع الآثام في العالم وإلا لهلك جميع

الناس: ﴿ وَكُلُوا يُؤْخِذْ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١] (١).

فائدة، أنواع السعادة التي يعدها القرآن للناس:

أ- الراحة المادية: ﴿ وَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَحْمَةٍ لَأَكَلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ وَفِيهِمْ مَنْ خَلَعَ أَزْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦].

ب- السعادة الروحية: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

ج- النصر على الأعداء: بقدر ما يؤمن الناس بالله ويتقون به، ويطيعونه، يكون الله بجانبهم ﴿ وَاللَّهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وعندما يكون الله بجانبهم فإنه سوف يدافع عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحج: ٣٨]، وسوف ينصرهم: ﴿ إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴾ [غافر: ٥١]. وإذا دافع عنهم الله ونصرهم؛ فلن يستطيع أي شيء أن يتغلب عليهم ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَأْمَنَّا لِإِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا جُنَدًا لَهُمُ الْقَاتِلُونَ ﴾

(١) عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي بشائرها وتحدياتها، وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو، بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية، في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م، ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٦٦).

[الصافات: ١٧١-١٧٣]. ﴿كَم مِّن فَتَكٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِيهَا كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾
 [البقرة: ٢٤٩]. وما داموا يحفظون عهدهم مع الله، فإنهم لن يقعوا أبدًا تحت سيطرة
 الكافرين أو يخضعوا لهم ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].
 ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

إن جوهر فلسفتنا للتغيير الاجتماعي قد أصبح واضحًا الآن، إن الأمم
 لا ترتفع وتسقط اعتبارًا أو بدون قوانين تنظم نشأتها واندثارها، إن التاريخ ليس
 بمسار مفرد يجب أن تخطو فيه كل أمة سواء رغبت أم كرهت، فإن عالمنا
 الاجتماعي يحكمه الخالق الذي يجعل الأمم ترتفع أو تسقط أو تزدهر أو تعاني،
 وتتصر أو تخضع طبقًا للقانون الأخلاقي للإقرار بفضل الله^(١).

(١) عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي بشائرها وتحدياتها، وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ
 إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو،
 بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية، في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م، ونشرته مجلة
 المسلم المعاصر ١٩٧٩م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته -
 بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٤٦٦).

مصادر كتب وبحوث ودراسات الدعوة

١- الإسلام دين سلام وليس استسلام^(١):

يتحدث الشيخ في هذه الدراسة عن موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام، وإن طبيعة الدين الإسلامي تتميز بخصائص كثيرة تحتاج أن ندعو لها بالوسائل السليمة، ومن هذه الخصائص:

- إن الاكراه مستحيل فإله وحده المسيطر على القلوب، والتسامح مع المعرضين، وإن الإسلام دين الأخلاق، ثم ختم الشيخ دراسته بأسباب اللجوء للحرب والتي منها: قيام من هم في السلطة باضطهاد أولئك الذين يختارون الإسلام كدين، وطرد هذه الفئة من ديارها، وشن الحرب على فئة من المسلمين أو غير المسلمين بهدف احتلال ديارهم أو نهب ثرواتهم أو استعبادهم.

٢- الإسلام والإرهاب^(٢):

تحدث الشيخ في هذه الدراسة عن مفهوم الإرهاب وعن دعوى الغرب فيما يسمونه بالأسباب الفكرية الجذرية لذلك الحدث الذي أطلقت عليه صفة الإرهاب، فادعى بعضهم أنها تكمن في التعاليم الإسلامية، ولا سيما ما يسمى

(١) وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية) وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦هـ - الموافق ٢٠٠٥م.

(٢) ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

بالوهابية، ثم تحدث الشيخ عن موقف الإسلام منه والعلاج الإسلامي لمشكلة الإرهاب.

٣- البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج^(١):

تحدث الشيخ في هذا البحث عن حاجة الناس جميعًا إلى الرسالة المحمدية العظيمة، فحري بكل من آمن بها أن يبذل ما يستطيع من جهد من إيصالها إلى الناس بكل ما يسر الله له من وسائل التبليغ والإعلام، وحرري بنا أن نتعاون في أداء هذه المهمة، إنقاذًا للبشرية، وإصلاحًا لأنفسنا، وطلبنا لمرضاة ربنا، وإذا كانت وسائل الإعلام الحديثة كثيرًا ما تستعمل لنشر الأباطيل وإثارة الشهوات، وغرس الشبهات، وإضاعة الأوقات، فحري بنا نحن المسلمين أن نجعلها وسائل لأعلام الناس بالحق، ودعوتهم إلى الخير، وتعليمهم ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، والترويح عنهم بما يزيل السامة والملل ويجدد النشاط لمواصلة العلم والعمل، وإن أولى ما ينبغي أن نتصرف إليه هممنا وتبذل فيه جهودنا هو حسن استعمال - لا أقول مجرد استعمال - هذه الوسائل في إيصال الحق الذي جاءت به الرسالة المحمدية إلى الناس، ولا سيما الذين لم يتيسر لهم معرفتها من قبل ثم تحدث عن البرامج الدينية التي تقدم من خلال هذه الوسائل.

(١) بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس للندوة التي عقدت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عن البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية، ٢٩ رجب - ٣ شعبان ١٤٠٧ هـ - الموافق ٢٩ مارس - ٣١ مارس ١٩٨٧ م.

٤- الردة وحقوق الإنسان^(١):

تحدث الشيخ في هذا البحث عن حرية العقيدة بمعنى أن كل إنسان له الحق في أن يعتقد ما شاء من عقائد تعدد عند القائلين بها حقاً إنسانياً، كفله الإعلان الدولي لحقوق الإنسان الذي أجازته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٢/٥/١٩٤٨م، لكن هذا الإعلان نفسه رغم صدوره عن الأمم المتحدة، ورغم الدعاية الكبيرة التي أحاطته بها الدعاية الغربية، ورغم أخذ كثير من الدول به وتضمينها له في دساتيرها هو إعلان تحيط به مشكلات كبيرة تكلم عنها المفكرون، ثم ذكر الشيخ هذه المشكلات، ثم تكلم الشيخ عن التصور الإسلامي للحقوق، ثم تكلم عن عقوبة المرتد في الإسلام.

٥- في سبيل استراتيجية أهدى وأجدي للحركة الإسلامية^(٢):

تحدث الشيخ في هذه الورقة عن مفهوم الحركة الإسلامية وأنها تشمل كل جهد يبذل لإعلاء كلمة من كلمات الله، سواء أكان من أفراد العلماء أو الدعاة المستقلين عن الجماعات، أو الجماعات المنسلكة في تنظيمات، أو من المؤسسات، أو من الحكومات، وسواء أكان في مجال العقيدة أو العبادة أو السياسة، أو الاقتصاد أو غير ذلك من مجالات الحياة، ثم تحدث الشيخ عن

(١) بحث قدمه الشيخ لمشروع مفاهيم في الحريات الدينية رؤية شرعية التي نظمتها هيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في ٨/٣/١٤٣١هـ - الموافق ٢٢/٢/٢٠١٠م.

(٢) ورقة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الندوة التي نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض في ١٤/١٤١٢٨هـ - الموافق ١٧/٢/١٩٩٢م.

الهوية الاعتقادية للحركة الإسلامية، وما الأهداف التي تريد تحقيقها في واقع
دنيانا هذه، ثم ختم بحثه بأهداف الحركة الإسلامية والقواعد الاستراتيجية لها.

٦- في منهج العمل الإسلامي^(١):

تحدث الشيخ في هذا البحث عن بعض القواعد في منهج العمل الإسلامي،
مثل قاعدة: العمل الجماعي وعلو بعض الناس في تصوره لأهمية الجماعة
وقياسها على جماعة الصحابة بمكة بقيادة الرسول ﷺ ومناقشة الشيخ لمثل
هذه التصورات الخاطئة؛ وكذلك ذكر من القواعد أن التركيز على العقيدة
لا يعني إهمال الجوانب الأخرى؛ وكذلك قاعدة: أخذ الإسلام كاملاً ١٠٠٪
أو لا شيء، ومناقشته لها، وأخيراً قاعدة: الحذر من كيد الأعداء وأن هذه
القاعدة سليمة اكتنفها الغلو في الفهم والتطبيق.

٧- قواعد أصولية، واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام^(٢):

تحدث الشيخ في هذا البحث عن اجتماع المسلمين وتعاونهم فيما بينهم،
بل وتعاونهم مع غيرهم على كل ما من شأنه أن يُعلي كلمة الله ويعز دينه، مقصدٌ
عظيم من مقاصد الشريعة الذي تقتضيه وتدعو إليه أصولها، والعمل على

(١) بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث عشر، محرم - صفر، ربيع الأول ١٣٩٨هـ -

يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨م.

(٢) ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الانساق والافتراق في

قاعة الصداقة في الخرطوم، السودان في الفترة ٢٣ - ٢٦ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - الموافق ١٠ -

١٣ يوليو ٢٠٠٤م، ونشرتها جامعة الخرطوم.

تحقيق هذا المقصد بالأخذ بالوسائل العلمية والعملية التي بيّنتها الشريعة أو التي قد تقتضيها نوازل مكانية أو زمانية هو مما لا يتحقق ذلك المقصد إلا به، وذكر أسباب الاتفاق والتعاون.

٨- مفهوم الثقافة الإسلامية^(١):

تحدث الشيخ في هذا البحث عن مفهوم الثقافة الغربي والإسلامي، وخصائص المثقف المسلم، والمفهوم الإسلامي للمثقف، وختتم البحث بالحديث عن الثقافة الإسلامية كمادة دراسية وحاجة الطلاب اليها، ومراجع المادة ومدرسوها.

٩- منهج التحول للإسلام^(٢):

تحدث الشيخ في هذا البحث عن هدف الدعوة الإسلامية وهو تكوين مجتمع جديد في مكان ما من العالم يكون مقدّمًا تمامًا لتعليمات الإسلام، ويعمل على تطبيق تلك التعليمات في حكومته، وتنظيماته السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وعلاقاته مع الدول الأخرى، ونظامه التعليمي، وقيمه الأخلاقية وجميع الأوجه الأخرى في أسلوب معيشته، ثم تحدث عن عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي، ثم تحدث عن النظرية الحتمية للتاريخ،

(١) هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩ هـ.

(٢) وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين، الذي عقد في جامعة توليدو بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥ م، ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩ م.

وكذلك النظرية الإسلامية للتغيير الاجتماعي.

١٠- البخاري غير معصوم، لكن كل ما في كتابه صحيح^(١):

في هذه الدراسة رد الشيخ على من زعم أن في البخاري أحاديث غير صحيحة، وأنه لا يلزم من كون البخاري غير معصوم أن توجد في كتابه الذي بين أيدينا أحاديث غير صحيحة مخالفة لكتاب الله أو صريح العقل أو للحقائق المحسوسة.

١١- منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ^(٢):

في هذه الدراسة ناقش الشيخ أهم الأسئلة التي حاول الإجابة عليها المستشرق البريطاني مونتغمري واط Montgomery Watt فيما يتعلق بنبوة الرسول ﷺ، وهي هل كان محمدًا صادقًا في قوله إنه رسول الله؟ وهل القرآن كلام الله حقًا؟ وما طبيعة الوحي المحمدي؟ وما العلاقة بين القرآن وبين وعي محمد؟ وبينه وبين البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ.

(١) دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ١٤١١/١/٤هـ.

(٢) وهذه دراسة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس ضمن بحوث عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية التي تولتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج بمناسبة احتفانهما بحلول القرن الخامس عشر الهجري، ونشرها مكتب التربية لدول الخليج ١٤٠٥هـ - الموافق ١٩٨٥م.

﴿ فوائد مقالات الحضارة ﴾

فائدة: ما الذي يمنع الدول الغربية من الإقدام على التدخل العسكري

لنصرة المسلمين في البوسنة؟

أولها: أن هذه الدول تبني سياستها في الغالب على ما تعده مصلحة وطنية اقتصادية، أو سياسية أو استراتيجية، أو حزبية انتخابية، أو غير ذلك، وهي لا ترى لها مصلحة كهذه في مناصرة المسلمين في البوسنة.

وثانيها: أن كثيرًا من الغربيين يعتقدون - في دخيلة أنفسهم - كما يعتقد إخوانهم الصرب - أن وجود المسلمين في أوروبا أمر شاذ، فلا يباليون إذن من غض الطرف عن إخراجهم منها.

ذلك سببان لا يصرح بهما، بل لا يقر بهما، بل قد ينكران إذا ما ذكرا إنكارًا شديدًا ولا سيّما الثاني منهما لكن هنالك سببين آخرين يذکران صراحة:

أولهما: إن الحكومات الغربية تحذر حذرًا شديدًا من تعريض مواطنيها للموت، خصوصًا بعد التجربة الأمريكية في فيتنام، لذلك تراهم حريصين على الاكتفاء ما استطاعوا باستعمال القوات الجوية، وعدم اللجوء إلى استعمال القوات الأرضية، ويزيد هذا الحرص حين تخشى الحكومات من أن تؤدي كثرة الضحايا إلى سحق شعبي يؤثر عليها في الانتخابات.

وثانيهما: سبب في غاية السخف، وما أراه يذكر إلا تعلقة واهية لتسويق

موقف مهين. إنهم يقولون إن تزويد المسلمين بالأسلحة يوسع مدى الحرب ويزيد من عدد الضحايا! أي ضحايا؟ إن تزويد المسلمين بالأسلحة، أو السماح لهم باقتناء السلاح، سيمكنهم بلا شك من دفاع أحسن عن أنفسهم، وهو دفاع يقتضي بلا شك قتل العدو المعتدي.

فما هذا المنطق الذي يمنع المظلوم من السلاح خشية أن يؤدي ذلك إلى قتل من يقتله؟ أي منطق هذا الذي ينظر إلى عدد القتلى فحسب ولا يلقى بالا لنوع المقتولين. ألم يسمع هؤلاء مقالة الخليفة الراشد: «لأن نفرًا تمالؤوا على قتل رجل»، «لو أن أهل صنعاء تمالؤوا عليه لقتلتهم». إن المنطق العادل هذا يقول فليقتل الصرب جميعًا غير مأسوف عليهم إذا كانوا مصرين على العدوان غير مصفين لصوت العقل ولا لصوت الخلق^(١).

فائدة: الحضارة الغربية والموقف منها:

الحضارة الغربية هي الآن أكبر تحد يواجه فكرنا الإسلامي، وأكبر تحد يواجه وجودنا الاجتماعي والسياسي، فلنقدرها قدرها لا لنخضع ونخضع لها ولكن لكي نعد العدة اللازمة المكافئة لصد عدوانها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا. وأن نستفيد من حقيقة مهمة تتعلق بهذه الحضارة وقومها، وهي أنهم ليسوا كما واحدًا متجانسًا متعاونًا في خصومته لنا بل هي أفكار شتى ومصالح شتى

(١) إطلالة إسلامية على الحضارة الغربية، جريدة المسلمون السعودية، العدد (٤٣٢)، تاريخ

١٤١٣/١١/٢٣هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٣١).

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، فستفيد في تعاملنا معهم من هذا التشتت في الفكر وفي المصالح؛ بل إن فيهم طلاب حق إذا عرفوه أقروا به ودافعوا عنه، ولولا ذلك لما أسلم منهم أحد لكن الحقيقة التي نشكر الله تعالى عليها أنه لا يمر يوم قط إلا ويدخل في هذا الدين منهم أحد.

حدثني أحد الأخوة الذين كانوا يتولون الدعوة إلى الإسلام بين الجنود الأمريكان أبان حرب الخليج أنه أسلم منهم ما يقارب السبعة الآف، وقد قرأت تقارير بالصحف الأمريكية تصف تجربة القوات الأمريكية بالعيش في بيئة إسلامية تمنع الخمر وتمنع الزنا، فقالوا: إنه لم يحدث قط أن اجتمع عدد من الجنود كالذي اجتمع بالسعودية، خلعت حياتهم من الشجار والقتال فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين مواطني البلد التي يحلون بها كألمانيا مثلاً؛ بل قالوا: إن الحرمان من الخمر كان علاجاً لكثيراً من المدمنين منهم. ونحن نأمل ونرجو أن نعمل؛ لأن يأتي وضع عالمي جديد لا يكون فيه الغرب يهودياً نصرانياً علمانياً في مواجهة عالم إسلامي، بل يكون الإسلام حقيقة غربية كما هو الآن حقيقة شرقية لها اعتبارها في وضع السياسات وتحديد المواقف وما ذلك على الله بعزيز، وأن نستغل اهتمام الغرب بنا استغلالاً حسناً لمصلحتنا سيما في هذه الأيام التي بدأ فيها هذا الاهتمام يزداد بعد سقوط الشيوعية.

إن من منهج الغربيين في اتخاذ مواقفهم بناءها على معلومات عمّن يراد اتخاذ الموقف حياله، لذلك يجب أن نبادر نحن بإعطائهم المعلومات التي نراها مناسبة ونرد على الشبهات التي يثيرونها عمّن يسمونهم بالأصوليين،

ولا نترك غيرنا من المستشرقين والمنصرين والعلمانيين يحدثونهم عنا حديثاً يقصد به تنفيرهم من الدعوة التي نحملها^(١).

فائدة: العلمانية ليست محايدة:

من الأباطيل التي أشاعها المروجون للفكر الغربي ومؤسساته، والتي انطلت على كثير من المسلمين، ولا سيما السياسيين منهم، أن العلمانية نظام محايد بين الأديان، وعليه، فإذا أراد مواطنو دولة متعددة الأديان كالسودان أن يتساووا في الاشتراك في حكم بلادهم، فما عليهم إلا أن يطرحوا أديانهم جانباً؛ كما فعلت الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، ويتبنوا النظام العلماني. ويبدو أن هذا النوع من التفكير كان وراء ما سمي باتفاق القاهرة، ووراء ما دعا إليه قرنق من علمانية العاصمة.

لكن الواقع الذي تدل عليه طبيعة أنظمة الحكم، والذي تؤيده التجربة الغربية نفسها، أن العلمانية ليست محايدة بين الأديان، بل إنه لا يوجد على وجه الأرض؛ لأنه لا يمكن عقلاً أن يوجد - نظام سياسي - دينياً كان أو علمانياً - محايد حياداً كاملاً بين كل المعتقدات الشائعة بين البشر؛ وذلك لأن من مهام النظام السياسي أن يضع قوانين ونظماً لحياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، وما من منهج من مناهج الحياة - دينياً كان أم غير دين -

(١) العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية، ورقة مقدمة للحلقة العلمية بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام ٢٧/ ١١/ ١٤١٣ هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٧٤).

إلا وله بعض التصورات المتعلقة بهذه الأمور كلها أو بعضها؛ وهي تصورات مختلفة، بل كثيراً ما تكون متناقضة، فلا يمكن للنظام السياسي أن يقرها كلها، بل لا بُدَّ له من أن يأخذ بعضها فيضع قوانين تلزم الناس به، وأن ينكر بعضها فيضع قوانين تحظره^(١).

فائدة: سمات الحضارة:

بما أن الحضارة أو الثقافة العلمانية حضارة تحل الهوى محل الإله الحق، فإن لها في كل أشكالها - القديمة أو الحديثة، اليونانية والأوروبية أو العربية - سمات مشتركة، نابعة من ذلك الأصل الكفري المشترك؛ لأن قيم الناس وثقافتهم هي ثمرة معتقداتهم وأحوال قلوبهم، فإذا تشابهت المعتقدات وتشابهت لتشابهها القيم، تشابهت الأقوال والأعمال والتحليلات والتفسيرات: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَلِيمٌ أَوْ جَبُونٌ ﴿٥٢﴾ أَوْ صَوَّأَ بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [النداريات: ٥٢-٥٣] فالثقافات الجاهلية كلها ثقافات تطلق العنان للشهوات الجنسية فتبيح الزنا بكل أشكاله، عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء:

- فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها.

(١) العلمانية ليست محايدة وما هي بالقومية، شبكة المشكاة الإسلامي، الأربعاء ٧ رجب ١٤٣٤ هـ - مايو ٢٠١٣ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إسبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٦١).

-ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

-ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيها، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل.

-والنكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاظ به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم، هذه الإباحية الجنسية العربية أقل شراً من إباحيات أمم أخرى؛ لأنها كما ترى تحرص على أن يكون للمولود نسب ينتمي إليه وإن كان نسباً غير حقيقي. وكما تبيح الحضارة الجاهلية الزنا فإنها تبيح كل مقدماته ومسبباته، فالنساء في المجتمع العربي الجاهلي، كأخواتهن في المجتمع الجاهلي الغربي، كن لا يتحرجن من إظهار محاسنهن الأثوية لكل الرجال، فكن يكشفن شعورهن

ونحورهن بل صدورهن، ولم يكن يدنين عليهن جلابيهن، بل كن أحياناً لا يتحرجن حتى من التعري الكامل، وكن يختلطن بالرجال ويخلون بغير المحارم، وكن يتعطرن ويخرجن ويخضعن بالقول في خطابهن.

والحضارات الجاهلية حضارات لا تعرف التوسط ولا سيمًا في معاملة النساء، فهي تذهب من طرف معاملتها معاملة الحيوان والعبيد، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً»^(١)، إلى طرف مساواتها بالرجال في كل شيء بل تقديمها عليهم ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَلَى عَرْشٍ عَظِيمٍ﴾ [النمل: ٢٣]، ﴿قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [٢٢] ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ لِلَّذِي فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٢-٣٣].

وقد تغلو الحضارة الجاهلية في اتباع الشهوات الجنسية فتبيح الشذوذ، كما فعل قوم لوط وكما فعلت الحضارة اليونانية، وكما تفعل اليوم الحضارة الأوربية. والحضارات الجاهلية كلها تبيح شرب الخمر، ولعب الميسر، وأكل الربا. وهي حضارات لا ينفك أهلها عن الفخر بالأنساب أو الألوان أو القوى المادية أو غير ذلك مما لا تعلق له بالقيم الفاضلة، ويتخذون مثل هذه الميزات ذريعة إلى الاعتداء على الضعفاء.

هكذا كان العرب في جاهليتهم يفعلون، وهكذا فعلت الحضارة الغربية مع الأمم الضعيفة فاستعمرت بعضًا، واحتلت بعضًا، واسترقت بعضًا ثم عاملتهم

(١) البخاري، كتاب العباسي.

أسوأ مما تعامل به الحيوان، لكن الحضارات الجاهلية قد تفلح رغم كل هذه المثالب في بناء مدنيات باهرة، وتتفوق في العلوم الدنيوية وما يبني عليها من تقنية فتأتي بمنجزات كبيرة في مجال الزراعة والصناعة وسائر أنواع التفوق المدني العمراني، ولكن لما كان هذا الجانب المدني المادي قائماً على جرف ثقافي هار فإنه لا يلبث أن يتداعى.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَحْسَنِ مَا هِيَ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُظَلِّمَهُمُ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسِهِمْ يَظَلِمُونَ ﴿٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١٠﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِنطِقًا لَهَا فِي أَلْبَانِهِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿١١﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَفَعُوا فِي الْأَلْبَانِ ﴿١١﴾ فَأَكْفَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُكَ ﴿١٤﴾ [الفجر: ١-١٤] (١).

فائدة: الديمقراطية وسيلة لا محتوى لها:

يؤكد لنا كثير من المفكرين الغربيين أن الديمقراطية إنما هي وسيلة، وأنها مسألة إجرائية، وأنه لا محتوى لها (أي أنها لا تقول إن الحكم في الاقتصاد مثلاً

(١) العلمانية والجاهلية وجهان لعملة واحدة، مجلة منار السبيل، ١٩٩٣م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٥٦).

أو في المسائل الاجتماعية أو في التعليم يجب أن يكون كذا وكذا، وأن الذي يعطي الديمقراطية شيئاً من مثل هذا المحتوى إنما هو الفلسفة الليبرالية، ولذلك تسمى الديمقراطيات الغربية بالديمقراطيات الليبرالية.

فالليبرالية في حقيقتها قيد على الديمقراطية بمعنى أنه لا يجوز حتى للأغلبية سواء كانت أغلبية استفتاء أو أغلبية هيئة تشريعية أن تقضي بشيء يتناقض مع الليبرالية، مثل الاعتداء على حق من حقوق الإنسان. والمفكرون الغربيون - ولا سيما المحافظين منهم - يميزون لذلك بين ما يسمونه ديمقراطية العامة Populist Democracy وبين الديمقراطية المقيدة ببعض القيم.

لكن يبدو أن كثيراً من السياسيين وأهل الرأي عندنا - حتى من كان منهم متسبباً إلى الإسلاميين - لا يعرفون من الديمقراطية إلا الديمقراطية المطلقة التي لا قيد ديني ولا خلقي عليها، أصحاب هذا الفهم الساذج للديمقراطية يظنون أن كل أمر مهما كان خطيراً فهو خاضع للديمقراطية، وأن ما تقرره الأغلبية فيه هو الأمر الذي يجب الالتزام به مهما كان نوعه.

أذكر أن أحدهم كتب منذ سنين ينصح الإسلاميين بأن يلتزموا بما تقوله صناديق الاقتراع حتى لو كان الفائز فيها هو الحزب الشيوعي، تذكرت حين قرأت ذلك كلاماً للفيلسوف البريطاني برتراند رسل فحواه أنه ينبغي أن لا يعطى الشيوعيون من الحرية ما يمكنهم الوصول إلى السلطة؛ لأنهم إذا وصلوا إليها ألغوا الديمقراطية التي جاءت بهم. وإذا كان ذلك قد كان رأياً شاذاً كما تصورت آنذاك فإنني أعجب الآن أن صار مثل هذا الرأي هو الغالب على تصور كثير من

الناس في بلادنا للديمقراطية، حتى بعض من كان منهم مسلماً يؤمن بأن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله، ويصلي ويصوم بل ويحج، كنت أحسب أنه إذا كان لا بُدَّ لأمثال هؤلاء! من مناداة بالديمقراطية أن يجعلوها ديمقراطية مقيدة بالقيم الإسلامية، كما قيدها الغربيون بالليبرالية.

فكان عليهم أن يعلنوا لذلك أن ما يحكم به الله تعالى ليس خاضعاً لقرار ديمقراطي، كيف والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

والمقصود بالتقديم بين يدي الله ورسوله: هو أن تعطى الأسبقية لرأي أو هوى لفرد أو جماعة مهما كان وكانوا. وَقَالَ قَمَارٌ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وكل من اقترح أمراً مخالفاً لما شرع الله فهو من الذين لا يعلمون أقلية كانوا أم أغلبية، والالتزام بما شرع الله تعالى يجب أن يكون - من حيث الإيمان - التزاماً بها كلها ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩) أفحكم الجاهلية يغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿ [المائدة: ٤٩-٥٠]، أما العمل فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

إن الذي يهدينا إليه كتاب ربنا وتبينه لنا سنة رسولنا هو أننا أمة، أننا جماعة، وأن جماعتنا لا تتحقق إلا إذا كانت لنا دولة تلتزم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما استطاعت، فكما أننا نصلي جماعة وراء إمام مسلم، فكذلك

نكون جماعة وراء حاكم مسلم تسمى إمامته بالإمامة العظمى. هذه إذن مسألة لا تقبل المساومة، وليست خاضعة لقرار ديمقراطي أو غير ديمقراطي. سيقول بعض الجهلاء إنه ما دام المسلمون أغلبية فلن يختاروا شخصاً غير مسلم.

وأقول: إنه لا يجوز من حيث الإيمان أن يجعل المسلم رأي الأغلبية مبدأ يلتزم به التزاماً مطلقاً بغض النظر عن النتائج الواقعية، فكما أنه لا يجوز لك أن تقول لإنسان إنه يجوز لك أن ترتد وأنت على يقين من أنه لن يرتد؛ فكذلك لا يجوز لك أن تعلن موافقتك لرأي الأغلبية في أمر تعلم أن الله تعالى قد حكم فيه، ثم إن الأرض التي يسكنها المسلمون يجب أن يحكمها المسلمون وأن يحكموها بكتاب الله تعالى بقدر استطاعتهم.

إن المرء ليعجب كيف يرى كثير من الناس في بلادنا أنه من حق أناس كالمواطنين الجنوبيين أن تكون لهم حكومتهم غير الإسلامية؛ لأنهم ليسوا بمسلمين، وينكرون أن تكون للمسلمين في الشمال حكومتهم الإسلامية وهم مسلمون، والدولة لا تكون مسلمة إلا إذا كان حاكمها مسلماً؛ لكن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام صدقاً أو نفاقاً صاروا يصرحون بأنهم لا يباليون بأن يكون رئيس دولتنا رجلاً غير مسلم، بل إن بعض من يصلي ويصوم ويحج كان يصرح بأنه كان سيعطي صوته لجون فرنج إذا ما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية!! هذا مع أن علماء المسلمين لم يختلفوا في الخروج المسلح على الحاكم الكافر ما دام ذلك ممكناً لقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في الخروج على

الحاكم: «إلا أن تروا كفرةً بواحا، عندكم من الله فيه برهان» فياليت شعري إذا كان ديننا يأمرنا بالخروج على حاكم كان يبدو مسلماً ثم طراً عليه الكفر، فكيف يبيح للمسلمين أن ينصبوا على أنفسهم وباختيارهم حاكماً مستعلنًا بكفره؟ لماذا نرضى بهذا الإذلال لأنفسنا ونحن أمة أعزها الله تعالى؟ حتى إن عيسى ابن مريم وهو رسول من رسل الله عندما يجيء لا يرضى بأن يؤم المسلمين، بل يعطي هذا الحق لإمامهم يومذاك.

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَيَقُولُ أَمِيرَهُمْ: تَعَالِ صِلْ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا إِنْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمْرَاءُ تَكْرَمَةُ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ» إِنْ الْإِيمَانَ بِالْديمقراطية بِمَعْنَى التَّسْلِيمِ الْمَطْلُوقِ لِقَرَارِ الْأَعْلِيَّةِ مَعْنَاهُ جَوَازُ الْخُرُوجِ عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ هَلْ يَبْقَى مِنْ يَوْمٍ بِمِثْلِ هَذَا مُسْلِمًا؟ لَقَدْ أَكْفَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَوْمًا مِنَ الْيَهُودِ فَعَلُوا أَقْلَ مِنْ هَذَا فَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أشدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] (١).

(١) حين تصوير الديمقراطية وثنا يعبد، شبكة المشكاة الإسلامية، السبت ٢٩ رجب ١٤٢٨ هـ - ١١ أغسطس ٢٠٠٧ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إسبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ، (ص: ٥٣٦).

فائدة: الإيمان المطلق بالعمل بقرار الأغلبية لا يكون في الواقع ممكنًا:

إن الإيمان المطلق بالعمل بقرار الأغلبية كما أنه أمر مخالف للشرع، بل وللعقل أيضًا، فهو لا يكون في الواقع ممكنًا، ولذلك قال منظر و الديمقراطيه إن العمل بقرار الأغلبية إنما يكون ممكنًا في المجتمع المتناسق، أي المجتمع الذي يجمعه - في غالبه الأعم - ثقافة واحدة وقيم أكثرها مشتركة وهكذا، في مثل هذا المجتمع لا يشعر الناس بأن أمرًا خطيرًا قد حدث إذا ما فاز حزب وخسر آخر؛ لأن الفرق بينهما ليس فرقًا جذريًا، وأما حين يكون المجتمع منقسمًا انقسامًا حادًا في مسائل يعدها المختلفون قضايا جذرية فإنهم لن ينصاعوا للرأي الأغلبية.

عبر عن هذه الفكرة بوضوح كاتب أمريكي يدل عنوان كتابه على مقصده (قبل أن يبدأ التراسق...) من الأمثلة التي ذكرها لمثل هذه القضايا التي لا مساومة فيها والتي تؤدي إلى التراسق بالسلاح، قضية الاجهاض التي حملت بعض المواطنين الأمريكيين على قتل طبيب مارسه؛ لأنهم اعتبروه قتلًا لنفس بريئة وهو أمر لا مساومة فيه، فكيف إذا كان الخلاف في أمور أخطر؟، إذا كان بين مؤمنين وكافرين، أو بين فرق دينية كالسنة والشيعه كما هو الحال في العراق، أو بين قوم مع الاحتلال وآخرين يعدونهم خونة كما هو الحال في أفغانستان. لقد أجرى الأمريكان في كل من هذين البلدين انتخابات وافتخروا بأنهم جعلوا هذه البلاد ديمقراطية، وظن بعضهم في سذاجة أن الانتخابات ستحل مشكلتهم. لكن الواقع أن الصراع استمر وأن القتل ازداد استعمارًا، وما كان لهذا إلا أن

يحدث حتى لو كانت الانتخابات نزيهة مئة بالمئة^(١).

فائدة: الديمقراطية لا تصلح إذا لم يصلح الشعب:

قال بعض الكبار من واضعي الدستور الأمريكي: إن الديمقراطية لا تصلح إذا لم يصلح الشعب، وهو كلام صحيح وبديهي ينطبق على كل نظام سياسي؛ لأن المؤسسات كما قال أحدهم: هي كالفلاح إنما يعمرها الرجال، إن كون الشخص منتخباً لا يعني كونه صالحاً، وكون القرار قد اتخذ بطريقة ديمقراطية لا يعني كونه حقاً أو صالحاً.

وقد ظهرت كل هذه الحقائق الآن بجلاء للشعوب الغربية ولا سيما الشعبين الأمريكي والبريطاني، لقد كان قرار غزو العراق قراراً ديمقراطياً لا شك في ديمقراطيته، لكن الذين أيدهوا إنما فعلوا ذلك؛ لأنهم صدقوا ما قيل لهم من أسبابه: إن العراق يملك أسلحة دمار شامل لن يمر أكثر من شهر حتى تبلغ هذه الأسلحة درجة تهدد المصالح القومية للولايات المتحدة ولبريطانيا. وأنه قد ثبت أن النظام العراقي كان على صلة وثيقة بتنظيم القاعدة. فلما حدث الغزو ودمر العراق ولم توجد الأسلحة بدأ بعض الناس يشكون. فكان الرد عليهم أن كوننا لم نجد لها إلى الآن لا يعني أنها لم تكن موجودة؛ بل قد تكون الآن موجودة لكنها في أماكن لم نعثر عليها، فأعطونا مهلة قبل أن تصلوا إلى هذه

(١) حين تصوير الديمقراطية وثناً يعبد، شبكة المشكاة الإسلامية، السبت ٢٩ رجب ١٤٢٨هـ - ١١ أغسطس ٢٠٠٧م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٣٦).

النتيجة، وربما كانت الأسلحة موجودة فعلاً لكن صدامًا دمرها قبل الغزو بأيام. لكن الخبراء قالوا: حتى لو دمرها لوجدنا لهذا التدمير أثرًا، ثم جاء الاعتراف بأن المخابرات هي التي ضللت الحكومة الأمريكية، ثم يثبت الخبراء الأمريكيان الآن أنه لم تكن لصدام مثل هذه الأسلحة، وأنه أوقف العمل على تطويرها منذ أكثر من عشر سنوات، وأما الصلة بالقاعدة فقد ثبت بطلان دعواها هي الأخرى.

كان الواجب الذي تقتضيه الأمانة والصدق مع المواطنين، ومع العراقيين، ومع سائر سكان المعمورة أن يعلن أولئك القادة الذين تولوا كِبْرَ الغزو أنهم كانوا مخطئين، وأنهم يعتذرون عما حدث؛ بل كانت الأمانة تقتضي أن يستقيلوا من مناصبهم؛ لأن التقليد السياسي المتبع عندهم أن يستقيل المسئول إذا تبين أنه ارتكب خطأ جسيمًا، سواء بحسن نية أو بسوءها، لكن شيئًا من هذا لم يحدث بل الذي حدث هو مزيد من الإصرار على أن الحرب كان لها ما يسوّغها حتى بعد أن ظهر بطلان كل الأسباب التي كانت قد سيقت لتسويغها، أليس معنى ذلك أن تلك الأسباب التي قيلت للناس لم تكن هي الأسباب الحقيقية لشن الحرب؟ إنهم يقولون الآن يكفي أننا خلصنا العالم من ديكتاتور. لكن صدامًا كان ديكتاتورًا منذ أعوام، وكنتم أيها الغازون له الآن من مؤيديه. وإذا كان صدام ديكتاتورًا فما هو بالديكتاتور الوحيد في عالمننا، حقًا إن الباطل لجلج^(١).

(١) عنز وإن طارت، شبكة المشكاة الإسلامية، الثلاثاء ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ - ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٦٩).

فائدة: النظرية الاقتصادية الرأسمالية:

تقول النظرية: إن الاقتصاد الناجح هو اقتصاد سوق يسمح بالملكية الفردية وبالبيع والشراء والادخار ويترك للسوق تحديد أسعار السلع، وإن هذا كله ينبغي أن يكون في حرية كاملة لا يحد منها أي تدخل من الدولة.

كان الفيلسوف والاقتصادي الاسكتلندي آدم سميث الذي عاش في قرنهم الثامن عشر هو أكثر من اشتهر بالقول بهذه الفلسفة الرأسمالية، لكن المؤرخين يقولون: إنه هو نفسه تأثر بكتابات ماندافيل الذي كان أكثر منه غلوا في هذا الأمر فهو المشهور بقوله: «إن الرذائل الفردية هي فضائل اجتماعية» في مجال الاقتصاد.

كان سميث وغيره يقولون: إنه لا بأس على الفرد أن يندفع لتحقيق مصالحه بدافع الأنانية؛ بل قال بعضهم بدافع الطمع ليحقق مصالحه وإن النتيجة ستكون - بفعل تلك اليد الخفية - أمر لم يخطر على بال الفرد، هي المصلحة العامة، لكن الواقع أن هذه اليد الخفية لم تقم بالمهمة التي عزاها إليها سميث وغيره، وإنما أدى ذلك الطمع الفردي المتروك له العجل على غاربه إلى تقسيم الثروة تقسيمًا ظالمًا، بحيث إن قلة قليلة من المواطنين تصل أحيانًا إلى ١٠ في المائة تمتلك ما يصل أحيانًا إلى ٩٠ في المائة من الثروة، ولا يمتلك ٩٠ في المائة الباقون إلا ١٠ في المائة منها، ما جعل بعض الاقتصاديين الأمريكيين يقولون ساخرين: إنه يبدو أن شيئًا أصاب تلك اليد فشلها، وبدأت الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد حداثتها منذ ستينين ما جعل بعض الاقتصاديين يقولون: إنه إن استمر التفاوت على تلك الوتيرة فسيؤدي حتمًا إلى كارثة اجتماعية.

إن الأمر المثالي للنظرية الناجحة أن تكون النتيجة أحسن فأحسن كلما كان واقع العمل بها أقرب إلى مثالها النظري، لكن الغريب في النظرية الرأسمالية أنه لو كان الواقع مطابقاً لصورتها المثالية لكانت الكوارث أكثر ما تكون. الصورة المثالية للنظرية هي إلا يكون للدولة أدنى تدخل في النشاط الاقتصادي، لكن هذا معناه ألا تفرض الدولة على الناس ضرائب، ولا تضع قوانين تقيدها النشاط الاقتصادي، كأن تمنع صنع بعض الأشياء الخطرة أو المتاجرة بها، وكأن تحدد الأماكن التي تبني فيها المصانع، وتضع لها شروطاً صحية وبيئية وغير ذلك، لكن كل هذه القيود ما زالت تحدث إلى حد ما في الدول الرأسمالية.

الدولة إذن تدخلت لكن تدخلها لم يكن بالقدر الذي يرفع الظلم، بل كانت تميل دائماً إلى إعطاء الحرية للأغنياء مهما أدى ذلك إلى التضييق على الفقراء، خذ نظام الضرائب في الولايات المتحدة مثلاً، إن الضريبة لا تؤخذ من رأس المال كما هو الحال في الزكاة، وإنما تؤخذ فقط من دخل الفرد في العام المالي، وهذا معناه أنه إذا كان هنالك شخصان أحدهما يمتلك مليوني دولار والآخر لا يمتلك شيئاً، لكن دخل كل منهما في السنة المالية كان ١٠٠ ألف دولار، فإن نسبة ما يؤخذ منهما متساوية، أي أن الضريبة لا تتعرض لرأس المال الذي كان موجوداً قبل السنة المالية.

قال كيفن فلبس في كتابه عن (الديمقراطية والثروة): إنه لو أخذت ضريبة مقدارها ٣ في المائة على رؤوس الأموال في أمريكا وحدها لما بقي على وجه

الأرض فقيراً، ولعل القارئ لاحظ أن هذه النسبة قريبة جداً من نسبة الزكاة التي تفرض فعلاً على رؤوس الأموال، لكن دعاة الرأسمالية في الغرب لا يزالون يدافعون عنها رغم كل ما يرون من آثارها الضارة، أتدرون ما السبب في هذا؟

السبب أنهم ظنوا أن البديل الوحيد للنظام الرأسمالي الذي عهدوه هو النظام الاشتراكي الذي عرفوا صوراً منه في الاتحاد السوفيتي وفي الصين قبل التعديلات التي أحدثها الصينيون فيه، وهم بهذا يخلطون بين كون الرأسمالية اقتصاد سوق وبين كون كل اقتصاد سوق هو بالضرورة اقتصاد رأسمالي، لكن الحقيقة هي أن هنالك بديلاً ثالثاً هو الاقتصاد الإسلامي الذي هو اقتصاد سوق، لكنها سوق منضبطة بضوابط القيم الإسلامية، وهي قيم يغلب عليها مراعاة مصالح الفقراء ما يجنب المجتمعات الآخذة بها ذلك التفاوت الفظيع الذي نتج عن النظرية الرأسمالية، في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، بيان لهذين الأمرين ففي إحيال البيع إقرار باقتصاد السوق، وفي تحريم الربا تقييد له بقيم إسلامية هي في مصلحة الفقراء.

ثم تأتي الزكاة التي هي أيضاً في مصلحة الفقراء، بل تأتي القاعدة العامة التي تأمر بالآلا يكون المال دولة بين الأغنياء، وإذا كان الغربيون لم يعرفوا النظرية الرأسمالية إلا في صورتها التي قال بها سميث وغيره، فإننا نعلم من القرآن الكريم أنها نظرية قديمة كان من بين من قالوا بها قوم شعيب، الذين رفضوا دعوة نبيهم لهم إلى العدل في معاملاتهم المالية بحجة أن المال مالهم

فلهم الحق أن يفعلوا فيه ماشاؤوا.

﴿وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهِمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ أَمْرُؤُنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْغَلِيظُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٤-٨٧].

شعار الفلسفة الرأسمالية يكاد يكون ترجمة لقول قوم شعيب هذا، فأهل مدين يريدون أن يفعلوا ما شاؤوا والفلسفة الرأسمالية تقول دعه يعمل Laissez Fair أي لا تتدخل في نشاطه الاقتصادي، رفض الإسلام الفلسفة التي احتج بها أهل مدين على أساس أن المال ليس مملوكًا ملكية مطلقة للبشر، وإنما هو مملوك لله الذي يأمر البشر بأن يتصرفوا فيه وفق أوامره سبحانه^(١).

فائدة: متى تكون الديمقراطية تتناقض مع الإسلام:

يوافق بعضنا على القول بأن الديمقراطية أحسن نظام توصلت إليه البشرية، ويقول آخرون إن الديمقراطية كفر، ويقف فريق ثالث بين أولئك

(١) فشل النظرية الرأسمالية، مقال للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بمناسبة الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٨م، ونُشر هذا المقال في صحيفة الاقتصادية بتاريخ ١١/١٠/٢٠٠٨م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٠).

وهؤلاء، وكل القائلين مسلمون لا يطعن بعضهم في إيمان بعض، ولكل منهم حظ من العلم بالدين وبالديمقراطية، فهل يمكن أن يحدث خلاف عظيم مثل هذا في قضية من القضايا بين أناس يتمون إلى دين واحد هو الدين الحق، إذا كانوا يشيرون إلى شيء واحد متفق عليه بينهم؟ كلا، وإذن فلا بُدَّ أن يكون كل واحد من هؤلاء المختلفين مشيرًا إلى شيء غير الذي يشير إليه الآخرون، وإن كانوا جميعًا يسمون ما يشيرون إليه بالديمقراطية.

وهذه المسألة ليست خاصة بالمسلمين، فقد قرأت لبعض منظري الديمقراطية من الغربيين كلامًا مضاده: إن انتشار الإعجاب بالديمقراطية كان على حساب معناها، وقرأت لآخر قوله: إن الديمقراطية صارت كلمة رنانة لا معنى لها، ولثالث قوله: إن الديمقراطية صارت تعني عند كثير من المعجبين بها كل شيء يروونه حسنًا.

وعليه، فلكي نضيق من دائرة الخلاف بيننا يحسن أن يبين كل منا ما الذي تعنيه الديمقراطية بالنسبة له، ثم يحكم بعضنا على بعض بما قصد بالديمقراطية لا بالمعنى الذي يراه هو المعنى الحقيقي لها، وقديمًا قال علماءنا: إذا اتضحت المعاني فلا مشاحة في الألفاظ. إذا قال أحدنا: إن الذي يعنيه بالديمقراطية هو المعنى الذي يدل عليه لفظها اليوناني، والمعنى الذي أجده في القواميس والموسوعات السياسية، والمعنى الذي يكاد يتفق عليه كل منظريها الأكاديميين.

هذا المعنى هو أن الديمقراطية إنما هي حكم الشعب، والمقصود بالحكم

هنا هو كون الشعب هو السلطة التشريعية العليا التي لا معقب لحكمها، فإذا حكمت على الديمقراطية بهذا المعنى قلت إنها تتناقض مع الإسلام الذي يجعل الحكم لله وحده، بمعنى أنه هو وحده الذي يملك حق التشريع، وأنه ليس لمشروع غيره أن يشرع إلا في حدود ما شرع هو سبحانه، أما إذا قال آخر إن الديمقراطية إنما تعني بالنسبة له أن يختار الشعب حكامه والممثلين له في الهيئات التشريعية في انتخابات دورية حرة ونزيهة؟ هل يصح أن يقال لمثل هذا إن ديمقراطيتك هذه تتناقض مع الإسلام؟ كلا، لا تستطيع أن تحكم على ديمقراطيته هذا الحكم العام وإن اختلفت معه في تفاصيل بعض ما ذكر، لكن من حقت أن تقول له إنك تجاهلت أعظم مسألة جاءت الديمقراطية لحلها، ولم تذكر لنا بديلاً عنها مع أنها هي المسألة التي تهمننا الآن، إن الديمقراطية إنما بعثت في أوروبا بعد ألفي عام من موتها في أثنائها؛ لتجيب عن السؤال المهم: لمن الحكم؟ وكانت الإجابة أنه ليس للملوك ولا لرجال الدين ولا للدكتاتور أو فئة قليلة متسلطة، وإنما هو للشعب، بمعنى أغلبية ممثليه.

إذا كانت الديمقراطية إنما تعني الانتخابات فإن السؤال الذي يلي هذا هو بم يحكم هؤلاء المنتخبون؟ هل سيتقيدون فيما يصدر عن من أحكام وقوانين بحكم الله تعالى، أم سيكونون أحراراً يشرعون بما شاءوا بحسب أهواء أغليبتهم كما هو الحال في واقع الديمقراطيات الغربية؟

إذا قلت بالأول: كان الحكم الذي تريده حكماً إسلامياً، فلماذا تسميه ديمقراطياً؟ وربما قال لك أهل الديمقراطية كيف تقيد حرية ممثلي الشعب

وتمنعهم من أن يشرعوا بما يرونه مناسباً لأمتهم؟

وإذا قلت بالثاني: كان الحكم في الحقيقة لأغلبية ممثلي الشعب، وهذه هي الديمقراطية المعمول بها في البلاد الغربية الديمقراطية، وهي الديمقراطية التي يسعون لنشرها وتعميمها في العالم كما يقولون.

ماذا إذا قال ثالث: إن الديمقراطية لا تعني بالنسبة له الانتخابات فقط، وإنما تعني أيضاً حرية تكوين الأحزاب، والتداول السلمي للسلطة، وحكم القانون، وحقوق الإنسان وغير ذلك من المبادئ التي ارتبطت بالديمقراطية في الواقع الغربي؟ قد نخالف هذا القائل في بعض تفاصيل ما ذكر لكنك لا تستطيع أيضاً أن تقول له إنك تقول شيئاً يتناقض مبدئياً مع الإسلام، لكن يمكن أن نقول له ما قلنا للثاني: من الذي يحدد محتوى هذه المبادئ ولا سيما القانون وحقوق الإنسان؟ هل سيكون الأمر فيها متروكاً لأهواء الأغلبية البرلمانية فنكون قد رجعنا إلى المعنى الأول للديمقراطية؟ أم أنهم سيتقيدون بما أنزل الله في كتابه وسنة نبيه فيكون حكمهم إسلامياً فلا داعي لأن يوصف بالديمقراطية^(١)؟

فائدة: متى يستفاد من الديمقراطية:

هل يلزم عن هذا عدم الاستفادة من أي شيء في التجربة الديمقراطية الواقعية؟ كلا. بل قد نستفيد من بعض جزئياتها العملية، كما نستفيد من جزئيات

(١) فلنحدد ما نعني بالديمقراطية: شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٢ هـ -

٢١ أكتوبر ٢٠١١ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)

دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٤٤).

غيرها من النظم، ما دامت جزئيات يمكن وضعها في الإطار الإسلامي.
والاستفادة من جزئيات الديمقراطية لا تجعل الدستور ديمقراطيًا، ومن
باب أولى أن لا تجعل البلد ديمقراطيًا، كيف والبلاد التي تأخذ بالأيديولوجية
الديمقراطية بمعنى حكم الشعب لا ترى من الضروري أن تصف دستورها
ولا بلدها بالديمقراطي؟ فلماذا يصرّ بعضنا علي وصف بلادنا بهذا الوصف؟
أقول بهذه المناسبة: إن بعض القراء قد يعجبون كما عجبت حين علمت
أن كلمة الديمقراطية لم يرد لها ذكر في الدستور الأمريكي، ولا في وثيقة إعلان
الاستقلال الأمريكية^(١).

فائدة: مخططات الغرب لمواجهة الإسلام،

بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصاديًا وعسكريًا، فإن الدين
الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيّما بعد سقوط
الشيوعية، إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشارًا حتى في
البلاد الغربية؛ بل أقول إنه أكثر انتشارًا لا بالنسبة للأديان فحسب بل بالنسبة
لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب
بل في سائر بلدان العالم.

هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بُدّ من إعداد الخطط للمكرب، إن تفاصيل

(١) فلنحدد ما نعني بالديمقراطية، شبكة المشكاة الإسلامية، الجمعة ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ -

٢١ أكتوبر ٢٠١١م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه)

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٤٤).

مكرهم هذا أمر يطول وصفه؛ لكننا سنركز حديثنا اليوم على تقرير لمركز البحوث الأمريكي المسمى (راند) لم أكتف بقراءة هذا الملخص بل اطلعت على التقرير كله Rand في أصله الإنجليزي، فخطرت ببالي خواطر كثيرة عنه، منها:

أولاً: أن الخطط التي يوصي بها هي خطط ظل الغرب يتبعها منذ زمن؛ فالدراسة لم تأت في رأيي بشيء جديد لكنها صرحت بما كان متبعاً وعبرت عنه تعبيراً مفصلاً، إن الإسلام الذي يراه الغرب خطراً عليه هو الإسلام الحق الذي يستمسك به بعض المسلمين بصدق وجد ويحاولون الدعوة إليه، وهو الإسلام الذي يحبه ويؤمن به إذا عرفه كثير من الناس في الغرب، إنه إسلام القرآن والسنة، ولذلك تجد أن أكثر من دخل في الإسلام - في الولايات المتحدة على الأقل - إنما دخلوا فيه بعد قراءتهم لترجمة من ترجمات هذا الكتاب العزيز.

ثانياً: ولأن التقرير كان صريحاً؛ فإنه لا يحاول مخادعة المسلمين، كما يفعل السياسيون من أمثال بوش أو بليز حين يقولون إن مشكلتنا ليست مع الإسلام؛ فهو دين سلام ومحبة وتسامح، وإنما هي مع أقلية من المتشبهين إليه من الإرهابيين أو المتطرفين.

ثالثاً: واضح من الدراسة أن المسلمين مدعوون لا إلى فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الغرب، ولكنهم مدعوون إلى فصل الإسلام وإبعاده عن الحياة كلها، والتقرير يعترف بأن هذا أمر صعب، لكنه أمر لا مفر منه فيما يبدو، «إنه ليس بالأمر السهل».

يقول التقرير: «أن تبدل ديننا عالمياً كبيراً كالإسلام، إنه إذا كان (بناء الأمة) عملاً مرعباً، فإن (بناء الدين) أشد خطورة وتعقيداً» ومما يدل ذلك على جدتهم في محاولة التبديل هذه أن بهذا التقرير فصلاً كاملاً عن الحديث النبوي، يقول فيه عن الحديث: «إنه في أحسن أحواله أمر مريب متناقض لا يمكن الاعتماد عليه في فض النزاع في أي قضية؛ لأن كلاً من المتنازعين يمكن أن يجد فيه ما يؤيد وجهة نظره، ولذلك فإن التقرير ينصح بإصدار كتيبات تتضمن أحاديث تؤيد وجهات نظر الحداثيين والعلمانيين، حتى لا يبقى عامة المسلمين ضحية للأحاديث والتفسيرات التي ينشرها بينهم العلماء التقليديون والأصوليون. يعتمد التقرير في هذا على كتابات أقوام معروفين بالزندقة وإنكار السنة.

رابعاً: قلت في نفسي: أخشى أن يظن بعض من يقرؤون هذا التقرير ممن لا يزالون يحسنون الظن بأمثال هذه المؤسسات الغربية أن الديمقراطية التي يدعو العالم الإسلامي إليها هي الديمقراطية بمعنى الرضى بحكم الشعب.

أقول لهؤلاء: هبوا أن دولة قالت للغربيين: تريدون ديمقراطية؟ حسناً! فلنعمل كما فعلتم أنتم معاشر الأمريكان، لنندع ممثلين للشعب من كافة مناطقهم الجغرافية، ولنقل لهم: صوغوا لبلدكم دستوراً كما فعل الأمريكان؛ ولنفترض أن هؤلاء الممثلين اجتمعوا فكان أول ما ذكروا به أنفسهم واجتمعت عليه كلمتهم أنهم ليسوا مواطنين فقط لكنهم مسلمون أيضاً، وإن إسلامهم هذا هو جوهر هويتهم، ومعتمد جماعتهم، ومصدر عزهم وكرامتهم، وسبب تقدير الأمة الإسلامية لهم، وأنهم يؤمنون لذلك بأن دستورهم الأعلى الذي يحكم

حياتهم ويهيمن على كل ما يصدر من وثائق هو نصوص الكتاب وصحيح السنة، وأنه ينبغي لذلك أن لا يكون -قرروا- في نظام حكمنا ولا في قوانيننا، ولا في مناهجنا الدراسية، ولا في سياستنا الخارجية، ولا في أي جانب من جوانب حياتنا ما هو مخالف لما في هذين المصدرين.

هب أنهم جلسوا بعد ذلك وتداولوا لعدة أسابيع خلصوا في نهايتها إلى صياغة دستور، ثم عرضه على شعبهم في استفتاء عام، شهد عليه مراقبون محايدون من هيئة الأمم، فكانت النتيجة أن أجازته الأغلبية الساحقة من المواطنين. هل يرتاب أحد بعد هذا في أن هذا الدستور جاء بطريقة ديمقراطية، وأن على من كان يؤمن بالديمقراطية أن يرضى به لهذا البلد مهما خالفهم الرأي؟ ولكن هل تظنون أنه سيرضى الغرب أو ترضى أمريكا بذلك؟ كلاً ثم كلاً. لا تنسوا أنهم لا يتكلمون عن الديمقراطية بهذه الصفة العامة التي ذكرناها، إنهم لا يتحدثون عن ديمقراطية تكون فيها الكلمة للأمة مهما كانت تلك الكلمة. إنهم يريدون نظاماً أشبه ما يكون بنظامهم، وقيماً أشبه ما تكون بقيمتهم ولا سيما في الموقف من الدين ومن العلاقة بين الجنسين. هذه في رأيهم هي الديمقراطية الليبرالية التي لا ديمقراطية حقيقية غيرها.

ألا تذكرون ما قال (بريمر) للعراقيين من أن هنالك خطوطاً حمراء يجب أن لا يتخطاها مجلس الحكم في وضعه لمسودة الدستور، وأن من هذه الخطوط فصل الدين عن الدولة. وأن الديمقراطية التي يريدونها للعراق هي ديمقراطية على المنوال الأمريكي أو الغربي؟ إن شعارهم هو: كونوا أحراراً،

لكنكم لن تكونوا في حكمننا أحرارًا إلا إذا اخترتم لأنفسكم ما اخترنا نحن لأنفسنا، إلا إذا كانت طريقة حياتكم كطريقتنا، إلا إذا لم يكن في ما اخترتموه ما نرى فيه مهادًا لقيمنا وثقافتنا ومصالحنا، فيما عدا ذلك فأنتم أحرار جد أحرار.

خامسًا: مما يدل على هذا أنهم ليسوا راضين حتى عن من كان من العلمانيين منا غير معجب بهم. يقول التقرير إنه بما أن العلمانيين يؤمنون مثلنا بفصل الكنيسة عن الدولة «فقد كان المفروض أن يكونوا الحلفاء الطبيعيين لنا في العالم الإسلامي. لكن المشكلة كانت وما تزال أن كثيرًا من العلمانيين المهمين في العالم الإسلامي لا يوادوننا، بل قد يكونون شديدي العداوة لنا لأسباب آخر.

سادسًا: ما الثقافة التي يدعوننا إليها؟ إنها ليست العلوم التي كانت من أسباب تقدمهم المادي، وإنما هي الكفر والعري والزنا والشذوذ والمخدرات والفردية التي هي من علامات تدهور حضارته لا من أسباب قوتها. لذلك تجد بعضهم يقول إنه لا خوف على حضارتنا من حضارة أخرى معاصرة، وإنما الخوف عليها من الانتحار الذي بدأت تمارسه ويشيرون إلى مثل أنواع السلوك تلك.

ماذا نفعل؟ هل نستجيب ونخضع؟ فوالله لن يزيدهم هذا إلا احتقارًا لنا، وتماديًا في إذلالنا، ودأبًا على الوقوف في طريق تقدمنا الاقتصادي والتقني والعسكري.

فلنقل لهم: لقد رضينا بأن نعيش معكم في سلام، وأن من يعتدي على الأبرياء منكم ومنا لا يمثلنا ولا يعبر عن رأينا، لكننا لن نرضى بأن يكون هذا

التعايش تعايشًا بين سادة وعبيد، أو محتلين ومواطنين، أو منتجين ومستغلين
﴿وَلْيَنْصُرِكُمُ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] (١).

فائدة: المجتمعات الغربية والرديلة:

يبدو أنه ما من مجتمع بشري إلا وفيه دُعاة إلى نوع من الفضيلة وحُماة
للرديلة، وأنَّ حال المجتمع ومصيره رهين بغلبة أحد الفريقين، وأعني بالفضيلة
أشياء مثل الصدق والعدل والأمانة والعفة وعدم الانغماس في الشهوات،
والتحذير من كل ما يؤدي إلى ذلك من وسائل.

هذه الأمور من الفضائل التي ركزها الله في طبيعة البشر، والتي تأتي أنوار
الرسالات لتؤكددها وتشرع للناس ما يتناسب معها من عقائد وعبادات
ومعاملات.

أريد أن أعطي القارئ الفاضل أمثلة من هذا لبعض ما اطلعت عليه في
الغرب في الأسابيع الأخيرة من غير بحث ولا تنقيب.

قرأت قبل بضعة أسابيع مقالاً بجريدة (نيويورك تايمز) يسخر فيه صاحبه
كثيراً من الفضائل التي يتميز بها المجتمع السعودي، ويقول إنها تعوق فتح باب
السياحة للأجانب، ويرى أن الاستفادة من هذه السياحة تتطلب التخلص من
تلك الفضائل، وأن تستبدلها بالردائل التي اعتاد عليها في بلده والتي أصبح كثير

(١) ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي، شبكة المشكاة الإسلامية، الأحد ١٠ جمادى الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٧ يونيو ٢٠٠٤ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته

- بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٥٢).

من أمثاله حتى في بلادنا يرونها ضربة لازب لكل مجتمع يريد أن يرتقي إلى مصاف الدول المتحضرة بزعمهم، يسخر من الحجاب، ومن قتل القاتل، ومن منع اختلاط الرجال بالنساء، ومن توقف العمل لأداء الصلاة، ويقول: إن فكرة تجوال امرأة شابة غير متزوجة وهي لا ترتدي إلا... هو مما يراه السعوديون أمراً مرعباً.

لم أعرف تلك اللبسة التي ذكرها حتى سألت عنها، فإذا بها لبسة لا تغطي من جسم المرأة إلا شيئاً من صدرها، وشيئاً قليلاً مما فوق ركبتيها بكثير إلى ما تحت خصرتها! هذا الذي يراه هذا المظموس الفطرة أمراً طبيعياً، بينما يرى الحجاب أمراً منكراً، ثم قرأت بعد أسابيع من ذلك في جريدة (الواشنطن بوست) مقالاً يقول: إن تلك اللبسة صارت اليوم معروضة في كبرى المحلات التجارية ضمن البسة طالبات المدارس حتى اللاتي لم يبلغن سن العاشرة! لكنه يذكر أن كثيراً من الآباء احتجوا على الدعاية لها، وأن بعض الأمهات رفضن أن يشترينها لبناتهن رغم إلحاحهن الشديد، وأن بعض مدراء المدارس يفكر الآن في فرض زي معين للطالبات. فمن الذي سينجح في هذه المعركة - إن كانت معركة؟ أغلب ظني أنهم حماة الرذيلة، وكنت قد ذهبت قبل أسبوعين إلى لندن للمشاركة في مؤتمر عن العولمة. وأثناء وجودي بالفندق كنت أقرأ بعض الصحف اليومية وبعض المجلات، كما أشاهد التلفاز، فوجدت في الأخبار العجب العجاب. سمعتهم يتحدثون عن برنامج عرضته إحدى القنوات التجارية أثار سخط الآباء والأمهات، بل سخط بعض الوزراء والوزيرات.

أتدرون عما كان البرنامج؟ كان عن المبتلين بالميل الجنسي إلى الأطفال. ويبدو أنه عرضت فيه صور فاضحة وأنه سخر من الاعتراض على هذا الانحراف. لكن حماة الرذيلة وعلى رأسهم المسؤول عن القناة جاء يدافع عنه ويزعم أنه لا يرى فيه منافاة للأخلاق، ثم قرأت في إحدى الجرائد! عن فيلم سيعرض بعد أسابيع يشاهد فيه الشعب الإنجليزي لأول مرة الفاحشة تمارس على شاشات السينما، بل إن الدعاية له التي نشرتها الجريدة والتي رأيتها بعد ذلك معلقة في الأماكن العامة تتضمن شيئاً من ذلك المنكر.

قالت إحدى الكاتبات في تلك الجريدة: هل نحن مُقبلون على ممارسة الجنس في قارة الطريق؟ وتذكّرتُ - كما أن القارئ لا بُدَّ أن يكون قد تذكر - الحديث الذي رواه أبو يعلى عن رسول الله ﷺ وهو يتكلم عن آخر الزمان: «والذي نفسي بيده لا تفتنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق؛ فيكون خياركم يومئذ من يقول: لو وارتبها وراء هذا الحائط»، لكن منتجى الفيلم وكاتب القصة التي بُني عليها ظهروا على شاشات التلفاز يدافعون عن هذا المنكر ولا يرون فيه شيئاً منافياً للأخلاق.

ثم قرأت بإحدى المجلات مقالاً طويلاً بعنوان (عصر الانحطاط) ذكرني بكتاب جديد في تاريخ الثقافة الغربية عنوانه (من الفجر إلى الانحطاط)، عرفت من صاحبة المقال أن ذينك البرنامجين المذكورين آنفاً كانا ضمن سلسلة من المنكرات التي توالى في مدى بضعة أسابيع بتلك البلاد، منها اعتراف أحد الكبار بأنه أقسم أمام القضاء كاذباً، واعتراف بعض المتزوجين لوسائل الإعلام

بأنهم زنوا، ومنها كثرة العلاقات الجنسية بين أقرب المحارم، لكن هذا الكلام لم يعجب إحدى حاميات الرذيلة، فكتبت في إحدى جرائد (التابلويد) تسخر من الكاتبة ومن المجلة التي نشرت المقال، وكان مما قالته: إن زنا المتزوجين ليس بالخطيئة الجديدة؛ فلا يعدّ معياراً لانحطاط الأمم.

أقول: نعم! إنه ليس بالخطيئة الجديدة؛ بل قد يحدث في أكثر المجتمعات عفة، لكن هناك فرق بين أن يكون حوادث شاذة متناثرة، وبين أن تعم به البلوى فيكون سمة للمجتمع.

وأقول للكاتبة: ما رأيها فيما نشرته الجرائد عن مسرحية ظهر فيها أحد الممثلين عرياً أمام الجمهور، ثم أعطاهم قفاه و... تخيلوا ماذا؟ تغوطة! أترى هذا أيضاً لا يدل على الانحطاط حتى في الأذواق؟ إن الإجماع دركات؛ ففرق بين أن يرتكب الإنسان جرماً محصوراً في نفسه، وبين أن يتباهى به ويعلنه للناس، ثم بين هذا وبين من يدعو إليه ويسعى للدفاع عنه وحماية مرتكبيه. هؤلاء هم شرار الخلق وهم سبب انحطاط الأمم وهلاكها، وقد أعطانا ربنا صورة واضحة عنهم لنسعى جاهدين لقمعهم ودفع باطلهم، تعلمنا من كتاب ربنا أن بعض الناس لا يفعل الغواية فحسب؛ بل يحبها ويكره الهداية. ﴿وَأَمَّا سَوْمُ فَهَدَيْتَهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٧]، وأن بعض الناس لا يرتكب الفاحشة فحسب بل يحب لها أن تنتشر ولا سيما بين الصالحين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النور: ١٩]، وأن بعض الناس يحب الكفر والفسوق والعصيان إلى درجة تجعله مستعداً لأن يبدل كل

ما في وسعه للدفاع عنها بالحجة والمال، بل بالنفس وكل رخيص وغال، ﴿كَلِمَاتٍ
 أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ آوَالِيهِمْ
 لِيَجْذَلُواكُمْ وَإِنِ اطَّعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿وَتَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنِ
 سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِلَىٰ
 جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُغْلِبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 يُغْلِبُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾
 [النساء: ٧٦]، وأنت ترى في هذه الآيات الكريمة وغيرها كيف أن الله تعالى لا يكتفي
 بإخبارنا عن باطلهم، بل يحثنا على مدافعتهم وتغييره، فعلى المؤمنين بالحق أن
 لا يقفوا عند حدود الاستمساك السلبي به، بل أن يكونوا متعاونين في الدعوة إليه،
 والدفاع عنه، والسعي لقمع أعدائه بالحجة والبرهان، وبذل النفس والنفيس.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ
 كَثِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، إن حماة الرذيلة لا يقفون عند حد الدفاع عنها، بل يسعون
 لمحو معالم كل فضيلة مضادة لها، لكن الذي يمنعهم من ذلك هم جنود الحق
 المدافعون عنه الباذلون الجهد لإعلاء كلمة الله، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
 [البقرة: ٢٥١] (١).

(١) حماة الرذيلة، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٢٨).

فائدة: على أي أساس يضع المواطنون في بلد ما دستورهم ويصدرون قوانينهم إذا كانوا منقسمين إلى أديان مختلفة:

يثير هذا السؤال عدة مسائل: المسألة الأولى: أن دعاة العلمانية ولا سيما في بلادنا العربية في هذه الأيام، يقولون إن الحل الأمثل هو الحل الذي لجأت إليه أوروبا وأمريكا وسائر الدول التي قلدتها، وهو أن تكون الدولة علمانية لا تلتزم بدين لكنها لا تمنع أحدًا من ممارسة دينه في حياته الخاصة، بهذا يكون المجال العام مجال التشريع والتنفيذ والقضاء، مجالًا مفتوحًا لكل أفراد المجتمع يشاركون فيه باعتبارهم مواطنين لا باعتبارهم منتمين إلى هذا الدين أو ذلك، ويكونون بهذا متساوين في حقوقهم السياسية.

نقول: نعم، إن هذا قد يحدث إذا تنازل كل المتمين إلى الأديان أو معظمهم عن أديانهم، أو على الأقل عن جانب المجال العام منها، ورضوا بأن يحصروها في الجانب الخاص كما فعل الغربيون، وقد صار كثير من المسلمين المتأثرين تأثرًا شديدًا بالفكر الغربي يعدون هذا أمرًا طبيعيًا، بل يعدونه أمرًا لازمًا للدولة الحديثة، رأيت ذات مرة في التلفاز أحد هؤلاء وهو يدافع دفاعًا مستميتًا عن الدولة العلمانية، ثم تبين في المقابلة معه أنه من حرصه على أداء الحج بطريقة كاملة لم يكن يكتفي بالسؤال عن أركانه وواجباته؛ بل كان يحرص حتى على مستحباته! فهذا إذن رجل يرى أنه يمكن أن ينكر جزءًا من الإسلام ويدعو إلى هذا الإنكار، ويظل مع ذلك مسلمًا ربما لأنه لا يعلم أن من شرط الإيمان بالإسلام أن يؤمن الإنسان به كله، ثم يجتهد في أن يطبق منه ما استطاع، وأن من أنكر

بعض الدين كمن أنكره كله، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦].

هذا إذا تبنت الأغلبية المسلمة الموقف العلماني، ولكن ماذا يحدث إذا ظل عدد كبير منهم مستمسكاً بدينه كله؟ هل يمكن أن يقال عن أمثال هؤلاء إن لهم حقوقاً سياسية متساوية مع غيرهم من العلمانيين الذين يشجعون لهم قوانين يخالف بعضها أوامر أديانهم؟ كلا، قد يقال لماذا لا يقبلون رأي الأغلبية ويعيشون تحت قوانين يعلمون أنها مخالفة لدينهم؟

نقول: هب أنهم فعلوا ذلك، فالسؤال ما يزال قائماً، هل يقال عن مثلهم إن لهم حقوقاً سياسية متساوية مع العلمانيين الذين يتولون التشريع له؟ كلا، إذن فالعلمانية لا تحل مشكلة التعددية.

المسألة الثانية: إن الخلافات بين الناس ليست محصورة في الخلافات الدينية، بل هنالك خلافات أخرى كثيرة وعميقة كالخلافات الاقتصادية السياسية بين دعاة الرأسمالية ودعاة الاشتراكية، فهل يشعر الاشتراكي في الغرب أنه مساو سياسياً للرأسمالي الذي يشرع للمجتمع تشريعات اقتصادية مبنية على الرأسمالية؟ وقل مثل ذلك عن بعض الاختلافات الاجتماعية والفلسفية والخلقية التي لا علاقة لها بالدين، كيف تحل هذه المشكلة إذن؟

هذا يقودنا إلى المسألة الثالثة: وهي أن جون رولز الأمريكي الذي كان يعد

أكبر فلاسفة السياسة والأخلاق المعاصرين، زعم في كتابه الشهير الليبرالية السياسية Political Liberalism أنه توصل إلى إجابة عن هذا السؤال؛ لأنه توصل كما يقول إلى مبدأ يمكن أن تتفق عليه كل الأديان والفلسفات والمبادئ الخلقية المتناقضة تناقضات عميقة؛ لأن كلا منها سيجد له مكانًا في دينه أو فلسفته أو معتقده الخلفي بشرط أن يكون ذلك الدين أو تلك الفلسفة أو ذلك المبدأ الخلفي معقولًا، لكن تبين أن مريط الفرس كما يقولون إنما هو في كلمة معقول هذه، تساءل ناقدوه عن معيار المعقولية هذه عند رولز فوجدوه يرجع إلى الموافقة على مبادئ فلسفته الليبرالية السياسية، فقالوا له: إنك لم تفعل شيئًا.

قلت: إنك توصلت إلى مبدأ يوافق عليه كل أولئك المختلفين ويجعلونه معيارًا، ويكونون بهذا متساوين سياسيًا في الدولة الليبرالية الديمقراطية، ثم جعلت شرط موافقتهم عليه أن يكونوا موافقين على فلسفتك السياسية الليبرالية، ولعل من الطريف الذي يبين صدق هذا النقد للقارئ السوداني أن من بين التصورات الدينية التي رآها رولز معقولة كلاً ما لمحمود محمد طه نقله إليه أحد الأساتذة، كلاً ما يفسر فيه محمود الإسلام تفسيرًا جديدًا لا يكاد يختلف في شيء عن الديمقراطية الليبرالية! لقد تعجبت كيف ظن هذا الفيلسوف الكبير أنه سيجد حلاً لمشكلة استحيل عقلاً أن تحل؟ أعني أنه يستحيل عقلاً أن توجد دولة لها دستور وقوانين ترضى عنها كل فئات المجتمع المختلفة؛ لأنها تجد لها مسوغًا في دينها أو فلسفتها أو مبدئها الخلفي.

الرابعة: أن الحل الممكن عمليًا كما هو الواقع في البلاد الغربية مثلًا هو:

١- أن تبنى الحياة في المجال العام على أحد المبادئ التي لا يشترط أن توافق عليها كل فئات المجتمع المختلفة؛ ذلك الاختلاف الذي ذكره رولز، لكنها ترضى بها لكي تعيش مع غيرها في سلام في وطن واحد، لكن هذا يعني بالضرورة أن لا يكون المواطنون متساوين في الحقوق السياسية.

٢- أن تكون لهؤلاء المواطنين جميعًا حقوق إنسانية متساوية باعتبارهم مواطنين وبغض النظر عن الحكم الذي يخضعون له.

الخامسة: يتبين من هذا أن مثل العلمانية في هذا كمثل الحكم الإسلامي في كونها ليست محايدة بين الأديان أو المعتقدات الأخرى كما يصورها لنا القائمون بالدعاية لها؛ لأنها يمكن أن تشرع تشريعات تجيز بعض ما تمنعه بعض تلك الأديان والمذاهب أو تمنع ما تجيزه، وهي ليست بمحايدة بالنسبة للإسلام بالذات بل محايدة له؛ لأنها يمكن أن تحل ما حرم الله وتحرم ما أحل

وفي التجربة الأمريكية أدلة كثيرة على أن الدولة العلمانية قد تصدر حتى في مجال الممارسات الخاصة قوانين مخالفة لتعاليم بعض الأديان. ومن الأمثلة الطريفة التي يذكرونها: أن تعاليم طائفة المورمون وهي طائفة تنتمي إلى المسيحية، تبيح تعدد الزوجات تعددًا لا حد له فيما يبدو، لكن المحكمة العليا منعتهم من ذلك وألزمتهم بعدم التزوج بأكثر من واحدة، كما أن القوانين في البلاد العلمانية الأوربية تبيح كثيرًا من الممارسات الجنسية التي لا يوافق عليها كثير من اليهود والنصارى المستمسكين بدينهم.

السادسة: بعض الناس -حتى من الممتمين إلى بعض الأديان- ما زالوا

يفضلون أن يكون الحكم في بلادهم علمانيًا لا إسلاميًا؛ لأن بعضهم ما يزال مخدوعًا يظن أن العلمانية محايدة، وأن دولتها دولة مدنية يعجد فيها كل المواطنين حقوقًا سياسية متساوية، إن هؤلاء يغفلون عن كون العلمانية هي أيضًا دين إذا أخذنا الدين بمعناه العربي الواسع، أو هي على الأقل مذهب من مذاهب الحياة؛ لأنها تتضمن مبادئ وتشريعات وأوامر ونواه، فهي إذن ليست ضد الإسلام وحده وإنما هي ضد كل دين له تشريعات ومبادئ مختلفة عن تشريعاتها ومبادئها.

السابعة: من الدعايات التي يلجأ إليها بعض دعاة العلمانية في تفسير غير المسلمين من الحكم الإسلامي زعمهم بأنه ما دامت القوانين التي تصدرها هيئة تشريعية إسلامية هي بالضرورة قوانين دينية، فإن الدولة التي تصدرها تكون قد فرضت عليهم دينًا لا يدينون به، لست أدري لماذا لا يقولون الشيء نفسه عن القوانين التي تصدرها الهيئات التشريعية العلمانية؟ لماذا لا يقولون إن كل قانون تصدره هيئة تشريعية علمانية هو بالضرورة علماني مخالف لدينهم؟ لماذا لا ينظرون إلى القوانين الإسلامية نظرهم إلى القوانين العلمانية فيلتزمون بها؛ لأنها قوانين أصدرتها دولتهم ولا ينظرون إلى عقائد من أصدروها ولا إلى دوافعهم، كما أنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة إلى القوانين التي تصدرها الدولة العلمانية؟

إن الدولة العلمانية بإمكانها نظريًا أن تصدر قوانين متوافقة توافقًا كاملاً مع الإسلام، كأن تمنع الخمر أو الربا، فهل سيقول أمثال هؤلاء إنها لم تعد دولة

علمانية بل صارت إسلامية تفرض عليهم دينًا لا يدينون به؟

الغامنة: أليس من التناقض أن يكون الإنسان من المنادين بالديمقراطية ثم يعترض اعتراضًا مبدئيًا على إسلامية دولته مهما كان عدد المطالبين بذلك من مواطنيها؟ كيف توفق بين الديمقراطية التي تعطي المواطنين الحق في اختيار نوع الحكم الذي يريدون، وتكون مع ذلك مناديًا بمنع طائفة منهم من هذا الحق؟ إن منع فئة من المواطنين من المناداة بأن تكون دولته إسلامية لا يتأتى إلا باللجوء إلى قوة قمعية تحول بينهم وبين ذلك كما كان الحال في بعض البلاد العربية.

تاسعًا: لقد قال كثير من المنادين بالحكم الإسلامي - ونقول معهم - إن الحكم الإسلامي ليس حكمًا دينيًا بالمعنى الغربي للكلمة، أي أنه ليس حكمًا ثيوقراطيًا يتولى الأمر فيه أناس يزعمون أنهم يتلقون أوامرهم بوحى مباشر من الله تعالى كما كان بوش يزعم أن الله تعالى أخبره بأن يفعل كذا ويفعل كذا، وهو قائم على رأس دولة تعتبر علمانية.

إن الحكم الإسلامي يختلف عن الحكم الثيوقراطي في ثلاثة أمور مهمة:

أولهما: أنه قائم في النهاية على دستور مكتوب مفتوح لكل الناس هو نصوص الكتاب والسنة.

وثانيهما: أنه لا يجبر أحدًا على الدخول فيه كما كانت الطوائف الدينية النصرانية في الغرب تفعل حين تؤول السلطة إلى واحدة منها، فقد كان النصراني يخبرون اليهود في الأندلس بين الدخول في النصرانية أو الموت أو مغادرة

البلاد. وكانت الطائفة التي تؤول إليها السلطة تجبر الطوائف الأخرى على اعتناق معتقداتها، وهذا هو الذي تسبب فيما أسموه في التاريخ الغربي بالحروب الدينية التي كانت كما يرى بعضهم هي السبب في نبذ الناس للحكم الديني واللجوء إلى الحكم العلماني.

ثالثهما: إن الحكم الإسلامي يعطي غير المسلمين حقوقًا مثل ما يعطيهم إياها الحكم العلماني أو أكثر، قد يقول بعضهم كيف تقول هذا والدولة العلمانية تساوي بين المواطنين - من الناحية النظرية على الأقل - في حقهم في أن يتولوا رئاسة الدولة مثلاً، بينما الإسلام يشترط في من يتولى هذا المنصب أن يكون مسلمًا.

أقول: والعلمانية تشترط فيه أن يكون علمانيًا! نعم، إنه لا يهمها - من الناحية النظرية - أن يكون مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا أو بوذيًا ما دام انتسابه إلى دينه انتسابًا ترضى عنه العلمانية، أي أن يكون تدينه تدينًا محصورًا في الجانب الشخصي، أما في المجال العام فهو ملزم بالدستور والقوانين العلمانية، وبما أن الإسلام لا يفصل هذا الفصل الحاسم بين جانب الدين الخاص وجانبه العام، بل يعد رأس الدولة إمامًا للمسلمين في دينهم كما أنه إمام لهم ولغيرهم في دنياهم، كان من الطبيعي أن يشترط في رأس الدولة أن يكون مسلمًا؟^(١).

(١) هل تحل العلمانية مشكلة التعددية؟ شبكة المشكاة الإسلامية، السبت ٢٧ شوال ١٤٣٢ هـ -

٢٤ سبتمبر ٢٠١١ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته -

بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٤٦).

فائدة: من عيوب الفكر الغربي:

من عيوب الفكر الغربي السائد أنه يفترض أن صلاح المجتمع إنما يكون بصلاح الترتيبات الخارجية اقتصادية كانت أم سياسية أم اجتماعية ورأسمالية كانت أم اشتراكية.

وعليه، فإن كثيرًا من الناس في زماننا بل وفي بلادنا ممن تأثر بهذا الفكر صاروا يعلقون آمالًا كبيرة على النظام السياسي الديمقراطي ويرجون منه ما لا يمكن أن يحققه به؛ ذلك أنه لما كثرت معاناة الناس من الفساد المرتبط بالنظم الاستبدادية الدكتاتورية صاروا يعتقدون أن النظام السياسي الديمقراطي الحق هو الإكسير الذي سيداوى هذا الداء، ويجعل المواطنين يعيشون في أمن من ذلك الفساد، لكن هذا وهم مرده إلى عدم النظر في النظرية الديمقراطية وتطبيقاتها^(١).

فائدة: هل يكون النظام ديمقراطيًا حقًا ويكون مع ذلك فاسدًا،

نعم، والفساد المتعلق به نوعان:

نوع يتعارض مع الديمقراطية، وهذا ليس محل بحثنا؛ لأن الديمقراطية ليست مسئولة عنه مادام يتعارض معها، إنما بحثنا في الفساد الذي لا يتعارض معها، بل الذي ينتج عنها حتى حين تطبق تطبيقًا صحيحًا. إن كون القرار قد

(١) هل يكون الحكم الديمقراطي فاسدًا؟ شبكة المشكاة الإسلامية، الثلاثاء ٢٩ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كتوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٤٦).

يكون ديمقراطيًا لا ريب في ديمقراطيته ويكون مع ذلك فاسدًا لا ريب في فساده أمر يقر به كبار منظري الديمقراطية من الغربيين.

فهذا فوكوياما يقول: إن القرارات التي تتخذها ديمقراطيات ليبرالية ذات سيادة والتي تكون صحيحة إجرائيًا، لا ضمان أن تكون عادلة أو متناسبة مع هذه المبادئ العليا. إن الأغليات الديمقراطية يمكن أن تقرر فعل أشياء فظيعة لأقطار أخرى ويمكن أن تتغول على الحقوق والقيم الإنسانية التي بني عليها نظامها الديمقراطي نفسه.

وكان كاتبهم الشهير هنتجتون Huntington يقول: إن الانتخابات المفتوحة الحرة العادلة هي جوهر الديمقراطية، هي شرطها الضروري الذي لا مفر منه، لكن الحكومات التي تأتي بها الانتخابات قد تكون عاجزة وفسادة وقصيرة النظر وغير مسؤولة، وتغلب عليها مصالح خاصة وتعجز عن اتخاذ سياسات يطلبها الشعب، هذه الخصال تجعل الحكومة غير مرغوب فيها، لكنها لا تجعلها غير ديمقراطية.

وهذا صحفي كندي كبير يكتب مقالًا بعنوان مشير هو (على كندا أن تلغي الديمقراطية) لماذا؟ يدعي الكاتب أن النظام الحالي هو أفسد نظام مر على كندا في تاريخها كله، إن حجم السرقة، والاحتيال والتزوير وغسيل الأموال يتجاوز أن يكون بسبب عدد من السياسيين المنحرفين أو مجموعة صغيرة من المستخدمين المارقين، إن الحزب الليبرالي وبالتالي الحكومة فاسدة.

إن الفساد ليس في مجرد عدد من الحوادث المعزولة لكنه في الجهاز

نفسه، ثم يقول: إن من الفضائل المفضضة في الديمقراطية أن الناس بإمكانهم أن يغيروا حكومتهم إذا لم يكونوا راضين عنها، ولكن حتى مع علمنا بأن هذه الحكومة فاسدة وملتوية فإن ٦١٪ من الكنديين لا يرغبون في إجراء انتخابات. وهذا الليمان الذي قال عنه مقدمو الكتاب الذي نشروا فيه مجموعة من مقالاته: «إنه ربما كان أعظم مفكر سياسي أمريكي في القرن العشرين» يقول فيما نحن بصدد: «يجب في رأبي أن نرفض القول بأن مبادئ الحرية والعدالة والحكم الصالح إنما تتمثل في حكم الأغلبية».

هنا يكمن أصل المسألة، لقد كان واشنطن يعتقد أن الشعب يجب أن يحكم، لكنه لم يكن يعتقد أنه بسبب حكم الشعب تتحقق الحرية ويتحقق العدل والحكم الصالح، كان يعتقد أن الشعب ذا السيادة لا يؤتمن - كما لم يؤتمن الملك ذو السيادة الذي كان هو (أي الشعب) خلفاً له - على السلطة المطلقة، إنه لم يخدع نفسه... إنه لم يكن يؤمن بما صار الآن الأيدولوجية الديمقراطية السائدة، إن كل ما رأته جماهير الناس أنها تريده فيجب أن يقبل على أنه الحقيقة.

لقد كان يعلم أنه لا ضمان من أن يتحول حكم الشعب إلى حكم قهري، تعسفي، فاسد، ظالم وغير حكيم، إن الشعب أيضاً يجب أن يكبح جماحه، إنه كغيره يجب أن يحاسب، إنهم كغيرهم يجب أن يعلموا، إنهم كغيرهم يجب أن يرفعوا فوق مستوى سلوكهم المعتاد. وإذا كان أولئك قد تكلموا عن الفساد السياسي، فإن الكاردينال الأسترالي جورج بل George Pell يتحدث عن فساد يخشى أن يكون استشرافه في الديمقراطيات الغربية سبباً لإقبال الناس على

الإسلام، الذي يرى أنه من حيث خطره على الحضارة الغربية هو شيوعية القرن الواحد والعشرين.

يقول هذا الكاردينال: «إن الديمقراطية الغربية الليبرالية فارغة وأنانية وأن الإسلام بدأ يظهر نظرة عالمية بديلة، إن الإسلام قد يكون في القرن العشرين جاذبًا للمغتربين Alienated والغاضبين من جانب، وأولئك الذين ينشدون النظام والعدل في الجانب الآخر»، ثم يتساءل: هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش ببلابين الدولارات، صناعة نامية بسرعة؟ هل تحتاج إلى معدل إجهاض يصل عشرات الملايين لتتصف بالديمقراطية؟

في كلام هؤلاء المفكرين الغربيين حقيقة مهمة يغفل عنها كثير من الناس فيخلطون بين كون القرار أو التصرف ديمقراطيًا، وكونه حسنًا قائمًا على مكارم الأخلاق، فيشككون في ديمقراطية كل قرار لا يرونه حسنًا، ويصفونه بأنه لا يتناسب مع الديمقراطية الحققة.

والحقيقة أنه لا علاقة بين الأمرين، فالقرار أو التصرف قد يكون خطأ وقد يكون إجرامًا وقد يكون ضارًا، ولكنه يكون مع ذلك ديمقراطيًا لا قدح في ديمقراطيته، لماذا؟ لأن الديمقراطية إنما هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم أفراد من الشعب حكّمهم الشعب في نفسه، أو حكّمتهم فيه قلة منهم، عن طريق الانتخابات، لكن حكم الحاكم إنما هو ثمرة علمه أو جهله، ومعاييره الخلقية حسنة كانت أو سيئة.

لماذا ننسى أن قرارات الدول الغربية بغزو شعوب العالم الضعيفة

واحتلال أراضيها واستغلال خيراتها كانت كلها قرارًا ديمقراطيًا؟ وأن خطف أمريكا للأبرياء من الأفارقة واسترقاقهم ومعاملتهم بأسوأ مما تعامل به الحيوانات كان قرارًا ديمقراطيًا؟ وأن قرار تحريرهم لم يكن قرارًا ديمقراطيًا، وإنما جاء نتيجة حرب بين من رأوا أنه يتعارض مع المبادئ الإنسانية، وبين الذين كانوا يرون الالتزام برأي الأغلبية مهما كان، كما أن قرار استحلال الزنا بين المتراضين أيا كان جنسهما هو قرار ديمقراطي؟ وأن قرار فرنسا بمنع الحجاب كان قرارًا ديمقراطيًا؟ وأن غزو أفغانستان ثم العراق كان قرارًا ديمقراطيًا.

قد يقال: ألا يكون الحكم الإسلامي أيضًا فاسدًا؟ كلا. لا يكون إسلاميًا حقًا وفسادًا، لماذا؟ لأن صلاحه شرط في إسلاميته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، فهو إسلامي بقدر قربه من الصلاح وغير إسلامي بقدر قربه من الفساد.

إذن فالفرق بين النظام الإسلامي والنظام الديمقراطي أن فساد النظام الديمقراطي راجع كثير منه إلى النظرية الديمقراطية، أما فساد النظام المنتسب إلى الإسلام فلا يرجع إلى الدين الإسلامي وإنما يرجع إلى التطبيق. السبب في هذا هو أنه بينما النظام الإسلامي هو حكم بنصوص أنزلها الله تعالى، أو باجتهادات بشرية مبنية على معايير أنزلها الله تعالى، فإن الديمقراطية هي حكم شعب من الشعوب، ولما كانت الشعوب متعددة ومختلفة، فإن قراراتها الديمقراطية لا بُدَّ أن تتعدد وتختلف، بل إن قرارات الشعب الواحد تختلف

بحسب ما يحدث فيه من تغيير على مر الأيام.

قد يقال: إن المؤمنين بالديمقراطية يستطيعون إصلاح هذا الخلل في نظريتهم فيضيفون إليها مبادئ تشرط في القرار الديمقراطي أن لا يتعارض مع القيم الخلقية المتفق عليها بين الناس كالصدق والأمانة والعدل، لكن مثل هذا التعديل الذي نادى به فعلاً بعض ذوي الرأي منهم يقضى على النظرية نفسها، لأن السؤال سيكون: من الذي يحق له أن يقول للناس إن قراركم ليس ديمقراطيًا إذا كان قرارًا اتخذوه بأغليتهم؟^(١).

فائدة: هل الوهابية هي جذور الإرهاب؟

كتبت جريدة الواشنطن بوست افتتاحية في عدد الخميس أول يوليو بعنوان (فرصة سعودية) تقول فيها: إن القضاء على الإرهاب لا يكون إلا بمعالجة جذوره، وأن هذه الجذور هي الوهابية! وإن هذه الوهابية المتطرفة هي التي تربي عليها الإسلاميون الراديكاليون، وإن على السعودية أن تبحث عن بديل لهذه الوهابية.

قلنا لهم مئات المرات: إنه ليس في الإسلام طائفة اسمها الوهابية، وأن الدولة السعودية ليست وهابية، ولكننا نعلم أنهم لا يعنون الوهابية بمعنى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وإنما يعنون بها أخذ الإسلام بجذوره وجعله

(١) هل يكون الحكم الديمقراطي فاسدًا؟ شبكة المشكاة الإسلامية، الثلاثاء ٢٩ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٥٤٦).

دينًا للدولة، ومحاولة تطبيق شرائعه من غير تحريف ولا تبديل، هذه هي الوهابية في نظرهم، فلنسايرهم على هذا المفهوم ونقول: إن المتطرفين والإرهابيين والراديكاليين كلهم تربوا على الوهابية، فهل يعني هذا بالضرورة أن الوهابية هي سبب تطرفهم أو إرهابهم؟ إذا كانت هي السبب فلماذا لم يكن تأثيرها على أكثر الناس علمًا بها وتربية عليها وهم العلماء وطلبة العلم؟ ولماذا لا تطبقون هذا المعيار نفسه على فكركم الذي يدرسه أبنائكم؟ فتقولون مثلاً: إنه هو الفكر الذي أنتج استعمارنا للشعوب، واسترقاقنا للأبرياء من السود، وسائر ما نعانیه من مشكلات وانحرافات؟ ولو قلمت هذا عن بعض أفكاركم لكتتم محقين.

وهب إن السعودية وسائر البلاد الإسلامية استمعت لكم وقلدتكم وصارت علمانية مثلكم، فهل تضمنون أن يجعلها هذا مناصرة لكم ومحافظة على مصالحكم؟ أليس في كثير من دول العالم العلمانية اليوم من يكره بعضهم بعضًا؟ لكن السبب الحقيقي لهذا العداء للإسلام باسم الوهابية هو داء قديم في قلوب الكافرين، إنهم من فرط كراهيتهم للحق يجعلونه السبب الأساسي لكل ما يصيب الناس من سوء في حياتهم، فهؤلاء قوم موسى إذا أنعم الله عليهم ببعض النعم عزوا ذلك إلى أنفسهم، وإذا حلت بهم مصائب عزوها إلى شؤم ما دعاهم إليه نبيهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُمُوعِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وسبب آخر: هو أن كثيرًا من الكافرين يسوؤهم أن يروا الناس مؤمنين مستقيمين ولا يقر لهم قرار حتى يروهم قد صاروا مثلهم في الكفر وارتكاب

المعاصي ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩] (١).

هائدة، نظرة دعاة التغريب إلى الغرب:

إن دعاة التغريب في بلادنا ينظرون إلى الغرب نظرة مثالية تغض الطرف عن كل ما يحدث فيه من مشكلات؛ لأنهم يخشون أن تكون معرفة تلك المشكلات صادة للناس عن السير في طريقه الذي هو مبتغاهم. وهذا - كما ترى - ليس من العقلانية، بل ولا من الأمانة في شيء.

إن غاية المواطن الأمين ينبغي أن تكون السعي لمصلحة بلده. والسعي للمصلحة يدخل فيه التحذير من الطرق التي تؤدي إلى الضرر؛ لكن إذا كان المستغربون عندنا يحاولون إخفاء هذه الحقائق، فما هكذا يفعل عقلاء المفكرين الغربيين الحريصين على مصالح مجتمعاتهم وأقوامهم.

إننا في العالم الإسلامي - كما هو الحال في بقية العالم - نسير في طريق الغرب في كثير من نواحي حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، سواء بضغط من الغرب نفسه، أو بتشجيع من أولئك المستغربين المبهورين به، أو لأسباب أخرى (٢).

(١) ودوا لو تكفرون كما كفروا، شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٠ محرم ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢٨ فبراير ٢٠٠٥ م، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٥١).

(٢) الانقراط العظيم، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٦).

فائدة: الاهتمام بما يحدث في الغرب من مشكلات هو اهتمام بمستقبلنا:

الاهتمام بما يحدث في الغرب من مشكلات هو اهتمام بمستقبلنا؛ لأن مشكلات الغرب الآتية هي مشكلاتنا المستقبلية إذا ظللنا نسير في طريقه غير معتبرين بمزقه، وإذا أردنا الاعتبار فإن مما يساعدنا عليه كثيرًا هو الحقائق التي ينشرها علماء الغرب ومفكروه أنفسهم. لكن استفادتنا من الحقائق لا تعني بالضرورة قبولنا لتفسيراتهم لها، ولا للحلول التي يقترحونها، نعم! قد نستفيد من تفسيراتهم ومن حلولهم؛ لكن يجب أن نفكر لأنفسنا فنجتهد في التفسير والحل مسترشدين بديننا ومعتبرين بما حدث لنا ولغيرنا في تاريخهم وتاريخنا (١).

فائدة: القيم ليست أمور نسبية:

لقد كان الرأي الشائع عند عامة المثقفين الغربيين، أن القيم أمور نسبية، وأنها تختلف لذلك من ثقافة إلى أخرى، ومن زمان إلى زمان، وإن كلاً منها مقبول في إطار الثقافة التي توجد فيها، والزمان أو المكان الذي توجد فيه؛ فلا مجال إذن للحكم عليها بالخيرية أو الشرية، ولا خوف إذن من تغييرها وتبدلها، ثم إنه تبين لبعض علماء الاجتماع والاقتصاد أن الصورة ليست كما يرسمها هذا الرأي الشائع؛ بل إن هنالك قيمًا لا بُدَّ منها لكل مجتمع بشري.

(١) الانفرط العظيم، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٠)، وانظر كتابي:

جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع،

الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٦).

لماذا؟ لأن الناس إذا اجتمعوا فإنما يجتمعون ليتعاونوا على تحقيق مصالحهم؛ لكن هذا التعاون لا يتأتى إلا بالتزام المجتمع ببعض القيم الخلقية، قيم الصدق في القول، والوفاء بالعهد، وحسن تبادل المنافع، وتوفير الثقة التي يقول فوكوياما عنها: إنها بمثابة الشحم الذي يجعل عجلة التجمعات والمنظمات البشرية تجري بطريقة أكثر كفاءة؛ فالقيم هذه ليست -إذن- أموراً نسيية ولا مجرد قيود تحكمية على الاختيارات الفردية؛ بل هي شرط سابق لأي عمل تحكمي، إنه لا بُدَّ لكل مجتمع من نظام سياسي ونظام اقتصادي، لكن النظم السياسية والاقتصادية لا تعمل ولا تنجح إلا في مجتمع متماسك، ولكي يتماسك المجتمع فإنه بحاجة إلى تلك القيم التي صار الاقتصاديون وعلماء الاجتماع يطلقون عليها اسم الرأسمال الاجتماعي^(١).

فائدة: أسباب تمزق المجتمعات الغربية كما يراها فوكوياما:

يبدأ الكاتب في شرحه للأسباب التي أدت إلى ذلك التمزق في المجتمعات الغربية بمقدمة منهجية معقولة هي: أنه ما دامت مظاهر هذا التمزق عامة في كل الدول الغربية الصناعية، وما دامت قد حدثت مجتمعة، وفي فترة زمنية محددة، فإن هذا يدعونا لأن نبحث لها عن أسباب في أمر أو أمور مشتركة بين هذه الأقطار، لا في الأسباب الخاصة ببعضها دون بعض. ويرى تبعاً لذلك أن السبب

(١) الانفراط العظيم، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٦).

الأساس لها كان تحولاً ثقافياً، تحولاً قيمياً تمثل في اشتداد النزعة الفردية، وأن أعظم ما أثرت فيه هذه النزعة الفردية هو العلاقات بين الجنسين، والأسرة على وجه الخصوص.

وإن مظاهر ذلك الانفراط أو التمزق نشأت كلها تقريباً عن التفكك الذي أصاب الأسرة، لكنه يعود فيقول: إن القول بأن عزو سبب الانفراط إلى تغير في الثقافة - في القيم - مصادرة على المطلوب؛ إذ إن السؤال ما يزال باقياً، لماذا حدث هذا التغير في القيم في كل هذه البلاد المتقدمة صناعياً، وفي فترة معينة من الزمان؟ ويعترف بأن التحولات القيمية لها أسباب كثيرة؛ لكنه يرى أن أهم أسبابها في هذه الفترة التي يدرسها أمران جاء بهما التطور العلمي، هما: حبوب منع الحمل، والإجهاض الآمن.

يقول: إن حبوب منع الحمل وتوفر الإجهاض أدنا للنساء - لأول مرة في التاريخ - بأن يتعاطين الجنس بلا خوف من العواقب، وأن هذا جعل الذكور يشعرون بالتححرر من القيم التي كانت تفرض عليهم مسؤولية العناية بالنساء اللاتي حملن منهم.

ويقول: إن الذي كان يمنع النساء من استبدال زوج يناسبهن مكان الزوج الذي يعشن معه، ويكتشفن أنه لا يناسبهن هو أنهن لم يكنن قادرات على الإنفاق على أنفسهن بسبب أنهن لم يكن يعملن، فلما عمل النساء وصارت دخولهن تزداد باطراد وجدن أنه بإمكانهن أن يربين أطفالهن من غير عون من الأزواج، لكن إنجاب الأطفال يقلل من فرص المرأة في العمل؛ فلكني تنجب المرأة فإما

أن لا تعمل إطلاقاً، وإما أن تتوقف عن العمل لفترات، فإذا كانت حريصة على العمل فإنها ستلجأ إلى الحد من الإنجاب، ثم إن قلة الأطفال تزيد بدورها من احتمالات الطلاق؛ لأن الأطفال هم (الرأس المال المشترك) بين الزوجين. ويقول: إن هناك دلائل تجريبية كثيرة تؤكد الصلة بين الدخل العالية للنساء وبين الطلاق والإنجاب خارج نطاق الزوجية، ثم إن ازدياد معدلات الطلاق يؤدي بدوره إلى عدم ثقة النساء باستمرار الحياة الزوجية، ويدفعهن إلى تأهيل أنفسهن للعمل، كي يضمنن مستقبلهن. ثم إن التحول من العصر الصناعي إلى عصر المعلومات زاد من فرص النساء في العمل؛ وذلك لأن الأعمال ذات الرواتب العالية لم تعد تلك التي تحتاج إلى جهد جسدي لا يقوى عليه إلا الرجال، بل تلك التي تحتاج إلى جهد عقلي، كالعمل في مجال الحاسوبات، وهو أمر ينافس فيه النساء الرجال^(١).

فائدة: الآثار الناتجة من تمزق المجتمعات الغربية كما يراها فوكوياما:

الجريمة وانحيار الأسرة وتناقص الثقة هي معايير سلبية لما سمي بالرأس المال الاجتماعي (معايير سلبية بمعنى أن زيادتها تدل على نقص في رأس المال هذا)، وكيف أثر ذلك التغيير في القيم على رأس المال الاجتماعي هذا؟ وكيف أثر في مقدرة الناس على الاجتماع لتحقيق غايات تعاونية؟ وكيف أثر

(١) الانقراط العظيم، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٠)، وانظر كتابي:

جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع،

الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٦).

على مستوى الثقة بينهم؟

يذكر الكاتب آثارًا نوجزها فيما يلي:

١- إن نصف السكان في أوروبا واليابان ستكون أعمارهم أكثر من خمسين عامًا في غضون العقدين القادمين، وسيؤدي هذا -بالإضافة إلى ما يصحبه من نقص في عدد السكان- إلى نقص في الدخل القومي، ثم يؤدي هذا كله إلى ضعف هذه الأقطار وقلة تأثيرها على المسرح العالمي.

٢- وأن الدول الاسكندنافية التي هي الأعلى في نسبة التفكك الأسري، هي الأعلى أيضًا في نسبة التوحده؛ إذ إن خمسين بالمائة من البيوت صارت تتكون من شخص واحد، بل إنه في مدينة أوسلو (عاصمة السويد) بلغت النسبة خمسًا وسبعين بالمئة!

٣- أثبتت كثير من الدراسات في الولايات المتحدة أن تأثير الأسرة والأقران على أداء الطلاب أعظم مرارًا من كل العوامل التي هي بيد السياسة التعليمية العامة كرواتب المدرسين، وأحجام الفصول الدراسية، والمصرف على التسهيلات الطلابية؛ لكنه يرى أن النساء لسن هن المسؤولات عن هذا، وأن الحل لا يكون بعدم خروجهن إلى مكان العمل، لكنه يرى في الوقت نفسه أن قائدات الحركة النسوية قد بالغن في إطراء عمل المرأة، وغفلن عن تأثيره على الأطفال، وهو تأثير لازم وواقع، وسيستمر كذلك حتى يتطور العلم فيريحهن من عبء الحمل والإنجاب!!

٤- إن ضرر الجريمة لا يقتصر على من يقع ضحية لها، بل يتعداه إلى

المجتمع كله؛ وذلك أن انتشار الجريمة يقلل من ثقة الناس بعضهم ببعض، ويعوق أو يحول دون تعاونهم؛ بل إن الجريمة لتؤدي إلى جعل المجتمع مجتمعًا ذريًا يحصر كل إنسان فيه اهتمامه في نفسه وفي أقرب الناس إليه. من ذلك -مثلًا- أن الجيران كانوا يتعاونون جميعًا على تربية أولادهم، وأما الآن -وبعد أن كثر الاعتداء على الأطفال- فإذا رأى والد شخصًا يؤنب ولده فلاحتمال الأقرب أن يتصل بالشرطة^(١).

فائدة: سبب تخوف فوكوياما على المجتمعات الليبرالية في الغرب:

يتخوف فوكوياما على المجتمعات الليبرالية السائدة في الغرب الآن؛

وذلك لسببين:

أولهما: القيم الخلقية الوحيدة التي تقدمها الليبرالية للمجتمع هي قيم التسامح والاحترام المتبادل، لكن حين تتحول هذه القيم إلى عودة إلى التعدد الثقافي بدلًا من التسامح معه، وحين تصل النسبية الخلقية إلى غايتها، فإن الليبرالية تكون قد بدأت تتسبب في انهيار الأرض التي تقف عليها.

وثانيهما: أن التطور قد يجعل الالتزام ببعض القيم عسيرًا مع أنها لازمة للمجتمع، فإذا ما تسارع هذا التطور لم يعط الناس فرصة للتكيف، فتكون النتيجة تأثيرًا سيئًا على المجتمعات، ونختم نحن تعليقنا بتكرار القول بأن في

(١) الانقراض العظيم، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٦).

الحقائق التي ذكرها الكاتب ما يؤكد أن علة العلل بالنسبة للمجتمعات الغربية ليست في التطور التقني متسارعاً كان أم متباطئاً، وإنما هي في بعدهم عن الدين الحق الذي يمددهم بالقيم الفاضلة، واستعاضتهم عنه بأفكار قد ثبت الآن بطلانها وعمقها الخلقي.

وعليه، فلا حل لمشكلة التدهور الخلقي الذي صحب التطور العلمي والتقني إلا في الاستمسك بدين لا تتناقض مقرراته مع الحقائق العلمية ولا تتنافى مع القوانين المنطقية، والله الهادي إلى سواء السبيل^(١).

فائدة: ليس من حق منظمة الأمم أن تصدر قرارات في مسائل تتعلق

بالمعتقدات والقيم التي يختلف فيها الناس اختلافاً كبيراً،

وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إنه بما أن الدول المكونة للأمم المتحدة يختلف كثير منها ذلك الاختلاف الكبير في المعتقدات والقيم؛ فإنه لا يمكن لهؤلاء الأعضاء أن يستمروا متعاونين لمواجهة المشكلات التي تهمهم جميعاً، إلا إذا كانوا مستعدين لأن يتعايشوا ويتحمل بعضهم بعضاً رغم هذه الخلافات. إن التغيير في هذه المسائل الجوهرية الأصولية لا يأتي إن أتى - وسواء كان إتيانه إلى خير أو إلى شر - إلا بالتدرج وبالطرق السليمة. لكن الذي نراه الآن هو أن بعض

(١) الانفراط العظيم، كتاب الإسلام نعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٦).

الجماعات الغربية تريد أن تستغل المنظمات العالمية لكي تفرض معتقداتها وقيمها على المجتمعات الأخرى.

وقلت: إنني موقن بأن بعض الدول - ومنها الدول الإسلامية - لن تنفذ هذه القرارات، وأن هذا سيؤدي إلى عدم احترام قرارات الأمم المتحدة، وربما أدى في النهاية إلى إضعاف المؤسسة وعدم فعاليتها. إننا - نحن المسلمين - مثلاً لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من الأمم المتحدة أو غيرها من المنظمات، ولا نعدّها مصدرًا مشروعًا لها، وإنما نأخذها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والغريب الذي لا يعلمه كثير من الناس أن موقف أمريكا شبيه بموقفنا الإسلامي هذا؛ فالدستور الأمريكي والقوانين الأمريكية هي عند الأمريكيان فوق كل ما سواها من قرارات واتفاقات، فلا شيء من هذا يصير ملزمًا قانونًا إلا إذا أجازته الهيئة التشريعية، وهي لا تملك أن تجيز أمرًا مخالفًا للدستور.

ولذلك فإن وزيرة الخارجية الأمريكية اعتذرت في خطابها بهيئة الأمم بهذه المناسبة بأن بلدها لم يستطع إجازة مقررات (بيجن) بسبب معارضة بعض الشيوخ! ونحن نضع كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ فوق كل قانون وكل قرار وكل اتفاق، بل ونفسر ما نوافق عليه منها في حدود هذا القانون الأعلى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَأَتُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿وَمَا ءَأْتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ثانيًا: إن إعلان حقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة يعطي الناس حق الحرية الدينية؛ فماذا يبقى للناس من هذه الحرية إذا أعطت الأمم المتحدة نفسها

الحق في أن تفرض عليهم كيف يفهمون دينهم، وماذا يأخذون منه وماذا يدعون، وإلا كانوا معرضين للعقوبات؛ إن المسلم لا يظل مسلمًا إذا هو أباح ما حرم الله تعالى، وإن من أشد المحرمات في دين الله جرائم الزنا وعمل قوم لوط. فكأن الأمم المتحدة تطلب من المسلمين إذن أن يتخلوا عن دينهم!! كيف يستقيم هذا مع اعتبار الحرية الدينية حقًا من الحقوق الإنسانية التي تدافع عنها الأمم المتحدة؟ إن الدين في المفهوم الإسلامي هو منهاج الحياة الذي يختاره الناس لأنفسهم، سواء كان هذا المنهاج قائمًا على أسس من دين أنزله الله تعالى، أو كان شيئًا اختاره الناس وتصالحوا عليه. فما يسمى بالعلمانية هو بهذا الاعتبار دين، وقرارات (بيجن) هي أيضًا دين. فإذا فرضتها الأمم المتحدة على الشعوب تكون قد أكرهتهم على الالتزام بدين لا يؤمنون به؛ فأين حرية الدين إذن؟

ثالثًا: ماذا يبقى للدول من سيادة قومية إذا كانت قرارات الأمم المتحدة ستكون فوق ما تقرره الشعوب في أوطانها، حتى لو كانت قراراتها صادرة عن هيئات تشريعية كتلك التي توجد في البلاد الغربية؟ لكن الواقع أن هذا التطاول على السيادة القومية لن يُمارَس إلا على الشعوب الفقيرة والضعيفة. أما الشعوب الغنية والقوية فلن يجروا على مساوماتها أو محاسبتها أو معاقبتها أحد. وهذا يعني أن ما تقرره أو ترضى عنه الشعوب في الدول القوية هو الذي يفرض عن طريق الهيئات العالمية على الشعوب الفقيرة. هذا على افتراض أن الشعوب هي فعلاً التي تقرر.

أما في الواقع الذي نراه فإن شعوب تلك البلاد هي نفسها مُستغلة ومُسخرَة

لأهواء جماعات أقلية غنية نشطة. إذا كانت الحكومة القطرية تحدد صلاحيات الحكومة الفدرالية أو المركزية وصلاحيات حكومات الولايات أو الإمارات؛ بحيث لا يجور بعضها على بعض، أفلا يكون من العدل أن تحدد صلاحيات منظمة الأمم المتحدة، وصلاحيات الحكومات القطرية المكونة لها؟^(١)

فائدة: الحضارة الغربية ودعوى الحرية:

الحضارة الغربية حضارة يبوء كاهلها بالمتناقضات، تناقض في الأفكار، وتناقض في القيم، وتناقض في المواقف، وتناقض بين الأقوال والأفعال. لكنها رغم ذلك كله هي الحضارة السائدة التي يعدها أهلها ويعدها بقية العالم -إلا من رحم ربك- حضارة العصر، الحضارة التي يجب أن يحذو حذوها كل من يريد أن يتبوأ مكانة محترمة، بل وحتى مقبولة في هذا العصر، وإلا كان فيه بجسده وخارجه بروحه وفكره.

ولعل من أبرز أنواع التناقض بين أقوال هذه الحضارة وأفعالها، تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخلقية، وتجربتها السياسية، ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها، بكونه انتهاكاً للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شئت من تهم جائرة، بل -وأحياناً-

(١) الأمم المتحدة ما حدود صلاحياتها؟ كتاب الإسلام نعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٨١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٦).

أقوال أفكّة. المتعصبون من أهل الحضارة الغربية ضد ثقافات الأمم الأخرى -وما كلهم كذلك- مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية الأمم، ويحدد على أساسه استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاققة والإعنات.

وقد عبر عن شيء من هذا مندوب -أو مندوبة- باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة. قالت لهم المندوبة كلامًا نقلته بعض الصحف الأمريكية فعواها: أن مشكلة المرأة في باكستان أن تشرب ماء نقيًا، لا أن تتزوج امرأة مثلها، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال. ومن مظاهر الهيمنة الثقافية في اجتماع الأمم المتحدة أن المنظمات غير الحكومية التي شاركت فيه، كان أعلاها صوتًا -وربما أكثرها عددًا- المنظمات الآتية من البلاد الغربية. وحتى التي أتت من البلاد غير الغربية كان كثير منها -إن لم يكن معظمها- من الجماعات الدائرة في فلك المنظمات الغربية، بل ربما كان بعضها مجرد صدى لها. كان منها مثلًا منظمة من بلد من أكثر البلاد الأفريقية فقرًا وجوعًا، لكن مستوى أدائه في الدعاية للقيم الغربية كان مضاهيا لأغنى المنظمات الغربية.

ومن مظاهرها أن اللغة المسيطرة على الاجتماع كله كانت اللغة الإنجليزية؛ فالذي لا يعرفها لا يستطيع أن يشارك مشاركة فعالة.

ومن مظاهرها أن كبار المتحدثات كن من الشخصيات الأمريكية المرموقة؛ فقد تحدثت في اجتماع المنظمات غير الحكومية سيدة أمريكا الأولى، وخاطبت الجمعية العمومية وزيرة خارجيتها، وكان معظم المتحدثين والمتحدثات غير الغربيين من أبناء الغرب، حتى إن عدد المتحدثين والمتحدثات من بلد أفريقي غير الذي ذكرت آنفاً لم يكن متناسباً قط لا مع أهميته ولا مع حجمه.

والقضايا التي أثيرت ونالت اهتماماً كبيراً كانت هي القضايا التي يهتم بها الغرب، إما لأنها من القضايا التي تشغل بال الناس فيه، أو لأنها مما يعترض عليه الغرب في ثقافات الآخرين، من ذلك قضية ختان البنات، التي حولها الكتاب والساسة الغربيون وأتباعهم من المستغربين إلى قضية كبرى تكاد تكون من أهم معاييرهم للولاء والبراء.

وهذا يقودنا إلى كتاب الرائدة الأنثوية الذي أسمته (المرأة كاملة)، أو (المرأة بأكملها The Whole Woman). تعرضت المؤلفة فيه لقضية الختان هذه، فذكرت أنها كانت ومازالت معترضة على ختان النساء، لكنها بعد أن سافرت واتصلت بالثقافات الأخرى، تبين لها أن اهتمام الغرب به هو تعبير عن احتقاره للثقافات غير الغربية. واستدلت على ذلك بأدلة لا تخلو من طرافة.

-منها أنه لا فرق بين ختان الرجال وختان النساء، لكننا لا نعترض على الأول ولا نثير حوله زوبعة؛ لأنه يمارس في الغرب.

-ومنها أن النساء في الغرب يجريين عمليات جراحية تجميلية هي أشد غرابة من الختان، من ذلك العمليات التي يجريها بعض النساء لتصغير أئدائهن.

قالت: إنها عندما ذكرت هذا لبعض النساء السودانيات كان استغرابهن له كاستغرابنا للختان، وأنها تعلمت منهن أن الختان أنواع، وأن منه ما لا ضرر فيه، وأنه لا يؤثر على الاستمتاع الجنسي، وأنه ليس أمراً يفرضه الرجال على النساء كما نظن في الغرب.

- ومنها أن بعض الناس في الغرب يعشقون ألسنتهم ليدخلوا فيها نوعاً من الحلق، كالذي يدخل في الأذان. بل إن منهم من يفعل ذلك لعضو الرجل! لنفترض أن الحديث كان عن أسوأ أنواع الختان، وهو مضر ما في ذلك شك. لكن أهو أضر من هذا الذي ذكرته الكاتبة؟ أهو أضر من شرب الخمر الذي يموت بسببه المئات بل ربما الآلاف في الغرب في ليلة واحدة هي ليلة عيد الميلاد؟ أهو أضر من حمل السلاح الذي يرخص به القانون الأمريكي، والذي يقتل بسببه عدد من الأبرياء - وأحياناً حتى الأطفال - في كل يوم وليلة؟ أهو أضر من الجمع بين السكر وحمل هذا السلاح؟ أهو أضر من السفور، وما ينتج عنه من أنواع الاغتصاب؟ أهو أضر من الزنا واللواط الذي تحله القوانين الغربية والذي كان سبباً في مرض الإيدز وأمراض أخرى جسدية ونفسية؟ أهو أضر من التدخين الذي صار من أسباب الموت الأولى في البلاد الغربية، والذي لا مسوغ لإباحته إلا استفادة بعض الشركات منه، كاستفادة أخرى من إباحة حمل السلاح؟ كلا، والله.

ولكن الأمر كما قال ربنا: ﴿فَاتِّبَاهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، إن قوة الغرب المادية صارت فتنة تعمى الناس - ومنهم

منتسبون إلى الإسلام - عن رؤية عيوبه وشروبه، كما أن ضعف المسلمين صار فتنه تصد الناس عن رؤية ما عندهم من خير وعن قبوله. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥] (١).

فائدة: متى تقوم هيئة الأمم بدورها المنوط بها:

بما أن المسلمين أمة عظيمة من الأمم التي تسكن كرتنا الأرضية، فإنه يهملها أن تعيش في سلام مع غيرها من الأمم، وأن تشاركها وتتعاون معها في الرقي بالمجتمع الإنساني، وفي البحث عن حلول للمشكلات التي تواجهنا جميعاً، طبيعياً كانت أم سياسية أم اجتماعية، وهيئة الأمم المتحدة منبر من أحسن المنابر لتحقيق ذلك. لكننا نرى أن استمرار منظمة هيئة في أداء مهمتها العظيمة رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها، وقيمها وخصوصياتها، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، والألّا تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها، وقمع المخالفين لها.

وعليه، فإننا نود أن نؤكد باعتبارنا أمة إسلامية أننا لا نأخذ معتقداتنا وقيمنا من مصادر غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن هذين المصدرين الإسلاميين يمثلان قانوننا الأعلى الذي نحكم به على غيرهما، فنرفض ما

(١) الحضارة الغربية، ضجة عن الحرية وممارسة للمهمنة الثقافية، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٨٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٧٥٦).

يتناقض معه، ونفسر في نطاقه ما نراه موافقاً له. وكما أن هذا الموقف مقتضى ديننا فهو أيضاً مقتضى حرية الدين التي وردت في الإعلان العالمي للمحقوق الإنسانية؛ إذ إن هذه الحرية لن يكون لها معنى بالنسبة لنا إذا كان غيرنا هو الذي يفرض علينا كيف نفهم ديننا، وماذا نأخذ منه وماذا ندع، ثم يعاقبنا إذا نحن لم نلتزم بما أمرنا به!.

في ضوء ما سبق، نقرر رفضنا القاطع لبعض ما ورد في مقررات مؤتمر بكين متعلقاً بالعلاقة الجنسية، ونرى فيه دعوة إلى الإباحية التي لن ينتج عنها إلا مزيد من التفسخ الخلقي، والتفكك الأسري، وانتشار الأمراض التناسلية، وتعزيز النزعة الفردية، وما يتبع ذلك كله من زيادة في الجريمة، وتهديد لأمن المواطنين وسلامتهم، لكننا نقر مع ذلك أن المرأة تعاني عالمياً من ظلم يجب أن يرفع عنها، ومن فقر يجب أن يزال، وأن هذا إنما يكون بالتعاون بين الجنسين باعتبارهما مخلوقين بشريين تحركهما الحجج العلمية والدوافع الخلقية، ولن يتحقق أبداً بإثارة جنس على جنس، بل يُخشى أن تؤدي مثل هذه الإثارة إلى صراع تكون المرأة في نهايته هي الخاسرة.

ويسرنا أن نشارك غيرنا من شعوب العالم في حل هذه المشكلات مهتدين بديننا وتجاربنا وتاريخنا، ومستفيدين كذلك من فكر غيرنا وتجربته وتاريخه.

وعليه، فإننا في مجال إزالة الفقر ندعو دول العالم وأفراده إلى أن يطبقوا فريضة الزكاة الإسلامية، ولو فعلوا لما بقي على وجه الأرض فقير ذكراً كان أم أنثى. كيف لا، وهي ضريبة سنوية مقدارها ٢.٥٪ من رأس المال، تؤخذ من

الأغنياء وتوزع على الفقراء، وأن يطبقوا المبدأ الإسلامي الذي يجعل من حق كل إنسان أن يعيش حياة كريمة ما دام المجتمع قادرًا على ذلك، ونضم صوتنا إلى المنادين بإزالة الآثار السلبية للعولمة وما ينتج عنها من زيادة فقر الفقراء، واستغلال عمل النساء. ونرى مع غيرنا أن مما يساعد على تخفيف الفقر عن البلاد النامية أن ترفع عنها الفوائد الربوية على الديون التي تقترضها من الدول الغنية؛ فإن هذه الفوائد قد صارت عائقًا لهذه الأمم عن كل نمو اقتصادي.

وفي مجال التعليم: نرى أن يشمل التربية الخلقية التي تغرس في المرأة الاعتزاز بما ميزها الله به، وترضى به، ولا تحاول أن تلهث وراء تقليد الرجال ومنافستهم فيما ميزهم الله به ﴿وَلَا تَدْمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]، وأن يفهم ما يمتاز به كل من الجنسين بأنه وسيلة للتعاون بينهما، وتكميل للواحد منهما بالآخر، وعون على بناء الأسرة واستقرارها، وتحقيق لمصلحة الأولاد.

وفي مجال الموازنة بين عمل المرأة خارج بيتها وبين واجباتها الأسرية: نرى أن يطبق المبدأ الإسلامي الذي يلزم الرجل بالنفقة على زوجته وأسرته، ويجعل ذلك حقًا لهم، وأن تعين الدولة كل امرأة تفضل البقاء في بيتها لتربية أولادها وإعانة زوجها، إن عمل المرأة خارج بيتها ينبغي أن يُنظر إليه على أنه ضرورة اقتصادية لا أمر يقتضيه تكريم المرأة واحترامها^(١).

(١) هيئة الأمم، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٧٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٦).

فائدة: دعوى أن العلمانية محايدة لكل الأديان،

أصبحت قضية فصل الدين عن الدولة، أو ما يسميه الغربيون فصل الدولة عن الكنيسة، من القضايا المسلّم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية. ودعاة فصل الدين عن الدولة قد يعترفون بأن هذا أمر حدث لظروف تاريخية خاصة بالحضارة الغربية، وبالديانة النصرانية؛ لكنهم مع ذلك يرون أنه أصبح أمرًا لازمًا لكل دولة حديثة، ويسوّغون هذا بأن الأساس في الدولة الحديثة هو المواطنة، وما دام المواطنون في الدولة الواحدة لا ينتمون في الغالب إلى دين واحد، بل تتقاسمهم أديان متعددة، وقد يكون بعضهم ملحّدًا لا يؤمن بدين؛ ففي التزام الدولة بدين واحد من هذه الأديان افتتات على حقوق المواطنين المتممين إلى الأديان الأخرى أو المنكرين لها كلها لأنه:

- يفرض عليهم دينًا لا يؤمنون به.

- ويحرمهم من ممارسة الدين الذي اختاروه إما كله أو بعضه.

- ويحرمهم من حقهم في شغل بعض الوظائف الكبيرة كرئاسة الدولة، وقد يكون سببًا لخلافات ونزاعات عميقة تفقد الدولة معها الاستقرار اللازم لتطورها. ويرون لذلك أن تكون الدولة دولة علمانية محايدة لا تلتزم بالدين ولا تحاربه ولا تنكره، بل تترك أمره للمواطنين يختارون ما شاؤوا من عقائد، ويلتزمون بما يريدون من قيم، ويمارسون ما يروق لهم من عبادات.

هذه الصورة للعلمانية التي حرصت على أن أجعلها براءة كأشد ما يريد

المدافعون عنها أن تكون، تنطوي على افتراضات هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. ومن ذلك:

أولاً: أنها تفترض أن العلمانية يمكن أن تكون محايدة بالنسبة لكل الأديان؛ لكنها لا تكون كذلك إلا إذا كان مجال الدين مختلفاً عن مجال الدولة، أي إذا كان الدين والدولة يعيشان في منطقتين مستقلتين لا تماس بينهما، وأن دعاة الدولة الدينية يقحمون الدين في مجال غير مجاله، ولذلك يضرون به وبالدولة. فهل هذا الافتراض صحيح؟ إنه لا يكون صحيحاً إلا إذا كان الدين محصوراً بطبعه في بعض المعتقدات وبعض الشعائر التعبدية، وبعض أنواع السلوك الشخصي الذي لا علاقة له بالجماعة، ولا يدخل لذلك في مجال الدولة، لكن الواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على أي من الأديان الكبيرة المشهورة اليهودية والنصرانية والإسلام؛ فما منها إلا وله حكم في العلاقات بين الجنسين، وفي العلاقات الأسرية، والاجتماعية، وفيما يحل أكله وشربه، وما يحرم، وهكذا. وكلها أمور تدخل بالضرورة في مجال الدولة.

كيف حل الغربيون هذا الإشكال؟ حلوه بنوع من المساومة: فهم قد أخذوا بعض القيم النصرانية وجعلوها قوانين للدولة، وهم يجعلون اعتباراً كبيراً لقيمهم الدينية في سياستهم الخارجية، ولا سيما في معاملة الإسلام، لكنهم في الجانب الآخر تركوا أشياء من دينهم، وساعدهم على ذلك تاريخهم المليء بتحريف الدين إما في نصوصه أو في تأويله، ثم جاءت في العصور الأخيرة حركات فكرية تحررية أذاعت القول بأن ما يسمى بالكتاب المقدس ليس كلام

الله تعالى، وأنه من كتابة بشر عاديين تأثروا بالجو الثقافي في المرحلة التاريخية التي عاشوا فيها، ولذلك فإن ما قرره هذا الكتاب في مسائل مثل الشذوذ الجنسي ينبغي ألا ينظر إليها إلا على أنها قيم مجتمعات سابقة.

هذا كلام لا يقوله السياسيون والحكام فحسب، وإنما يقوله كثير من رجال الدين، والمختصين بدراسته، لكن حتى هؤلاء المتحررون يشعرون الكثيرون منهم الآن أن العلمانية لم تعد محايدة بين الأديان، بل صارت هي نفسها ديناً يدافع عنه أصحابه ويحاربون به النصرانية.

وأذكر أن أحدهم قال لي في أحد المؤتمرات ناصحاً: لا تُخَدَعُوا كما خُدَعْنَا، فتظنوا أن العلمانية موقف محايد؛ بل هي الآن دين، أو كما قال ذلك الناصح^(١).

فائدة: موقف المسلمين من العلمانية:

لا خيار لهم بين الحكم بما أنزل الله ورفض العلمانية، أو الحكم بالعلمانية والكفر بما أنزل الله تعالى، إن أكثر ما يتعلل به دعاة العلمانية في بلادنا هو اختلاف الأديان في البلد الواحد. يقولون: بأي حق تفرض على أناس ديناً غير دينهم، وقيماً ليست قيماً لهم؟ ماذا إذا لم يكن في البلد إلا مسلمون، أو كان غير المسلمين أفراداً قلائل؟ لماذا يفصل هؤلاء بين دينهم ودولتهم؟ وحتى

(١) فصل الدين عن الدولة، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٧).

لو كان المتسبون إلى غير الإسلام من أصحاب الديانات الأخرى يمثلون نسبةً كثيرة، فإن العلمانية ليست هي الحل العادل؛ لأن أصحاب هذه الديانات إما أن يكونوا في السياسة علمانيين، وإما أن يكونوا ممن يريد للدولة أن تستمسك بعقائده وقيمه وتدافع عنها.

فإذا كان من الفريق الأول يكون المسلمون قد تنازلوا عن دينهم بينما هو لم يتنازل عن شيء؛ لأن العلمانية هي مبدؤه سواء كان هنالك مسلمون أو لم يكن.

أذكر أنني قلت ذات مرة لبعض الجنوبيين المثقفين عندنا في السودان: إنكم لا تعترضون على الحكم إذا كان اشتراكياً كما كان الحال في أوائل حكم الرئيس نميري، ولا تعترضون عليه إذا أقر الرأسمالية أو الليبرالية؛ لأنكم تعتقدون أن الدين لا دخل له بهذه المسائل، فلماذا إذن تعترضون على الحكم الإسلامي؟ إن الإسلام لا يفرض عليكم ديناً بالمعنى الذي حصرتم الدين فيه، أعني العبادات والأحوال الشخصية، فلماذا لا تعاملون جانبه السياسي معاملتكم للاشتراكية والرأسمالية؛ لأنه يعطيكم أكثر مما تعطىكم إياه العلمانية؟ يقول أنصار العلمانية في الغرب وفي البلاد الإسلامية: إن هذا قد يكون صحيحاً؛ لكنكم في الحكم الإسلامي تفرقون بين الناس بسبب دينهم، فتمنعون غير المسلم من أن يكون رأس دولة.

وأقول لهم دائماً: ولكن العلمانية هي الأخرى تفعل ما نفعل، إنها تشترط على الإنسان أن يكون علمانياً لكي يكون رأس دولة، تشترط عليه أن يؤدي

المقسم للولاء لدستور يفصل الدين عن الدولة، أي أنها تشترط على المسلم أن يعلن كفره بجزء من دينه، وإذا فعل هذا عن اعتقاد كان كافرًا خارجًا عن الإسلام، وإذن فكما أن الإسلام يشترط في رأس الدولة المسلمة أن يكون دائمًا بدين الإسلام؛ فإن العلمانية تشترط في رئيس دولتها أن يكون دائمًا بدينها، فما الفرق؟ يقولون: لكن العلمانية ليست دينًا. ونقول هذا في مفهومكم أنتم. أما في لغتنا العربية، وديننا الإسلامي، فإن كل ما يلتزم به الإنسان من عادات وتقاليد، ومن باب أولى من قيم وعقائد، هو دينه، سواء كان مبنياً على إيمان بالله أو كفر به، ألم تسمع قول الشاعر العربي عن ناقته:

إذا ما قمت أرحلها بليل	تأوه أهة الرجل الحزين
تقول إذا شددت لها وضيئي	أهذا دينه أبداً وديني؟
أكل الدهر حل وارتحال؟	أما يبقى علي وما يقيني؟

فإذا كان دوام الحل والارتحال دينًا فما بالك باعتياد معتقدات وقيم وسلوك؟ ألم يقل الله تعالى عن سيدنا يوسف: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]. يعني ما نسميه نحن الآن بقانونه؟ العلمانية ليست إذن حلاً لبلد يكون فيه المسلمون أغلبية، بل ولا حتى أقلية معتبرة؛ إذ إن ما تطلبه العلمانية من المسلمين إنما هو التخلي عن دينهم من أجل دين العلمانيين^(١).

(١) فصل الدين عن الدولة، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٧٧).

نظرية النسبية في الفلسفة والعلوم والأخلاق:

هذه نظرية قديمة حديثة، أول من تنسب إليه في تاريخ الفكر الغربي بروتوجراس اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد. ويقول بها مفكرون غربيون معاصرون ولا سيَّما المختصين منهم بعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا. وفحوى هذه النظرية هو: أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر، بل إن هذه الأحكام أحكام نسبية. ولكن نسبة إلى ماذا؟ هنا يختلف القائلون بهذه النسبية؛ فالغلاة منهم ينسبونها إلى الأفراد، أي إن ما يراه زيد حقًا أو خيرًا فهو حق أو خير بالنسبة له، وإن خالفه في ذلك عمرو وغيره من الناس.

ويرى بعضهم أنها تنسب إلى ثقافة كل مجتمع، والثقافة Culture عندهم هي منهاج حياة مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من تاريخه، وهي تشمل معتقداته، وأنواع سلوكه، ولغته، وتشمل كذلك عاداته وتقاليده وفنونه ومخترعاته وتقنيته وتراثه؛ فما يراه أصحاب كل ثقافة حقًا أو خيرًا فهو حق أو خير بالنسبة لثقافتهم هذه؛ لأنه ليس هنالك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس.

يقول أحدهم: «كل ما كان من أعراف وعادات زمان ومكان معين فله ما يسوغه في ذلك الزمان والمكان»، وتقول عالمة اجتماع أخرى: «إن معظم المجتمعات البشرية تسلك طرقًا مختلفة طلبًا لغايات مختلفة؛ فلا يمكن الحكم على وسيلة منها أو غاية بمقاييس مجتمع آخر؛ لأنها غير قابلة للموازنة».

فليس هنالك إذن معيار عالمي تقاس به الثقافات، فيُصَوَّبُ بعضٌ أو يُخَطَّأُ بعضٌ، أو يفضل بعض على بعض. وعليه يقولون فلا يحق لأصحاب ثقافة ما أن يحكموا على الثقافات الأخرى بمعايير ثقافتهم؛ بل إن النظرة العلمية المحايدة تقتضي أن تقوم كل ثقافة تقويمًا داخليًا بمعاييرها هي لا بمعايير أجنبية عنها. فإذا كان الإسكيمو مثلًا يرون أنه من الكرم أن يُعير الزوج زوجته لغيره، وإذا كانت بعض المجتمعات تقتل الأولاد في المهد، أو تقتل كبار السن؛ لأنهم لا ينتجون، فبأي معيار ننكر عليهم أعمالهم هذه؟

يلاحظ على هذه النظرية ما يلي:

أولاً: كونها من النوع الذي يقال عنه إنه ينقض نفسه؛ لأنه إذا كان كل حكم بالصحة أو البطلان وبالخيرية والشرية إنما هو حكم ذاتي أو ثقافي؛ فإن القول بهذه النظرية هو نفسه حكم ذاتي، أو من إملاء ثقافة معينة، فبأي حق يقال إنه حقيقة عالمية يجب على الناس مراعاتها كما هو ظاهر قول دعائها؟

ثانياً: أن هنالك قيمًا خلقية وأنماط سلوك مشتركة بين الناس جميعًا رغم اختلاف ثقافتهم وأزمانهم وأماكنهم، كما اكتشف ذلك بعض علماء الأنثروبولوجيا أنفسهم. ويمثلون لهذه القيم باعتبار الكذب والقتل وغشيان المحارم وعدم العدل في المعاملة من الرذائل في كل المجتمعات.

ثالثاً: أن عدم اتفاق الناس جميعًا على معايير للأخلاق وللصدق لا يعني أنه ليست هنالك معايير؛ فوجود المعيار شيء والاتفاق عليه شيء آخر. رابعاً: أنه ما من أصحاب ثقافة إلا وهم يحاولون تسويغ قيمهم وسلوكهم

بمسوغات مستندة إلى معايير، لا أحد منهم يقول: هذا ما نراه وهو حق أو خير لأننا نراه حقًا أو خيرًا، بل يحاولون تسويغه استنادًا إلى معايير قد يمكن مناقشتهم فيها وبيان خطئهم فيها استنادًا إلى معايير عقلانية يشتركون فيها مع سائر آدميين.

خذ وأد البنات عند عرب الجاهلية مثلًا، لقد كانوا يفعلون هذا بحجة خشية الإملاق كما ذكر القرآن الكريم؛ وهم كانوا مع ذلك يؤمنون بالخالق سبحانه، ولذلك أمكن أن يُناقشوا وأن يتغير موقفهم بعد أن أسلموا وحسنت بالله معرفتهم.

خامسًا: أن الواقع المحسوس الذي يؤمن بشهادته كل البشر يدل على كون الشيء حقًا أو باطلًا ليس بالأمر الذي تقررره الأهواء الفردية أو الثقافية. لا يقول آدمي عاقل مهما كانت ثقافته إن طلوع الشمس مثلًا أمر نسبي؛ فهي طالعة بالنسبة لبعض غائبة بالنسبة لآخرين في نفس الوقت ونفس المكان.

سادسًا: حتى لو قلنا بالنسبية فلماذا تكون النسبة إلى أهواء الأفراد وإلى الثقافات؟ لماذا لا تكون إلى أمور يشترك فيها البشر، شهادة الحس، الأدلة العقلية، أو حتى بعض المسوغات الباطلة التي يمكن مناقشة الناس فيها كما ذكرنا في المسألة الرابعة؟

سابعًا: إن البشر كائنات اجتماعية، وهم لا يستطيعون أن يكونوا مجتمعًا متعاونًا مترابطًا إلا بقيم معينة مثل تلك التي ذكرناها آنفًا والتي صار بعض من علماء الاقتصاد والاجتماع يسميها لذلك بالرأسمال الاجتماعي، فالمجتمع

كلما كان رأسماله منها كبيراً كان أكثر تماسكاً واستطاع أن يحقق من أهدافه الاقتصادية والسياسية ما لا يحققه مجتمع تفكك بسبب قلة نصيبه من رأس المال هذا. لكن النسبية برغم بطلانها هذا تنتشر الآن في الغرب، وفي أوساط الشباب خاصة انتشاراً مريضاً كما تذكر المراجع، وكما سمعنا من شبابنا الذين يدرسون معهم في جامعاتهم.

لقد صاروا يعتقدون أن مسائل الأخلاق والأديان كالمسائل الذوقية التي يختلف فيها الناس اختلافاً يرجع إلى أمرتهم؛ لأنه ليس هنالك من معيار موضوعي لها. وربما كان هذا الإيمان بالنسبية رد فعل للتعصب المقيت الذي كان وما يزال سائداً في بعض الأوساط الغربية التي تجعل من ثقافتها المعيار الوحيد الذي تقاس به أديان الآخرين وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فما اقترب منها إليهم كان أقرب إلى الحق والخير، وما بعد عنها كان عنهما أبعد.

والحقيقة أن العالم الإسلامي، بل كل العالم قد عانى من أمثال هؤلاء، ولا سيما السياسيين منهم، ما لم يعان من القائلين بالنسبية؛ وذلك لأن القول بالنسبية وإن كان باطلاً ينتج عنه عادة نوع من التسامح مع المخالف^(١).

هائدة: تأثر المسلمين بنظرية النسبية في الفلسفة والعلوم والأخلاق؛

النسبية داء من أدواء الحضارة الغربية، وقد انتقل هذا الداء، كما انتقل غيره من الأدواء، إلى كثير من مثقفينا في العالم الإسلامي، حتى الإسلاميين

(١) فصل الدين عن الدولة، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٩٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٧).

منهم، بل إن بعض هؤلاء الإسلاميين صاروا يبحثون للنسبية عن أصول في إرثنا الإسلامي؛ فهم تارة يذكرون قول القائلين من الأصوليين بأن كل مجتهد مصيب، وتارة يستدلون كاستدلال أولئك بقصة الصلاة في بني قريظة، تارة أخرى يذكرون قاعدة تغيير الأحكام بتغيير الزمان والمكان، ويرون أكبر دليل عليها كون الإمام الشافعي صار له مذهب جديد بعد انتقاله إلى مصر، الحقيقة أنه ليس في شيء من هذا ما يعضد فكرة النسبية في شكلها الغربي الذي شرحناه. أولاً: لأن المسلم، بل كل مؤمن بوجود الخالق، يعتقد أن وجود خالقه ليس أمراً نسبياً تابعاً لعقول المؤمنين، بل يعتقد أنه موجود وجوداً مستقلاً حتى عن معرفة الناس به، بل حتى عن وجودهم، أعني أن الخالق موجود حتى لو لم يكن في الوجود إنسان؛ لأن وجوده سبحانه سابق لوجود كل المؤمنين به. فوجوده إذن حق مطلق غير مقيد بشيء، فلا يمكن أن يكون نسبياً.

والمسلم يعتقد إلى جانب ذلك أن هذا الخالق مستحق وحده للعبادة حتى لو لم يعبد من البشر عابد، ففضيلة استحقاقه للعبادة هي أيضاً حقيقة مطلقة غير مقيدة بعبادة العابدين؛ وكذلك الأمر بالنسبة للفضائل الخلقية من صدق وعدل وأمانة ووفاء، يعتقد المسلم أن هذه فضائل سواء آمن الناس بها أو لم يؤمنوا، وسواء التزموا بها أو لم يلتزموا؛ فقيمتها هي إذن قيمة مطلقة غير منسوبة لا إلى الأفراد ولا إلى الثقافات.

ثانياً: والقائلون بأن كل مجتهد مصيب لا يقولون إن معيار الصواب هو قول المجتهد؛ لأنهم يعلمون أن القاعدة الإسلامية هي أن الحق لا يُعرف

بالرجال؛ فهم ينسبون الإصابة إلى الاجتهاد الذي هو أمر موضوعي مستند إلى أدلة، لكننا لا نستطيع رغم ذلك أن نقول إن كل مجتهد مصيب؛ فماذا لو كانت اجتهاداتهم متناقضة؟ بأن يقول هذا: إن الأمر مشروع، وذلك يقول: إنه غير مشروع؟ أو يقول هذا: إنه واجب أو مندوب، ويقول الآخر: إنه حرام أو مكروه! إن تصويب كل منهم جمع بين النقيضين، وهو أمر لا يقول به عاقل. أما إذا لم تكن الاجتهادات متناقضة فقد تكون كلها صواباً وقد لا تكون.

ثالثاً: أما قصة الصلاة في بني قريظة فأظن أن كثيراً من الذين يستدلون بها على نسبية الصواب لم يفهموا قول النبي ﷺ على وجهه. نعم إن النبي ﷺ لم يخطئ الذين صلوا قبل الوصول إلى بني قريظة، كما أنه لم يخطئ الذين لم يصلوا إلا بعد الوصول إليها؛ فكأنه ﷺ قال: إن الصلاة قبل الوصول إليها مقبولة والصلاة بعد الوصول إليها مقبولة؛ وهذا أمر لا تناقض فيه، كما أنه لا تناقض بين القول بأن الصلاة في أول الوقت مقبولة وفي آخره مقبولة. لكن يبقى أمر آخر هو أن الرسول ﷺ وإن صوّب ما فعله كل من الفريقين إلا أنه لم يصوّب ظن كل منهما بأن ما فعله الآخر خطأ؛ فكأنه ﷺ قال لكل منهما: إنك أصبت فيما فعلت، وأخطأت في تخطئك لفعل الفريق الآخر.

نقول بعبارة أخرى: إن النبي ﷺ لم يصوّب المذهب الكامل لأي من الفريقين، وإنما أقر ما في كل منهما من الصواب.

رابعاً: أما مذهب الشافعي الجديد فيكفي في بيان عدم علاقته بالنسبية، كون الشافعي غير رأيه في مسائل لا علاقة لها بالمكان الذي انتقل إليه،

فلا يمكن أن يكون المكان سببًا فيها. من ذلك أن من تحرى القبلة فصلى ثم تبين له أنه صلى إلى غير القبلة: هل تجب عليه الإعادة؟ قال في القديم: لا تجب. وقال في الجديد: بل تجب. فما علاقة هذا بكونه في مصر أو في الحجاز؟ وإذا كان الشافعي قد غير رأيه في بعض المسائل فكذلك فعل غيره من الأئمة من أمثال الإمام أحمد من غير أن يرحلوا عن المكان الذي هم فيه.

بقي أن نقول: إن هنالك أمورًا هي بطبيعتها نسبية، والناس متفقون على نسبتها؛ فما ينبغي أن تختلط بنسبية الحقيقة ونسبية القيم الخلقية التي كانت موضوع هذا المقال. من النسبيات المقبولة نسبة الطول والقصر مثلاً؛ فوصف الإنسان بالطول والقصر إنما يكون بحسب أطوال غيره من البشر، بل قد يكون بحسب الطول المعهود في المكان الذي هو فيه. فالقصر في جنوب السودان قد يكون طويلاً في الصين، لكن هذه النسبية لا تسبب خلافاً كبيراً بين الناس؛ لأنهم في العادة يتفقون على ما يُنسب إليه الأمر. فالإنسان طويل أو قصير بالنسبة إلى البشر لا بالنسبة إلى النخل؛ وكذلك هو سريع أو بطيء بالنسبة للناس لا للخيل والسيارات، والصلاة خفيفة أو طويلة بالنسبة إلى صلاة النبي ﷺ، لا بالنسبة إلى ما يقدره كل إنسان^(١).

(١) النسبية، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٠٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٧٧).

فائدة، بطلان دعوى أن الشذوذ الجنسي شيء ولد به الشواذ في

جيناتهم الوراثية :

هذه الدعوى لا يمكن أن تكون صادقة لأسباب ينبغي أن يسلم بها كل مؤمن بوجود الخالق معترف بصفيتين من صفات كماله هما: العدل، والحكمة: فالخالق العادل الحكيم لا يمكن أن يغرس في فطرة الإنسان سلوكًا لا مفر له منه، ثم يجعل ذلك السلوك مُحَرَّمًا عليه، بل يعاقب عليه أشد العقوبات.

والخالق العادل الحكيم إذا غرس شيئًا في فطرة الإنسان هداه إلى أحسن السبل لإشباع رغبته منه. فهو لَمَّا جعل الحاجة إلى الطعام في خلق الإنسان أمره بأن يأكل ويشرب ولا يسرف، وأحلَّ له الطيبات وحرَّم عليه الخبائث. ولما جعل في الناس ميلًا جنسيًا هداهم إلى الزواج وحرَّم عليهم الزنا، بل فضَّل لهم أحسن الطرق للمعاشرة.

فلما حرَّم فاحشة الشذوذ تحريمًا مطلقًا، علَّمنا أنه ليس لها في الفطرة أصل، ودعك أن يكون الإنسان عليها، مجبرًا ثم إن هذه الفاحشة فاحشة إباحية لا خطام لها ولا لعجام، بل إن من شأن أصحابها المستحلِّين لها «لا أقول من كان من أصحابها المؤمنين الذين يعلمون أنها ذنب كبير رغم ابتلائهم بها» أن يغضبوا الناس عليها حتى لو كانوا أطفالًا كما كان قوم لوط يقطعون السبيل ويعتدون على المسافرين، وكما أرادوا أن يعتدوا على ضيوف نبيهم حين ظنَّوهم بشرًا، فهل يقول صاحب هذه الفاحشة إن الله تعالى جعل في جيناته أن يفعلها مع كل من تميل إليه شهوته من أبناء جنسه؟

إن الميل إلى الجنس الآخر ميل طبيعي، لكنه مع ذلك يمكن كبحه وضبطه،

ولا يجوز العدوان فيه، فلماذا يجوز في هذا الميل المنحرف؟ والمسلم المؤمن بكتاب ربه يقرأ فيه قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحْلَمِيَّتِ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

ومن المعلوم أنه قد سبقهم إلى هذه الدنيا أجيال وأجيال من البشر؛ فلماذا لم تفعل الجينات في جيل أو جماعة أو حتى فرد منهم ما فعلت بهؤلاء؟ وممن ورثوها إذا لم يسبقهم إليها أحد من العالمين^(١).

فائدة: الجينات لا سلطان جبرياً لها على سلوك الإنسان، بل ولا على

كل ما يتعلق حتى بحياته البدنية:

كان كثير من الناس يظنون أن هذه الجينات التي هي بمثابة أوامر لصنع الأشياء الحية هي التي تحتم طبيعة أجسامنا وسلوكنا، لكن الذي ثبت الآن أن الجينات ليست هي وحدها التي تؤثر في طبيعة أجسادنا وسلوكنا، ودعك أن تحتم تلك الطبيعة. «... يجب أن نستنتج الآن أن البيئة أهم مما كان يفترض في صياغتها للإنسان»، «إن الجينات لا تتحكم في حياتنا. لكنها مهمة».

من الحقائق الطريفة التي أظهرتها هذه الدراسة الحديثة أنه لا فرق كبير بين الإنسان وأضئل المخلوقات من حيث عدد الجينات، فجينات الإنسان تقدر الآن بثلاثين ألفاً بينما تقدر جينات الذبابة بعشرة آلاف، ولا تزيد جينات

(١) ثبت بطلان الجينية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١١٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٧).

الإنسان على جينات الفأر إلا بيض مئات، ثم إنه لا يكاد يوجد فرق يذكر بين إنسان وإنسان من حيث الجينات؛ إذ إنه لا يعدو الواحد من الألف، ما الذي يجعل الإنسان إنساناً إذن؟

سأل أحد علماء الأحياء نفسه هذا السؤال، فقال ساخراً: ما كنا نظن الإنسان إنما هو ثلاث ذبابات، أو فأر وجزء من الفأر، ثم أجاب بأن الذي يميز الإنسان إنما هو وعيه، لكنه خبط خبطاً طويلاً في تفسير كيفية نشوء الوعي من الدماغ، أما الذي لا يشك فيه المسلم هو أن أهم ما يميز الإنسان إنما هو الروح التي نفخها الله فيه، والتي كان الوعي من آثارها أو أعمالها.

لكن المسلم يقول أيضاً: إن الإنسان إن كان لا يتميز كثيراً عن الحيوانات من حيث عدد الجينات، فمما لا شك فيه أنه يتميز عنها حتى في جسده تميزاً مشهوراً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ [التين: ٤-٥] (١).

فائدة: لا تقاس الحريات بكميتها إنما تقاس بمدى نفعها وضررها:

الأول: الحريات لا تقاس كمياً، وإلا لكان أحسن النظم هو الذي يترك الناس سدى لا يأمر أحدهم بشيء ولا ينهاه عن شيء ألبتة.

فيم تقاس إذن؟ تقاس بمدى نفعها وضررها، فالنهي عن السرقة هو حد من الحرية، لكنه حد مفيد، أما النهي عن أكل السمك مثلاً فهو حد لا فائدة فيه، بل قد يكون ضرره بالغاً بالنسبة لبعض الناس، ولذلك وصفت النواهي

(١) ثبت بطلان الجينية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١١٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٧).

الإسلامية بأنها حدود إذا تجاوزها الإنسان وقع في ما يضره، وبإمكانك أن تتصورها كالحدود التي توضع على جنبتي الجسر؛ فهي أيضًا تحد من حرية السائر أو السائق، لكنها مفيدة له؛ لأنها تمنعه من الوقوع في البحر أو الهوي في واد سحيق^(١).

فائدة: الجوانب الحسنة في الحضارة الغربية:

أحسن ما عندهم هو هذا التطور الكبير في العلوم الطبيعية وما بُني عليه من تقنية في شتى جوانب الحياة ومنها الجانب العسكري، وقد كنت أتمنى لو أننا ركزنا على هذا الجانب العلمي التقني فيما نأخذه من الغرب، لكن العلمانيين في بلادنا شغلونا بمثل هذه القضايا التي كنا نتحدث عنها الآن؛ لأنهم لسنا جتتهم ظنوا أن السبب الأساس لتطور الغرب هو فصله للدين عن الدولة.

وقد كان هذا التركيز على الجانب الثقافي في التجربة الغربية هو السبب الأساس لضعفنا وعدم تطورنا؛ لأنه كان السبب الأساس في النزاع بيننا؛ وأنت تعلم أن الأمم لا تستطيع أن تحقق إنجازًا كبيرًا دينيًا أو دنيويًا وهي منقسمة على نفسها متنازعة فيما بينها^(٢).

(١) حوار عن العلمانية الديمقراطية بين مثقفين عربيين، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١١٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كتوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٨).

(٢) حوار عن العلمانية الديمقراطية بين مثقفين عربيين، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١١٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كتوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٨).

فائدة: اعتقاد الغربيين أن ما ألفوه من قيم وتقاليده هو الأمر الطبيعي:

الغريون في جملتهم يعتقدون أن ما ألفوه من قيم وتقاليده في الأكل والشراب واللباس والتعامل والحكم والاقتصاد وغير ذلك هو الأمر الطبيعي الذي ينبغي أن يكون عليه الناس، بل هو المعيار الذي يقاس به مدى صلاحية ما عند الآخرين^(١).

فائدة: الصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات

لا بين طبقات ولا عرقيات:

الصراع سنة ماضية، والصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات لا بين طبقات ولا عرقيات، فأصحاب الطبقة الواحدة، والمتممون إلى قومية واحدة بل قبيلة واحدة قد يقتل بعضهم بعضاً إذا اختلفت معتقداتهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنِّهِمْ ظَلَمُوا^٥ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ^٦ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ سَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ^٧ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^٨﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

على هذا تدل الآية الكريمة التي تشير إلى اعتداء أناس من قبيلة، هي أشرف قبائل العرب، على أناس آخرين من هذه القبيلة نفسها؛ لأنهم خالفوهم

(١) الممكن والمعهود، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١١٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٣٧٦).

في معتقدتهم، وهذا هو الذي توصل إليه دارسو الحضارات من الغربيين؛ فإنهم يكادون أن يكونوا مجتمعين على أن الحضارة وإن تكونت من عناصر كثيرة إلا أن أهم عنصر فيها هو العنصر الثقافي، وأن أهم عنصر في الثقافة هو الدين، ويلاحظون أن كبرى الحضارات كانت إلى حد كبير مرتكزة على أديان^(١).

فائدة: الحضارة والثقافة والعولمة؛

كلمات الحضارة والمدنية والثقافة والعولمة - وإن كانت عربية - إلا أنها جعلت في استعمالنا الحديث رموزًا تدل على المعاني والمفاهيم نفسها التي تدل عليها الكلمات الغربية التي جعلناها ترجمة لها، فلننظر في تلك المعاني والمفاهيم كما هي عند أهلها، وأنسب ما نبدأ به هو الأمريكي هنتنجتون أول من أشاع تعبير صراع الحضارات في مقال مشهور نشر في صيف عام ١٩٩٣ م في مجلة Foreign Affairs بهذا العنوان، ثم نشر موسعًا في كتاب بالعنوان نفسه. ينقل هنتنجتون عن عدد كبير من العلماء الغربيين تعريفهم لما أطلقنا عليه كلمة المدنية أو الحضارة Civilization، والفرق بينها وبين ما نسميه ثقافة Culture؛ فما الحضارة أو المدنية وما الثقافة؟ يمكن أن نلخص مجمل أقوال من نقل عنهم هنتنجتون في مفهوم الحضارة والثقافة فيما يلي:

يضع المفكرون الألمان حدًا فاصلاً بين الحضارة والثقافة، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع

(١) العولمة وصراع الحضارات، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٤١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٧٩).

ومثله العليا وخاصياته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. لكن سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان في هذا؛ فهم يرون أن الحضارة والثقافة كليهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأن الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة، وأن كليهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأن الدين هو أهم العناصر المكونة للحضارة، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العرق؛ فأصحاب العرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة، كما أن الحضارة الواحدة - كالحضارة الإسلامية - قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال.

والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية؛ فأهل قرية إيطالية مثلاً قد يتميزون ثقافياً عن قرية إيطالية أخرى لكنهم يشتركون في ثقافة إيطالية تميزهم عن أهل القرى الألمانية، والألمان والإيطاليون ينتمون إلى ثقافة أوروبية تميزهم عن الجماعات الصينية والهندية، هذا الذي يجمع الأوروبيين هو حضارتهم التي تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية. فالحضارة هي أعلى تجمّع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم. وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم إلى الجنس البشري.

أما العولمة فيمكن أن نقول: إنها في أساسها تصيير المحلي عالمياً؛ فهي وصف لعمل مستمر تدل عليه كلمة Globalization لكنها في الوقت نفسه وصف لبعض نتائج هذا التعولم.

النتيجة النهائية المثالية للتعولم أن تكون للعالم كله لغة أو لغات مشتركة،

وأن تكون التجارة فيه مفتوحة ومتيسرة بين كل بلدان العالم، وأن يسود فيه نظام اقتصادي واحد، ونظام سياسي واحد، وأن تسود فيه عقيدة واحدة، وأن تكون للناس فيه قيم مشتركة في مسائل كحقوق الإنسان والعلاقة بين الجنسين، وأن يكون هنالك أدب عالمي يتذوقه الناس كلهم، وأن يسود فيه تبعاً لذلك نظام تعليمي واحد، وهكذا. وأن تكون كل هذه الأمور التي تعولمت مناسبة للناس من حيث كونهم بشرًا، ومساعدة لهم على تحقيق طموحاتهم المادية والروحية، أي تكون للعالم حضارة عالمية واحدة.

هذا هو الهدف النهائي المثالي، لكن العولمة قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة من غير أن تكون مناسبة للبشر بل مفروضة عليهم لظروف طارئة. المهتمون بقضية العولمة متفقون تقريباً على أنه وإن كانت الكلمة جديدة إلا أن ما تصفه ليس بجديد، بل يرى بعضهم أن السير نحو هذه العالمية بدأ منذ مئات السنين.

فإذا كانت هذه هي العولمة فما وسائلها التي تجعلها ممكنة وتحركها؟ يذكر بعض المؤرخين أنه كان للعولمة في الماضي سببان رئيسان هما الهجرة والغزو، ولكن لنا أن نسأل: لماذا يهاجر الناس، ولماذا تغزو بعض البلاد بعضاً؟ إنهم يفعلون ذلك؛ لأنهم يرونه - بحسب قيمهم - في مصلحتهم المادية أو الروحية.

هذا إذن هو الدافع الأول المحرك للهجرة أو الغزو أو أي نوع آخر من أنواع الاتصال بين أمة وأمة، لكن الناس إنما يقررون الهجرة إلى مكان معين

أو غزو أمة معينة بحسب ما يصلهم من معلومات عنها، وبحسب إمكانية الوصول إليها. هذان إذن عاملان آخران هما المعلومات ووسائل الانتقال؛ وهذان يعتمدان كثيرًا على مستوى التقنية الذي تصل إليه الأمة المهاجرة أو الغازية أو الساعية لأي نوع آخر من أنواع العلاقات أو التأثير، دوافع أمة لغزو أمة أخرى أو هجرة بعضهم إليها هي في غالبها دوافع اقتصادية، لكن بعضها قد يكون ثقافيًا، والأمران متشابكان؛ فحتى الغازي لأسباب اقتصادية ينقل معه ثقافته وقد يفرضها على المهزومين إذا كان غازيًا ذا إمكانات كبيرة، وقد يتأثر بثقافة من غزاهم، بل وقد يتبناها ويترك ثقافته، وقد يكون التأثير والتأثر متبادلًا.

والمهاجر أو الغازي لأسباب ثقافية قد يستفيد فوائد اقتصادية، وقد يحدث لثقافته التي هاجر من أجلها ما يحدث للمهاجر، كان غزو المسلمين للعالم مثلاً للغزو بدافع حضاري؛ فقد كانوا يعدون أنفسهم أصحاب رسالة موجهة للعالم كله كلفوا هم بتبليغها إليه بالوسائل السلمية ما أمكن، وإلا باللجوء إلى الحرب.

لكن حتى المسلمين الذين كانوا يهاجرون طلبًا للرزق كانت مهمتهم الرسالية ماثلة أمامهم، فأثروا في البلاد التي هاجروا إليها تأثيرًا كبيرًا، فنقلوا إليها - كما نقل الغزاة قبلهم - دينهم ولغتهم ولم يتأثروا بهم إلا في أمور لا تتعارض مع دينهم، بل قد يكون بعضها من مقتضيات الدعوة إليه، كتعلم لغتهم. أما المسلمون الذين يهاجرون إلى البلاد الغربية في أيامنا هذه فإنهم يفعلون ذلك

لأسباب في غالبيتها العظمى اقتصادية، وتجربتهم تدل على أن الغالبية العظمى منهم تفقد هويتها الثقافية - لغة ومظهرًا ودينًا - وتذوب في المجتمعات الغربية. لكن أكثر ما يحتفظون به ويؤثرون به في تلك المجتمعات هو طعامهم. غير أن قلة من هؤلاء الذين هاجروا لأسباب اقتصادية كانت - مع القلة التي تسافر لأسباب دعوية أو دراسية - سببًا في قبول بعض الغربيين للإسلام، وفي انتشار بعض المظاهر الإسلامية كالمساجد والمدارس والمكتبات والحجاب. أما الغربيون الذين ذهبوا إلى العالم الإسلامي غزاة أو لأسباب اقتصادية فإن قلة قليلة منهم هي التي تأثرت بالثقافة الإسلامية أو اعتنقت الإسلام. ولذلك كان دخول بضعة آلاف من الجنود الأمريكيين في الإسلام في المدة القصيرة التي قضوها في السعودية إبان حرب الخليج أمرًا ملفتًا للنظر شاذًا عن القاعدة. لكن دخول غير الغربيين المهاجرين إلى العالم الإسلامي كان ولا يزال أمرًا معتادًا.

أما غزو الغرب للعالم فقد كان في أساسه لأسباب اقتصادية، لكن الدافع الرسالي كان أيضًا حاضرًا فيه حضورًا بينًا، فالغربيون كانوا يرون أن لهم رسالة هي أن يحضروا العالم ويجعلوه نصرانيًا، وهم يرون أن حضارتهم تفوق الحضارات الأخرى لما تمتاز به من عقلانية لا توجد في غيرها، وأن هذه الميزة هي التي تؤهلها لأن تكون الحضارة العالمية.

يرى أحد الأساتذة الأرجنتيين أن أحسن من يعبر عن هذا الاعتقاد هو هيجل وينقل عنه قوله: «إن الروح الألمانية هي روح العالم الجديد». ويقول:

إن هيجل يرى أن الروح الأوروبية التي هي روح ألمانيا هي الحقيقة المطلقة التي تحقق نفسها بنفسها من غير أن تكون مدينة لأحد سواها. ويقول - أعني الكاتب - : إن هذه القضية - يعني قضية هيجل - لم تفرض نفسها على أوروبا والولايات المتحدة فحسب؛ بل على كل المجال الفكري لأطراف العالم.

ويقول أستاذ بجامعة ديوك الأمريكية: «إنه لأمر عجيب وإنما لحركة في غاية التعصب العنصري أن تعتقد أوروبا أن عليها منذ عام ١٥٠٠م أن تحضّر عالمًا ظلت فيه منذ قرون حضارات (مثل الحضارة الصينية والهندية والإسلامية...) قبل أن تجعل من نفسها مركزًا جديدًا للعالم باسم النصرانية وأوروبا زمرة من الجماعات الهمجية الصاعدة، وأحسن من عبر عن الجمع بين الدافعين الاقتصادي والحضاري هو المؤرخ الأسباني الذي سوغ ذهابه وزملاءه لغزو الجزر الهندية بقوله: «خدمة الله ولصاحب الجلالة، ولنقل النور إلى أولئك الجالسين في الظلام، ولنصير أغنياء كما أن كل إنسان يريد أن يصير». استطاعت أوروبا أن تفرض نفسها وكثيرًا من جوانب حضارتها على تلك الحضارات بالغزو والاحتلال والاستعمار، ثم بوسائل الإعلام والضغط الاقتصادية، والتهديدات العسكرية.

يقول مؤرخهم المعاصر بشيء من الزهو: «إن التغيير الذي حدث في تاريخ العالم بعد عام ١٥٠٠م لم يكن له سابقة. لم يحدث من قبل ذلك أبدًا أن انتشرت حضارة واحدة في أرجاء الأرض كلها؛ فمنذ أقدم مساح ما قبل التاريخ المشاهدة كان الميل دائمًا نحو التنوع. أما الآن فإن التيار الثقافي بدأ يتحول. إن

جوهر ما كان يحدث كان باديًا حتى منذ أواخر القرن الثامن عشر. فالأمم الأوروبية - بما فيها روسيا - كانت في ذلك الوقت قد ادعت لنفسها أكثر من نصف سطح الأرض، وكانت - بدرجات متفاوتة - قد سيطرت بالفعل على ما يقرب من ثلثه.

ففي غرب الكرة الأرضية كانوا قد اذرعوا جماعات مستوطنة تكفي بأعدادها الكبيرة لإنشاء مراكز حضارية جديدة؛ فقد خرجت أمة جديدة من المقاطعات البريطانية السابقة في أمريكا الشمالية، وفي الجنوب استطاع الأسبان أن يحطموا حضارتين ناضجتين ليغرسوا حضارتهم».

ثم يذكر أنه كان هنالك في ذلك التاريخ ما يقرب من عشرين ألف هولندي في جنوب أفريقيا، وأن أستراليا كانت قد بدأت تستقبل مستوطنينها الجدد، وأن الزائر الأوروبي لشرق أفريقيا وإيران والهند وأندونيسيا كان سيجد فيها أوروبيين جاؤوا ليتاجروا ثم ليرجعوا إلى بلادهم في المدى القريب أو البعيد ليستمتعوا بالأرباح التي حققوها.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الاستعمار الغربي قد شمل أفريقيا كلها، وأحكم سيطرته على شبه القارة الهندية وبقية آسيا. وفي أوائل القرن العشرين أخضع الشرق الأوسط كله - عدا تركيا - لسيطرته المباشرة، ومع نهاية عام ١٩٢٠م كانت الإمبراطورية العثمانية قد قسمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

في غضون هذا التوسع قضى الغرب قضاءً كاملاً على حضارتي (Meso

(American) و (Andean)، وأخضعت الحضارات الهندية والإسلامية وأخضعت أفريقيا. وتوغل في الصين وجعلت تابعة للنفوذ الغربي لمدة أربعمائة عام تمثلت العلاقة بين الحضارات في خضوع المجتمعات غير الغربية للحضارة الغربية. ذلك ما كان حتى عام ١٩٢٠م؛ فماذا حدث بعده؟ استمر الغرب في تفوقه التقني واستمر في تأثيره الكبير على كل مجتمعات العالم لا سيّما بعد الطفرة التي حدثت في تقنية الاتصالات والانتقال والتي زادت في إمكانية العولمة. تتمثل هذه الهيمنة الغربية الآن - كما لخصها كاتب أمريكي - في أن الأمم الغربية:

- تملك وتدير النظام المصرفي العالمي.
- وتسيطر على كل أنواع العملة الصعبة.
- وإنها هي الزبون العالمي الأول.
- وإنها هي التي توفر للعالم معظم بضائعه الجاهزة.
- وإنها تسيطر على أسواق الرأسمال العالمية.
- وأنها تمارس قدرًا كبيرًا من القيادة الأدبية في كثير من المجتمعات.
- وأن لها قدرة على التدخل العسكري العظيم.
- وأنها تسيطر على المضائق البحرية.
- وأنها تقوم بمعظم البحوث والتطوير للتقنية المتقدمة.
- وأنها المتحكمة في التعليم التقني الفائق.
- والمهيمنة على المدخل إلى الفضاء.

- وعلى صناعة الطيران.

- وعلى وسائل الاتصال العالمية.

- وعلى التقنية العالية لصناعة الأسلحة.

العولمة لم تكن - كما كان يرجى لها إذن - أن تسود في العالم ثقافة إنسانية تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خيرات بعضهم بعضاً، بل كادت العولمة وكاد التحديث أن يكون تغريباً بسبب هذا التفوق الغربي وعدم تسامح حضارته مع الحضارات الأخرى^(١).

فائدة: إلى متى سيستمر هذا التفوق وهذه الهيمنة الغربية؟

يرى كثير من المفكرين الغربيين أنها لن تستمر طويلاً - على الأقل بهذا القدر الكبير - لماذا؟ هذا موضوع كبير لا يسعنا هنا إلا أن نشير إليه مجرد إشارات، فنقول:

١- لأن سبب تلك القوة لم يكن لمجرد أسباب داخلية في الحضارة الغربية، وإنما كان أيضاً لظروف خارجية مواتية. أما الآن فإن ظروفاً خارجية أخرى لا قبّل للغرب بتغييرها جعلته يضعف ضعفاً نسبياً للزيادة النسبي في القوة الاقتصادية والتقنية لبلاد غير غربية.

٢- يزداد تقديرنا لأهمية هذا الضعف النسبي للقوة المادية للدول الغربية

(١) العولمة وصراع الحضارات، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٤١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٩).

إذا ما تذكرنا ما يقوله كثير من مفكريها بأن السبب الأساس لسيطرتها لم يكن قيمًا ولا فكرًا ولا دينًا وإنما كان هذه القوة. يقرر هتنتجتون هذه الحقيقة في صراحة عجيبة إذ يقول: لم يغلّب الغرب العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه (الذي لم تعتقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى) وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم.

إن الغربيين كثيرًا ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبدًا. بيد أننا يمكن أن نستدرك على هتنتجتون ومن يرى رأيه بأن الغرب وإن لم يكن في نفس الأمر متفوقًا في تلك المجالات إلا أن أهله كانوا يعتقدون فيه هذا التفوق، وأن هذا الاعتقاد الباطل كان دافعهم، مع الدوافع الاقتصادية للخروج لغزو العالم كما ذكرنا سابقًا.

٣- أما الآن فإن هذا الضعف النسبي في القوة المادية للغرب يصحبه وربما سبقه فتور في الدافع الرسالي؛ فحماس الغربيين لدينهم المسيحي في بداية قرنهم الواحد والعشرين لم يعد كما كان في القرن الثامن عشر، ولم يطرأ هذا الفتور في الحماس الديني بسبب التأثير بالحضارات الأخرى في المكان الأول، وإنما كان في أساسه:

- بسبب دراساتهم العلمية لأصول دينهم التاريخية، تلك الدراسات التي شككت في الثبوت التاريخي لكثير من نصوصه، والتي أثبتت أن في هذه النصوص تناقضًا ومخالفة لبعض الحقائق العلمية نشأ عنه انقسامهم إلى أصوليين - أكثرهم من العوام - يؤمنون بحرفية ما في كتابهم المقدس، وليبراليين يعتقدون أنه ما كل ما

فيه من عند الله، وأنه تأثر بالظروف الثقافية للزمن الذي كتب فيه.

- ثم كان التطور في مجال العلوم الطبيعية سبباً آخر؛ لأن منهج هذه العلوم يقوم على عقلانية لا وجود لها في دينهم.

- ثم زاد من ضعف الإقبال على الدين أو الاهتمام به النظام السياسي العلماني الذي يفصله عن الدولة، بل وعن الحياة العامة كلها.

٤- كان كثير من المفكرين الغربيين يأملون في أن يحل العلم الطبيعي محل الدين، وينجح في حل مشاكل البشرية التي عجز الدين عن حلها. لكن تجربة الحربين العالميتين العظميين، واعتمادهما على التقنية الحربية التي وفرها العلم الطبيعي أضعفت من هذا الأمل، ثم كانت كارثة هيروشيما فاقنتع كثير من المفكرين والعوام الغربيين بأن العلم الطبيعي إنما هو سلاح يعتمد حسن استعماله أو سوءه على قيم لا تؤخذ منه هو، فلا بد أن يكون لها مصدر آخر.

٥- والشيوعية - التي هي نتاج غربي - والتي تعلق بأوهامها الآلاف المؤلفة من الناس في الشرق والغرب، باءت هي الأخرى بإخفاق ذريع.

٦- لم يبق للغرب الآن مبدأ يتعلق به ويدافع عنه ويعتز به إلا الديمقراطية الليبرالية وما يصاحبها من نظام رأسمالي، لكن حتى هذين يجدان كثيراً من النقد والمراجعة لعدم وفائهما ببعض القيم الإنسانية، ولا سيما إنصاف الفقراء، ولما نتج عنهما من تعميق للروح الفردية وما يصحبها من مشكلات اجتماعية.

٧- الروح السائدة في الغرب الآن ليست روحاً متفائلة، بل إن التشاؤم قد

يصل بهم إلى الحد الذي عبر عنه كاتب فرنسي أزعج ذلك الشعب وأثار تشاؤمه حين كتب يقول كما نقل عنه مؤلف إنجليزي: «إن أوروبا بدأت تدخل في عصر ظلام جديد يتميز بالأوبئة والمتسولين وانهيار المدن، وبعث الخرافة، وعودة التهديد القادم من الشرق - من آسيا ومن الإسلام».

ولعلنا نستطيع أن نقول إنه حتى لو لم يطرأ هذا الفتور في حماس الغربيين لدينهم ولرسالتهم، فإنه ما كان لحضارتهم أن تصير حضارة عالمية إذا ما فقدت القوة المادية؛ لأنها لا تملك في نفسها مقومات العالمية^(١).

فائدة: ما الذي يؤهل الحضارة الإسلامية لأن تكون حضارة عالمية؟

أرى أننا ينبغي أن نميز أولاً بين الإسلام والحضارة الإسلامية؛ لأنه إذا كانت الحضارة هي في جوهرها المعتقدات والقيم والتصورات المتمثلة فعلاً - أو قل إلى حد كبير - في واقع أمة من الأمم، فما كل ما جاء به الدين المنزل من عند الله متمثلاً في الأمة التي تعلن إيمانها به.

فالدين دينان: دين منزل من عند الله لا يتغير ولا يتبدل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ودين متمثل في واقع الناس يقترب من الدين المنزل أو يبتعد عنه، ولا يطابقه إلا في الرسول الذي جاء به، والذي صدق عليه قول زوجه أم المؤمنين: «كان خلقه القرآن»، أما غيره فمنهم من يقرب منه قرباً

(١) العولمة وصراع الحضارات، كتاب الإسلام لعصرتنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٤١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٩).

شديداً، ومنهم من يتعد عنه بعداً كبيراً وإن كان منتسباً إليه.

فالحضارة الإسلامية المتمثلة في واقع المسلمين تتأهل للعالمية بقدر قربها من الدين المنزل الذي تنتسب به. فما مقومات العالمية في هذا الدين؟ إنها مقومات كثيرة وعظيمة، لكننا نكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى بعضها:

١- أنه بينما كان الرسل من أمثال موسى وعيسى -عليهم صلوات الله وسلامه- يرسلون إلى أقوامهم خاصة، فإن محمداً ﷺ أرسل إلى الناس كافة، أرسل رحمة للعالمين، وجعله الله خاتماً للنبيين. فحتى لو كان اليهود والنصارى المنتسبون إلى هذين الرسولين مستمسكين بدينهم الحق، لما جاز لهم أن يجعلوا منهما دينين عالميين بعد نزول الدين الخاتم؛ لأن الله تعالى إنما أرسل هذين الرسولين إلى قومهما خاصة وإلى فترة محددة.

فالمسلم المستمسك بدينه العارف بهذه الحقيقة يستبشر بالتطور الذي حدث في وسائل الاتصال والانتقال الذي جعل من العالم قرية واحدة كما يقولون. يستبشر به؛ لأنه يرى فيه تصديقاً لنبوة محمد ﷺ؛ فلا أحد غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَان يُمْكِن أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْعَالَمَ سَيَتَقَارَبُ هَذَا التَّقَارِبَ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَّا إِلَى رَسُولٍ وَاحِدٍ.

٢- أن إمكانية تقريب المسافات أمر حاضر في حس المؤمن الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وحين يذكر كيف أن المكذبين به ﷺ ضاقت أعظانهم عن أن يروا إمكان ذلك، وحسبوا أن الممكن محصور في المألوف.

ويقرأ المؤمن في كتاب ربه أن رجلاً عنده علم من الكتاب استطاع أن ينقل عرشاً بأكمله في أقل من طرفة عين من اليمن إلى الشام، ثم يقرأ في كتاب ربه ما هو أعجب من ذلك أن الرسول ﷺ عُرِجَ به إلى السماء السابعة ورجع في ليلة واحدة؛ وهي مسافة لو قطعها مخلوق بسرعة الضوء لاستغرقت منه البلايين من السنين الضوئية. ويصدق المسلم قول رسوله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاريها، وإن أممي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها».

٣- أن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ فهو يخاطبهم بوصفهم بشرًا وضع الله في قلوبهم أساسه؛ فهو ليس بالأمر الغريب عليهم، وما أكثر الذين شعروا بهذا حين أسلموا وفاضت أعينهم مما عرفوا من الحق.

٤- ومما يزيد المسلم اقتناعًا بعالمية دينه أنه أثبت في الواقع أنه ليس بالدين الذي تحده ظروف جغرافية أو مناخية، أو زمانية أو ثقافية؛ فقد اعتنق هذا الدين أناس بينهم كل أنواع تلك الاختلافات، فلم يجدوا في شيء منها ما يحول بينهم وبين الإيمان به أو وجدانهم شيئًا غريبًا عليهم. فالمسلمون في كل بقاع الأرض الآن أقرب إلى دينهم من النصارى أو اليهود لدينهم. فما زال المسلمون رغم كل الظروف المختلفة يصلون الصلوات الخمس، ويصومون شهر رمضان، ويحجون إلى بيت الله الحرام، ويقرؤون الكتاب المنزل على رسولهم من غير تحريف ولا تبديل.

٥- وإذا كان تطور العلوم الطبيعية يقف الآن حجر عثرة في طريق بعض الأديان الباطلة، فإنه يقف شاهدًا على صدق هذا الدين؛ لأنه لا يجد فيه ما

بخالف شيئاً من حقائقه، بل يجد فيه تقريراً لبعض تلك الحقائق قبل أن يتمكن الإنسان من اكتشافها بوسائله البشرية، ولا يجد فيه مخالفة لمنهجه العقلاني التجريبي؛ إذ يجده ديناً لا يأتي بمحالات العقول، ولا ينكر ما يشهد به الحس. فإذا ما شعر الناس بأهمية الدين - كما يشعر بذلك كثير منهم الآن - وإذا ما صدهم عما عرفوه من أديان تناقضها المنطقي، أو مخالفتها للواقع المحسوس فسيجد ديناً فيه كل ما يريد من هدى واستقامة وراحة نفسية، وهو خال من تلك النقائص، فسيكون العلم الطبيعي بإذن الله تعالى سبباً من أسباب دخول الناس في هذا الدين على المستوى العالمي.

٦- والغرب وإن كان في مجموعه مهيمناً تلك الهيمنة التي ذكرناها سابقاً إلا أنه ليس شيئاً واحداً منسجماً متعاوناً، وإنما هو شعوب ودول وجماعات تختلف مصالحها ويثور التنافس والتحاسد بينها، ويرتاب بعضها من قوة بعضها ويخشى من سيطرتها.

إذا كانت تلك هي بعض المقومات التي تزهل الإسلام ليكون دين القرية العالمية، ومركز حضارتها، فإن في واقع الأمة المنتمية إليه الآن ما يعرفل سيرها بدينها نحو تلك العالمية:

١- أول تلك العوائق: هو كون الحضارة الغربية قد نجحت في جعل بعض المنتسبين إليه عملاء لها في داخل الأوطان الإسلامية، ومكنت لهم فيها؛ فهم الذين قسموا الأمة وجعلوها متنازعة، وشغلوها بصراعات داخلية سياسية واجتماعية، فحالوا بذلك بينها وبين أن تسعى متكاتفة إلى الأخذ بأسباب التقدم

المادي من علم طبيعي وتقنية وإنتاج؛ لأن وحدة الأمة - وإن كانت كافرة - شرط في هذا كما تشهد بذلك تجارب اليابان والأمم الغربية.

٢- وثانيها: أن هذا النزاع كان وما يزال السبب في فقدان القدر اللازم من الحرية التي هي أيضًا شرط لذلك التقدم. لكن الغربيين الذين كانوا سببًا في فقدانها يعززون هذا الفقدان الآن إلى طبيعة العرب أو طبيعة الإسلام! وقديمًا قال العربي: «رمتني بدائها وانسلت».

٣- وثالثها: أن كثرة كاترة من الممتمين إلى الإسلام قد حادوا عن جوهره التوحيدي، ففقدوا بذلك الشرط الذي علق الله تعالى نصره لهم عليه في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَدْوٍ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٤- ورابعها: أن الغرب يبالح في خوفه من الإسلام، ويزيد في هذا التخويف أناس يبالحون في خطر البعث الإسلامي الجديد متخذين من هذا التخويف وسيلة لتحقيق مآرب لهم لا تمت إلى مصلحة الغرب في شيء؛ وأكثر من يعينهم على هذا ويعطيهم أدلة يفرحون بها أناس لا عقل لهم ينتمون إلى حركة البعث هذه يكثرون من التهديد والوعيد للغرب من غير أن تكون لهم مقدرة على تحقيق أدنى شيء منه. وبسبب هذا الخوف المرضي من الإسلام يبالح الغرب في ضغطه على الدول الإسلامية والتدخل في شؤونها ليقضي على

كل بادرة نهضة إسلامية تطل برأسها فيها، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

٥- مع كل هذا الخطر الغربي فإن بعض الدعاة عندنا يتصرفون وكأنه لا وجود للغرب نفسه؛ فلا يتبعون أخباره ولا يهتمون بمعرفة سياساته ومخططاته، ولا يفكرون في الرد على أفكاره، وكأنهم لم يسمعوا بمثل ما قال عالم الجزيرة الشيخ السعودي رحمه الله تعالى: «إن معرفة أحوال الكفار من أعظم أبواب الجهاد». وصار هؤلاء الدعاة - بسبب هذه الغفلة - مشغولين بمحاربة أناس هم معهم في صف البعث الإسلامي.

إن نقد الخطأ - ولا سيما ما كان في مسائل العقيدة - أمر واجب وعمل عظيم؛ لكن نقد أخطاء المسلمين شيء، وجعلها الشغل الشاغل عن الخطر الداهم شيء^(١).

فائدة: الرد على فوكوياما في دعوته إلى تبني القيم الغربية؛ لأنها هي القيم العصرية الصالحة لأن تكون عالمية، وأتينا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا:

يدعونا فوكوياما إلى تبني القيم الغربية، وإذ يزعم أن دعوته هذه ليست ناتجة عما يسمى بالعمى الثقافي؛ وإنما لأن القيم الغربية هي القيم العصرية

(١) العولمة وصراع الحضارات، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٤١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٩).

الصالحة لأن تكون عالمية، وأنا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا؟ إن لم يكن هذا عمى ثقافياً فلست أدري ما العمى الثقافي؟! ولكن ماذا نقول لفوكوياما؟ نقول:

أولاً: إن التحديث في جوهره إنما هو الأخذ بكل الوسائل العلمية والتقنية والإدارية التي يتطلبها العصر، والتي لا تكون الأمة بغيرها أمة قوية في اقتصادها وسلاحها وإعلامها؛ فهل وجد فوكوياما في الإسلام ما يتناقض مع شيء من هذا؟ ألم يأخذ المسلمون في تاريخهم بكل ما تطلّبه عصورهم المختلفة في هذه المجالات حتى صاروا إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادي القوة العالمية الأولى في مجال التقدم العلمي والتقني والسلاح البري والبحري؟ فإذا كانوا قد حققوا كل هذا في الماضي مع استمساكهم بدينهم فما الذي يمنعهم من تحقيقه تارة أخرى من غير ترك لهذا الدين؟ إن تعلف المسلمون المعاصر في هذه المجالات إن عزى إلى أي شيء فلا يمكن أن يعزى إلى دينهم؛ إذ ما الذي يجعلهم يعمّون فجأة عن حقيقة دينهم فيرونه متناقضاً مع أمور كانت من أسباب قوتهم واستعلائهم؟ لكن فوكوياما كأمثاله من الغربيين والمستغربين يريد أن يقول لنا إن للتحديث شرطاً آخر ضرورياً يتناقض مع ديننا إنه العلمانية، فصل الدين عن الدولة، وجعل الدين أمراً فردياً خاصاً.

ثانياً: إن فصل الدين عن الدولة في بلادكم شيء اخترتموه طائعين، لم يفرضه عليكم أحد، ونحن اخترنا غير ما اخترتم. فلماذا تريدون أن تفرضوا علينا ما لا نريد؟

ثالثًا: إن اختياركم كان لظروف خاصة بتاريخكم وطبيعة دينكم والحروب التي نشأت بينكم، ومنها الحرب التي تذكرونها دائماً أعني حرب الثلاثين عامًا ونحن أصحاب تاريخ مختلف عن تاريخكم، ودين مختلف عن دينكم ولم يحدث عندنا ما حدث عندكم.

رابعًا: إنكم تقولون إن السلم المدني لا يتأتى إلا في نظام علماني لا يكون للدين فيه نصيب، لكن تاريخكم يحدثنا بأن العلمانية لم تحقق هذا السلم على المستوى العالمي، بل إن أول حربين عالميتين في تاريخ البشرية حدثتا عندكم وبين بلاد علمانية، ونتج عنهما من الضحايا البشرية والدمار والفساد ما لم يكن له مثيل في تاريخ البشرية.

خامسًا: إنه إذا كان دينكم لا يقبل التعايش مع الأديان الأخرى، فإن ديننا يقبل مثل هذا التعايش ويعطي غير المسلمين من حرية العبادة وتسيير شؤونهم الخاصة ما لا تعطيه العلمانية، نعم إن هنالك مناطق مستثناة من هذا التعايش، لكن ليس من شرط التعايش أن تفتح أراضي المسلمين كلها لغير المسلمين. فالقول بأن «التسامح» لا يتحقق إلا في دولة علمانية دعوى لا سبب لها إلا العمى الثقافي.

سادسًا: وإذن فالقول بأن مشكلة المسلمين مع الحضارة الغربية هو تسامحها الديني، أو ديمقراطيتها ليس بصحيح، لماذا يعادي المسلمون نظامًا يسمح لهم بأن يدعوا إلى دينهم؟ لماذا ودينهم بسبب تلك الحرية هو أكثر الأديان نموًا في الولايات المتحدة؟ ليس المسلمون هم الذين يكرهون هذا

ويريدون إيقافه، وإنما هم المتعصبون المتشنجون من بعض المتدينين وبعض الملحدين؛ فرجاء لا تخلطوا الأوراق كما يقولون.

سابعًا: إن كثيرًا من الغربيين أنفسهم يرون أن العلمانية سبب أساس إن لم تكن السبب الأول لتلك الأمراض التي ذكر فوكوياما أن المجتمعات الصناعية كلها تعاني منها، والتي سرت عدواها إلى العالم كله بما فيه عالمنا الإسلامي بسبب إصرار بعضنا على التقليد الغبي لكل ما هو غربي.

ثامنًا: عجبًا لأمر الغربيين الذين يقولون إن ديننا هو سبب ضعفنا وتخلفنا. أفتراهم حريصين على أن نكون أقوىاء؟ كيف وهم يعدوننا العدو الأول بعد سقوط الشيوعية؟ كيف وهم يرون أن الصدام بين الحضارات قادم لا محالة؟ أفيريدون لعدوهم أن يملك من القوة ما يملكون؛ ولذلك فهم ينصحونه أن يأخذ بأسبابها التي منها إقصاء الدين؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

تاسعًا: إن فصل الدين عن الدولة لا يكون إلا بتحريف الدين أو عدم الإيمان بشيء منه، لكن الكفر بشيء مما أنزل الله هو كفر بالله؛ لكنه مع ذلك أمر مرد عليه اليهود والنصارى منذ أزمان سحيقة؛ فلا عجب أن يسهل عليهم اليوم وهم يقرؤون كتبًا دلتهم دراساتهم الحديثة أنها ليست قطعًا بالكتب التي أنزلها الله على رسوله، وبرهنت لهم أن فيها أقوالًا مخالفة للحقائق التي اكتشفتها العلوم التجريبية، بل إن المتحررين منهم وهم الأغلبية الآن يعتقدون أنه إنما كتب هذه الكتب بشر عاديون، وأنهم تأثروا في كتابتها بالظروف الثقافية السائدة في

عصورهم، وأنه ما دامت ظروفنا الثقافية اليوم مختلفة عن ظروفهم فلا يلزمنا أن نلتزم بكلام كتب في زمان غير زماننا، وهم لهذا السبب يبيحون أمورًا كالشدوذ الذي تعده كتبهم من الجرائم.

لكننا -نحن المسلمين- مختلفون عنهم في هذا كله؛ فنحن موقنون بأن الكتاب الذي بين أيدينا هو كلام الله الذي أنزل على رسولنا، نقرؤه بلغته التي أنزل بها ولا نجد فيه رغم تطاول الزمن ما يخالف حقيقة من ملايين الحقائق العلمية التي اكتشفت بعد نزوله، بل إننا لنرى في كل يوم مصداق ما به أخبر، والحكمة في ما عنه نهى أو به أمر؛ فلماذا نترك حقنا لباطلكم؟ أقول هذا مع أنني أعلم أن أمثال فوكوياما لا يمثلون رأي المتدينين في تلك البلاد، بل إن فيهم من يخالفه خلافًا جوهريًا في أساس منطلقاته التي لا تعطي للدين اعتبارًا. هذا، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون؟^(١).

فائدة: أسباب التقدم المادي:

لقد ظل الغربيون كُتَّابًا وساسة يدندنون حول فكرة سخيصة باطلة هي أنه لن تتقدم أمة تقدمهم المادي إلا إذا سلكت طريقهم الراهن حذو القُذة بالقُذة. أي إلا إذا صار نظامها السياسي مثل نظامهم، وموقفها من دينها مثل موقفهم من دينهم يحرفونه كما شاءوا، ويخضعونه لأهواء عصرهم، ويفصلون بينه وبين دولتهم، وإلا إذا صارت حياتهم الجنسية مثل حياتهم اختلاطًا بغير ضابط بين

(١) يافوكوياما، نحن مع التحديث وأبعد الله التفریب، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٥٧)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٩).

الرجال والنساء، وإباحة لكل علاقة جنسية بين كل بالغين متراضيين رجلين كانا أو امرأتين أو رجل وامرأة، بل إلا إذا كانوا مع ذلك موالين للغرب خاضعين له خادمين لمصالحه.

ونحن نعلم من كتاب ربنا ومن تجارب عصرنا والعصور التي سبقتنا أن كل هذه أباطيل لا علاقة لها بالتقدم المادي، الديمقراطية مهما كان فيها من حسنات ليست بشرط ضروري للتقدم الاقتصادي والعلمي والتقني، فهذا الاتحاد السوفييتي كان قد تقدم مثل هذا التقدم، بل كان سابقاً للغرب الديمقراطي في بعض المجالات رغم شنيع دكتاتوريته، وها هي الصين، وها هي كوريا الشمالية تتقدمان في هذه المجالات تقدماً يزعج الغرب أيما إزعاج.

وحياة الإباحية التي نُدعى إليها الآن ليست من أسباب تقدم الأمم، بل من أسباب هلاكها. لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة العصر حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي، وكانت سابقة في كل مجال من مجالات العلم والتقنية كما يعترف بذلك الغربيون ولم تكن تبيح ما نُدعى الآن إلى إباحته. والحضارة الغربية نفسها لم تكن في بداية تقدمها المادي والعلمي تبيح ما تبيحه الآن؛ فلم تكن هذه الإباحية من أسباب تقدمها، بل هي من علامات تدهورها كما يعترف بذلك كثير من عقلائها.

وفصل الدين عن الدولة ليس شرطاً في هذا التقدم كما يشهد بذلك تاريخ الحضارة الإسلامية التي كان الدين جوهرها، وكان السبب الأساس لقوتها. نعم! إن الدين يكون عائقاً حين يكون ديناً يحول دون الأخذ بالأسباب الموضوعية

للتقدم المادي، وكما يكون الدين عائقًا يمكن أن يكون غيره من الأفكار والمعتقدات عائقًا أيضًا، ولكن إذا لم يكن الدين الحق عائقًا فهو أيضًا ليس شرطًا ضروريًا للتقدم المادي! ولو كان الأمر كذلك لما تقدمت مثل هذا التقدم دولة كافرة.

لكننا نشاهد في واقعنا، ونعرف من تاريخ عالمنا، ونقرأ في كتاب ربنا ما يدلنا على غير ذلك. ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَقُرْعُونَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾ [النجم: ٦-١٠]، بل إن العدل ليس شرطًا في مثل هذا التقدم؛ فالحضارة الفرعونية ازدهرت بتسخيرها لبني إسرائيل حتى أنقذهم منها نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿ فَأَيُّهَا قَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [طه: ٤٧].

والدول الأوروبية استعانت على تقدمها المادي باستعمار الشعوب واستغلال خيراتها، والولايات المتحدة استعانت على ذلك باصطياد البشر من أفريقيا واستعبادهم وتسخيرهم، وما يقال عن الديمقراطية يقال عن حرية التعبير، وإنصاف المرأة. إن كل هذه وغيرها أمور حسنة في نفسها ومساعدة على الحياة الطيبة لكنها ليست شرطًا في الازدهار المادي كما يشهد بذلك تاريخ الدول الغربية نفسها. لقد بدأت ثورتها الصناعية ولم تكن تعطي المرأة ما تعدّه الآن من حقوق لها لازمة للتقدم وللحداثة؛ فلم يكن لها حتى حق الانتخاب.

إن للتقدم المادي - كما لكل أمر حسي - أسبابًا من أخذ بها آتته أكلها برًا كان أو فاجرًا، عادلًا كان أم ظالمًا، فمن أكل الطعام المناسب شبع حتى لو كان

طعامه مسروقاً، ومن جامع امرأة قد ينجب حتى لو كان جماعاً سفاخاً، ومن زرع فقد يحصد حتى لو كان في أرض مغصوبة.

إن الله تعالى لم يجعل الاستقامة شرطاً في التمتع بخيرات الدنيا ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ رَبِّيَ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، أراد إبراهيم عليه السلام أن يحصر الرزق بشمات البلد الحرام في المؤمنين؛ لكن الله تعالى أخبره أنه ينعم بها حتى على الكافرين؛ ثم يذيقهم العذاب الأليم.

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فالطيبات من الرزق هي للمؤمن والكافر في هذه الحياة الدنيا، ولا تكون خالصة لمحضة للمؤمنين إلا في الدار الآخرة.

قلت: إن للتقدم المادي أسباباً.

وأقول: إن من أول ما يذكر من هذه الأسباب الاستقرار السياسي؛ فإذا لم تكن الأمة مجتمعة، ولم تكن مستقرة فأنى لها أن تنجح في إقامة مشروعات تعليمية واقتصادية طويلة المدى؟ والعالم العربي لم يذق طعم الاستقرار السياسي إلا في فترات متباعدة هنا وهناك.

وكان من أهم أسباب ذلك أن كثيراً من أبناء الطبقة المثقفة المؤهلة للحكم فيه كانت طبقة قد ابتعدت عن دينها وتقمصت قيم الحضارة الغربية، وظنت كما ظن أصحاب تلك الحضارة أن التقدم لا يكون إلا بتقليد الغرب،

فراحوا يقلدونه، بل ويفرضون على الأمة تقليده في فكره العلماني، وفي عاداته وتقاليده الاجتماعية، وجعلوا هذا وما يزالون يجعلونه رسالتهم الكبرى التي يصلحون عليها ويعادون. وكان ممن عادوا إخوانهم المستمسكين بدينهم الذين يرون على العكس منهم أن نهضتنا لا تكون إلا على أساس من ديننا.

بهذا انقسم المجتمع وفقد الاستقرار السياسي اللازم للتطور المادي، فالعلمانيون كانوا إذن هم سبب تمزق العالم العربي، ومن ثم سبب تخلفه المادي. وكان الغرب وراءهم ووعوناً لهم بدعايته وماله وقوته في كل ما يدعون إليه. واليوم تريد أمريكا أن تعاد المعركة بين الفريقين، وبشكل أشرس؛ إذ المطلوب من العلمانيين هذه المرة ليس فصل الإسلام عن الدولة فحسب، بل إعادة تفسيره بحيث يكون متناسباً مع الفكر الغربي، والمصالح الغربية. أليس هذا علاجاً بالتي كانت هي الداء؟ وإذا كان الاستقرار السياسي شرطاً ضرورياً لنيل القوة المادية فإنه ليس بالشرط الكافي، بل لا بُدَّ أن تتحقق معه شروط أخرى. لا بُدَّ للأمة التي تريد أن تخطو في طريق هذا التقدم المادي أن تعرف معالم هذا الطريق فلا توفك عنه بمظاهر كاذبة لا علاقة لها به، وقد كان من أسباب تقدم الاتحاد السوفييتي إدراكه لهذه الحقيقة.

عرف في ضوء معتقداته ماذا يأخذ من الغرب الرأسمالي وماذا يدع، كان يركز على ترجمة العلوم، وعلى تبادل التقنيات، وكان يبتعد كل البعد عن آداب الغرب الرأسمالي وفلسفاته ونظرياته السياسية والاقتصادية وفنونه وأفلامه ومسارحه وموسيقاه وأنواع رقصه، أذكر أننا زرنا دولة تشيكوسلوفاكيا ونحن طلاب بجامعة الخرطوم فوجدنا بعض الناس هنالك مستعدين؛ لأن يعطوك ما

شئت من مبالغ مقابل أسطوانة فيها موسيقى الروك أند رول التي كانت ذاتة الصيت آنذاك، لكن كل هذا الذي كان ممنوعاً في البلاد الشيوعية كان متوفراً في بلادنا ولم يساعد على تقدمنا.

قلت: إن الدين ليس بشرط في التقدم المادي.

لكنني أبادر فأقول: إنه وإن لم يكن شرطاً ضرورياً إلا أنه بلا ريب شرط كاف. أعني أن الأمة قد تكون قوية وإن لم تكن على دين صحيح، لكنها تكون حتماً قوية ومنتصرة إذا كانت على دين صحيح.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آفَأُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وأبادر فأقول ثانياً: إن الدين إذا لم يكن شرطاً ضرورياً في نيل القوة المادية فإنه شرط ضروري لبقائها ودوامها، فالنعمة لا تدوم على مجتمع كافر إذا هو لم يرجع إلى الحق، فإن لم ينفعها عمادها، وثمرود لم ينفعها جوبها الصخر بالواد، وفرعون لم تنفعه أوتاده حين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، بل صب عليهم ربك سوط عذاب، وهو سبحانه صابيه على كل أمة ترتكب ما ارتكبوا، والنعمة لا تدوم حتى لمجتمع مسلم إذا هو استحدث نوعاً من الجحود، بل إن

سلبها منه يكون بقدر جحوده.

وهذا يعني أن الله تعالى قد يعطي مجتمعا كافرا لم يمتحن من أسباب القوة المادية ما لا يعطي مجتمعا مسلما امتحن فسقط سقوطا كاملا بالنكوص إلى الكفر، أو سقوطا جزئيا بترك بعض ما يعلم أن الله افترض عليه، ولكن حتى حين يعطي الله تعالى المجتمع الكافر بل والفرد الكافر من النعم المادية ما يعطيه، فإنه يحرمه من كمال الاستمتاع بها؛ لأن كمال الاستمتاع بها لا يتأتى إلا مع شكر المنعم بها، وأما بغير هذا الشكر فهي قمينة بأن تصاحبها منغصات لا يطيب العيش معها.

وعليه، فإذا أردنا أن نحقق لمجتمعاتنا تقدما اقتصاديا وعلميا وتقنيا، فلنكن صفا واحدا يجمعه الاستمسك بالدين الحق، ثم بكل ما في تراثنا وتجاربنا وتجارب غيرنا من حق، وإذا كنا صفا واحدا متماسكا فلن يعجزنا التواصي على نظام سياسي يحقق لنا الاستقرار؛ وإذا ما تحقق الاستقرار، فآنذاك نبدأ في الأخذ بالأسباب التي تحقق القوة والأسباب التي تديمها، لا بُد من الأمرين معا، إن التقدم الحق لا يقوم إلا على هذين الجناحين.

وما أقوله: ليس دعوة إلى البداية من الصفر؛ فقد سارت كثير من دولنا رغم العقبات في هذا الطريق؛ فنحن إنما نؤكد هنا ضرورة السير في الطريق الصحيح، وندعم السائرين فيه، وندعو غيرهم إلى سلوك طريقهم^(١).

(١) هل نداوي بالتي كانت هي الداء، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٧٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٧٩).

فائدة: خوف الغرب من الإسلام وراء سياستهم المتناقضة في اعتدائهم على غزو الشعوب والدول المسلمة كالعراق:

ما الذي يدعو الحكومات المصرية على الحرب للعراق لأن تخالف رأي شعوبها وتخسر من كانوا يعدون من أصدقائها؟ ما الذي يدعوها لأن تصرف الأموال الباهظة وتضحى بالنفوس الغالية؟ إنه لا يمكن أن يكون مجرد حرص على إزاحة دكتاتور عن كرسي حكمه، ولا يمكن أن يكون هلعاً من أسلحة دمار شامل -على فرض وجودها- لا تأثير كبير لها على الدول الغربية، لا بُد أن يكون إذن شيئاً تراه هذه الحكومات أمراً جليلاً مهدداً لاستمرار ثقافتها وحضارتها الغربية، لكنه مع ذلك أمر لا تستطيع أن تصرح به، لأنه من الصعب عليها أن تقنع شعوبها به، ولأنه ربما كان منطلقاً من موقف اعتقادي لا تشاركها جماهيرها فيه، ولأنه يتناقض مع قيم طالما رُبي الناس في الغرب الحديث عليها ولا سيما في أيام الحرب الباردة، لإظهار تفوق الحضارة الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية على الأيدلوجية الشيوعية، كيف تتخلى هذه الجماهير عن قيم قيل لها إنها لب حضارتها وسر تفوقها الخلفي؟ ما هذا الأمر الجليل الذي يدعو حكام الدول الغربية وبعض مناصريهم من قادة فكرهم إلى الخروج على هذه القيم التي عاشوا عليها سنين طويلة من حياتهم الحديثة التي أعقبت الحركة الاستعمارية؟ لا بُد أن يكون الذي سبب كل هذا الخوف وسوغ تلك التناقضات والتضحيات أمراً لا تقاومه أو تقف في طريقه قوة السلاح المادي مهما عظمت، إنه أمر يخشى أن يدخل في قلوب كثير من الأفراد فيجعل منهم

أفرادًا آخرين لا صلة لهم بالحضارة الغربية كما عرفت حتى الآن^(١).

هائدة: مفهوم الديمقراطية التي يتعامل بها الغرب مع الشعوب الأخرى:

الإدارة الأمريكية، وأحيانًا المسؤولون البريطانيون، يُصرحون، وأحيانًا يُعبّرون بلسان الحال عن أنه بعد أن تخلّص العراقيون من حكم صدام الدكتاتوري قد صاروا أحرارًا يختارون لبلدهم ما يشاؤون بالطرق الديمقراطية، فلهم أن يختاروا الدستور الذي يرتضونه لبلادهم، لكنه يجب أن يكون دستورًا يفصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الدستور الأمريكي، بل يجب أن يكون العراقيون وسائر العرب والمسلمون أكثر تطورًا من الغرب في مجال العلمانية، فدستور الولايات المتحدة مثلًا قد اكتفى بفصل الدين عن الدولة؛ بمعنى أنه ليس للدولة أن تؤسس، أو تتبنى دينًا من الأديان، ولا أن ترعى المؤسسات الدينية، لكنه لا يمنع من أن تكون الدوافع السياسية دينية، كما هو الحال في الموقف من (إسرائيل).

أما العراقيون وسائر العرب والمسلمين فيجب أن يذهبوا أبعد من ذلك، يجب أن يمنعوا حتى الدوافع الدينية، ويعاقبوا كل مسؤول، أو حزب يُظهر مثل هذه الدوافع في أقواله، أو أعماله، ويجب أن لا يكتفوا كما اكتفت أمريكا بعدم تبني المؤسسات الدينية، وتركها حرة تتصرف كيف شاءت في حدود القانون، بل يجب أن تتأكد من أنها لا تعمل عملاً ينمي مثل تلك الدوافع الدينية التي

(١) سياسة التناقضات المستعلنة، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٨٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز [شبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٥٧٩).

تقود في النهاية إلى العمليات الإرهابية، ولا سيّما ضد (إسرائيل).

ويجب تبعاً لذلك أن لا تكون الحكومة حكومة دينية، ولا أن يسيطر عليها أو يؤثر فيها رجال الدين!! للعراقيين أن يستنوا من القوانين ما شاؤوا، لكن بما أنهم عاشوا زماناً تحت وطأة قوانين غير ديمقراطية؛ فستتولى نحن لهم سن قوانين تتيح لهم الحرية ولا سيّما حرية الممارسات الجنسية، فلا يُمنع مسلم، ذكراً كان أم أنثى، من أن يختار الصديق، أو الزوج الذي يناسبه سواء كان من جنسه، أو من الجنس الآخر، وسواء كان من دينه، أو من دين آخر، بل لا تُمنع الممارسات الجنسية بين المتراضيين متزوجين كانا أم غير متزوجين كما هو الحال عندنا!! سننشئ للعراق قضاء عادلاً يضمن رعاية كل هذه الحريات، ويتولى كذلك محاكمة من ساموا العراقيين الخسف إبان حكم صدام.

وللعراقيين أن يختاروا حكومتهم بالطريقة الديمقراطية شريطة أن يكون الحاكم الأعلى للبلاد رجلاً (أو امرأة) تختاره الولايات المتحدة ليعلمهم، ويتدرج بهم في سُلّم ممارسة الديمقراطية التي غابوا عنها سنين طويلة. كيف لا يكون للولايات المتحدة هذا الحق وهي التي أنفقت أموالها وضحت برجالها في سبيل تحرير الشعب العراقي من الحكم الصدامي الاستبدادي؟

والعراقيون أحرار في أن يقيموا من العلاقات الدولية ما شاؤوا، لكن دولتهم يجب أن تكون دولة موالية للولايات المتحدة، كما يجب أن لا تكون معادية للدولة الإسرائيلية، كيف لا وقد كان من دوافع شن الحرب على العراق الخوف من أن يكون نظامه مهدداً لإسرائيل؟ أليس هذا بعض ما يقتضيه رد

الجميل الذي أسدته أمريكا للعراق؟

ولهم أن يتصرفوا في ثروتهم البترولية كيف شاؤوا، لكن الولايات المتحدة قد تعاقدت قبل اختيارهم لحكومتهم مع بعض الشركات الأمريكية، وأوكلت إليها الإشراف على إنتاج البترول العراقي وتسويقه، فيجب أن يقرروا ما اختاره لهم محرروهم!! ولهم أن يشرفوا على إعادة تعمير بلادهم التي اقتضت حرب تحريرهم تدميرها، ولكن الولايات المتحدة قد اختارت لهم حتى قبل بدء الحرب شركات أمريكية مؤتمنة على أداء هذه المهمة، فيجب أن تستمر هي الأخرى في أداء عملها حتى بعد أن يختار العراقيون حكومتهم الديمقراطية!! وسيكون العراقيون أحرارًا في اختيار المناهج التربوية التي يرونها مناسبة وصالحة لأولادهم، كما ستكون لهم حرية اختيار الفلسفة التربوية التي تناسبهم، لكن الولايات المتحدة قد كفتهم مؤونة هذا التعب، ومستولى هي إعداد هذه المناهج كما فعلت بالنسبة لأفغانستان، وستضمن لها أن تكون مبنية على فلسفة تزرع العلمانية في قلوب الدارسين، وتقيهم شر الفتن الطائفية والاختلافات الدينية، وستضمن لهم أن يتخرجوا بقلوب لا كراهية فيها ولا غضب على الغرب ولا على (إسرائيل)، فإن الكراهية حتى لمن تعده عدوًا لها هي شر ما تبتلى به أمة، اللهم إلا إذا كانت كراهية لدينها وتاريخها وتقاليدها التي كانت كلها سببًا في تأخرها!!

ما أروع أن نرى الآلاف من العراقيين يتظاهرون في الشوارع في حرية كاملة لم تكن مكفولة لهم إبان الحكم الدكتاتوري، نعم إن الكثيرين منهم يهتفون ضد الاحتلال، لكنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يهتفوا مثل هذا الهتاف لولا ما أسموه

بالاحتلال، ولذلك فسنعمل على استمرار هذا الذي هتفوا ضده لیتمكنوا من مثل هذا الهتاف!! ستكون الدولة العراقية الديمقراطية مثلاً يحتذى لبقية الدول العربية؛ لأنها ستنتفخ أموالها على رفاهية شعبها فتعطي الأولوية لتوفير المواد الاستهلاكية، ولا تبعثر ثروة البلاد في إعداد علماء، ولا في إقامة صناعات، ولا في امتلاك أسلحة تدمير شامل أو غير شامل، إلا ما كان ضروريًا لمحاربة الإرهابيين الإسلاميين.

وستكون بذلك دولة محبوبة لا خطر منها على جيرانها ولا على من كانوا بالأمس القريب أعداء لها. نعم إن (إسرائيل) تملك أسلحة يمكن تصنيفها بأسلحة دمار شامل، لكنها محقة في امتلاك مثل هذه الأسلحة لأنها تعيش بين قوم أشرار، ودول مارقة لا تألوا جهدًا في تهديدها، أما هي فدولة متحضرة مسالمة، ولا تملك على كل حال إلا أكثر من مئة قنبلة نووية مرحى مرحى للديمقراطية وللحرية!! وما أروعهما حين يكونان تحت سيطرة أمريكية بريطانية!! ﴿يَخْدَعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴿ [البقرة: ٩-١٠].

﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢] (١).

(١) أديمقراطية أم أمريطانية؟ كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ ادریس (ص: ٩٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ ادریس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٠).

هائدة: داء التبعية وأثره على الأمة الإسلامية:

إن الأمة التي ترضى لنفسها أن تكون قطيعاً من الأنعام يسوقه واحد منها، لا تستعصي على أن يكون سائقها واحداً من غيرها، ومعاذ الله أن يكون شعب العراق كله كذلك، لكن داء هذه التبعية أصاب الجميع، من كان راضياً به ومن لم يكن راضياً.

فأول درس ينبغي لنا أن نعيه هو أن لا نكون قطيعاً ولا شبه قطيع لو احد منا، إنه لا بُد لكل مجتمع، مسلماً كان أو كافراً، ديمقراطياً كان أو غير ديمقراطي، لا بُد له من ولاة أمر يكونون مسؤولين عن إدارة شؤونه، لكن أن يكون الواحد منا مسؤولاً عن إدارة شؤوننا شيء، وأن يجعل منا قطعاً يقضى أمرها وهي غائبة شيء آخر، هذا درس جعله ربنا أصلاً من أصول ديننا.

فنحن لا نحكم برأي فلان وعلان وإن كثر عددهم، وإنما نحكم بكتاب ربنا الذي يخضع له حاكمنا كما نخضع له نحن المحكومين، وحاكمنا الذي يحكمنا بكتاب ربنا لا يستبد بالأمر من دوننا؛ لأن صفة التشاور في أمورنا من الخصائص المميزة لنا لا يكتمل بغيرها إسلامنا، مثلها في ذلك مثل الإيمان بالله والتوكل عليه وغيرها من الصفات التي تبينها الآية الكريمة ﴿فَأُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنْعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِنَّا آسَأْنَاهُمْ أَلْبَسُوا لَهُمِ الْيَتْرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

تذكرت وأنا أشاهد على التلفاز كثرة صور الرئيس صدام وتمثيله، وأنا أسمع الناس يهتفون في كل مكان: بالروح بالدم نفديك يا صدام، تذكرت قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٢٣٠]، ومع أنه لا دين إلا باتباع الرسول ﷺ لأنه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ومع أن حياة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتربية جيل كالذي رباه، ومع أن حياة المسلمين بعده لم تكن مثلها في حياته، إلا أن الله سبحانه أراد أن يعلم المؤمنين أن كل هذا لا يعني ارتباط الدين بحياته ﷺ. ولم يكتف سبحانه بتقرير حقيقة موت الرسول هذه، بل أكدها بدرس عملي؛ وذلك أنه شاع يوم أحد أن النبي ﷺ قتل، بل إن أحد المشركين واسمه ابن قميثة بشر إخوانه الكفار بأنه هو الذي قتله، وإنما كان في الحقيقة قد ضربه فشمجه. فلما شاع هذا الخبر الأليم ضعف بعض المسلمين، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وكل فقد بعد فقد الرسول ﷺ يهون، ويمضي المسلمون في طريقهم يتقنون ربهم حق تقاته ما استطاعوا، بهذا ينبغي أن يُذكر الناس.

وعليه، ينبغي أن يُربوا، فلا يربطوا تمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل إعلاء كلمة ربهم بموت أحد ولا حياته، بل عليهم أن يسدوا كل الدرائع المؤدية إلى تعلق الدين بحياة الأشخاص مهما عظموا علماً وورعاً، أو حكماً عدلاً، أو شجاعة وبسالة. وإنه لمن مقتضيات تمسكنا بديننا، وكوننا أمة ذات رسالة، أن

نكون أمة قوية مرهوبة الجانب، لا نأكل ونتمتع كما تأكل الأنعام، ولا نكون غنماً تمش عليها وتوجهها أنى شاءت عصا الكافرين. لكن القوة المادية لها ثمن ينبغي أن نكون مستعدين لدفعه.

يجب أن نترى على التضحية بكثير من الملذات، بل يجب أن نترى على الاقتناع بالكفاف، ثم نرصد ما تبقى من دخلنا القومي للأخذ بأسباب القوة المادية، من تأهيل علمي ولا سيما للنابعين من أبنائنا، ومن طرق أبواب الصناعة الثقيلة، ولا سيما صناعة الأسلحة.

كيف تدافع عن نفسك، أم كيف لا تكون فتنة لعدوك، وأنت تعتمد عليه في أسلحتك التي بها تدافع عن نفسك؟ هذه هي الخطوة الأولى للمسير في طريق القوة عزيمة نجتمع عليها حكماً ومحكومين. أما تفاصيلها وكيفية تحقيقها، فيترك للمختصين منا، ولن تعجزنا بإذن الله تعالى. ومن سار على الدرب وصل، لكن ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أننا نريد أن نفعل كل هذا باعتبارنا مسلمين.

وعليه، فكما نسعى لامتلاك القوة المادية، فعلينا أن نجتهد في امتلاك القوة المعنوية قوة العلم بالدين الحق، والاستمساك به، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا هو سر قوتنا، وسبب دوام بقائنا، فإننا بفضل الله أمة لا تموت، كتابها محفوظ ذكراً، لا حفظاً متحفيًا، ذكراً بحفظ لغته، وحفظ سنة نبيه، وحفظ العلماء العارفين به، المجددين له، الداعين إليه، المجاهدين في سبيله.

أما الأمم الكافرة فإنها تنتفش وتنتفش ثم لا تلبث أن تخرق وتسقط مهما كان لها من قوة مادية، تخرقها وتسقطها ما ترتكب من فواحش وظلم واعتداء، وما يملأ صدورها من غرور وحمية الجاهلية: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأُوْدَانِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾ [الفجر: ٦-١٤] (١).

فائدة: الأسباب التي جعلت الغرب يسمون المسلمين المتزمنين بدينهم

بالوهابية:

إذا كنت تظن أن الوهابية التي يتحدث عنها السياسيون والكتاب الغربيون محصورة فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه وأحاديثه ودروسه، أو أن الوهابيين هم فقط أولئك الذين وافقوا الشيخ فيما دعا إليه، فأنت مخطئ. الوهابية عند هؤلاء هي وصف لكل أخذ لدين الإسلام مأخذ الجذ؛ حتى لو كان الأخذ إنساناً لم يقرأ للشيخ حرفاً واحداً ولم يتسم باسمه ولا كان موافقاً له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجذ بعض ما أجمع عليه المسلمون حتى لو كان ممارساً لبعض البدع، أو مؤمناً ببعض الخرافات.

الوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم. الوهابي هو المسلم الذي

(١) يريدوننا غمماً، هم رعاتها وهبهات، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ١٩٠)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إسبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٧٩).

يوأظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويحج إن استطاع إلى بيت الله الحرام، إنه المسلم الذي لا يشرب خمراً ولا يتناول ربا ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام.

المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه هو الحق وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام، الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية.

ويبدو أن الذي اقترح على السياسيين هذه التسمية لكل مسلم ملتزم بدينه بعض المختصين في الدراسات الإسلامية، وربما كان اقتراحهم لها لأسباب سياسية، ربما يكون قد قال لهم إنكم ستستفزون مشاعر المسلمين إذا صرحتم لهم بأنكم لا تريدونهم أن يلتزموا بكتاب ربهم ولا بسنة نبيهم، ولا أن يأخذوا شيئاً من دينهم بقوة؛ فامكروا عليهم بالحديث عن الوهابية بدلاً من الحديث عن الإسلام أو الكتاب والسنة؛ لأن في العالم الإسلامي أناساً كثيراً لهم مشكلة مع الوهابية؛ ولأنهم قد أثاروا حولها تهماً، وألصقوا بها تعاليم نحن نعلم أنه لا علاقة لكثير منها بها.

ومع أننا لا نتفق مع هؤلاء في كل الأسباب التي دعوتهم إلى معاداة الوهابية؛ فإن موقفهم المعادي لها مما يمكن أن يساعد على تحقيق ماآرنا وخدمة مصالحنا.

من المسلم غير الوهابي إذن؟ هو المسلم الذي يفهم القرآن فهمهم لكتبهم، ويطبق دينه تطبيقهم لدينهم، ولا يعترض على شيء من ثقافتهم،

ولا يدعو إلى مناهضة شيء من سياستهم حتى لو كان يراها ظالمة وضارة ببلده، ولا ينس بينت شفة عن كلمة اسمها الجهاد، إن كل من يفعل هذا عدو لهم؛ لأنه يعرقل ما يعدونه مصلحة وطنية لهم.

ما معنى أن يفهم دينه فهمهم لدينهم؟ لعل أحسن جواب على هذا السؤال كلمة قالها رجل تابع للكنيسة الأبسكوبيلية: (وهي كنيسة أمريكية تابعة للكنيسة الإنجليزية).

هذا قس اسمه (روينسون) يستعلن بشذوذه الجنسي، بل يأتي إلى بعض الاجتماعات الدينية إلى جنب «صاحبه» الذي يفخر به والإعازة بالله. لم تر الكنيسة رغم هذا كله بأساً من انتخابه لمنصب عال فيها هو منصب الأسقف. انتخبته أعلى هيئة فيها بأغلبية ستين عضواً إلى أربعين تقريباً.

في مؤتمر صحفي بعد فوزه اعترف هذا الأسقف بأن معارضي انتخابه كانوا على حق في قولهم بأن الشذوذ الجنسي أمر مخالف لتعاليم الكنيسة، ثم مضى يقول: «أن تقول ببساطة إنه مخالف للتقاليد وتعاليم الكنيسة وللكتاب المقدس لا يعني بالضرورة أنه خطأ. إننا نعبد إلهاً حياً، وهذا الإله هو الذي يقودنا إلى الحقيقة»^(١).

(١) المفهوم الغربي للهوية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٠٧)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كتوز إشييليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٠).

فائدة: نقد المفكرين الغربيين للديمقراطية:

لم تجد الديمقراطية في تاريخها كله رواجًا مثلما وجدت في عصرنا هذا؛ لقد كان معظم المفكرين الغربيين منذ عهد اليونان كثيري النقد لها، بل ورفضها، حتى إن أحد الفلاسفة البريطانيين المعاصرين ليقول: إذا حكمنا على الديمقراطية حكمًا ديمقراطيًا بعدد من معها وعدد من ضدها من المفكرين، لكانت الخاسرة.

أما في عصرنا فإن الدعاية الواسعة لها أعمت كثيرًا من الناس - ولا سيّما في بلادنا - عن عيوبها التي يعرفها منظرؤها الغربيون - بل إن المفتونين بها المروّجين لها، صاروا يصوّرونها كالبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع السياسية وغير السياسية^(١).

فائدة: الديمقراطية في الحقيقة ليست هي حكم الشعب:

أول ما يؤخذ على الديمقراطية كونها اسمًا لا حقيقة له؛ أعني أنه إذا وُصف لك نظام سياسي بأنه دكتاتوري أو ديني مثلًا، تصوّرت ما المقصود بهذا الوصف، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للديمقراطية؛ إذ إن الديمقراطية كما يدل عليها اسمها، وكما يعرفها كبار منظرّيها وساستها، هي حكم الشعب، لكن الصورة الواقعية لما يُسمى بالديمقراطية - مهما كانت حسناتها أو سيئاتها - ليست هي حكم الشعب:

(١) الديمقراطية اسم لا حقيقة له، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٠٧)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٨٠).

أولاً: لأن مفهوم الشعب نفسه مفهوم غامض كما يرى بعض كبار منظري الديمقراطية، استمع إلى الأستاذ (روبرت دال) الذي ربما كان صاحب أشمل بحث أمريكي عن الديمقراطية، وهو الذي وُصف في غلاف كتابه هذا الذي نقل عنه بأنه (من أبرز منظري زماننا السياسيين) وأنه نال على هذا الكتاب جائزتين كبيرتين: «إن دعاة الديمقراطية - بما في ذلك الفلاسفة السياسيون - يتميزون بكونهم يفترضون مقدماً أن هناك شعباً موجوداً فعلاً، إنهم يعدون وجوده واقعاً صنعه التاريخ، لكن هذه الواقعية أمرٌ مشكوكٌ فيه، كما كان مشكوكاً فيه في الولايات المتحدة عام ١٨٦١ م، عندما حُسم الأمر بالعنف لا بالرضى ولا بالإجماع، إن الافتراض بأن هناك شعباً موجوداً، وما يُبنى على هذا الافتراض من لوازم تصير جزءاً من النظرية الديمقراطية الخيالية».

ثانياً: إن الشعب لم يكن في يوم من الأيام ولن يكون حاكماً؛ ذلك أمرٌ متعذر، وإليك بعض شهادات أهلها على ذلك أن الديمقراطية المثالية هي ما يُسمى بالديمقراطية المباشرة، التي يُقال أنها كانت تُمارس في أثينا، أول دولة ديمقراطية نشأت في القرن الخامس قبل الميلاد، تُسمى بالمباشرة؛ لأن (الشعب) كان يجتمع في العام أربعين مرة ليناقد كل القضايا السياسية المهمة، مناقشة مباشرة، ويصدر فيها قراراته، لكنها مع ذلك لم تكن حكم الشعب:

(١) لأن الذين أسسوا النظام الديمقراطي كانوا فئة قليلة من الناس هم الذين قرروا من الذي يستحق أن يدخل في مسمى الشعب الحاكم، ومن الذي لا يستحق، فاستثنوا النساء والرقائق، وكل من كان من أصل غير أثيني مهما طال مكثه فيها؛ وعليه فلم يكن لهم حق المشاركة السياسية إلا نسبة ضئيلة من المواطنين.

(٢) كان يكفي لاعتبار الاجتماع منعقدًا أن يحضره ستة آلاف مما يقدر بست وثلاثين ألف عضو، أي أن القرارات المتخذة لم تكن قرارات تلك الفئة كلها التي أعطيت حق الحكم.

(٣) كانت مدة الاجتماع لا تتجاوز عشر ساعات؛ فلم يكن بإمكان الناس جميعًا أن يشاركوا في المداولات، وإنما كان الذي يستأثر بالكلام بعض قاداتهم، وكانت البقية تابعة لهم. لما بُعثت الديمقراطية مرة ثانية في القرن الثامن عشر في أوروبا، كان من المتعذر أن تكون ديمقراطية مثل ديمقراطية أثينا، بسبب الازدياد الكبير في عدد السكان، وصعوبة اجتماعهم، ولكن بدلًا من أن يُقال إن الديمقراطية بمعنى حكم الشعب غير ممكنة الآن، فلنبحث عن نظام حكم آخر يتناسب مع واقعنا.

تحايل بعضهم فسَمَّى ديمقراطية أثينا بالديمقراطية المباشرة، واقترح أن تكون الديمقراطية الحديثة ديمقراطية غير مباشرة، أو ديمقراطية تمثيلية، أي ديمقراطية يختار فيها الشعب فئة قليلة منه تكون ممثلة له وحاكمة باسمه، كان هذا التحايل ضروريًا لأنه كانت هناك أزمة سيادة، من هو الجدير بأن يكون السيد الأمر النهائي الذي لا معقَّب لحكمه؟ كانت هذه السيادة للملوك، وكانوا يعدون هذا الحق حقًا إلهيًا أعطاهموه الله تعالى؛ لأن الناس كانوا قبل ذلك مؤمنين يعتقدون أن مثل هذه السيادة لا تكون إلا لله أو لمن أعطاه الله له، لكن الناس لم يعودوا يؤمنون بهذا بعد الثورة الفكرية الكبيرة التي حدثت في قرنهم الثامن عشر، والتي كانت في مجملها دعوة للانسلاخ من حكم الدين في كل

مجال من مجالات الحياة، لم يكن هناك من بديل لحكم الله أو لحق الملوك المقدّس في الحكم، إلا أن يُقال إن الحكم للشعب كله؛ فهو صاحب الكلمة الأخيرة فيما ينبغي أن يكون أو لا يكون، لكن الديمقراطية التمثيلية أو النيابية كانت بالضرورة أبعد من الديمقراطية المباشرة عن أن تكون حكمًا للشعب؛ وذلك:

(١) لأن الحكم له معنيان: حكم تشريعي وحكم تنفيذي، فبأي معنى يُحكم الشعب؟ لا يمكن أن يُحكم بالمعنى الثاني؛ لأن الشعب لا يمكن أن يكون كله رأس دولة أو مجلس وزراء أو قائد جيش، وكان الفيلسوف الفرنسي (روسو) أول من سخر من الديمقراطية بمعنى الحكم التنفيذي، فقال:

«إذا أخذنا العبارة -يعني كلمة الديمقراطية- بمعناها الدقيق؛ فإنه لم تكن هناك ديمقراطية حقيقية، ولن تكون، إنه من المخالف للنظام الطبيعي أن تكون الأغلبية حاكمة والأقلية محكومة، إنه لا يتصور أن يكون الشعب مجتمعًا دائمًا لقضاء وقته في تصريف الشؤون العامة، ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون لجانًا لهذا الغرض، إلا بتغيير شكل النظام الإداري».

(٢) لم يبقَ إذن إلا الحكم بمعنى التشريع؛ لكن الشعب ليس هو المشرّع في الديمقراطية النيابية، وإنما هو الذي ينتخب من يُشرّع، ومرةً أخرى نستمع إلى (روسو) ساخرًا من هذا: «إن الأمة الإنجليزية تعتبر نفسها حرة؛ لكنها مخطئة خطأ فادحًا، إنها حرة إبان فترة انتخابات لأعضاء البرلمان؛ وبمجرد أن يُنتخبوا؛ فإن العبودية تسيطر عليها، فلا تكون شيئًا، وكيفية استفادتها من

لحظات الحرية القصيرة التي تستمتع بها تدل حقا على أنها تستحق أن تفقدها». (٣) لأن نواب الشعب ليسوا هم الشعب حتى لو كان اختياره لهم بالإجماع، ربما كان هذا معقولاً لو أن النواب يجتمعون للبت في قضية واحدة، يعرف كل منهم رأي ممثليه فيها، أما والقضايا كثيرة ومعقدة وبحاجة إلى علم لا يتأتى لعامة الناس؛ فإن الحكم لا يكون حكم الشعب، نعم! إن كل نائب منهم يتجنب المشاركة في تشريع يعلم أن أكثر الناس في دائرته الانتخابية لا توافق عليه، وأنه إن شارك فيه فربما يفقد مقعده في الانتخابات التالية، لكن هذا قليل جداً من كثير.

(٤) والمنتخبون لا يكونون في الواقع منتخبين بالإجماع الذي يقتضيه وصف الحكم بأنه حكم الشعب، وإنما يُنتخبون بالأغلبية، والأغلبية ليست هي الكل، وما ترتضيه الأغلبية في دائرة معينة، قد لا ترتضيه الأغلبية في دائرة أخرى، أو قد لا ترتضيه أغلبية الشعب لو كان انتخابه مباشراً، لكنه مع ذلك يعد ممثلاً للشعب وحاكماً باسمه.

(٥) ثم إن الأغلبية لم تكن في بداية الديمقراطية هي أغلبية الشعب كله؛ فقد استثنوا منها النساء، واستثنوا بعض الفقراء، واستثنى الأمريكان الأرقاء، فلم يدخل النساء في مفهوم الشعب الحاكم الذي يحق له أن يصوت إلا في عام ١٩١٨م في بريطانيا، وعام ١٩٢٠م في الولايات المتحدة، ولم يُعط السود هذا الحق إلا بتعديل للدستور الأمريكي في عام ١٨٨٦م؛ ولكن حتى بعد شمول مفهوم الشعب الحاكم لكل المواطنين باستثناء الأطفال، ظلت بعض الفئات

محرومة من حق المشاركة في الانتخابات.

استمع إلى ما يقول هذا المؤلف الأمريكي في كتاب له حديث عن الديمقراطية: «ملايين من الناس يبقون فاقدين حق التصويت كلياً أو جزئياً: مئات الألوف من المواطنين الذين يعيشون في واشنطن العاصمة، مليون ونصف مليون ممن ارتكبوا جنحاً وعُوقبوا على ارتكابهم؛ لكن ولاياتهم تحرمهم رغم ذلك من التصويت، عدة ملايين من الذين يعيشون في (بورتوريكو) وأقاليم فيدرالية أخرى، والملايين غير المحددة في أمريكا كلها الذين تضيع أوراق تصويتهم، أو تُحسب خطأ، أو تُحطّم في كل الانتخابات».

(٧) وبما أن الانتخابات في أمريكا إنما يشارك فيها من سجل اسمه للمشاركة فيها قبل بدئها، وبما أن كثيراً من الناس لا يسجلون أسماءهم، فإن الأغلبية إنما تكون أغلبية من صوتوا ممن سجلوا ممن يحق لهم أن يصوتوا، وقد كانت هذه النسبة في انتخابات عام ٢٠٠٠م كالآتي كما جاء في تقرير حكومي رسمي: من مجموع عدد الناس البالغ ٢٠٣ مليون والذين كانت أعمارهم ١٨ عاماً أو أكثر، ١٨٦ مليوناً منهم مواطنون، سجل منهم للانتخابات ١٣٠، وصوّت منهم ١١١، وعليه فقد كانت معدلات تصويت السكان الذين أعمارهم ١٨ عاماً أو أكثر، ٥٥٪ من مجموع السكان، و ٦٠٪ من المواطنين، ٨٦٪ من المسجلين^(١).

(١) الديمقراطية اسم لا حقيقة له، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٥٨١).

فائدة: الديمقراطية الليبرالية:

هنالك أمر لا يتفطن إليه كثير من الناس وهو أن الديمقراطية في البلاد الغربية ليست ديمقراطية خالصة مطلقة، وإنما هي ديمقراطية مقيدة بالليبرالية، ما معنى هذا؟ الليبرالية نظرية سياسية فحواها أن المجتمع يتكوّن أساسًا من أفراد - لا من طبقات ولا من أسر ولا من أي تجمعات أخرى، وبما أن الفرد هو أساس المجتمع، وبما أن له - بوصفه فردًا - حقوقًا أهمها حرّيته، فإنه لا يجوز للحكومة ولا لفئة من الشعب، بل ولا لأغلبية الشعب، أن تتغول على حرّيته، ولذلك فإنهم يدعون إلى ما يسمونه بالحد الأدنى من الحكومة، أي أن الأساس هو أن يُترك الأفراد أحرارًا يختارون ما شاءوا؛ فعلى الدولة إلا تتدخل إلا تدخلًا اضطراريًا الغرض منه حفظ حقوق الأفراد التي قد يتغول عليها بعضهم، ويحذرون لذلك ما يسمونه بدكتاتورية الأغلبية.

كنت أنوي الاستدلال على ذلك بكتابات عدد من الساسة والمنظرين الغربيين، ولا سيّما الأمريكيين منهم، لكن أغناني عن كل ذلك كلام وجدته لواحد منهم معروف اسمه (لييمان) قال عنه مقدمو الكتاب الذي نشروا فيه مجموعة من مقالاته، والذي نقلت منه النصوص التالية: «إنه ربما كان أعظم مفكر سياسي أمريكي في القرن العشرين»، فأليك بعض ما قال مما نحن بصدده: «يجب في رأيي أن نرفض القول بأن مبادئ الحرية والعدالة والحكم الصالح، إنما تتمثل في حكم الأغلبية».

هنا يكمن أصل المسألة، لقد كان واشنطن يعتقد أن الشعب يجب أن يحكم،

لكنه لم يكن يعتقد أنه بسبب حكم الشعب تتحقق الحرية وتتحقق العدل والحكم الصالح، كما يعتقد أن الشعب ذا السيادة لا يؤتمن - كما لم يؤتمن الملك ذو السيادة الذي كان هو خلفاً له - على السلطة المطلقة. إنه لم يخدع نفسه... إنه لم يكن يؤمن بما صار الآن الأيدلوجية الديمقراطية السائدة.

إن كل ما رأته جماهير الناس أنها تريده فيجب أن يُقبل على أنه الحقيقة. لقد كان يعلم أنه لا ضمان من أن يتحوّل حكم الشعب إلى حكم قهري، تعسفي، فاسد، ظالم وغير حكيم، إن الشعب أيضًا يجب أن يكبح جماحه، إنه كغيره يجب أن يُحاسب، إنهم كغيرهم يجب أن يعلموا، إنهم كغيرهم يجب أن يرفعوا فوق مستوى سلوكهم المعتاد.

سيقول الديمقراطي الملتزم بمبادئه: لكنكم بهذا تضعون سلطة فوق سلطة الشعب، والمبدأ الديمقراطي هو أن السلطة للشعب، فلا أنت إذن يا ليمان ولا واشنطن من قبلك بديمقراطيين، سيرد ليمان بأنكم تحاجوننا بالديمقراطية الخالصة التي تؤمن بسيادة الشعب إيماناً مطلقاً، لكن الديمقراطية التي أتحدث عنها وأدعو إليها هي الديمقراطية الليبرالية التي تحد من هذه السلطة.

سيذهب بعض الليبراليين الذين جاءوا من بعد واشنطن بعقود إلى أبعد مما ذهب إليه، فيؤكدون أن الليبرالية عندهم هي الأساس، وأنه إذا حدث تعارض بينها وبين الديمقراطية، فينبغي التضحية بهذه لا بتلك، فهذا هو المفكر الليبرالي (هايك) يقول بعد أن دافع عن الديمقراطية دفاعاً قوياً، وبعد أن بيّن ضرورة الليبرالية لها في كتاب له نال شهرة واسعة قبل خمسين عاماً: «لا أريد أن

أجعل من الديمقراطية وثناً يُعبد؛ فربما يكون حقاً أن جيلنا يتحدث ويفكر أكثر مما يجب عن الديمقراطية، وأقل مما يجب عن القيم التي تخدمها.

إن الديمقراطية في جوهرها وسيلة، إنها أداة عملية لضمان الأمن الداخلي والحرية الشخصية، فليست هي بهذه المثابة معصومة ولا مضمونة، كما يجب إلا ننسى أنه كثيراً ما تحقق قدر من الحرية الثقافية والروحية في ظل حكم مطلق أكثر مما تحقق في بعض الديمقراطيات^(١).

فائدة: موقفنا من النظم التي تسمى بالديمقراطية:

النظم السياسية التي تسمى بالديمقراطية ليست هي إذن ديمقراطية بمعنى أن الحكم فيها للشعب، وإنما هي نظم سياسية مختلفة وإن كان بينها خصائص مهمة مشتركة، فمن الخطأ إذن تعريف الديمقراطية بأنها نظام الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة أو فرنسا أو غيرها من الدول الغربية.

وعليه، فإذا كان من حق هذه الدول أن تعتهد وتختار لنفسها ما تراه مناسباً لها من تفاصيل المؤسسات والقيم السياسية، مع أنها جميعاً تسمى بالديمقراطية، أفلا يكون من حقنا أيضاً أن نختار من المبادئ والقيم السياسية ما نراه مناسباً لهويتنا وواقعنا ووسيلة أحسن لتحقيق أهدافنا، سواء كان فيه ما يشابه النظم الديمقراطية أو يخالفها؟ بلى! بل إن هذا هو المسلك الطبيعي لكل

(١) الديمقراطية اسم لا حقيقة له، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٨١).

أمة تقضي بعقلها وتحترم نفسها وتعتر بهويتها وأصالتها.

وعليه، فإذا أرادت دولة من دولنا أن تختار لنفسها نظامًا تراه معبرًا عن هويتها ومناسبًا لعصرها، فيجب أن تبدأ بتقرير المبادئ والقيم التي تريد للدولة أن تلتزم بها، ثم تبحث بعد ذلك عن المؤسسات المناسبة لعصرها وظرفها، التي يمكن أن تحمل تلك القيم وتعبر عنها، يمكنها مثلًا أن تقول إنها تريد لدولتها أن تتميز بخصائص منها اختيار الأمة لحاكمها، وسيادة حكم القانون، وحرية الرأي، وأن يكون كل هذا في نطاق ما تؤمن به من منهج في الحياة، لا يلزم أن يكون مماثلًا لمناهج الحياة الغربية، فإذا كانت أمة مسلمة جعلت كل ذلك في نطاق هدي الكتاب والسنة، وأضافت إليه أمورًا مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على الدين والدفاع عنه، وهكذا، إنه لا يلزم من موافقة الديمقراطية الليبرالية الغربية في بعض الجزئيات أن يأخذ الموافق سائر ما فيها، أو أن يتبنى فلسفتها، أو أن يتسمى باسمها، ثم إن ما في الديمقراطية من حسنات ليس خاصًا بها ولا مرتبطًا بها، بل يمكن أن تخلو هي منه كما يمكن أن يوجد في غيرها، بل قد وجد الكثير منه حتى في حياة جاهليتنا العربية! لكن المجال الآن ليس مجال التوسّع في هذا الأمر^(١).

(١) الديمقراطية اسم لا حقيقة له، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢١٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨١).

فائدة: خطأ زعم ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا الإسلامية من أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية:

يظن بعض العلمانيين في بلادنا الإسلامية أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية، وأن القوم هناك قد اتفقوا جميعاً المؤمنون منهم بالأديان وغير المؤمنين على أن الدولة يجب أن تكون علمانية وأن الدين لا دخل له بالشؤون العامة، بل يجب أن يكون محصوراً في الحياة الخاصة، لكنك إذا تتبعت ما يقوله الغربيون أنفسهم، ولا سيما في الولايات المتحدة تبين لك أن الأمر على غير ما صور لك أولئك العلمانيون في بلدك، وتبين لك أن هذه القضية ما زالت تثير عند أولئك القوم معارك حامية الوطيس، وما يزال كثير من الناس فيها يتجادلون، وعنهما يكتبون ويخطبون، وبسببها يتحزبون، وعلى أساس منها يصوتون. بل إذا تُرجمت لك معاركهم الكلامية في هذه المسألة، وأخفي عنك المكان الذي دارت فيه فلربما تخيلت أنها تدور في بلد إسلامي.

واليك أمثلة على ذلك: التقيت منذ سنين في مؤتمر عالمي برجل أمريكي نصراني عرف أنني مستمسك بديني، فقال لي ناصحاً: لا تُخدعوا كما خُدعنا بالعلمانية، كنا نظنها نظاماً محايداً بين الأديان؛ فإذا بها دين مُعادٍ للأديان. استغربت كما لا بُد أن يكون بعض القراء قد استغربوا في أن يأتي مثل هذا الكلام من رجل غربي. لكن هذا الشعور بخطر العلمانية على النصرانية بدأ الآن يزداد،

حتى إن أستاذ فلسفة كاثولوكي نشر كتابًا في عام ١٩٩٦م نصح فيه إخوانه النصراري قائلًا: من أهم مسائل هذا الكتاب أننا بحاجة إلى أن نعيد النظر في تصنيفاتنا الحالية وصفوفنا الحالية، إننا بحاجة إلى أن ندرك أولًا: أننا في حالة حرب، وثانيًا: أن الأطراف قد تغيرت تغييرًا جذريًا.

كثيرون ممن كانوا أعداءنا (المسلمون مثلًا) هم الآن أصدقاءنا، وبعض من كانوا أصدقاءنا الإنسيون (Humanists) مثلًا هم الآن أعداؤنا. لكن الحملة النصرانية ضد العلمانية ازدادت ضراوة إبان الانتخابات الأمريكية التي صوّر المحافظون فيها الحزب الديمقراطي بأنه حزب العلمانية والليبرالية، والحزب الجمهوري بأنه الحزب المناصر للدين والقيم الخلقية.

فهذا أحدهم يكتب مقالًا بعنوان (الدين في مواجهة العلمانية) يبدؤه بقوله: لقد أصبح الدين واحدًا من أعظم العوامل التي تحدد لك كيف تصوّت. إن الذين يكثرون من الصلاة يميلون إلى أن يصوتوا للحزب الجمهوري، والذين لا يفعلون هذا يميلون للتصويت للحزب الديمقراطي. لقد أظهر آخر استطلاع أن ٦٣٪ من الذين يشهدون مناسبات دينية أكثر من مرتين في الأسبوع يقولون، إنهم سيصوتون للجمهوريين، بينما يقول ٦٢٪ من الذين لا يشهدون مثل هذه المناسبات أو لا يشهدونها إلا نادرًا، إنهم سيصوتون للديمقراطيين. لقد صار غير المتدينين هؤلاء قوة كبيرة في داخل الحزب الديمقراطي؛ يُخشى أن يحولوه إلى حزب علماني، ثم يشكو من كون الإعلام يركز على سيطرة المحافظين الجدد والنصارى المتعصبين من أمثال (فولويل). لكنه -أي

الإعلام - نادراً ما يقول شيئاً عن سيطرة غير المتدينين على الحزب الديمقراطي. وينقل عن وصفهما بـ (عالمي اجتماع) واهتمامهما بهذه القضية قولهما: إنه منذ عام ١٩٩٢م درج من سبعين إلى ثمانين بالمئة من العلمانيين الليبراليين على التصويت للمرشح الديمقراطي، بينما درج ما يقارب ثلثي المتدينين المحافظين على التصويت للمرشح الجمهوري.

وينقل عن امرأة محافظة قولها عن الطريقة التي يصوت بها الناخبون: «إنها في الحقيقة فاصل على خط ديني بين من يعتقدون في حلول بشرية لمشكلاتنا وبين من يعتقدون في حلول مبنية على الإيمان». وهو يفسر موقف الإعلاميين ذلك بقوله: «ربما لأن الصحفيين الذين يتجون معظم الأخبار في أمريكا هم من المناصرين مناصرة كاملة لأعداء المؤمنين».

وينقل عن بعض الإحصاءات: أن ما يقرب من ثلث هؤلاء الإعلاميين يعتقدون أن المسيحيين المنصرين خطر على الديمقراطية، وأن نصفهم يرى أن هؤلاء لهم قوة سياسية زائدة عن الحد. إن ما يقرب من نصف هؤلاء الإعلاميين يصرحون بأنهم لا دين لهم، وما يقرب من ثمانين بالمئة منهم لا يكادون يذهبون إلى الكنيسة.

إن في الولايات المتحدة ظاهرة يسمونها بالحرب الثقافية (حرب الاعتقادات والقيم) ما تزال تزداد مع مرور الأيام استعازاً. لقد كتبت فيها وفي أسبابها ومخاطرها وطرق علاجها كتباً وبحوثاً كثيرة، وما يزال المحافظون والليبراليون يتهم بعضهم بعضاً بأنهم السبب في زيادة حدة هذه الحرب. ينقل

صاحب هذا المقال عن بعضهم قوله: إن الديمقراطيين هم السبب في هذا؛ لأنهم هم الذين جروا الحزب الديمقراطي إلى اليسار.

إن كثيرًا من العلمانيين والليبراليين ومن يمكن تسميتهم بأعداء المتدينين هم الآن ديمقراطيون لدرجة أن بعضهم صار يسمي الحزب الديمقراطي بالحزب الذي لا مكان فيه لله. ومع أن أوروبا هي الآن أقل بلاد الدنيا تدينًا إلا أنه مما أثار حنق الكثيرين من المتدينين فيها، ولا سيّما رجال الكنيسة الكاثوليكية أن الدستور الجديد للاتحاد الأوروبي جاء علمانيًا خالصًا لا ذكر فيه للنصرانية، حتى باعتبارها من المكونات التاريخية للثقافة الغربية.

في أكتوبر من العام الماضي ٢٠٠٤م قال الكاردينال راتزنجر - وهو كما يقال أحد المرشحين لمنصب البابوية - في إحدى المناظرات مبدئيًا قلقه من تزايد العلمانية بالاتحاد الأوروبي: إن العلمانية تقوم على مذهب وضعي يؤدي إلى اعتناق النسبية، وإنه إذا صارت النسبية مطلقة فإنها ستكون متناقضة مع نفسها، وتؤدي إلى تدمير العمل البشري.

وقال: إن من الأسباب التي سُوِّغ بها إغفال ذكر النصرانية أن ذكرها كان سيؤدي إلى إثارة حفيظة المسلمين، لكن الحقيقة كما يقول: هي أن الذي يغضب الإسلام هو الإساءة إلى الذات الإلهية، والخطورة العقلانية اللتان تنتجان الأصولية الدينية.

إن العلمانية كما يقول هذا الكاردينال: عقيدة جزئية لا يمكن أن تستجيب لكل التحديات البشرية. العقل بالعكس - كما يقول - ليس عدوًا للإيمان، لكن

المشكلة تنشأ عندما يكون هنالك احتقار للخالق وللمقدسات.

وقال عن الحرية: إنها تفهم اليوم فهمًا فرديًا مع الناس أنهم إنما خلقوا ليتعايشوا. إن هنالك حرية مشتركة تضمن الحرية للجميع، وتمنع جعل الحرية مطلقة. لقد صارت العلمانية في نظر بعض المتدينين الغربيين أيديولوجية تحدد من الحرية.

وفي هذا الصدد يقول رئيس رابطة أطباء كاتالونيا المسيحيين بإسبانيا لموقع Zenit.org النصراني: إنه إذا كنا قد تحدثنا في الماضي عن أيديولوجيات هدامة: كالفاشية، والماركسية؛ فإننا نشاهد في العلمانية اليوم تقليصًا لحرية التعبير، ولممارسة التدين.

ضرب بعض الأطباء الكاثوليك أمثلة على ذلك بأنه يكاد يكون من المستحيل اليوم أن تحصل على لقب طبيب نساء (Gynecologist) إذا لم تكن قد أجريت عملية إجهاض، وأنهم في فرنسا يمنعون من وضع لافتات تعلن عن مؤتمراتهم بحجة أن هذا مظهر ديني لافت للنظر!^(١)

فائدة: السبب في كراهية الغرب للإسلام وخوفهم منه:

من أسباب ذلك جهل بعض الناس بالإسلام ومن ثم تأثرهم بمثل تلك الدعايات، فالإسلام الذي يمقتونه أو يخافون منه ليس هو الدين الذي أنزل

(١) قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٧٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٢).

على محمد ﷺ، وإنما هو الدين الذي صورته وسائل إعلامهم، وحدثهم عنه سادتهم وزعمائهم.

ومنها أخطاء أو جرائم يرتكبها بعض المسلمين فتعزى إلى دينهم. لكن السبب الأعظم هو كراهية بعض الناس للإسلام؛ لأنهم يكرهون الحق. هذا هو الداء العضال الذي وُجد في الناس منذ أن وجدت رسالات السماء الداعية إلى الحق المبين ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِمْ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغَوْنَ ﴿[الذاريات: ٥٢-٥٣]، فأقول لهم هي ثمرة مرض الطغيان هذا الذي في قلوبهم؛ فهم لم يتواصوا به ولم يكونوا محتاجين إلى مثل هذا التواصي، بل إن كلاً منهم أصيل في الشر أصالة من سبقه؛ فأمرهم هو كما قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

هذا هو القانون الجامع لهم، لكن القرآن الكريم كما أعطانا هذا القانون أعطانا أيضاً أمثلة للأفراد والأمم التي انطبق عليها، فهذا نوح يقول لقومه: ﴿أَنْزَلْنَاكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كِرِهُونَ ﴿٢٨﴾، وهؤلاء ثمود الذين هدامهم الله ﴿فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿١٧﴾، وهؤلاء أعداء محمد ﷺ من العرب الذين قال الله تعالى فيهم ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِمْ حِجَابٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كِرِهُونَ ﴿[المؤمنون: ٦٩-٧٠]، كيف العمل مع أولئك وهؤلاء؟

نعالج كل فئة بحسب السبب الذي أدى إلى مرضها، فأما الجاهلون - ولعلمهم الأكثرية - فمن حقهم علينا أن نعينهم على حججهم واعتراضاتهم، وأن

نجدلهم بالتي هي أحسن.

وأما من كان سبب كراهيته أخطاء وقع فيها بعض المسلمين أو جرائم ارتكبوها؛ فمن حقهم وحق الإسلام علينا أن نعترف بتلك الأخطاء ونبرئ ديننا منها. هذا هو المنهج الذي يدعوننا إليه ديننا.

فعندما قتل بعض المسلمين بعض المشركين في الشهر الحرام، واستغل بعض المشركين هذا لتشويه سمعة المسلمين قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾. فقرر الله تعالى في بداية هذه الآية أن ما فعله أولئك النفر المخلصون من المسلمين كان خطأ كبيراً. وعندما اتهم بعض المنتسبين إلى الإسلام رجلاً يهودياً بالسرقة أنزل الله تعالى في تبرئته اثني عشرة آية من سورة النساء تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] أي لا تكن مدافعاً عنهم.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١١٢] هذا؛ لأن مهمتنا هي الدفاع عن الحق لا عن الخلق؛ ولأن العدل عندنا واجب على كل أحد في كل حال ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، ﴿فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وأما من كان مصاباً بداء الكراهية للحق فلن يرضى إلا إذا كفرنا بهذا الحق بعد معرفتنا له وإيماننا به، ووافقناهم على باطلهم ديناً يهودياً أو نصرانياً محرفاً، أو علمانية تنكر رسالات السماء،

أوغير ذلك من سبل أهل الأهواء.

هؤلاء الكارهون للحق قد يبذلون كل ما في وسعهم من مال ووقت وعلم، بل وقد يبذلون أرواحهم في محاربتة؛ فما العمل معهم؟ هل نستجيب لهم فنكفر كما كفروا؟ كلا، والله، بل لن يزيدنا خلافهم وكراهيتهم إلا استمساكاً بالحق ودعوة إليه قائلين لهم موتوا بغيظكم، موقنين بأن كل جهودهم ستبوء بالإخفاق: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ﴿ يُرِيدُونَ يُغْلِبُوا قَوْلَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ قَوْلِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨] ومع كراهيتنا لما يقولون عن دين الحق، ومع ما تلقاه من عنت، إلا أننا نستبشر بهذا الحملة الظالمة على الإسلام، ونرى فيها دليلاً على أننا صرنا أمة حية، وأن دعوتنا بدأت تؤتي أكلها.

إن الأمة الميتة التي لا رسالة لها ولا نشاط لها لا يؤبه لها، ولا ينشغل الناس بها؛ لأنه لا تأثير لها عليهم. فهذا الانشغال بمحاربة الإسلام والخوف منه واعتباره العدو الأول بعد سقوط الشيوعية دليل على حيوية في هذه الأمة؛ فالحمد لله الذي جعل منا من يكون من أسباب حياتها ونشر رسالتها وادخال الرعب في قلوب أعدائها، ونستبشر بها أيضاً؛ لأننا نعلم أنها من الوسائل التي يسخرها الله تعالى لنصرة دينه واعزازه.

ففي أول موسم للحج بعد إعلان الدعوة المحمدية المباركة خشي أعداؤه بمكة من أن يؤثر في الحجاج، فتفرقوا في كل سبل الحج يحذرون الناس منه ﷺ، لكن ذلك كان من أسباب انتشار ذكره؛ فما رجع حاج إلى قومه إلا

وهو ينقل خبر الفتى القرشي الذي قال إن الله تعالى بعثه رسولا، وهذا ما يحدث في أيامنا هذه؛ فما أكثر الذين لم يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئا ولا يفكرون في معرفة شيء عنه حتى جاء هذا الهجوم الظالم عليه شيئا فأثار حب استطلاعهم، فذهبوا يسألون عن الإسلام ويقرأون عنه، فكان هذا ممن أسباب هداية الكثيرين منهم.

وإننا لنستبشر به؛ لأن الدعاوى الباطلة المثارة ضد ديننا تعطينا فرصة الرد عليها، وإبلاغ صوتنا إلى أقوام ما كانوا يستمعوا إلينا، ولا يهتمهم أمرنا؛ وفي هؤلاء عقلاء يميزون بين الحق الأبلج والباطل اللجلج.

ونستبشر به؛ لأن الخوض فيه كان على حساب أعظم ما يعتز به الغرب من قيم: إذ إن الحرب على الإسلام كانت على حساب دعاوى الحرية، وعلى حساب التسامح الديني، وعلى حساب حكم القانون.

لقد تبين للكثيرين حتي من الغربيين أنفسهم أن قيمهم هذه إنما كانت مبنية على شفى جرف هار، فانهارت في أول مواجهة لها مع الدين الحق. ونستبشر به؛ لأنه مما جعله الله وسائل لتنقية صفوف المسلمين، ونفي الخبث عنها. إن بعض من ينتسب إلى الإسلام ستردد وسيجامل وسينحرف، بل إن بعضهم سيرتد بعد إيمانه كافرًا. فماذا نفع مع هؤلاء؟ هل نبكي وننوح ونستسلم للأحزان؟ كلا، بل نقول: يا عباد الله فاثبتوا؛ فإن الله مستبدل لكم بهم من هو خير منهم ﴿يَتَأْتِيَنَّكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رَبِّكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٥٤﴾ إِنَّهَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾
[المائدة: ٥٤-٥٦] (١).

فائدة: الاختلاف في مفهوم الديمقراطية:

ومما جعل مناقشة الديمقراطية مع مؤيديها والدعاة إليها والراضين بها من المسلمين أمراً صعباً أنه لم يعد لها معنى واحداً عند الداعين إليها، بل صارت تشير إلى معاني عدة يختار كل واحد منهم ما شاء منها، ولا يدري أن صاحبه يُشير بالكلمة إلى معنى غير المعنى الذي يقصده هو. هذا الاختلاف في مفهوم الديمقراطية أمر يشكو منه كبار منظرّيها وفلاسفتها المعاصرين؛ فهذا أحدهم يقول ما ترجمته: هنالك ميل إلى وصف النظام بالديمقراطي فقط لأننا نوافق عليه، ولكننا عندما نفعل ذلك إنما نتحدث عن آرائنا لا عن النظام.

ويقول: المعتقد عموماً أن «الديمقراطية» عبارة صارت تستعمل استعمالاً واسعاً جعلها كلمة غامضة، بل كلمة لا معنى لها، إن كل شكل من أشكال التنظيمات في المجال السياسي (بل وغير السياسي) أصبح يوصف بالديمقراطية أو الديمقراطي (٢).

(١) الإسلام فوييا، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٧٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٣).

(٢) القسطنطينية لا الديمقراطية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٩٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٣).

فائدة: علاقة الديمقراطية بالإسلام،

سنحاول فيما يلي مناقشة صلة الديمقراطية بالإسلام بحسب المعاني المختلفة التي يقصدها أنصارها من المسلمين؛ لأن الإنسان إنما يُسأل عن المعنى الذي قصده من عبارته، حتى لو كان استعماله للعبارة خطأ. وقد أدرنا الحوار في مسائل الديمقراطية هذه بين مسلمين يدعو أحدهما إلى نظام سياسي إسلامي خالص يسميه القِسْطِيَّة، وآخر من دعاة الديمقراطية.

■ يبدأ القِسْطِي الحوار بقوله: دعونا نتفق أولاً على ما نعنيه بالقِسْطِيَّة، وما نعنيه بالديمقراطية، أما القِسْطِيَّة فهي كما يدل عليها لفظها الحكم بالقِسْط، والحكم بالقسط هو الحكم بما أنزل الله تعالى، وما أنزل الله يشمل الأحكام الجزئية التي تدل عليها الأدلة التفصيلية من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ويشمل المبادئ الأساسية التي يسميها الفقهاء بكليات الشريعة التي تقرر فيما تقرر أن كل ما حقق القسط فهو من شرع الله، فتفتح الباب واسعاً للاستفادة من كل تجربة بشرية نافعة أيًا كان مصدرها.

وإذا كانت القسْطِيَّة هي الحكم بما أنزل الله؛ فإن الديمقراطية هي الحكم بما يراه الشعب، هذا هو معناها الذي يدل عليه لفظها، وهو المعنى المتفق عليه بين منظرِّيها، حكم الشعب معناه أن الشعب صاحب السيادة العليا في المسائل التشريعية، وأنه لا سلطة فوق سلطته التشريعية.

وعليه، فإن كل ما حكم به فيجب أن يكون هو القانون الذي يخضع له كل مواطن من مواطني القطر الذي اختار الديمقراطية نظامًا سياسيًا له، لا يمكن

لإنسان يدعي الإسلام ويعرف معناه أن يؤمن بالديمقراطية بهذا المعنى؛ لأنه إيمان يتناقض تناقضاً بيناً مع أصل من أصول الإيمان التي جاء بها دينه، والتي تؤكدتها كثير من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْأَلُكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُلُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كُنْتُمْ مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُومُ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرَأَةٌ بِيَدٍ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٤٠].

ماذا تعنى أنت بالإسلام، وماذا تعنى بالديمقراطية؟

الديمقراطية: أما الإسلام فأظننا متفقون على معناه، وأما الديمقراطية؛ فأنا لا أعنى بها ما ذكرت. هل تتوقع من إنسان مسلم أن يقول إن من حق الناس أن يشرعوا تشريعات لم يأذن بها الله.

ماذا تعني بها إذن؟

لقد عانت الشعوب العربية كثيرًا من الحكم الفردي الدكتاتوري. فالذي أريده هو أن يستبدل بهذا الحكم حكم ديمقراطي يكون من حق الشعب فيه أن يختار حكامه في انتخابات حرة نزيهة، وأن يحاسبهم، وأريده ان يكون حكمًا يلتزم بما يسمى بحكم القانون فلا يفرق بين الناس في المعاملة، وأن يكون حكمًا يستمتع الناس فيه بحقوقهم في الحرية، حرية التعبير، وحرية الحركة، وحرية تكوين الأحزاب والجماعات، وأن يكون حكمًا يتميز بتداول السلطة، وأن يكون حكمًا شفافًا لا تحاك الأمور فيه في الظلام، بل تُعرض على الناس ليقولوا فيها رأيهم. فحكم الشعب في رأيي ليس المقصود به المقابلة بين ما يراه الشعب وما يحكم به الخالق سبحانه، وإنما المقصود به حكم الشعب في مقابلة حكم الفرد.

■ الاستعمال الصحيح للكلمات هو أن يقصد بها المعنى المتفق عليه بين مستعمليها، ولا سيما المختصين منهم بالأمر، فاستعمالك لكلمة الديمقراطية بهذا المعنى المحدود هو استعمال غلط؛ لأنه إذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب، لزم عن ذلك منطقيًا أن كل ما ليس بحكم للشعب فليس بحكم ديمقراطي، سواء كان الحاكم به فردًا أو مجموعة من الأفراد، وحتى لو كان هو الخالق سبحانه، لكنني تمشيًا مع المبدأ الذي ذكرته سأناقشك في الديمقراطية بحسب فهمك الغلط هذا لها.

فأقول لك: إن كل هذا الذي ذكرته هو من مبادئ الحكم التي اختارها

الغريون، فصارت الديمقراطية في نظرك ليست حكم الشعب، ومنهم شعب بلدك، وإنما هي حكم الشعب الأمريكي أو الإنجليزي، لقد تداول مفكروا الشعب الأمريكي وممثلوه مثلًا الرأي في نوع الحكم الذي يروونه صالحًا لبلادهم، وتأثروا في اختيار ما اختاروه بكبار الفلاسفة والمفكرين الأوروبيين، كما تأثروا بتاريخهم وقيمهم الدينية وغير الدينية، ثم اتفقوا بأغليبتهم على وضع دستور يضمن تلك المبادئ، أما أنت فلا تريد لأمتك أن تفكر كما فكروا، بل تريد لها أن تكون أمة مقلدة تأخذ ما توصل إليه أولئك الأصلاء وتطبقه على بلدك مهما كان الاختلاف بينكم وبينهم.

أنا لا أقول بما قلت؛ لأن الغريين قالوا به، وإنما أقول به لأن تلك المبادئ الديمقراطية التي ذكرتها مبادئ إنسانية تصلح لكل البشر في كل زمان ومكان، هذا أولاً ليس بصحيح؛ فقد كان معظم المفكرين الغربيين ضدها، ولم تلقَ هذا القبول والشعبية إلا بعد الحرب العالمية الثانية؛ فهل تقول: إن الناس لم يكتشفوا شيئاً هو من لوازم بشريتهم. ثم إن المبادئ التي ذكرتها ليست من لوازم الديمقراطية بمعنى حكم الشعب، وليست من المتفق عليه بين كل الشعوب التي أخذت بالنظام الديمقراطي.

هل تتكرم بذكر أمثلة لما ترى أنه ليس من لوازم الديمقراطية؟

قد تستغرب إذا قلت لك إن النظام الحزبي ليس من لوازم الديمقراطية، وأن بعض من يسميهم الأمريكيان بالآباء الذين صاغوا دستورهم كانوا ضدها وكانوا يعدونها مما يُذكي الخلاف بين الناس ومما يؤدي إلى الفساد، ولذلك

لا تجد لها ذكرًا في دستورهم. وقد يزيد استغرابك إذا قلت لك إنه حتى الانتخابات ليست من لوازم الديمقراطية.

إن كل ما تتطلبه الديمقراطية هو أن يختار الناس من يحكمهم، أما أن يكون الاختيار بهذه الطريقة المعينة؛ فليس من لوازم الديمقراطية.

كيف يكون الاختيار إذن؟

لقد كان الأثينيون يختارون المسؤولين بالاقتراع. ويرى بعض المفكرين الماركسيين اليوم أن طريقة الاقتراع أقرب إلى فكرة الديمقراطية التي تساوي بين الناس وتفترض أن كل واحد منهم من حقه أن يكون حاكمًا، وهم يرون أن الانتخابات لا تحقق هذه المساواة؛ لأنها تفتح الباب لتأثير المال وتأثير الإعلام والدعايات، ويستدلون على عدم المساواة هذه بالنسبة الكبيرة للرجال في مقابل النساء، وبالنسبة الكبيرة لمن له مال، أو لمن تخرّج في الجامعات في مقابل طبقات العمال والمزارعين والعامّة. ولو كنت ممن يؤمن بالديمقراطية لاتفقت معهم.

نتقل إلى موضوع آخر. ألا ترى في الديمقراطية ما يتوافق مع الإسلام؟

بلى فيها الكثير مما يتوافق مع الإسلام.

فلماذا إذن لا نقول إن الديمقراطية التي نريدها هي هذه المبادئ

الديمقراطية التي تتوافق مع ديننا؟

■ لأنني لا أريد أن أنسب إلى الديمقراطية فضلًا ليس لها، فإذا كان ديني

هو السابق إلى تلك المبادئ الحسنة؛ فلماذا أنسبها إلى الديمقراطية؟ -تنسبها

إليها فقط؛ لأنها تتوافق معها.

■ إن في النصرانية واليهودية الكثير مما يتوافق مع الإسلام مما هو أهم من تلك المبادئ السياسية التي ذكرتها، فهل نقول إن الإسلام نصراني أو يهودي؟ هل تعني أن علينا أن لا نستفيد من تجارب غيرنا، وأن نغلق الباب دون كل فكر حديث وتجربة حديثة؟

■ أنا لم أقل هذا، بل قلت لك: إن مثل هذه الاستفادة هي من لوازم الحكم بالقسط، لكن هنالك فرقاً بين أن ألتزم بديني، ثم أستفيد من تجارب الآخرين فأضع كل جزئية استفدتها في إطار الإسلام، وبين أن أستبدل بإطار الإسلام إطاراً آخر، ثم أضع فيه ما يناسبه مما هو في ديني. وهذا الأخير هو ما تدعوننا إليه أنتم معاشر الداعين إلى الديمقراطية. نسيت أن أسألك: ما المبادئ الديمقراطية التي ترى أنها تتوافق مع الإسلام؟

■ منها مبدأ حق الأمة في اختيار حكامها؛ فيكيفيك فيه هذه القصة التي أوردها الإمام البخاري في صحيحه والتي سنجتزئ كلمات منها لضيق المجال. قال عبد الرحمن بن عوف لابن عباس وهم في منى: «لو رأيت رجلاً أتى أمير المؤمنين اليوم، فقال: يا أمير المؤمنين! هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعت فلاناً؟ فغضب عمر، ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشيّة في الناس فمحذرهم من هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم، من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تَعْرَةَ أن يُقْتَلَ».

■ ومنها المبدأ المسمى بحكم القانون، فيكيفيك فيه قول الله تعالى: ﴿وَلَا

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿ [المائدة: ٨]،
 وقوله تعالى: ﴿فَاعْدِلُوْا وَلَوْ كَانَتْ دَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. وقول الرسول ﷺ:
 «يا أيها الناس! إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه،
 وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت
 لقطع محمد يدها».

■ ومنها مبدأ الإباحة الذي يسمى الآن بالحرية؛ فإن المبدأ الإسلامي
 يقول: إن الأصل في الأشياء الدنيوية هو الإباحة، فالإنسان يتحرك ويتكلم،
 ويأكل ويشرب، ويبيع ويشترى حتى يقول له الدين: لا تفعل كذا أو كذا. وإذا
 كان الإسلام قد جعل الدعوة إلى الله تعالى أعظم مهمة يقوم بها بشر، وإذا كان
 قد جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الصفات المميزة للمسلم؛
 فكيف لا يبيح له أن يعبر عن نفسه؟ لكنها حرية في إطار القيم والأحكام
 الإسلامية كما أن الحرية في البلاد الغربية الديمقراطية هي في إطار قيمهم
 وقوانينهم.

■ ومنها ما صار يسمى بالشفافية، هل رأيت دليلاً عليها أصدق من أننا ما
 نزال نعرف كل ما دار من كلام بين المسلمين في الشؤون العامة في عهد النبي
 ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين، بل نعرف كثيراً مما دار حتى بعد تلك العهود؟
 ألسنا نعرف ما دار في اجتماع المسلمين لاختيار خليفة للرسول ﷺ؟ ألسنا
 نعرف ما دار بينهم في أمر قتال المرتدين؟ ألسنا نعرف كيفية اختيارهم للخليفة
 الراشد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

إذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا تخلف المسلمون في عصورنا هذه في هذه الأمور؟ ولماذا عمت بلادهم إلا قليلاً الحكومات الاستبدادية؟

■ هذه قصة طويلة لعلنا نناقشها في مناسبة أخرى، أما الآن فيكفي أن أذكركم بأن الدين إنما هو هداية وتوجيه، وأوامر ونواه؛ فليس فيه هو نفسه ما يجبر الناس على تطبيق ما يؤمرون به، فإذا كان هنالك من خطأ فهو في الناس وليس في دين الله، ثم إذا كان الناس لم يلتزموا بهذه المبادئ وهم يعلمون أنها من دين الله؛ فهل تظن أنهم سيلتزمون بها لأنها أتتهم من الغرب؟ إنه لا بُدَّ من عمل لإصلاح الأمة لتقبل هذه المبادئ وتضحى في سبيلها. -نحن ندعو إلى الديمقراطية؛ لأن فيها من الآليات ما يحول دون هذا الانحراف؟

■ كلاً، ليس فيها شيء مما تتوهم، بل إن مفكرها يعترفون بأن النظم لا تصلح إلا بصلاح الأمم. وما يُقال عن الإسلام يقال أسوأ منه عن الديمقراطية؛ فليس فيها ما يُجبر الناس على الالتزام بكل مقتضياتها، ولذلك فإن أسوأ دكتاتور عرفه الغرب إنما جاء بانتخابات حرة، أعني هتلر، كما أن كثيراً من الحكومات المنتخبة كانت حكومات فاسدة، بل إن أكبر القرارات والسياسات الظالمة كانت في عصورنا هذا نتيجة قرارات ديمقراطية لا شك في ديمقراطيتها. فاستعمار الغربيين لكثير من بلدان العالم بما فيها البلدان الإسلامية كان نتيجة قرارات ديمقراطية، وغزو أفغانستان ثم العراق وقتل الآلاف المؤلفة من الأبرياء وتخريب البلاد كان نتيجة قرارات ديمقراطية لا يرتاب أحد في ديمقراطيتها. فإذا كان ما حدث في العالم الإسلامي إنما يُعزى إلى البشر لا إلى

الدين؛ فإن كثيراً مما حدث في البلاد الغربية إنما كان شيئاً يأذن به المبدأ السياسي الذي يدنون به. كل هذا صحيح لا يماري فيه منصف. لكن أظنك تسلّم معي بأن هنالك شيئاً يُعزى إلى الدين نفسه.

■ ما هو؟ إن الإسلام يقر مبدأ اختيار الأمة لحاكمها، ولكنه لم يلزم المسلمين بطريقة معينة لاختيار الحاكم.

■ وكذلك الأمر في الديمقراطية، إنها إنما تقول إن المحكم للشعب، وهذا يقتضي أن يكون الشعب هو الذي يختار حكامه، لكن ليس فيها ما يقول إن الحكام أو النواب يجب أن يُختاروا بالطريقة الفلانية، ولذلك فإنهم يختلفون في ما ينهجون من وسائل لاختيار حكامهم. لكنها كلها تقوم على مبدأ الانتخابات.

■ نعم، لكن هذه هي الطريقة التي رأى الغربيون أنها مناسبة لهم في عصرهم هذا وفي ظروفهم هذه، وليست الطريقة التي تلزمهم بها الديمقراطية. والمسلمون يستطيعون أن يختاروا لأنفسهم من الوسائل ما يحقق مبدأ اختيارهم لحكامهم ذاكرين أن الحاكم في الإسلام إنما يُختار ليحكم بما أنزل الله لا برأي من انتخبوه، ملتزمين في ذلك بمبدأ الشورى كما أشار إلى ذلك الإمام ابن حجر في كلمته التي نقلناها آنفاً.

إن عدم تحديد الإسلام للطريقة التي يُختار بها الحاكم هي من محاسنه لا من نواقصه؛ لأن هذه الطرق تتأثر بالظروف والملابسات التي تتغير بتغير الزمان والمكان، ولذلك فإن الغربيين حتى مع اتفاقهم على مبدأ الانتخابات وجدوا أن للانتخابات صوراً شتى تختلف نتائج كل واحدة منها عن الأخرى،

ولذلك اختلفوا في ما يتبنون منها. ولا داعي للدخول في تفاصيلها؛ فهي أمور معروفة^(١).

فائدة: العلاقة بين الداروينية والمعتقدات الدينية:

نظرية دارون:

١- تبدأ بالتسليم بحقائق لا تفسرها، لكنها تعتمد عليها، فهي تبدأ بأن هنالك كائنات حية، وأن هذه الكائنات تتكاثر بالتناسل، وأن المولود يرث بعض خصائص الآباء، وأنه لا يوجد كائنان حيان متماثلات تماثلاً كاملاً في صفاتهما. وإذا كانت لا تفسر وجود هذه الحقائق فأنى لها أن تنفي أن لها خالقاً؟

٢- تفترض النظرية أن للكائنات الحية كلها أصلاً واحداً تكاثرت عنه.

٣- مهمة النظرية هي أن تفسر هذا التكاثر، أي أن تبحث عن الأسباب الطبيعية التي تجعله ممكناً وبهذه المثابة التي نشاهدها.

٤- تقرر النظرية حقيقة مشهودة هي أن الموارد الطبيعية التي تعتمد عليها الكائنات الحية في وجودها محدودة، ولذلك لا يمكن أن تتكاثر تكاثراً لا يحده شيء، بل لا بُدَّ أن ينقرض بعضها ويبقى بعضها.

٥- تقول النظرية إن «الميكانيزم» الذي يجعل هذا ممكناً هو ما أسماه دارون بالانتخاب الطبيعي، أي أن الطبيعة تنتخب بعض الكائنات للبقاء،

(١) القسطنطينية لا الديمقراطية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٢٩٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٣).

وتحكم على بعضها بالفناء، لكن عبارة الانتخاب الطبيعي ليست عبارة علمية؛ إذ إنها تعني أن هنالك شيئاً اسمه الطبيعة هو الذي ينتخب، والانتخاب فعل إرادي؛ ولذلك قال دارون إن غيره سمي هذه العملية بالبقاء للأصلح، ولم يعترض عليه.

٦- فحوى الفكرة التي سميت خطأ بالانتخاب الطبيعي هي أن هنالك علاقة بين الكائنات الحية والبيئة التي تعيش فيها، والمقصود بالبيئة كل سبب خارجي يؤثر في حياتها؛ فهي تشمل وجود حيوانات أخرى، كما تشمل المناطق الجغرافية والأحوال المناخية، وغير ذلك. وبما أن الكائنات الحية حتى التي تنتمي إلى مجموعة واحدة كالكلاب مثلاً أو الأرانب، لها صفات مختلفة، فإن ما كانت صفاته مُعَيَّنَةً له على العيش في البيئة المعينة التي وجد فيها، كانت فرصته في البقاء أحسن من فرصة من كانت بعض صفاته غير مناسبة مع بيئته. فالحيوانات والنباتات تختلف في ألوانها مثلاً؛ فقد يكون لونٌ ما كالبياض مثلاً مناسباً مع بيئة معينة وغير مناسب مع بيئة أخرى، أعني من حيث فرص البقاء أو الفناء.

ضرب أحدهم مثلاً بأنه إذا كانت هنالك أرانب برية في الاسكيمو وكان بعضها أبيض اللون وبعضها بنيًا، وكان هنالك مصطادون للأرانب، فإنه سيكون من السهل عليهم رؤية الأرانب البنية، وعليه فإن عددها سيقبل وربما انقرض إذا استمر الصيد.

إن إنساناً مؤمناً قد يوافق دارون على كل هذا، ويرى فيه تفسيراً طبيعياً

لظاهرة بقاء بعض الحيوانات وانقراض بعضها، بل ولتطورها، ولا يرى فيه ما يتناقض مع إيمانه بالخالق، بل يقول: إنه كما أن الله تعالى جعل النار وسيلة للإحراق، والماء وسيلة للإنبات، فقد جعل هذه أسبابًا لتطور الحيوانات

٧- حتى القول بأن للحيوان كله أصلًا واحدًا نما عنه وتكاثر، ليس فيه - سواء كان حقًا أو باطلًا - ما يتناقض مع وجود الخالق وفاعليته.

٨- إن فكرة التطور التي رأى فيها بعض أهل الأديان غير الإسلامية ما يتناقض مع تصورهم للخلق، لا تتناقض مع التصور الإسلامي له؛ وذلك لأن الخلق عندنا ليس أمرًا يحدث مرة واحدة كما صورته تلك المعتقدات. إن الخلق في التصور الإسلامي أمر مستمر، فما من حادث يحدث في الكون إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته، فالله تعالى خالق كل شيء، فكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في بطن أمه مثلًا هي من خلق الله تعالى.

٩- الذي يتناقض مع الإسلام في الداروينية هو القول بأن البشر تطوروا عن حيوانات قبلهم، إن الله تعالى قادر على أن يفعل هذا، لكنه أخبرنا بأنه كرم الإنسان فخلقه خلقًا خاصًا، ولم يجعله متطورًا عن حيوان قبله، وقد اعترف بعض من يسمون بالداروينيين الجدد بأن هنالك خطأ فاصلاً بين الإنسان وما سبقه من حيوان، وأن هنالك خصائص إنسانية لا يمكن ردها إلى أصول حيوانية سابقة للإنسان.

لكن القول بخصوصية الإنسان لا يعني أنه مختلف في كل شيء عن سائر الحيوان، ولا يعني اتفاقه معها في بعض الخصائص أنه تطور عنها؛ بل إن الذي

خلقه هو خالق الحيوانات قبله، وهو الذي جعل بينها وبينه شبهًا. ألا ترى أن صانع السيارات - والله المثل الأعلى - يمكن أن يصنع سيارة تمتاز عما سبقها من سيارات، لكنها تشابهها في بعض صفاتها؟^(١)

فائدة: دلالة التصميم على وجود الخالق:

الأدلة على أن للكون خالقًا كثيرة؛ لكن من أشهرها ما يسمى بالدليل الكوني ودليل العناية.

-أما الدليل الكوني فحواه أن الشيء الحادث لا يمكن أن يخلق نفسه ولا أن يأتي من العدم، بل لا بُدَّ أن يكون له صانع من غير نفسه، وأن هذا الصانع لا بُدَّ أن يكون غير حادث. المنكرون لوجود الخالق لا يستطيعون أن يفسروا وجود الكائنات الحادثة إلا بأن يقعوا في أحد الخيارين المستحيلين إما أن يقولوا إن الشيء خلق نفسه، أو يقولوا إنه جاء من العدم.

-أما دليل العناية الذي اعتمد عليه صاحب كتاب (الصندوق الأسود) فدليل قديم ومعروف، فحواه أن في الكون تصميمًا يدل على أنه لا يمكن أن يكون خبط عشواء، وإنما هو تقدير خالق حكيم. هذا التصميم أمر يدركه كل متفكر في الكون وليس قاصرًا على الأمثلة التي استدل بها صاحب الكتاب. إن هنالك شمسًا، وهنالك بحرًا، وهنالك سحابًا، وهنالك أرضًا، وهنالك بشرًا،

(١) خبط عشواء أم تقدير حكيم؟ كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٤٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٤).

وهناك حيوانات يقول لك الدليل الكوني إنه لا بُدَّ أن يكون لها خالق أزلي، ويقول لك دليل العناية إن هذه المخلوقات منسقة بحيث تؤدي إلى غايات لا يمكن أن تكون قد جاءت بالمصادفة.

فالشمس تسطع على البحر فيرتفع منه بخار يتحول إلى ماء تسوقه رياح ينزل على أرض خصيبة تنبت نباتاً يأكله بشر وتأكله حيوانات يكون بعضها غذاء لبعض.

المنكرون لوجود الخالق من أمثال بعض الداروينيين يعترفون بهذا لكنهم يصرون على أنه جاء مصادفة ولم يأت عن تدبير، ويغلو بعضهم في هذا إلى درجة سخيفة.

من ذلك، أن عالم دين نصراني اسمه (بالي) كان قد كتب كتاباً نقد فيه فكرة المصادفة وقال: إن وجود هذا التصميم في الكون بالمصادفة كساعة يصنعها صانع أعمى، فكتب رجل من أكبر دعاة الإلحاد الدارويني في أيامنا كتاباً أسماه (صانع الساعات الأعمى) يدافع فيه عن فكرة المصادفة ويزعم فيه أنه وإن كان الكون مصمماً كالساعة فإن تصميمه جاء بالمصادفة فهو كساعة صنعها صانع أعمى! كتاب الله تعالى مليء بتوجيه الأنظار إلى هذا التصميم الذي يشهد لصانعه بالحكمة والإرادة بل والرحمة بعباده.

في مثل هذا التذكير لا يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى عجيب صنعه في المخلوق الواحد، وإنما يدعو إلى النظر في العلاقة بين عدة مخلوقات، وكيف أنها علاقة تؤدي إلى نتائج معينة هي في مصلحة الإنسان.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْقُلُوبِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] (١).

فائدة: الدين الخرافي،

أعني بالدين الخرافي الدين غير العلمي؛ بمعنى أنه لا يقوم على حقائق واقعية، ولا يلتزم بمكارم خلقية. وعليه فليس هنالك من دليل عقلي ولا علمي على دعاواه، بل في العقل والعلم ما يدل على بطلانها، وكلما كثرت مثل هذه الدعاوى في دين ما أو في طائفة تنسب إليه، كان ذلك الدين أو كانت تلك الطائفة أقرب إلى الخرافة. وكلما كان اعتماد من يؤمنون بمثل هذا الدين عليه في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسياساتهم، كان ضررهم على أنفسهم وعلى غيرهم أكبر.

إن ضرر الخرافات والانحرافات الخلقية يكون أكبر حين ترتبط بالدين، حين يعتقد القائلون بها أنها مما أنزله الله تعالى وأمر به: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ

(١) خبط عشواء، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٤٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٤).

مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿ [الأعراف: ٢٨-٢٩] (١).

فائدة: المفهوم الغربي للوسطية:

كلمة الوسطية، التي شاع في هذه الأيام استعمالها بمعنى لكلمة Moderate. نعم، إن المعنى اللغوي لكلمة (مودريت) قريب من معنى المعتدل وغير المتطرف، لكن ينبغي أن نتذكر أن الاعتدال والتطرف من المفاهيم النسبية التي لا يتضح المقصود منها إلا حين توضع في إطارها التصوري؛ فالله تعالى يدعونا لأن نأخذ ديننا بقوة، وأن نعتقد أن ما جاءنا به رسوله هو الحق الذي لا ريب فيه، وأن ما خالفه لا يكون إلا باطلاً وضالاً، لكن المسلم المودريت عند الغربيين ولا سيما الأمريكان، هو الذي لا يأخذ دينه بقوة، بل يجامل فيه ويداهن، ويغير ويبدل بحسب ما تقتضيه أهواء الثقافة الغربية، بل ومصالحها السياسية والاقتصادية، فهو إنسان لا يأخذ النصوص - ولا سيما نصوص السنة النبوية - مأخذ الجد إلا ما كان منها موافقاً لهواه، ويرى الحوار مغنياً عن جهاد القتال، فيطلب من المسلمين أن يظلوا يحاورون ويحاورون، ويحاورون... حتى لو كانت قتابل من يحاورونهم تتساقط على رؤوسهم، ولا يدعوهم لأن يحاوروا فحسب؛ بل يطلب منهم أن يكون حوارهم مع الآخر مبنياً على الاعتراف به. فهو حين يحاور يقول للكافر أو المنافق متلطفًا: هذا رأيي وهذا اعتقادي،

(١) عندما يكون دين خرافي أساسا لسياسة دولة كبرى، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٤٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٤).

ولا حرج عليك في أن ترى غيره، وتعتقد سواء، فنحن جميعًا طلاب حقيقة، يدرك كل منا قدرًا منها، ولا يمكن لأحد أن يدعي أنه قد وجدها كلها، مما يدل على نسبية هذه المفاهيم أن بوش لم يكن يرى نفسه، ولا رآه الغربيون، بل ولا رآه عبيدهم ممن يدعون الليبرالية في بلادنا، لم يره واحد من هؤلاء متطرفًا حين ألقى قبل أيام خطابًا في غاية الحماسة، دعا فيه دفعة من الضباط من خريجي الأكاديمية العسكرية بكلية وست بوينت أن يستعدوا لقتال عدوهم - الإسلام الراديكالي-؛ لأن هذه ستكون أعظم مهامهم، ولا حين قال لهم: إن أمريكا لن تنتظر حتى تُهاجم، بل ستبادر بالهجوم على من يستعد للهجوم عليها، وتقضي عليه في الخارج لثلا تضطر لمواجهته في الداخل.

حين يقول بوش هذا كله لا يكون متطرفًا، لكن إذا دعا زعيم مسلم خريجي كلية عسكرية في بلده أن يستعدوا لإعلاء كلمة الله، ومحاربة أعدائه فإنه يعد من أكبر المتطرفين، ويكون من أكبر الدعاة إلى الكراهية. من الخطأ إذن أن تُعطى الألفاظ القرآنية الدلالات الأيديولوجية التي تعطى للكلمات الغربية، ولا سيما ما كان منها متعلقًا بقضايا في أصول الدين، حتى لو كانت المعاني اللغوية متقاربة، وعليه فإن ما تشير إليه كلمة الوسطية في إطار الهدي الإسلامي لا بُد أن تكون مخالفة لما تشير إليه كلمة مقاربة لها لغويًا في إطار أيديولوجية مخالفة للإسلام^(١).

(١) الوسطية لا التجميعية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٧١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٢٣٨).

فائدة: المعتقدات الفاسدة عند الغرب هي السبب الجوهرى في معاداتهم

للدين الإسلامى وللمسلمين،

من هذه المعتقدات عند بعضهم إيمانهم بالاتصال المباشر بـ (عيسى) باعتباره إلهًا، ولما كان بوش من المنتمين إلى الجماعة التي تقول بهذا فإنه كثيرًا ما يصرح بأن الله (يعني المسيح) هو الذي أمره بغزو أفغانستان، وبغزو العراق، بل ذهب إلى حد القول - كما روى عنه الكاتب نقلًا عن إحدى الصحف - في بعض الاجتماعات: «أعتقد أن الله يتكلم بوساطتي، ولولا ذلك لما استطعت أن أؤدي مهمتي».

ولم ينفرد بوش بمثل هذه الدعاوى، بل إن (توم دي لاي) الذي كان رئيسًا للأغلبية الجمهورية في الكونغرس قال ذات مرة: «إن الله يستعملني دائمًا وفي كل مكان للدفاع عن نظرة الكتاب المقدس العالمية في كل ما أفعل وحيثما كنت، إنه هو الذي يدربني». وكان قد علق لوحة على مكتبه تقول: «قد يكون هذا هو اليوم» أي اليوم الذي ينزل فيه عيسى.

أقول: وقد كانت مثل هذه العقائد الفاسدة هي السبب الجوهرى في معاداتهم الشديدة للدين الإسلامى وللمسلمين والتصريح بهذا العدا والعدوة إلى مواقف شديدة العدا للعالم الإسلامى.

يقول الكاتب: إنه عندما انهار الاتحاد السوفيتى بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩١م سارع المتدينون المحافظون إلى تقديم قائمة بالبدائل: الإسلام قوى الشر الكبرى، العراق بابل الشريرة، صدام حسين المسيح الدجال. هذا أمر لم يصرح به إلا عدد قليل من المسؤولين.

أما المبشرون الأصوليون فإن الكثيرين منهم صرحوا به. فهذا (رتشارد سزك) نائب رئيس رابطة المبشرين القومية يقول لجريدة النيويورك تايمز في عام ٢٠٠٣: «إن المبشرين قد استبدلوا الإسلام بالاتحاد السوفيتي، لقد صار المسلمون اليوم هم إمبراطورية للشر». ويقول: «إن الجماعات التبشيرية الأمريكية تكرر اليوم تجربة الجماعات التبشيرية البريطانية في عداوتها للمسلمين وحماسها للحرب ضدهم.

لقد تضاعف عدد المنظمات التبشيرية في العالم الإسلامي، ويقول: «إنه بحلول عام ٢٠٠٣م لم تعد المنظمات التبشيرية مجرد مؤيدة للحرب كما كانت وصيقاتها البريطانية، بل أصبحت من المخططيين له»، فبعد عام من استيلاء الجيش الأمريكي على بغداد كانت هنالك ثلاثون منظمة تبشيرية، ويقول: «إن المدير الإداري لرابطة المبشرين القومية صرح لجريدة (لوس أنجلوس تايمز) أن العراق سيكون المركز الذي تنتشر منه رسالة المسيح عيسى إلى إيران وليبيا وكل مكان في الشرق الأوسط».

وقال مسؤول في منظمة أخرى: «إن الحال في العراق هي حرب من أجل الروح». ولهذا فإنه في غضون سنتين انطلقت سبع منظمات تبشيرية في بغداد وحدها.

أقول: إن عاقبة هذه المعتقدات الفاسدة لن تؤدي فقط إلى مثل هذه المواقف العدوانية على المسلمين، بل سيكون ضررها في النهاية على الولايات المتحدة نفسها كما يرى ذلك بعض العقلاء من الأمريكان، فأصحاب هذه

المعتقدات لا يرون الحقائق كما هي. فما يراه عامة الناس في الغرب دواهي وكوارث كاضطرابات الشرق الأوسط، وارتفاع أسعار البترول، والسونامي، يرونه هم - كما يقول الكاتب - مبشرات بقرب مجيء المسيح، وكما أنهم يستبشرون بهذه الكوارث، فإنهم لا يؤمنون بحقائق العلوم الطبيعية التي كانت السبب الأساس للتقدم المادي الذي ينعم به الغرب؛ فهم لا يصدقون بما يقوله العلماء عن الارتفاع العالمي في درجات الحرارة، ولا يلقون بالألما يقوله علماء الجيولوجيا من أن النفط بدأ ينضب، وهكذا. ويقولهم هذا يقول الرئيس بوش ويني عليه مواقفه السياسية.

أقول: ولا يلقون بالألما توصلت إليه الدراسات العلمية الأكاديمية بأنه يستحيل أن يكون كل ما في الكتاب المقدس - كما يسمونه - من كلام الله، لأسباب كثيرة منها أن به أخطاء في وصف الواقع، وهو أمر لا يمكن أن يصدر عن خالق الكون، وأن فيه تناقضاً لا يتناسب مع علم الله المحيط، وهكذا لا يلقون بالألما لمثل هذه الدراسات، بل يحتقرونها ويستمرون في اعتقادهم بأن كل ما في الكتاب المقدس كلام الله، وأنه ليس فيه من خطأ.

وهم لا يؤمنون بمبدأ فصل الدين عن الدولة، بل يريدون لأمریکا أن تكون دولة نصرانية؛ لأنهم يعتقدون أن الشعب الأمريكي هو شعب الله المختار، وهذا هو الذي دعا المؤلف أن يسمي كتابه (أمريكا الثيوقراطية). وهو الذي يخشى كثير من الأمريكان أن يؤدي إلى انقسامات حادة في المجتمع قد تؤدي إلى العنف وحمل السلاح. ولذلك فإن الكثيرين ممن كانوا يعدون من قادة المحافظين الفكريين

والسياسيين - ومنهم مؤلف هذا الكتاب - بدؤوا يعلنون اعتراضهم على سياسة الحزب الجمهوري بعد أن استولت عليه هذه الفئة ممن يسمون بـ (المحافظين الجدد) ويحذرون من مغبة عواقبها الوخيمة على البلاد.

وقد كان من أبرز من اتخذوا هذا الموقف الكاتب الشهير (فوكوياما) في كتاب له جديد، الغريب أن الدولة التي تسيّرُها مثل هذه المعتقدات هي التي تطلب من بعض البلاد الإسلامية أن تكون أكثر تسامحًا، وأن تنقي مناهجها الدراسية من مبادئ الولاء والبراء، وكل ما يرون مثيرًا للكرهية^(١).

فائدة: الرد على من زعم أن الإسلام انتشر بالسيف:

نقل البابا عن الإمبراطور البيزنطي كلمته الفاجرة التي قال فيها لمن زعم أنه محاوره: «دلني على شيء جاء به محمد كان جديدًا، ولن تجد إلا أشياء شريرة وغير إنسانية مثل أمره بأن تنشر العقيدة التي جاء بها بالسيف، إن الله لا تسره الدماء، ولا تسره التصرفات غير العقلية». فقلت سبحان الله! رمتني بدائها وانسلت. وهل عهد الناس أهل دين هم أبعد عن العقلانية وأكثر ولوغًا في الدماء وفي ظلم العباد من المنتسبين إلى ما يسمونه بالمسيحية؟

رددت على السخافات التي جاءت في محاضرة البابا كما رد عليها كثيرون غيري من المسلمين وغير المسلمين، وبيننا أن الحروب التي خاضها المسلمون كانت حروبًا ضد الظلم، الظلم بكل أنواعه، ظلم المعتدين على المسلمين،

(١) عندما يكون دين خرافي أساسا لسياسة دولة كبرى، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٨٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٤).

وظلم الصادين الناس عن الدين، وظلم الناقضين لعهود أبرموها مع المسلمين، ولم تكن أبدًا لإدخال الإيمان كرهاً في قلب أحد من العالمين. وبينما أنهم لم يحاولوا ذلك؛ لأنهم علموا من دينهم أن الإيمان مسألة قلبية، وأنه لا مخلوق له سلطان على قلوب العباد.

لكننا في هذا المقال نود أن نقول للبابا: إنه كان يجدر به أن يتكلم عن العنف الذي استعمله قومه الغربيون على مر الزمان لإكراه الناس على قبول دينهم وثقافتهم، ولا نريد أن نفعل كما فعل هو حين استشهد على افترائه بشهادة رجل من بني دينه عدو حاقده مغلوب. لن نستشهد على زعمنا بشهادة رجال مسلمين، وإنما سنشهد عليه شهداء من غير المسلمين، فنقول:

أولاً: هذه هي المؤرّخة الشهيرة (Karen Armstrong كيرن آرمسترونج) تكتب ردًا على محاضرة البابا تبين فيها:

١- إن زعم رجال الفاتيكان بأن غرض البابا هو «أن ينمي اتجاه احترام وحوار نحو الأديان والثقافات الأخرى، ومن البديهي نحو الإسلام» ليس أمرًا واضحًا في كلماته، وتشبهه في هذا برجل دين مثله في القرن الثاني عشر وجه رسالة إلى المسلمين بدأها بقوله: «إنني أريد أن أواصلكم بالكلمات لا بالسلاح، وبالعقل لا بالعنف، بالحب لا بالبغض»، لكنه جعل عنوان رسالته «ملخص لهرطقة العرب الشيطانية كلها». وتحدث فيها عن «قسوة الإسلام الحيوانية» وزعم أن محمدًا وطّد أمره بالسيف. «هل كان محمد نبيًا حقًا؟» تساءل ثم أجاب: «سأكون أسوأ من حمار إذا وافقت. أسوأ من الأنعام إذا أقررت».

٢- تُنكِر المؤرّخة أن يكون الإسلام قد انتشر بالسيف، وهي صاحبة كتاب بالإنجليزية عنوانه «موجز لتاريخ الإسلام A Short History of Islam».
 ٣- وتذكر البابا «بأن بعض الصليبيين الأوائل بدؤوا رحلتهم إلى الأرض المقدسة بذبح كل الجماعات اليهودية الساكنة على ضفاف نهر الراين، وأنهم أنهوا حربهم الصليبية في عام ١٠٩٩م بعد أن ذبحوا ثلاثين ألف مسلم ويهودي في القدس».

فانياً: كتب رئيس حركة السلام (الإسرائيلية) يوري أفيري (Uri Avnery) -الذي وصف نفسه بأنه يهودي ملحد- ردًا علميًا على البابا ذكر فيه من بين ما ذكر المسائل التالية:

- ١- إن الحوار المزعوم أمر مشكوك فيه، وأن الإمبراطور لم يذكر لنا اسم الرجل الذي حاوره.
- ٢- إن الإمبراطور عمانويل الثاني الذي تولى الحكم في عام ١٣٩١م كان على رأس إمبراطورية تحتضر؛ إذ لم يبق لها من محافظاتها إلا القليل، وكان هذا القليل واقعًا تحت تهديد الأتراك.
- ٣- في يوم ٢٩ من شهر مايو عام ١٤٥٣م وبعد عدة سنين من موت هذا الإمبراطور سقطت عاصمته، القسطنطينية (إسطنبول) في يد الأتراك.
- ٤- إبان حكمه تجول هذا الإمبراطور في أوروبا محاولاً أن يقنع الأوروبيين بمساعدته ضد الأتراك، وأن يبدؤوا حربًا صليبية جديدة، واعدًا إياهم بأنه سيوحد

الكنيسة. وأن هذه الرسالة كتبت في هذا الوقت لأسباب سياسية.

٥- محاضرة البابا بندكت السادس عشر كانت أيضًا خدمة للإمبراطور الجديد جورج بوش الذي يسعى لتوحيد العالم النصراني ضد محور الشر الذي هو في غالبه مسلم، وضد مجيء الأتراك إلى أوروبا.

٦- إن قضية معاملة المسلمين لأهل الأديان الأخرى يجب أن يحكم عليها بسؤال بسيط: ماذا فعلوا بهم عندما كانت لهم القدرة على إكراههم على الإسلام؟ إنهم لم يفعلوا شيئًا من هذا. لقد حكم المسلمون اليونان لعدة قرون؛ فهل صار اليونانيون مسلمين؟ لقد تبوأ اليونان النصراني مناصب كبيرة في الإدارة التركية. لقد عاش البلغاريون والصرب والرومانيون والهنغاريون وغيرهم من الأمم الأوروبية تحت الحكم التركي في وقت أو آخر لكن أحدًا لم يكرههم على الدخول في الإسلام، فظلوا على دينهم النصراني.

٧- في عام ١٠٩٩م تغلب الصليبيون على القدس وذبحوا سكانها من المسلمين والنصارى؛ في ذلك الوقت -وبعد ٤٠٠ عام من الحكم الإسلامي كان النصارى ما زالوا أغلبية في القطر.

٨- ليس هنالك من دليل البتة على فرض الإسلام على اليهود، وكما هو معروف؛ فإن اليهود تمتعوا تحت الحكم الإسلامي في أسبانيا بازدهار ليس له مثيل إلا في ما يقارب هذه الأيام. كانوا كُتَّابًا وشعراء ووزراء وعلماء. لقد كان ذلك هو عهدهم الذهبي؛ فكيف يمكن لهذا أن يحدث إذا كان النبي قد أمر بنشر الإسلام بالسيف؟

٩- عندما استولى الكاثوليك على أسبانيا مرة أخرى فإنهم أنشئوا عهداً من الرعب الديني؛ إذ إنهم خيروا المسلمين واليهود بين أن ينتصروا أو يُذبحوا أو يغادروا البلاد، أين ذهب اليهود الذين فضلوا البقاء على دينهم؟ هاجروا إلى العالم الإسلامي، وانتشروا فيه من دولة المغرب في الغرب إلى العراق في الشرق، إلى بلغاريا (التي كانت تابعة لتركيا) في الشمال، إلى السودان في الجنوب.

١٠- إن كل يهودي مخلص يعرف تاريخ قومه لا يملك إلا أن يشعر بالعرفان العميق للإسلام الذي حمى اليهود لمدة خمسين جيلاً، بينما كان العالم المسيحي يعذبهم ويحاول إكراههم بالسيف على التخلي عن دينهم.

ثالثاً: إن استعمال النصارى للعنف في فرض ثقافتهم على غيرهم لم ينته بنهاية القرون الوسطى، وإنما هو أمر مستمر إلى يومنا هذا، استمع إلى (هتنتجتون) وهو يقول في كتابه الشهير (صراع الحضارات) وفي صراحة عجيبة: «لم يتغلب الغرب على العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه (الذي لم تعتقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى) وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم. إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً».

رابعاً: إن غزو الغرب للعالم باستعمال ذلك العنف المنظم كان أمراً تواطأ عليه كل الناس في الغرب إلا ما ندر؛ فهذا هو الأستاذ (إدوارد سعيد) يحدثنا في كتابه (الاستعمار الثقافي Cultural Imperialism) أنه كان أمراً تواطأ

عليه السياسيون والمفكرون والفلاسفة والشعراء وكتب القصص الشهيرة من أمثال ديكنز وغيرهم.

أقول: ونحن كثيرًا ما ننسى أمرًا يؤيد كلام (إدوارد سعيد) هذا إن الحركة الإمبريالية الاحتلالية للعالم كانت بقرارات ديمقراطية في كل البلاد الأوروبية، وأن حركة استجلاب الأفارقة من بلادهم واسترقاقهم كانت أيضًا بقرارات ديمقراطية (بينما لم يكن تحريرهم بقرار ديمقراطي كما يحدثنا فريد زكريا في كتابه عن مستقبل الحرية) مما يعني أن غالبية ممثلي الأمة بمن فيهم المتدينون كانوا مؤيدين لها^(١).

هائدة: دعوى نسبية الحقائق إلى العالم المتحضر:

ينسب البعض القول بنسبية الحقائق إلى العالم المتحضر، فكأن الناس في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغيرها من دول (العالم المتحضر) قد أجمعوا كلهم على هذا الرأي، أو كأنه قد أصبح الرأي الغالب عندهم، هذا مع أن القول بنسبية الحقيقة إنما هو قول لقلّة من الفلاسفة، أما جماهير الناس عندهم - كما الناس في كل بلاد الله - فلا تقول بها، خذ مثلًا على ذلك:

تقول الإحصاءات الغربية: إن معظم الناس عندهم يؤمنون بوجود الخالق، فهل تراهم يؤمنون بأن وجوده حقيقة نسبية تصح في مكان دون مكان وفي زمان

(١) انتشار النصرانية بالسيف، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٨٧)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشييليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

دون زمان؟ والقلة الملحدة منهم هل تقول: إن عدم وجوده أمر نسبي يصح في مكان دون مكان وزمان دون زمان؟ والنصارى المؤمنون بأن المسيح ابن الله، هل يعتقدون أن هذه حقيقة نسبية؟ وعلماء الطبيعة هل يقولون: إن كل ما اكتشف من حقائق الطبيعة هو أمر نسبي، وأنه سيأتي زمان يصح فيه القول بأن الأرض ليست كروية، وأنها أكبر حجمًا من الشمس، وأنها ثابتة لا تدور؟ القول بالنسبية ليس -إذًا- أمرًا مجمعًا عليه بين الغربيين، بل ولا هو رأي أغليبتهم، بل إن القائلين بها يختلفون في معناها ومداهما اختلافًا كبيرًا، ولعل من غلاة القائلين بها الفيلسوف الأمريكي المعاصر (رورتي) الذي ذهب إلى حدّ القول بأن كلام العلماء الطبيعيين عن الواقع هو وجهة نظرٍ شأنها في ذلك شأن كلام الشعراء!

والدعوة إلى النسبية دعوة تحمل نقضها في أحشائها؛ لأنك إذا قلت: إن الحقيقة نسبية، فإن هذا يصدق على كلامك هذا فهو -أيضًا- نسبي، أي: إن القول بأن الحقيقة نسبية هو نفسه حقيقة نسبية.

ولذلك فإنه يتعذر على القائلين بها أن يلتزموا بتائجها فيما يقولون، بل إنهم يفترضون كما يفترض كاتبنا هذا أن قاعدة كل شيء نسبي لا تنطبق على ما يقول هو أو يراه^(١).

(١) هيام بالغرب يعمي ويصم، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٩٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

فائدة: حينما يفتتن بعض أبناء المسلمين بالغرب:

يزعم البعض من المسلمين أن الآخر مؤهل للحوار معنا أكثر مما نحن مؤهلون للحوار معه. لماذا؟ لأننا لا نعرف عنه شيئاً بينما هو يعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا. علينا أن نعرف أن اكتشافنا لكنوز حضارتنا جاء عن طريق مدارس الامتسحاق التي نبهتنا لهذه الكنوز ونحن عنها غافلون، أصحيح هذا؟ أصحيح أننا لا نعرف عن الغرب شيئاً، نحن الذين يتكلم الآلاف منا لغات الغرب وتقرأ كتبه وصحفه وتستمع إلى إذاعاته وتتعلم في جامعاته وتزور بلاده وتسكنه فيها، بينما الذين يعرفون شيئاً من لغاتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما هم أهل الاختصاص منهم؟ نبهنا المستشرقون إلى كنوز لنا؟ الحمد لله، فنحن -إذا- أمة لها كنوز يعترف بقيمتها حتى عدد من أبناء العالم المتحضر. وإذا كنا نشكر أولئك المستشرقين على اكتشاف شيء من كنوزنا فإننا نحمد الله أن جعل لنا فضل سبق إلى دين هديتهم تلك الكنوز إليه فأمن كثيرون منهم، بل يقال: آمن أكثرهم به بعد أن كانوا تائهين في ظلمات الشرك والأديان الباطلة، لقد أعطيناهم -إذا- أحسن مما أعطونا والله الحمد والمنة.

ويقول البعض كاذباً: بينما نحرم نحن على من يقيم منهم بين ظهرانينا أن يحتفل بمناسباته الدينية في بيته خلف الجدران والأبواب المغلقة، بينما كنائس النصراني بالنسبة لأعدادهم في بلادنا أكبر من نسبة المساجد في بلادهم بالنسبة لأعداد المسلمين فيها؟ كيف يقال هذا والنصارى يحتفلون بأعيادهم في بعض البلاد العربية حتى على شاشات القنوات الرسمية؟

ويقول آسفًا: وهما نحن نلعنهم في صلواتنا ونفرُّ منا يمتشقون السيوف والعبوات الناسفة ليَجبروا الناس على الدخول في حظيرة الدِّين بينما هم يبنون المستشفيات ويقدمون المساعدات الإنسانية ويصلون للمكروبين، يا للعجب! أيقال مثل هذا الكلام عن الغرب الذي احتلَّ واسترق وانتَهك الحرمات؟!!

أيقال هذا والأخبار تترى عن استمرار قوات الناتو في قصف القرى الأفغانية قصفًا لا يفرق بين محارب ومسالِم، وصغير وكبير ورجل وامرأة؟!!

أيقال مثل هذا عن الغرب وقواته مستمرة في عدوانها على شعب العراق، وإسرائيل تدمر البلاد وتقتل الأبرياء في فلسطين بمباركة منه؟!!

أيقال هذا في زمان (أبو غريب وغوانتانامو)؟! ولكن لا عجب فإن التَّيَم يعمي ويصم، ثم إن الذين امتشقوا السيوف صرحوا بأنهم لم يمتشقوها لدعوة إنسان إلى الإسلام، وإنما فعلوا ما فعلوا بدعوى الانتقام لإخوانهم الذين عانوا من ظلم أمريكا في فلسطين. كيف يكون قصدهم أن يجبروا على الدخول في الإسلام من هم عازمون على قتله؟ أيسلم بعد أن تفارق روحه جسده؟!!

واستمع إلى ما يقوله البعض عن التبشير النصراني: لا يمكننا فصل الدين عن الحضارة، فالمجتمعات المتحضرة تمارس دينها، أيًا كان ذلك الدين، وتدعو إليه وفق أساليب متحضرة، وتقدِّمه كخيار حرٍّ لمن يجد فيه ما يروي ظمأ الروح ويقود إلى طمأنينة النفس ويلبِّي حاجة الوجدان ونوازع الضمير.

قارن هذه الصورة الخيالية الدعائية بالواقع الذي يرويه لنا أصحاب تلك الدول المتحضرة. فهذا (هنتجتون) يقول: إن الثقافة الغربية فُرِضت على الناس

باستعمال العنف، وهؤلاء أئمة النصارى في أمريكا يتحدثون عن أظهر رجل عرفته البشرية بكلام بنديء لا يقال حتى عن عامة المفسدين، وهذا أحدهم يحث حكومته على دك الخرطوم بالطائرات، وذاك وذاك. لكن ماذا يجدي بيان الحقائق لقوم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون؟^(١)

فائدة: الغربيون يعتبرون الدين الإسلامي هو الخطر على حضارتهم

وليس الإرهاب وحده:

إن تصرفات الساسة الغربيين، ولا سيما الأمريكان منهم والبريطانيين، تدل على أنهم لا يحصرون الخطر الإسلامي على حضارتهم في ما يسمونه بالإرهاب، بل يجعلونه في الدين الإسلامي نفسه، ولهذا صاروا يصفون حربهم على الإسلام بأنها حرب قيم وأنها معركة لكسب القلوب والعقول، إنها معركة لأن الإسلام رغم ضعف أهله المادي هو كما يقولون أكثر الأديان انتشارا في بلادهم.

لكننا مرة أخرى نتساءل: ما الخطر في هذا على الحضارة الغربية؟ إذا كانت هذه الحضارة قد قبلت النصرانية واليهودية وهما دينان شرفيان، وإذا كانت قد استفادت في تاريخها من نتاج الفكر الإسلامي في مجالات الدين والفلسفة والعلوم، وإذا كانت قد قبلت العلمانية بل والإلحاد وغير ذلك من

(١) هيام بالغرب يعمي ويصم، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٣٩٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

أنواع الأيدولوجيات، فما الذي يمنعها من أن تقبل الإسلام إذا كان هذا هو ما اختاره بعض أهلها لأنفسهم طوعاً لا كرهاً؟ إنه لا إجابة عن هذا السؤال الصعب إلا القول بأن الأمم الغربية رغم تعددها وتفاوتها ورغم تعدد مكونات حضارتها وتنافرها إلا أن فيها فكرًا يمثل غالبيتها ويشيع بينها، ويؤثر في تصرفاتها، وأنه هو الذي يحدد موقفها من غيرها من المعتقدات والقيم ولا سيما الإسلامي منها.

لكن هذا ليس بالشيء الغريب ولا الخاص بالحضارة الغربية وأممها، بل هو سنة اجتماعية عامة قررها كتاب ربنا الذي نقرأ فيه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فكل أمة صغيرة كانت أم كبيرة لها أعمال تراها حسنة سواء كانت هذه الأعمال في نفسها صالحة أو كانت فاسدة.

لاحظ أن الآية الكريمة تحدثت عن تزيين العمل لا عن الاعتقاد مع أن العمل تابع للاعتقاد، ربما لأن المقصود هو الاعتقاد الذي يؤثر في العمل ويوجهه لا الذي يدعيه الناس بألسنتهم. في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن هذه السنة الاجتماعية:

- منها أن ذلك العمل المزين هو الذي يجمع الأفراد وينشئ بينهم ودا يجعل منهم أمة معينة: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ناصريين﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال ابن كثير: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب ﴿مُودَّةً بَيْنَكُمْ﴾ على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخذاكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ثم يوم القيامة ينعكس الأمر فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنأنا.

- ومنها أن الأمة إنما تتخذ مواقفها من غيرها بحسب قربه أو بعده من هذا العمل المزين الذي يجمع بينها، فهي لا تتحمل ولا تتسامح مع من يخالفها فيه مخالفة كاملة ويعترض عليها، وإن كان من أبناء وطنها. ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظْهَرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُواكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

- ومنها أنه قد تشد جماعة من الأمة فترى ما لا ترى غالبيتها: ﴿وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُزِيلَتْ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
رَفِيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ
صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾
[غافر: ٢٨].

- ومنها أن العقوبة تكون لمن كان على الحق إما بغلبتهم على أعدائهم،
وإما بانتقام الله تعالى من أولئك الأعداء كما نرى ذلك في قصص كل الأنبياء مع
أقوامهم المعادين لهم.

ما العمل الذي زين للغريبين؟

نعود بعد تقريرنا لهذه السنن الاجتماعية التي فصلها لنا كتاب ربنا إلى
سؤالنا الذي بدأنا به: ما العمل الذي زين الله تعالى للأمم الغربية والذي هو
سبب عدائها للإسلام وأهله؟

إنك لا تجد جوابًا واضحًا عن هذا السؤال في ما يسمى بالنظريات
أو الفلسفات أو الأيدولوجيات السياسية الغربية. فالغرب ليس من حيث هذه
النظريات أو الفلسفات أو الأيدولوجيات أمة واحدة وإنما هو أمم مختلفة ودول
حدثت بينها حروب وتفرقت أحزابا وجماعات^(١).

(١) عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ
إدريس (ص: ٤١١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته -
بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

فائدة: العناصر المشتركة التي تمثل القيم الغربية في العصر الحاضر:

فما القيم الغربية هذه التي تجعل من الغرب كله أمة واحدة في مقابل الأمم الأخرى ومنها الأمة الإسلامية؟ إن الذي يكادون يجمعون عليه هو ما يعدونه من مصادر ثقافتهم العامة أو مكوناتها. وهو الفكر اليوناني والحضارة الرومانية والديانتان اليهودية والنصرانية والفلسفة الليبرالية والديمقراطية وحركات الإصلاح والنهضة والتنوير. لم أذكر الإسلام لأنه ليس من المصادر المعترف بها عند عامتهم، وإن كان مما يعترف به قلة من علمائهم.

فهذا أحد مؤرخيهم الكبار المعاصرين يقول: «إن أوروبا كانت في القرون الوسطى مدينة بالشيء الكثير للإسلام وأنها لم تكن مدينة لأية مدينة أخرى مثلما كانت مدينة للإسلام».

إذا تأملنا في هذه الثقافة المعترف بها تاريخياً وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم، إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك.

واليك أمثلة على ذلك:

الفكر اليوناني: يعتقد عامة الغربيين أن الفكر اليوناني هو أساس فكرهم، حتى قال أحد فلاسفتهم إن الفلسفة الغربية كلها إنما هي حواش على كتابات أفلاطون. هذا الفكر اليوناني هو أول ما يرجعون إليه في تأريخهم لقضية من القضايا العلمية أو الأدبية أو الفنية. لكنهم يعتقدون فوق ذلك أن الفكر اليوناني هذا هو الذي وضع أسس الفكر العقلاني المعتمد على المنطق (أليس

ارسطاليس هو واضع علم المنطق؟»، وأن الأمم الأخرى - ومنها العرب - لا تعرف هذا التفكير العقلاني المنطقي.

حتى قال أحد كبار المستشرقين عن العرب: «إنهم لا ينكرون التناقض، بل يعدونه مما يزيد العبارة غنى. هذا مع أن العرب عندما اطلعوا على علم المنطق لم يروا فيه شيئاً جديداً، حتى قال قائلهم: إنني كنت أعلم دائماً أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا يتتفع به البليد»؛ ذلك لأن الأسس التي يقوم عليها هذا العلم هي من المعايير العقلية التي فطر الله عليها البشر أياً كانوا وخاطبهم بها في رسالاته، والعرب كغيرهم من البشر يعلمون بطلان الكلام المتناقض ولذلك فإنهم يحتملون في لغتهم كل شيء إلا التناقض.

قال سيوييه عن العرب: «ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه؛ لأنه مستقيم ليس فيه نقض»، والحضارة اليونانية كانت رغم انجازاتها الفكرية الكبيرة حضارة شرك وفحش، لم يكن شركها كما كان شرك العرب محصوراً في الألوهية، بل كان شركاً في الربوبية أيضاً فلم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم مجرد وسائل تقرب صاحبها إلى الله تعالى، بل كانت تحل محله سبحانه. فهذا رب للحب، وذاك رب للجمال، وثالث رب للحرب وهكذا. وكانت حضارة فحش لا ترى بأساً بالعري كما تدل على ذلك تماثيلهم المنحوتة وصورهم المرسومة وقصصهم وأشعارهم التي يشيع فيها قصص البغاء والشذوذ الجنسي الذي كان معروفاً حتى بين كبار مفكريهم وفلاسفتهم. وقد اهتم مؤرخو هذا الفكر حديثاً بهذه القضية وكتبوا فيها كتباً يقال إن

أهمها كتاب نشر في عام ١٩٨٧م، ثم تبعه سيل من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

الديانة اليهودية: إن الله تعالى يفضل الناس ويكرمهم بأعمالهم الصالحة الاختيارية، وقد فضل الله بني إسرائيل على غيرهم عندما كانوا آخذين برسالة موسى. لكن تحريف الدين والفهم السيء له حول هذا التفضيل إلى مسألة عرقية فصاروا يعتقدون أنهم باعتبارهم عنصرًا هم شعب الله المختار، ثم انتقلت هذه الفكرة إلى الديانة البروتستانتية، ثم صارت عن طريقها كما يذكر لنا صاحب كتاب الشيوقراطية الأمريكية جزءًا من التفكير القومي للشعب الأمريكي ومن قبله للشعب البريطاني وللأمريكان الذين حكموا جنوب أفريقيا.

فاعتقاد الشعب الأمريكي بأهميته القومية الذاتية ليس سرًا لا في داخل أمريكا ولا في خارجها كما يقول لقد ظل الأمريكيان منذ قرون يعتقدون أنهم شيء خاص، شعب وأمة اختارها الله لتقوم بمهمة فريدة بل خيرة في العالم.

والرؤساء المنتخبون يجنحون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها وما يسمونه بالكتاب المقدس مليء بقصص من الفحش منسوبة إلى أنبياء الله - أكرم خلق الله. وقد استغل بعض الملحدين هذه الحقيقة فنشروا كتبًا أحصوا فيها كل النصوص التي فيها ما اعتبروه نوعًا من الفحش ثم طالبوا بأن يكون هذا الكتاب من الكتب التي تسمى بالفاحشة والتي يمنع وضعها بين أيدي الأطفال!!

الديانة النصرانية: أما الديانة النصرانية فأخذت عنصر الاستكبار من العهد

القديم الذي تعده جزءاً من دينها كما رأينا في ما نقلنا قبل قليل، ثم زادت عليه أنه لا نجاة لأحد من الأولين والآخرين لم يتشرف بالإيمان بربوبية عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واعتبار موته تكفيراً عنه، وأن هذا تكفير حاصل لا محالة لكل من اعتقد ذلك الاعتقاد مهما كانت سيئاته وجرائمه، هذا مما يزين الفحش لمن كان شخصاً عادياً ضعيفاً، لكن النصرانية زادت هذا الإغراء به في طلبها من قساوستها أمراً مخالفاً للفطرة كانت نتيجته الوقوع في الفواحش سرّاً والتستر عليها. وقد استغل هذا خصومهم من الملحدين والمنكرين للدين أسوأ استغلال، حتى عدّه الفيلسوف البريطاني الشهير من أسباب كونه ليس مسيحياً.

هاتان الديانتان اللتان كانتا في الأصل ديانتي توحيد مبنيتين على وحي الله تعالى إلى موسى ثم إلى عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ صارتا بعد التحريف ديانتي شرك. فاليهود أشركوا بتحريفهم لكلام الله ورفضهم لنبي الله عيسى ثم لنبيه محمد ﷺ مع أنهم مأمورون في كتبهم بالاعتراف بهما بل باتباعهما عند ظهورهما. وكان الاستكبار من أسباب هذا الرفض.

الحضارة الرومانية: ورث الغرب من الحضارة الرومانية فكرة الجمهورية وفكرة الامبراطورية التي توسعت بغزو إمبريالي فيه كثير من القسوة واخضاع للشعوب كما يحدثنا المؤرخون الغربيون. وكانت تعج بديانات وثنية قبل أن يجعل الإمبراطور قسطنطين النصرانية ديانة رسمية لها.

حركتا الإصلاح والبعث: من أوضح مظاهر الغرور في الثقافة الغربية أنهم يرون أن هنالك نقصاً في كل حضارة أو ثقافة أو ديانة لم تمر بالتاريخ الذي مرت

به حضارتهم وثقافتهم وديانتهم، فمما يأخذونه على الإسلام مثلاً أنه لم تحدث فيه حركة إصلاح كحركاتهم تعيد تفسير الدين وتفهمه فهمًا جديدًا يتناسب مع أهواء الثقافة الشائعة. وهم ما يزالون يأملون أن يحدث شيء من هذا حتى يقترب الإسلام من ثقافة الغرب وقيمه. وما زال بعض المغفلين في بلاد الإسلام يغرونهم بأن هذا سيحصل وأن الإسلام سيعود قريبًا دينًا معاصرًا لا خلاف بينه وبين متطلبات الحضارة الغربية.

حركة التنوير: توصف الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر في أوروبا بحركة التنوير وبكونها كانت حركة عقلانية، لكنها هي الأخرى لم تنس نصيبتها من الدعوة إلى الفحش وتزيينه.

الليبرالية: تقوم الليبرالية على فكرة هي في جوهرها صحيحة، فكرة تقول إن لكل فرد حقوقًا لا يجوز لأحد أن يتغول عليها حاكمًا كان أو أغلبية مواطنين. هذه الحقوق هي في الأصل حقوق أعطها الله تعالى لعباده كما نجد ذلك في القرآن الكريم. فلما غلب الشرك وغلبت العلمانية على الحضارة الغربية ففصلوا مفهوم هذه الحقوق عن أصله ثم لم يجدوا لها أصلًا آخر يتفقون عليه إلا كونها وثيقة أجازتها الأمم المتحدة، أو وضعت في دستور بلد من البلاد.

وبهذا صارت هذه الحقوق نفسها هي مما أعطاه بعض الناس لآخرين. ولما كان من أعطوها من المتأثرين بقيم الشرك والاستكبار والفحش فقد فسروا كثيرًا من هذه الحقوق بحسب أهوائهم تلك فجعلوها أو أكثرها انحرافًا عن الفطرة السوية. فسروها بحرية الكسب الذي لا قيود عليه فكان أن أدى إلى

الرأسمالية، وكان مثلهم كمثّل مدين قوم شعيب الذين اعترضوا على أوامر الله في الكسب ﴿ قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلُوكَ فَأْمُرْكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤَنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَمْتٌ الْحَلِيمُ الزَّوْشِيُّ ﴾ [هود: ٨٧].

ثم زعم بعضهم تمثيلاً مع فكرة الغرور تلك أن هذه الليبرالية مع أختها الديمقراطية (التي هي في الحقيقة متناقضة معها) هي نهاية التاريخ في مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن العالم كله سائر في الطريق الذي رسمته له وسارت فيه الحضارة الغربية، لكن يشكر للرجل أنه استثنى في كتابه المسلمين الذين قال إنهم ما يزالون يتصورون أن لهم بديلاً هو خير من الليبرالية ومن الديمقراطية.

ويشكر له ثانياً أنه تنازل عن تلك الفكرة السخيفة وإن كان السبب الذي دعاه للتنازل عنها هو أيضاً سبب سخيف، وكما فسروا الليبرالية تفسيراً جعلها تؤدي إلى الرأسمالية فقد غلوا في تفسير ما تدعو إليه من حرية وجعلوا أكبر همهم فيها حرية الفحش الجنسي الذي أدى في ما أدى إليه من إضعاف للأسرة، وانحدار عظيم في معدلات الإنجاب، حتى قال قائل منهم: إننا لم نعد نحتاج إلى عدو خارجي يهزمنا بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار. وحتى قال كبير من كرادلتهم: هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون ديمقراطية حقاً؟ وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين؟

قال الكاردينال الاسترالي جورج بل هذا الكلام في محاضرة ألقاها

بالولايات المتحدة، يحذر فيها الغرب من أن الإسلام قد يكون هو البديل إذا لم يعدل الغرب من ديمقراطيته التي وصفها بالفارغة والأنانية بيد أنه رغم وجود أصوات معارضة كهذه فقد صارت الحرية الجنسية من أهم الحريات التي يتحدث عنها الغرب إن لم تكن أهمها.

الديمقراطية: في النظام الديمقراطي كما هو مطبق في الدول الغربية ودول أخرى كاليهند محاسن كثيرة ولا سيما إذا ما قورن بنظم أخرى كالنظام الذي كان سائدًا في الاتحاد السوفيتي، وككثير من النظم الدكتاتورية أو شبه الدكتاتورية التي ما تزال سائدة في بعض البلاد. أعمت هذه المحاسن كثيرًا من الناس عن أن أصل الديمقراطية أصل شركي يعطي بعض البشر حق التشريع لبشر آخرين مع أن هذا الحق إنما هو حق لله تعالى، ونسوا أن ما فيها من محاسن ليس بخاص بها وأن كثيرًا منه ليس من لوازمها، ونسوا أنه ليس فيها محتوى خلقي وأنها لذلك لم تمنع المستمسكين بها من الإقدام باسمها على استعمار الشعوب واحتلالها واسترقاق أناس ولدتهم أمهاتهم أحرارًا.

العلوم الطبيعية: من المعلوم أن أحسن ما في الحضارة الغربية هو تقدمها الهائل في مجال العلوم الطبيعية وما بني عليها من تقنية كانت هي سبب قوتهم الاقتصادية والعسكرية ووسيلتهم إلى استعمار كثير من بلدان العالم واحتلالها. ليس في هذه العلوم نفسها ما يجعلها متناقضة مع عقيدة التوحيد أو يدعو إلى فحش أو استكبار، لكن الغربيين ربطوا بينها وبين كل ذلك بسبب قيمهم تلك المنحرفة:

(١) غرثهم معرفتهم بالسنن التي أودعها الله تعالى في ما أسموه بالطبيعة، ومعرفتهم لذلك بأسباب كثير من المسببات فصار الغالب عليهم فصل هذا العلم عن الدين، واعتبار الطبيعة كوناً مكتفياً بنفسه تفسر ظواهره الطبيعية بظواهر أخرى أخرى طبيعية ولا يجوز تفسيرها بأسباب خارجة عن هذا الكون، حتى صار هذا التفسير الإلحادي جزءاً من مفهوم العلم كما قلت ذلك في عدة مناسبات وكتابات.

(٢) وغلا بعضهم فصار يعتقد أنه لا حق إلا ذلك الذي يأتي عن طريق منهج هذه العلوم فأغراهم هذا بإنكار كل ما جاءت به الأديان اعتماداً على الوحي الإلهي.

(٣) بل إن بعضهم صار يستغل هذه العلوم لتأييد الميل إلى الفواحش التي منها فاحشة الشنود، وقالوا: إنها عند بعض الناس شيء فطري موجود في (جيناتهم).

(٤) ثم ارتبط هذا التطور العلمي بالغرور الأوربي إذ اعتقدوا أنهم إنما سبقوا غيرهم فيه بسبب عقلانيتهم التي ورثوها عن اليونان، وأن غيرهم لم ينجز ما أنجزوا؛ لأنهم ذوو تفكير خرافي.

(٥) وقد زاد من فنتهم بهذا تخلف المسلمين في هذه المجالات، تخلفاً بدوا يعزونه إلى الدين الإسلامي، ويقول بمثل قولهم فيه بعض المرتدين من المتسبين إليه^(١).

(١) عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤١١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

فائدة: طبيعة القيم الغربية:

هناك مصادر ومكونات متنافرة في الحضارة الغربية فكيف صارت هذه المصادر والمكونات شيئاً واحداً يسمى بالقيم أو الثقافة الغربية؟

١- صارت كذلك أولاً لكونها كلها جزءاً من تاريخهم الذي ما يزالون يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، والذي ما يزالون يكتبون عنه ويتأثرون به.

٢- وصارت كذلك لأنه ما من مكون من مكوناتها إلا وله أنصار كبار من المفكرين أو من الجماعات أو الأحزاب، وصارت كذلك لأن العلمانية وهي امتداد للشرك الموجود في كل تلك العناصر التي ذكرناها قد صارت هي الثقافة الطاغية التي يعاد تفسير العناصر الأخرى - بما فيها العناصر الدينية - لجعلها موافقة لها أو متسامحة معها.

وصارت هذه الأديان تمدح ويتسامح معها بقدر تصالحها مع العلمانية وخدمتها لها. فهذا هو الفيلسوف الألماني الشهير هابرماس المعروف بعلمانيته يقول: النصرانية لا غيرها هي الأساس النهائي للحرية والضمير وحقوق الإنسان والديمقراطية - وهذه هي أهم معايير الحضارة الغربية.

وقبل قرن كتب عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر كتابه الشهير عن الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية، والنصارى بدورهم جعلوا يفسرون الدين تفسيراً يتوافق مع أهواء عصرهم. فأكثر كتابهم اليوم لا ينكرون الشذوذ ويفسرون قصة قوم لوط وما حصل لمدينتهم سردوم إما بأنها قصة رمزية، أو أن الذين أنكروا هذا الفعل من كتاب البابل كانوا متأثرين بثقافة عصرهم.

٣- ولأن الفكر العلماني وما يستتبعه من قيم صار هو الفكر الطاغوي الذي يمثل الإطار العام للثقافة الغربية وقيمها أضححت الخلافات خلافات في داخل هذا الإطار فلم تعد ذات خطر، ولذلك نجد الملحد والنصراني أستاذين في كلية واحدة، ونجد الشاذ وغير الشاذ جنديين في جيش واحد وصار النساء كلهن يتبعن في مظهرًا واحدًا وهكذا.

٤- قد يقول قائل إننا نجد أمثلة لما عزوته إلى الحضارة الغربية في كل الأمم بما في ذلك الأمم الإسلامية، فما الذي يميز القيم الغربية في هذا عن غيرها؟ نقول إنه مما لا شك فيه أنه لا تكاد تخلو أمة حتى من فاحشة الشذوذ بعد أن سنها قوم لوط، وأن الشعور بالكبر قد يكون أيضًا طابعًا لأمة لا تنتمي إلى الحضارة الغربية، وأن الشرك موجود حتى بين المتسبين إلى الإسلام.

لكننا نقول أيضًا: إن هنالك فرقًا بين أن يكون الزنا أو الشذوذ أو الجهر بالسوء من القول في نظر الأمة جريمة أو ذنبًا يستنكره مجتمعها ويعاقب عليه قانونها، وأن يكون أمرًا مقبولًا لا يستنكره مجتمع ولا يعاقب عليه قانون، وإن استنكره بعض الأفراد، هذا الأخير هو ما تمتاز به القيم الغربية الآن متأثرة بتاريخها ذلك. لقد أصبح المستنكر فيها، وربما كان المعاقب عليه فيها، هو استنكار الفحش ولا سيما فاحشة الشذوذ.

فهذا الكاردينال راتزنجر الذي صار البابا الحالي يشكو من أن أحد القساوسة البروتستانت سجن لمدة شهر في السويد؛ لأنه استنكر الشذوذ الجنسي استنادًا إلى حجج من كتابهم المقدس!

٥- هذه العناصر ولا سيما عنصر الكبر هي التي زينت للغربيين احتلال الشعوب الأخرى واستعمارها واسترقاق بعض أهلها، لقد كانت الحركة الاستعمارية الاحتلالية حركة اشترك فيها أو شجعها أو وافق عليها قادة الثقافة الغربية كلهم إلا ما ندر، لم تكن حركة سيامية فحسب وإنما كانت حركة اشترك فيها الكتاب والشعراء والفلاسفة ورجال الدين كما بين بعض ذلك إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والاستعمار^(١).

فائدة: ما موقف المسلمين تجاه تحدي الحضارة الغربية للدين الإسلامي؟

إننا إزاء تحد كبير على ديننا وأمتنا من الغرب وحضارته فماذا نحن فاعلون؟ ليس هذا بالسؤال الذي يختص بالإجابة عنه فرد واحد؛ لأنه سؤال للأمة كلها علمائها وزعمائها وعامتها. فالإجابة التي أقترحها إنما هي جهد فرد مقل من أفراد هذه الأمة.

أرى:

أولاً: أن ننأى بأنفسنا عن مشاعر الحزن والضيق والأسى فإنها مشاعر سلبية لا تحل مشكلة خارجية وإنما تنشئ مشكلات نفسية. وما أكثر ما يحذرنا كتاب ربنا من أمثال هذه المشاعر السلبية، وما أكثر ما يذكرنا علماءنا الأفاضل بهذه المعاني القرآنية. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في معرض تعليقه على حديث «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ».

(١) عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤١١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للمتقوى.

ثانياً: أن نكون على يقين بأن مداهنة أعداء الحق ومحاولة إرضائهم بالاستجابة لمطالبهم - وهي مطالب قديمة - بتغيير هذا الدين وإعادة تفسيره بما يتناسب مع أهوائهم المعاصرة، أن هذا فوق كونه خيانة علمية فإنه لن يجدي شيئاً في حل المشكلة، نعم إن الأعداء سيرضون عن كل محرف للدين بمقدار تحريفه، لكن هذا التحريف لن يزيدهم إلا شراً إذ يرون أن المسلم المحرف يقترب منهم مع أنهم ثابتون في مكانهم، فيطمعون منه ثم من غيره في قرب أكثر، ويحاولون أن يجعلوا منه وسيلة للكيد من غيره من إخوانه المسلمين.

لكن القاعدة هي ما قال الله تعالى عن كل من زين له عمله أنه لن يرضى عنك رضى كاملاً إلا إذا اتبعت ملته: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَّالِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].

ثالثاً: لماذا لا نرى في هذا الهجوم الغربي على ديننا جانبه المشرق وهو دلالة على أننا بدأنا نحيا وبدأنا نصحو، إذ لو ظللنا أمواتاً أو غافلين أو مغشياً علينا لما خاف منا أو اهتم بنا أحد. فعلينا أن نضاعف من حيويتنا ونشاطنا واعتزازنا بديننا واستمساكنا به، آمين أن نكون للغرب منارات هداية وقوارب نجاة.

رابعاً: إن الرؤساء الغربيين يصرحون بأن الحرب على ما يسمونه بالإسلام الراديكالي حرب أيديولوجية يقولون إنها لكسب العقول والقلوب، وحرب سنانية تساعد على تحقيق أهداف الحرب الأيديولوجية. أما نحن فما نزال منتصرين في ما أسموه بالحرب الأيديولوجية. إن ديننا هو الذي يزحف نحوهم ويكسب كل يوم من عقولهم وقلوبهم، وإن أديانهم وقيمهم وأيديولوجياتهم هي التي توليه الأدبار. وهذا أمر يدعونا إلى المضي لا إلى التواني في نصره ديننا بالحجج العقلية والعلمية والمعايير الخلقية. إن مشكلتنا هي في الحرب السنانية. لقد فرطت أمتنا في الأخذ بالأسباب العصرية لاكتساب القوة التي دعاها ربها إلى إعدادها.

لقد آن الأوان لأن نبذل جهوداً كبيرة في اكتساب العلوم الطبيعية المرتبطة بالتقنية والمساعدة على اكتساب القوة الاقتصادية والعسكرية، ويجب أن تكون هذه الجهود على مستويين، مستوى شعبي عام ينشر مبادئ هذه العلوم بين الناس ويجعلها جزءاً من ثقافتهم الشعبية، ومستوى تخصصي تتعاون فيه الدول العربية على الأقل حتى يكون لنا علماء مبرزون مكتشفون ومخترعون ومنظرون في كل المجالات المرتبطة بالتقدم التقني.

إننا لا نريد أن نكون أقوياء لنعندي على غيرنا، وإنما لنرهب ونردع من تحدته نفسه بالاعتداء علينا، إننا نعلم أن السلم في مصلحتنا، نعلم هذا من ديننا ومن تجاربنا، فنحن حريصون عليه واثقون بأن عاقبته خير إن شاء الله.

خامساً: بما أن الغرب ليس كله كتلة واحدة صماء معادية للإسلام، بل فيه

جاهلون بهذا الدين، وفيه مغررون، وفيه منصفون مدافعون عن حقوق الناس، وفيه عقلاء يرون أنه ليس من مصلحتهم شن حروب شاملة دعائية كانت أم قتالية على الثقافات الأخرى، وفيه... وفيه... فيجب عند المعاملة أن لا تشمل الجميع بخطاب واحد لا يميز بين محق ومبطل، ومعتد ومنصف. إن التفرقة بين هذه الأصناف ومعاملة كل بحسب موقفه أمر يتطلبه العدل الذي يقوم عليه بنیان الدين الحق، ثم إنه سياسة مريحة تؤدي إلى نتائج أفضل.

سادسًا: لكن التقدم الحقيقي لأمتنا لا يكتمل إلا بتقدم آخر لا يحتاج منا إلى جهد كبير، فكما نأخذ بوسائل عصرنا في التقدم العلمي التقني، فكذلك يجب أن نعتبر مقتضياته في الإصلاح السياسي، إننا لا نريد أن نكون أمة تابعة تترك الأصالة لغيرها ثم تقلده في كل ما رآه مناسبًا له من مؤسسات ومبادئ وأسماء، نريد أن نكون أمة أصيلة تؤمن بأن كتاب ربها هو دستورها الأعلى، ثم تأخذ منه المبادئ السياسية العامة، ثم تنشئ لنفسها من المؤسسات ما يناسب تلك المبادئ من مؤسسات تتناسب مع عصرها.

إن كل من له أدنى معرفة بالإسلام يعلم أن مبادئ مثل حكم القانون، والشورى، واختيار الحكام، وحرية الرأي وحقوق الإنسان التي صار الناس يربطونها بالديمقراطية هي مبادئ إسلامية بيّتها النصوص وطبقها النبي وخلفاؤه الراشدون.

وإذا كان مثل هذا الإصلاح أمرًا يستوجبه ديننا وتستدعيه ظروفنا، فإنه أيضًا أمر لازم لتحسين صورتنا العالمية التي صارت ترتبط في أذهان الكثيرين

ولا سيّما في الغرب بالدكتاتورية والفيودالية والشيوقراطية ويقال عن جهل أو سوء قصد إنها من تعاليم ديننا؟^(١).

فائدة، العلاقة بين المصالح والمفاسد كثيرا:

ما نسمع مثل هذا الكلام الذي يُفرّق أصحابه بين المعتقدات والمصالح، وكثيرا ما يقصدون به التقليل من قيمة المعتقدات، لكن الحقيقة أن هنالك صلة قوية بين الأمرين؛ فالمعتقدات والتصورات هي العدسات التي ينظر الناس بها إلى الأمور فيقررون ما هو مصلحة للوطن وما ليس بمصلحة؛ فالشيء الواحد قد يبدو مصلحة بمنظار اعتقادي معين ويبدو مفسدة بمنظار آخر، فمثلا هل من مصلحة أمريكا أن تنحاز لإسرائيل وتعدّها كأنها ولاية من ولاياتها التي لا قيام لها بنفسها والمحتاجة دائما إلى مساعدة يتكلفتها دافع الضرائب الأمريكي؟ إذا نظرت إلى الأمر من ناحية المصلحة المادية - كما يفعل بعض الأمريكان الآن - فإنك ستقول: إن هذا الموقف ليس من مصلحتها؛ بل إن مصلحتها في أن تصادق العرب الذين هم أكثر عدداً، وأعظم سوقاً، وأكثر موارد طبيعية. لكن سياسياً كبوش وإن سلم لك بذلك قد يقول - بناء على معتقده -: لكن أمريكا بلد نصراني ونحن نعيش في زمان أظله ظهور السيد المسيح، ونحن نعلم أنه سيظهر في هذه المنطقة؛ فمن مصلحتنا أن نهيب الجوّ لظهوره. وهذا لا يكون إلا بالانحياز لإسرائيل حتى لو كان انحيازاً على حساب

(١) عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤١١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كتوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

بعض المصالح المادية التي ذكرتها، ولولا أن المعتقدات ذات تأثير كبير على نظرة الناس إلى المصالح لما تعددت الأحزاب والجماعات في البلد الواحد؛ فالإنجليزي أو الأمريكي الذي ما يزال يؤمن بالاشتراكية أو ببعض جوانبها يرى من مصلحة وطنه أن يتبنى سياسة تحدُّ من غلواء الرأسمالية، ويبني على ذلك تصوره لسياسات عملية تحقق هذه الفكرة، أما أنصار الفكر الرأسمالي فيرون أنه لا طريق غيره إلى نهضة اقتصادية يستفيد منها كل المواطنين مهما أدت إلى تفاوت شاسع في نصيبهم من الثروة؛ ولأن كثيرًا من الناس يتصورون المصلحة تصورًا يجعلها مستقلة عن المعتقدات؛ فإنهم يفترضون أن ما يسمى بالمصلحة الوطنية هو شيء واحد يشترك في رؤيته كل المواطنين بغض النظر عن معتقداتهم. فكما أن اختلافاتهم الاعتقادية لا تجعلهم يختلفون في رؤيتهم للشمس والقمر والجبال والأشجار؛ فكذلك لا تمنعهم من الاتفاق على ما هو مصلحة للوطن.

مما لا شك فيه أن هنالك مصالح ظاهرة قد يراها كل الناس رؤية واحدة بغض النظر عن معتقداتهم؛ فكل الناس يتفقون الآن فيما يبدو على أنه، إن صح قول العلماء بأن ما تنفثه المصانع والسيارات من غازات قد أضر على طبقة الأوزون، وأن هذا قد أدى إلى زيادة في درجات الحرارة العالمية، وأن هذا الأمر إن لم يُتدارك فسيؤدي إلى ذوبان الجليد، ومن ثم إلى زيادة مياه البحار وما ينتج عن هذا من فيضانات ستغرق بسببها بلاد كثيرة.

أقول: إن هذا أمر قد يتفق الناس على كونه ضارًا إن حدث. أقول (قد)

لأن مؤلفاً أمريكياً يقول: إن من يسميهم بغلاة النصارى، الذين يمثلون ما يقارب الأربعين بالمئة من أنصار بوش، يرون في كوارث مثل: تسونامي، وارتفاع درجات الحرارة، ومشكلات الطاقة والديون الأمريكية، والنزاع بين العرب وإسرائيل، وغزو العراق، يقول: إنهم يرون في كل هذا مبشرات بقرب مجيء المسيح. فهي إذن ليست بالشيء الذي يسوؤهم أو الذي يحاولون تغييره. لكن ما كل ما يُعدُّ مصلحة أو مفسدة هو من هذا النوع الذي قد تراه كل النظرات الأيديولوجية رؤية واحدة.

ما النظام الاقتصادي المناسب للبلد؟ ما نوع التعليم المفيد لأبنائنا؟ ما الأقطار التي يجب أن نحسن علاقاتنا بها؟ إلى أي مدى تتاح حرية التعبير، وحرية الحركة، وحرية الاعتقاد، وحرية التنظيمات والاجتماعات، وحرية العلاقات الجنسية، وحرية التجارة؟ هذه وأمثالها من الأمور التي لا يتوقع اتفاق كل المواطنين عليها إذا كانت بينهم اختلافات أصولية دينية أو مذهبية أو فلسفية؛ إذا كان بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى وبعضهم علمانيين؛ بل حتى إذا كان بعضهم شيعة وبعضهم سُنة.

إنه ليس في الانتماء إلى الوطن أيّاً كان نوعه، وليس في الإخلاص له مهما كان قدره، ما يحتم على المواطنين إجابة معينة عن تلك الأسئلة، بل إن أجوبتهم عليها لا بُدَّ أن تتأثر بمعتقداتهم وتصوراتهم. إن المواطنة ليست مجرد انتماء شكلي إلى أرض يحدها من الشمال كذا ومن الجنوب كذا ومن الشرق كذا ومن الغرب كذا. هذا انتماء حيواني يستوي فيه البشر والبقر والوطن والزريرة.

إن المواطنين بشر لا بقر؛ بشر لهم قيمهم وتصوراتهم ومعتقداتهم، واهتماماتهم التي تتجاوز حدود الحاجات المادية، والوطن ليس زريبة؛ وإنما هو مأوى قومٍ حَدَثَ بينهم قدرٌ كبير من التجانس في القيم حتى صار من الممكن وصفهم في الجملة بخصائص معينة تميزهم عن غيرهم. غير ذلك كان يقال لنا إلى زمان قريب، وكان يظن كثير منا بسببه في سداجة أن الديمقراطية تسوي بين المواطنين بغض النظر عن أعراقهم وألوانهم ومعتقداتهم وقيمهم، بل تعدهم جميعاً مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، وتحل مشكلة اختلافاتهم في المعتقدات والقيم والفلسفات بصناديق الاقتراع.

لكننا نرى اليوم كيف أن الغرب يضيق بالمواطنين المسلمين مع أنهم قلة، وكيف أنهم صاروا يطالبونهم بأن يجعلوا إسلامهم إسلاماً فرنسياً أو إنجليزياً أو أمريكياً، وكيف بدؤوا يتحدثون عن قيمهم الغربية ويعتزون بها ويدافعون عنها ويدعون تفوقها على القيم الإسلامية، ويطلبون ممن لا يشاركونهم فيها إلا يشاركونهم في الوطن الذي يعدونه في أساسه وطناً لأصحاب تلك القيم^(١).

فائدة: الديمقراطية بالمفهوم الغربي هي ديمقراطية علمانية ليبرالية لا

مكان فيها لمن لا يلتزم بهذه القيم:

والذين يعرفون الديمقراطية يعرفون أن هذا ليس بالشيء الجديد عليها، بل كانت كذلك منذ نشأتها في أثينا، ومنذ أن عادت إلى أوروبا وأمريكا، إنها لم

(١) المعتقدات والمصالح، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤٣٧)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

تكن أبدًا ديمقراطية لكل الناس مهما كانت الخلافات بينهم؛ إنها اليوم ديمقراطية علمانية ليبرالية لا مكان فيها لمن لا يلتزم بهذه القيم. سيقول الذين لا يعلمون: كيف وهم لا يمنعون أحدًا من دخول مجالسهم التشريعية حتى لو كان مسلمًا؟ كما نرى اليوم في بريطانيا والولايات المتحدة؟ نعم، إنهم يفتحون الباب لكل أحد ولكن بشرط أن يكون ملتزمًا بتلك القيم السياسية. ولكن حتى هذا لن يدوم طويلًا إذا ما بدأ المسلمون يكثرون ويزداد تأثيرهم.

لقد كانوا إلى وقت قريب يتحدثون عن المجتمع المتعدد الثقافات؛ أما اليوم فقد كثر الحديث عن ضرورة التجانس والتلاحم، ويعنون به التلاحم الثقافي. وصاروا يأخذون بسبب ذلك على المسلمين لكون دينهم يمنعهم من مثل هذا الذوبان في مجتمع غير مسلم، ويجعلهم يعيشون في عزلة اختيارية عنه. نعم، إن الوطن يكون أكثر استقرارًا وأكثر قدرة على التطور وعلى الدفاع عن نفسه كلما كان أكثر تلاحمًا وكلما قلت الخلافات الأصولية بين مواطنيه، لكن ما كل اتفاق على مبدأ أو ثقافة - أيًا كانت - هو مما ينتج هذا التلاحم. بل إن بعض المعتقدات والثقافات من شأنها أن تحدث هي نفسها عداوة بين المتممين إليها. ونعم إن الاتفاق على معتقد معين حتى لو كان عبادة للأوثان ينتج ما يسميه القرآن الكريم مودة بين المعتقدين، وقد يدعوهم لأن يتحدثوا في مواجهة ما يعدونه خطرًا عليهم أجمعين^(١).

(١) المعتقدات والمصالح، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤١١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

فائدة: المعتقد الحق هو الذي يحدث التلاحم الحقيقي بين الناس، الذي يُحدث التلاحم الحقيقي بين الناس ويجعل منهم إخوة متحابين هو المعتقد الحق الذي لا تناقض فيه، أما المعتقدات الباطلة المتناقضة فمن شأنها أن تفرق هي نفسها بين الممتنئين إليها، حتى إنك لتحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى. ولذلك قال أحد السلف مفسراً كثرة الانشقاقات بين الخوارج: «لقد كان أمر الخوارج باطلاً فاختلف، ولو كان حقاً لأتلف» أو كما قال: نحن لا ندعو إلى ما يدعو إليه الغربيون من إجبار كل الناس على الالتزام بالقيم السائدة في المجتمع؛ فقد تسامحت مجتمعاتنا الإسلامية كلها مع اليهود والنصارى وسمحت لهم أن يعيشوا بين ظهراني المسلمين.

إن المهم لاستقرار المجتمع أن تكون هنالك ثقافة غالبية تبنى عليها السياسات الاقتصادية والسياسية والتربوية التعليمية والخارجية وغيرها، ولذا فإن علينا أن نرفض رفضاً باتاً ما يدعوننا إليه الغربيون (مما يفعلون عكسه في بلادهم) من جعل مجتمعاتنا ممزقة بين معتقدات دينية وعلمانية متناقضة متحاربة، لا يكون معها استقرار ولا تطور، بل تظل نهباً لكل طامع^(١).

فائدة: أسباب خوف الغرب من الإسلام:

لهذا الخوف أسباب كثيرة؛ فهم لا يزالون يذكرون كيف انتشرت جيوش المسلمين في العالم كله بما فيه العالم الغربي حتى وصلت إلى مشارف فرنسا،

(١) المعتقدات والمصالح، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤١١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٥).

وما يزال بعضهم من أمثال (برنارد لويس) المعروف بعدائه للإسلام يذكّر الغربيين بأن للمسلمين ذاكرة تاريخية عجيبة، وأنهم لم ينسوا أبدًا ما أصابهم بعد ذلك من هزائم أمام الغربيين، وما يزالون يعترفون بأن للإسلام - حتى باعتباره عقائد ونظمًا اجتماعية - ميزةً على ما يعرفون من أديان.

استمع إلى لويس هذا يقول في كتاب له أخير: «لمدة أكثر من ألف عام؛ قدّم الإسلام المجموعة الوحيدة من القواعد والمبادئ المقبولة عالميًا لتنظيم الحياة الاجتماعية، وحتى في الفترة التي بلغ فيها النفوذ الأوروبي الغاية في البلاد التي سيطر عليها أو حكمتها القوات الأوروبية الإمبريالية، أو تلك التي ظلت مستقلة؛ فإن الأفكار والاتجاهات الإسلامية السياسية بقيت ذات أثر عميق وشامل».

ثم إنهم بدؤوا يلاحظون أن هذا التأثير الإسلامي على ثقافتهم وقيمهم بدأ يزداد، فماذا يفعلون؟ إنهم في حيرة عظيمة سببها أن من أكثر ما يعتزون به في ثقافتهم ويجعلونه معيار فضلها على الثقافات الأخرى؛ هو قضية الحرية التي عمّقتها الفلسفة الليبرالية: حرية التعبير، والاجتماع، والاعتقاد، والدين، وغير ذلك. فإذا حاربوا الإسلام بأن منعوا المسلمين من حرية التعبير أو حرية الدين؛ كان هذا أمرًا متناقضًا مع إحدى مقومات حضارتهم التي يعتزون بها، بل ربما كان هو نفسه سببًا في إعراض بعض أهلها عنها.

إن كوشهم يعتقدون أن هذه الحرية من مصلحة مجتمعاتهم أمر لا يتفطن إليه بعض إخواننا؛ فكثيرًا ما يقول لي بعض الشباب: إننا لا نسمح لهم بالدعوة إلى دينهم في بعض بلادنا؛ أفليس من حقهم أن يعاملونا بالمثل فيمنعوننا من

المدعوة إلى الإسلام في بلادهم ومن إنشاء المساجد ومن نشر الكتب؟
 فأقول لهم: إنهم لا يسمحون لنا بذلك تفضلاً منهم علينا، وإنما يسمحون
 به لأنهم يعتقدون أن هذه الحرية من مصلحتهم؛ فسمحوا لنا ليس مبنياً على
 معاملة بالمثل وإنما هو مبني على مبدأ يعتقدونه، أو هكذا يقولون. وأما نحن
 فلا نرى أن الدعوة إلى الكفر من مصلحة شعوبنا ولذلك لا نسمح بها إن
 استطعنا، سواء سمحوا هم أم لم يسمحوا.

نرجع إلى موضوعنا لنقول: وأما إذا سمحوا بالدعوة إلى الإسلام حسبما
 تقتضيه حرية التعبير والتدين؛ فالسماح أيضاً قد يكون خطراً على حضارتهم؛
 لأنه ربما أدى إلى اعتناق أعداد منهم للإسلام، أو على الأقل إلى تأثير الإسلام
 في قيمهم التي يؤمنون بها الآن، وهذا يعني أنهم إن لم يسمحوا فتلك مصيبة، أو
 سمحوا فالمصيبة أعظم. فماذا يفعلون إذن؟ هذا بعض ما نراهم يفعلونه الآن:

(١) أن يعاقبوا بصرامة وربما بقسوة شديدة كل من يقع تحت طائلة
 قوانينهم المطبقة الآن؛ لأنه ليس في هذا خروج على مبادئهم، بل ربما كان رادعاً
 لآخرين ممن يسمون بالإرهابيين، وربما كان أيضاً من أحسن الوسائل للدعاية
 ضد الإسلام في داخل بلادهم وخارجها. فالذين يقومون بمثل هذه الأعمال لا
 يُضعفون الحضارة الغربية، بل ربما كانوا من حيث لا يشعرون ممن يعطيها سبباً
 للدفاع عن نفسها دفاعاً مشروعاً. ولذلك فإنه يبدو لي أن أمثال هؤلاء هم من
 أحب المسلمين إلى الغربيين.

(٢) أن يربطوا بين هؤلاء وبين كل مسلم يُعرف بتقده للغرب أو قوة

استمساكه بدينه؛ حتى ينفر الناس في بلادهم منهم بسبب ما يسمونه «الإجرام بالاقتران». ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الدعاية ضد المسلمين قد نجح إلى حد كبير؛ لأنه شوّه صورة المسلم في أذهان عامة المواطنين وجعلهم يخافون منه.

(٣) أن يعيدوا تفسير مبادئهم وقوانينهم ليجدوا فيها مسوغًا لعقوبات يفرضونها على المسلمين، أو حقوقًا يمنعونهم منها.

(٤) أن يشرّعوا قوانين جديدة القصد منها محاربة المسلمين والتضييق عليهم، لكنها كثيرًا ما تكون متناقضة مع مبادئ الحرية. وما تزال أمثال هذه القوانين تثير جدلًا في الولايات المتحدة لاعتقاد بعضهم بأنه لا مسوغ لها، وأن الحكومات إنما تستغل رغبة الناس في الأمن لتسلبهم بعض حرياتهم لأسباب سياسية عارضة.

(٥) من أهم ما أحدثته الرغبة في درء الخطر الإسلامي الرجوع إلى ما يسمى بالمجتمع المتجانس، لقد كان الحديث في الغرب قبل ذلك، وبسبب طغيان الليبرالية عن التعددية ولا سيما التعددية الثقافية، لكن الكثيرين منهم بدؤوا الآن يرجعون إلى أفكار قديمة تقول إنه لا يمكن للديمقراطية أن تنجح إلا في مجتمع متجانس في قيمه؛ وبما أن المسلمين ذوو قيم غير موافقة للقيم السائدة في المجتمعات الغربية؛ لذلك كان من الواجب عليهم ليعيشوا في الغرب: إما أن يغيروا من مبادئهم، أو يفسروا الإسلام تفسيرًا يتماشى مع الوطن الذي يعيشون فيه، أو يرحلوا عن الغرب.

(٦) كان من أحسن آثار خوفهم من الإسلام أن جعل بعضهم يعيد النظر في حضارتهم ليحاولوا تخليصها من الجوانب التي تضعفها وتجعل الإسلام بديلاً عنها. بعض المتدينين يذكرون أن أهم جوانب الضعف هذه هو انتشار الفحش، لكن مفكرين آخرين يذكرون شيئاً أعم وأخطر، ومن هؤلاء المفكر الأمريكي المشهور (فوكوياما) الذي يقول: «إن مشكلة هجرة المسلمين إلى أوروبا تفرض علينا أن نحدد هويتنا، لكن المشكلة هي أن رجل ما بعد الحداثة لم يعد يؤمن بهوية تعتمد على دين أو وطن، بل إن النسبية جعلت الناس - ولا سيّما في أوروبا - عاجزين عن أن يتفقوا على شيء مشترك بينهم يقولون إنه يمثل هويتهم».

ثم يقول: «إذا أرادت مجتمعات ما بعد الحداثة أن تتحرك نحو مناقشة جادة للهوية؛ فإن عليهم أن يكشفوا عن تلك الفضائل الإيجابية التي تحدد ما معنى أن تكون عضواً في جماعة أكبر. وإذا لم يستطيعوا فمما لا شك فيه أنه سيسيطر عليهم قوم هم على يقين من هويتهم». لكن شيئاً من هذه الجهود سواء في البلاد الغربية أو في غيرها التي تحاول أن تطفئ نور الله تعالى لن يكتب لها النجاح أبداً إذا ما استمر الدعاة إلى الدين الحق (كتاباً وسنة وتأسياً بالقرون الخيرة) في دعوتهم وصبروا عليها؛ ذلك لأن من سنة الله تعالى إلا يضيع مثل هذا العمل هباء، بل لا بُدَّ أن يكون له تأثير في كل مكان ينتشر فيه ويُعرف. فإما أن يستجيب له المدعوون فيصلح حالهم، وإما أن يعرضوا عنه ويحاربوه فيعاقبهم ربهم.

قال تعالى عن قوم استجابوا: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٧٧) ﴿فَأَمَّنُوا فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَىٰ جِيبٍ﴾ [الأنصاف: ١٤٧-١٤٨]، وقال عن قوم أعرضوا وحاربوا: ﴿وَأَمَّا نَمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَلْبَةُ الْعَذَابِ الْمُنُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨] (١).

فائدة: من سنن الله تعالى أنه كثيراً ما يؤيد دين الحق بأناس

لا يؤمنون به:

من ذلك مثلاً:

١- ما أثاره كبير أساقفة كانتربري - وهو لقب يلقب به رئيس الكنيسة الإنجيلية في العالم - ورئيس الأساقفة هذا هو - بحكم منصبه - عضو في مجلس اللوردات البريطاني، ألقى هذا الأسقف (وليامز) محاضرة أكاديمية نشرتها بنصها جريدة الجارديان البريطانية، ودعا في نهايتها إلى أن يتضمن القانون البريطاني بعض أحكام الشريعة الإسلامية كي يتحاكم إليها المسلمون في محاكم خاصة بهم، وذكر من بين هذه الأحكام أحكام: الزواج، والطلاق، والموارث والمعاملات، والصلح، لكنه كان قد قدم لهذه المقترحات بكلام طويل عن طبيعة القانون في الدولة العلمانية، وكان مما قاله في ذلك: إن هنالك تحدياً متنامياً في المجتمع، هو وجود جماعات من المواطنين ليست بأقل من غيرها

(١) لماذا هذا الهلع الغربي من الإسلام، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤٧٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إسبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٦).

التزامًا بالقانون، لكنها تنتمي بحكم معتقداتها إلى شيء آخر غير القانون البريطاني، ثم سأل سؤالاً مهمًا فقال: ما الذي نفهمه ونتوقعه من القانون في الدولة العلمانية؟ وأجاب بأن هنالك خطرًا ينشأ عندما يعتقد المتدين أن انتماءه لا يكون إلا إلى جماعته الدينية (الأمّة أو الكنيسة)، وأن كل أنواع الانتماءات الأخرى السياسية والاجتماعية هي نوع من الخيانة لجماعته، لكنه ينشأ أيضًا عندما تحتكر الدولة العلمانية تعريف الهويات السياسية والاجتماعية، ولذلك أكد أن القضية ليست قضية خاصة بالمسلمين، بل هي قضية تهم كل أصحاب الديانات في دولة علمانية. وما إن نشرت الصحف اليومية خبر ما اقترحه الأسقف حتى هاج الناس في بريطانيا (بلد الديمقراطية)، وكان من أبرز من ردوا عليه رئيس الوزراء الذي قال على لسان المتحدث باسمه: «إن القوانين البريطانية ستقوم على أساس القيم البريطانية، وإن قوانين الشريعة ليست مسوغًا للخروج على القانون القومي»، ثم تابعه زعيم المعارضة في نقده للأسقف، بل إن بعضهم طالب بتنحيه، واتهمه بعضهم بعدم الإيمان، وهتف بعضهم في وجهه في أثناء أدائه خطبة الأحد في الكاتدرائية، لكن آخرين أيدوه وأثنوا عليه، وأسفوا أن يحدث مثل هذا السلوك، وعدّوه عارًا على بريطانيا.

لكن من أعرب ما حدث هو أن بعض النواب المسلمين في البرلمان البريطاني كانوا ممن احتج على كلام الأسقف بحجة أنهم مواطنون بريطانيون لا يجدون حرجًا من الالتزام بقانون البلاد، اقترحت في أثناء وجودي في بريطانيا

بعض اللقاءات على إخواننا المسلمين أن يتهزوا هذه الفرصة ليسينوا للناس أن هذا الذي اقترحه الأسقف في معاملة المسلمين هو جزء من القانون الإسلامي في معاملة أهل الكتاب.

٢- جرام فولر Graham Fuller، الذي قالت عنه مجلة السياسة الخارجية Foreign Policy التي نشرت مقاله: إنه كان في السابق نائب رئيس المجلس الأمني القومي في وكالة السي آي إيه CIA، وهو الآن أستاذ تاريخ غير متفرغ في جامعة كندية، وهو مؤلف عدة كتب عن الشرق الأوسط، منها كتاب (مستقبل الإسلام السياسي).

أحصى الكاتب في هذا المقال أهم التهم التي يوجهها الغرب ضد الإسلام: إن الإسلام هو سبب العلاقة العدائية بين الغرب والشرق الأوسط، وإنه هو سبب عدم الوصول إلى حل المشكلة الفلسطينية، وإنه سبب الدكتاتوريات في بلاد الشرق الأوسط، وأنه سبب الإرهاب، وقال: إنها كلها تهم باظلة، وليبرهن على بطلانها طلب من القارئ في بداية المقال أن يتصور عالمًا لا إسلام فيه، فسيكون هنالك شرق أوسط مكون من: عرب، وفرنس، وترك، وأكراد، ويهود، وبربر، وباشتون، ولو لم يكن هؤلاء مسلمين لكانت المسيحية هي الدين السائد بينهم كما كانت قبل الإسلام، هل كان هذا سيجعل الشرق الأوسط في توافق مع أوروبا؟ كلا: فإن أوروبا لها مطامع سياسية واقتصادية في الشرق الأوسط ما كانت لتتنازل عنها؛ لأن سكانه من المسيحيين، فحروبها الصليبية لم تكن في حقيقتها حروبًا دينية، وإنما كانت لمآرب دنيوية استغل

الدين لتسويغها، وما كان مسيحيو الشرق الأوسط سيرحبون بمسيحيين يأتون من الغرب ليحتلوا بلادهم، ولينهبوا خيراتها، وليقسموها تقسيمًا يتوافق مع مصالحهم.

إذا: فإن موقفهم من الغرب كان سيكون كموقف المسلمين اليوم، كما فعلت شعوب غير إسلامية في أمريكا اللاتينية وفي الهند. ماذا عن الدكتاتورية؟ وهل كان الشرق الأوسط سيكون أكثر ديمقراطية لو لم يكن مسلمًا؟! لكن أوروبا غير المسلمة نشأت فيها دكتاتوريات بشعة، فإسبانيا والبرتغال لم تنته دكتاتورياتهما إلا في أواسط السبعينيات، واليونان خرجت من دكتاتورية مرتبطة بالكنيسة قبل عقود قليلة، وروسيا المسيحية ما تزال في قبضة الدكتاتورية، وأمريكا اللاتينية عانت من دكتاتوريات كانت تحكم بمباركة الولايات المتحدة وبمشاركة من الكنيسة الكاثوليكية، والدول الأفريقية المسيحية ليست بأحسن حالًا، فلماذا إذا الشرق الأوسط غير الإسلامي سيكون أحسن؟ وفلسطين هل كانت ستختفي مشكلتها لو لم يكن سكانها مسلمين؟، كلا: ذلك لأن المعاملة المسيحية الأوروبية السيئة لليهود التي انتهت بالمحرقة، كانت ستحدث، وكانت ستدفع اليهود لأن يبحثوا عن أرض لهم خارج أوروبا، وكانوا سيعتدون على الفلسطينيين ويستولون على أرضهم، والعرب النصاري ما كانوا سيرضون بهذا الاستيلاء على بلادهم، والعراقيون حتى لو لم يكونوا مسلمين ما كانوا سيرضون بأن تُحتل بلادهم، والغرب لم يخلع صدامًا؛ لأنه مسلم فقد كان في الحقيقة رجلًا قوميًا علمانيًا.

ولكن مما لا شك فيه أنه لولا الإسلام الذي وُجد شعوب هذه المنطقة وأعطاهها قيمًا تعزز بها لكان من الأسهل على الاستعمار الغربي في عالم لا إسلام فيه أن يقسم ويحتل وسيطر على بلاد الشرق الأوسط وآسيا، وهذا هو السبب الذي يجعل الولايات المتحدة اليوم تهبج غضبًا على الإسلام. ما بال الإرهاب؟ يقول الكاتب: إن ذاكرة الغرب بالنسبة للإرهاب قصيرة، ثم يذكرهم بأنواع من الإرهاب لم يكن للمسلمين به علاقة، اليهود لجؤوا للإرهاب في حرب العصابات ضد البريطانيين في فلسطين، والتاميل الهندوس هم الذين لجؤوا لاستعمال القنابل الانتحارية في قتلهم رئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي، والإرهابيون اليونان قاموا بعمليات اغتالات للموظفين الأمريكيين في أثينا، والإرهابيون السيخ المنظمون قتلوا أنديرا غاندي وأشاعوا الذعر في الهند، وجعلوا لهم قاعدة في كندا، وأسقطوا طائرة هندية على الأطلسي، والإرهابيون المقدونيون كان الناس يخشونهم في بلاد البلقان عامة قبل الحرب العالمية الأولى، والفوضيون من الأمريكان والأوروبيين قاموا بعمليات اغتالات كثيرة وكبيرة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أشاعت الرعب الجماعي، والجيش الأيرلندي الجمهوري ظل سنين يستعمل وسائل إرهابية مؤثرة ضد الجنود البريطانيين كما فعل الإرهابيون وجنود العصابات ضد الأمريكان في فيتنام، وكما فعل الشيوعيون الماليزيون ضد البريطانيين في الخمسينيات، وكما فعل الإرهابيون الماوماو ضد البريطانيين في كينيا، والقائمة تستمر، وحتى النشاط الحديث للإرهاب لا يبدو مختلفًا كثيرًا.

فالإحصاءات الأوروبية تقول: إنه ارتكب في الاتحاد الأوروبي ٤٩٨ حادثة إرهاب في عام ٢٠٠٦م، ارتكبت منها الجماعات الانفصالية ٤٢٤، وارتكب اليساريون المتطرفون ٥٥، وارتكبت جماعات متطرفة أخرى ١٨، ولم يرتكب المسلمون منها إلا واحدة. وإذا كان الدافع للمسلمين هو كراهة الغرب وحداثته، فلماذا انتظروا حتى ٩/١١ ليشنوا هجروهم؟ ألم يكن كثير من المسلمين يدعون في بداية القرن العشرين إلى التحديث مع البقاء على القيم الإسلامية؟ حتى أسامة بن لادن لم يقل إن دوافعه لشن الهجوم هي كراهيته للتحديث، وإنما ذكر أسباباً أخرى. إن كراهية المسلمين للغرب سببها السياسات الغربية ضدهم، التي استمرت مدة من الزمان.

وعليه، فإنه إذا لم تحدث ٩/١١ فقد كان سيحدث شيء مثلها. ويذكرهم أن كل الدواهي العظيمة التي حدثت في القرن العشرين، إنما أحدثتها أنظمة علمانية: ليوبولد الثاني في الكونغو، وهتلر، وموسوليني، ولينين، وإستالن، وماون، وألبوت بوت، لقد كان الأوروبيون هم من أصابوا بقية العالم مرتين بدواهي «حروبهم العالمية»: نزاعين عالميين مدمرين ليس لهما ما يشبه المثل في التاريخ الإسلامي. ومع أننا نشكر لكل من يعترف بالحق اعترافه به ودفاعه عنه، لكننا في الوقت نفسه لا نغتر فنقول: إنه يؤمن بالإسلام أو يعترف به؛ ففي كلام هذين الرجلين كثير مما لا يوافق عليه المسلم ولا يرضاه^(١).

(١) ناصرون للإسلام من غير أهل، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤٨٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٦).

فائدة: خطأ الاعتقاد بأن ما يراه الغربيون هو من لوازم العصر ومن

مقتضيات الحضارة؛

إن كثيرًا من المسلمين المعتزّين بدينهم يعلمون -والأسى يملأ قلوبهم- أن الحضارات التي تسيطر على العالم اليوم -بما في ذلك عالمهم الإسلامي- حضارات لا تعترف بما جاء به رُسل الله ولا تجعل له اعتبارًا في فكرها وتصرفاتها، لكن بعض هؤلاء المؤمنين الصادقين المستبصرين -ودعك من غيرهم من الغافلين ومن ضعفاء الإيمان- كثيرًا ما ينسون هذه الحقيقة في حياتهم اليومية؛ فيتصرفون مع مؤسسات تلك الحضارات وكأنه أمر طبيعي أو كأنه من لوازم العصر التي لا يعترض عليها إلا من يتوهّم أنه يمكن أن يعيش خارج التاريخ؛ كما يقولون.

إننا ننسى -مثلًا- أن ما يُسمّى بـ (وثيقة حقوق الإنسان) هي من تأليف محامٍ فرنسي، لكنها صارت كأنها مما جاءت به رُسل الله أو أجمع عليه عباد الله؛ فلا يجوز لأحد أن يخرج على إجماعهم. وقُلْ مثل ذلك عن قوانين هيئة الأمم أو مجلس الأمن، أو القانون الدولي، أو محكمة العدل الدولية، وإذا كان الغافلون أو الضعفاء منا ينظرون إليها هذه النظرة؛ فما هكذا ينظر إليها أهلها الذين يعلمون حقيقتها؛ فهم أكثر جرأة على نقدها وعلى اقتراح البدائل لها.

أما المقلّدون لهم فيعتقدون أن ما يراه الغربيون هو من لوازم العصر ومن مقتضيات الحضارة فلا يستطيعون فعل شيء من هذا؛ إنهم لا يريدون الاعتراف بأنها من صنع أفراد من البشر، وحتى إن اعترفوا بذلك فإنما يعدّون هؤلاء

الأفراد ناطقين باسم العصر ومعبرين عن إرادته^(١).

فائدة: الربط بين الحق والقوة المادية - في أصله - اعتقاداً كضرياً:

شاء الله تعالى بحكمته أن يعطي نِعَمَهُ للكافرين به كما يعطيها للمؤمنين. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَلْبَابَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يفيد أنها ليست خالصة لهم في هذه الدنيا.

وعندما دعا أبو الأنبياء رَبَّهُ قائلاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشُّجَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ أجابه تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] ونحن نرى في واقعنا تصديقاً لقول الله هذا؛ فالكفار كانوا وما يزالون يستمتعون بخيرات الدنيا في كل زمان ومكان، لكن الكفار ضلوا في استمتاعهم بهذه النعم من عدة جهات: فهم لا يشكرون الله تعالى عليها بل يجحدون فضله، وهم يرون أنهم إنما أعطوها بسبب اجتهادهم أو علمهم أو ذكائهم.

ومنهم من يرى أن الله تعالى إنما أعطاه إياها؛ لأنه يستحقها، فهذا قارون يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ؕ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٨٧].

قال الإمام ابن كثير مفسراً هذه الآية الكريمة: «أي: إن الله تعالى إنما

(١) أمدع جنابات هو أم مرتكب جنابة؟ كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٤٩١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٧).

أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه، ولمحبته لي، فتقديره: إنما أعطيته لعلم الله في أي أهل له».

وهذا صاحب (الجتين) يقول عنه سبحانه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

فأمثال هؤلاء الكفار لا يرون أنهم متفوقون على غيرهم من حيث المال فقط، بل يعدون تفوقهم المادي دليلاً على تفوقهم الإنساني. وهم يعدون القوة المادية دليلاً على صحة ما عندهم من معتقدات وطرق حياة، وبطلان معتقدات من هم أقل منهم حظاً من هذه القوة.

قَالَ تَمَالِي: ﴿وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَرَّ أَهْلُكُمْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعِيًّا﴾ [مريم: ٧٣-٧٤]. إن الإنسان العاقل ينظر في الكلام الذي يقال له؛ فإن رأى عليه أدلة دالة على صوابه قبله، وإن لم يدل على صوابه دليل رفضه، أما هؤلاء الذين لا يعقلون فإنهم يستدلون على خطأ الكلام بالحال المادي لقائله؛ فإن كان مثلهم أو أكثر منهم قبلوه، وإن كان أقل منهم رفضوه.

فهؤلاء لما كانوا يرون أنفسهم في دور خير من دور المؤمنين ولهم نوايا ليست للمؤمنين؛ استدلوا بذلك على أن ما هم عليه من الشرك لا بد أن يكون أصدق من التوحيد الذي يدعوهم إليه النبي ﷺ، لكن الله تعالى يذكرهم بأن المتع المادية لا يمكن أن تكون برهاناً على الحق؛ إذ لو كانت كذلك لما أهلك

الله تعالى من كانوا «أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً» (ابن كثير)، وإذا كان الربط بين الحق والقوة المادية - في أصله - اعتقاداً كفرياً؛ فإن لبعض المسلمين نصيباً منه؛ لا سيما في عصرنا هذا الذي تفوق فيه الكفار على المسلمين تفوقاً مادياً كبيراً، لقد صارت الدول الأضعف تُسمى بالدول المتخلفة، وهو ليس وصفاً لها بالضعف المادي فحسب، ولكنه وصف يتضمن نوعاً من الإدانة الخلقية أو الإنسانية، وينسى المسلمون الذين يصفون بلادهم بهذا الوصف أنه لم يكن للبلاد الإسلامية في زمان النبي ﷺ من عمارة الأرض ما كان لفارس والروم.

انظر إلى مسجد الرسول ﷺ، أعظم مؤسسة كانت في زمانه، لقد كانت أعمدته من جذوع النخل، وكان سقفه من الجريد، وكانت أرضيته تراباً، فكان المطر إذا نزل صار المسجد كالوحدل، وكانت الكلاب تدخل فيه وتخرج. قارن هذا بما كانت عليه كنائس أهل الكتاب وبيعتهم في أوروبا. وقد علم الله تعالى هذه الحقيقة عن بلاد العرب، لكنه سبحانه اختارها مع ذلك لتكون محلاً لرسالته، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهذا لا يعني أن القوة المادية ليست مهمة، بل هي مهمة؛ لأن التمكين في الأرض لا يكون إلا بها، لكنها في الدرجة الثانية بعد الدين الحق، ولذلك فإن الله تعالى أكرم أصحاب هذا الدين فأعطاهم من القوة ما استطاعوا به أن يغلبوا تلك الدول ويخضعوها لسيطرتهم. لقد أكرمهم الله تعالى هذا الإكرام لما علم صدق إيمانهم بالحق الذي جاءهم به رسوله، وتفضيلهم إياه على كل ما عند تلك البلاد من عقائد وقيم وسلوك ومتع. وهكذا يفعل سبحانه مع كل أمة تسلك

منهجهم وتقتضي طريقهم. لقد حذرنا الله سبحانه في آيات كثيرة من كتابه العزيز من الاعتزاز بما ينعم به سبحانه على الكفار من النعم المادية، من ذلك: قوله سبحانه: ﴿ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

قال الإمام الطبري معلقاً على هذه الآية الكريمة في تفسيره: «يقول - جل ثناؤه - : فلا يخذعك يا محمد! تصرفهم في البلاد وبقاؤهم ومكثهم فيها، مع كفرهم بربهم، فتحسب أنهم إنما أمهلوا وتقلبوا، فتصرفوا في البلاد مع كفرهم بالله، ولم يُعاجلوا بالنقمة والعذاب على كفرهم؛ لأنهم على شيء من الحق.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يَغْرُوكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١١٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ لَكُمْ مَّا رَزَقْتُمْ جَهَنَّمَ وَيَبُئْسَ الْهَادِ (١١٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿ [آل عمران: ١٦٩-١٧٨]. إن الذين يشككهم التقدم المادي للكفار في دينهم، ويضعف إيمانهم به؛ فإنهم يظنون متخلفين مادياً كما هم ضعفاء دينياً^(١).

فائدة: هل الديمقراطية خير نظام توصلت إليه البشرية:

هذه العبارة: «الديمقراطية خير نظام توصلت إليه البشرية» شائعة على ألسنة كثير من الناس حتى من كان منهم من المصلين، والعبارة ليست خطأ من حيث مخالفتها للشرع فحسب إذ معناها - إذا أخذت على ظاهرها - أن الحكم الديمقراطي خير من الحكم بما أنزل الله تعالى فهي بذلك خير من حكم النبي

(١) فتنة اجتماع الكفر والقوة المادية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥١٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٨).

وَحُكْمِ خَلْفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَلَكِنَّهَا خَطَأٌ مِنْ حَيْثُ تَصَوَّرَهَا لِلْحُكْمِ الدِّيمُقْرَاطِيِّ، إِنَّ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ لَا تَقُولُ كَمَا يَقُولُ الشَّرْعُ: أَحْكُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ الْفُلَانِيَّةِ بِالْحُكْمِ الْفُلَانِيِّ، بَلْ تَتْرِكُ الْحُكْمَ لِلشَّعْبِ بِحَسَبِ مَفْهُومِ كُلِّ دَوْلَةٍ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْحُكْمَ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ قَدْ يَكُونُ مُتَعَدِّدًا بَلْ مُتَنَاقِضًا بِحَسَبِ مَا يَحْكُمُ بِهِ كُلُّ شَعْبٍ وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِيمُقْرَاطِيًّا لَا شَكَّ فِي دِيمُقْرَاطِيَّتِهِ.

انظر إلى الفتنة التي أثارها -حتى بين بعض الإسلاميين- اختيارُ أمريكا لرجل أسود أن يكون حاكمًا لها، لقد استغربت والله من عدوِّ بعض الإسلاميين هذا الأمر دليلًا على حسن الحكم الديمقراطي، لقد نسي هؤلاء أن الديمقراطية لم تمنع بل أباحت للأمريكان أن يذهبوا إلى إفريقيا ويصطادوا الأفارقة كما تُصطاد الوحوش، وحشروهم في سفن كما تُحشر البضائع، ثم بيعهم بمزادات علنية كما تُباع البهائم.

فالديمقراطية ليست هي التي ألزمت الناخبين الأمريكان بانتخاب أوباما الأسود، لكنها لم تمنعهم من انتخابه. فما الشيء الرائع في هذا؟ إن الرائع هو أن تحكم كما يحكم الإسلام بأن أكرم الناس أتقاهم، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى؟^(١)

(١) فتنة اجتماع الكفر والقوة المادية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥١٣)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٨).

فائدة: تحول المجتمعات الغربية إلى فكرة المجتمع المتناسك وأثره

على الليبرالية السياسية:

تقتضي الليبرالية السياسية حسب تعريف منظريها أن يكون النظام السياسي القائم عليها نظامًا ديمقراطيًا يقبل التعددية ويتيح للمواطنين المختلفين في العقائد الدينية، والقيم الخلقية، والتصورات الفلسفية؛ فرصًا سياسية متساوية، وهذا أمر لا يمكن حدوثه في الواقع؛ كما كنت قد ذكرت في مقال سابق.

وقلت: إن أكبر فلاسفة السياسة المعاصرين الأمريكي (جون رولز) لم يفلح في حل هذه المشكلة حتى على الصعيد النظري في كتابه المسمى (الليبرالية السياسية). لكنَّ أنصار الليبرالية الذين كانوا يرونها أمرًا ضروريًا لنظامهم السياسي؛ كانوا يركزون دائمًا على قضية التعددية وإعطاء الحرية للمخالفين، واعتبار المواطنة هي الأساس الذي يقوم عليه النظام السياسي بغض النظر عن الاختلافات بين المواطنين.

ثم بدأ الأمر يتحول منذ بعض الوقت إلى التركيز على «المجتمع المتناسك» أي: المجتمع الذي لا تكون فيه خلافات جوهرية بين المواطنين. وقد كان هذا الرأي هو الذي عُرف به أنصار الديمقراطية غير الليبرالية، وكان من أهم مفكريه قانوني وفيلسوف ألماني اسمه (كارل شميث).

وإذا كانت الليبرالية السياسية لم تفلح في إعطاء المواطنين المختلفين فرصًا سياسية متساوية؛ فقد كانت على الأقل تعطيهم فرصًا لنشر آرائهم والدفاع عنها. أما الآن وبعد التحول إلى فكرة المجتمع المتناسك فإن التضييق بدأ

يزداد على المخالفين ولا سيّما إذا كانوا مسلمين، بل بسبب كونهم مسلمين.
أقول هذا: بمناسبة خبر نشرته كل من (البي بي سي) وجريدة (الجارديان)
البريطانية مفادُه: أنهم حصلوا على مسوِّدة لقانون جديد تحت الدراسة، ويعيد
هذا القانون البريطاني تعريف التطرف ليجعله يشمل كثيرًا من المعتقدات
الإسلامية، وخبر جريدة (الجارديان) اللندنية جاء في مقال نُشر في يوم الثلاثاء
١٧ فبراير من عام ٢٠٠٩م.

ويقول كاتب المقال الذي يبدو أنه من أسرة الجريدة: إن الجريدة علمت
أن الحكومة تفكر في خطط سيكون من شأنها أن تؤدي إلى وصم عدد أكبر من
المسلمين البريطانيين بالتطرف. وهذه المقترحات هي جزء من استراتيجية
لمكافحة الإرهاب يقوم برسمها وزراء وضباط أمن، ويتوقع أن تُعلن الشهر
القادم.

ويقول بعضهم: إن الحكومة ستصنّف بموجب هذه الخطط وجهات نظر
يؤمن بها معظم المسلمين في بريطانيا؛ على أنها تطرّف، وسيُعدُّ بموجب هذه
الاستراتيجية متطرفًا كلُّ من يدعو إلى الخلافة أو إلى تحكيم الشريعة، وكل من
يؤمن بالجهاد أو المقاومة المسلحة في أي مكان في الدنيا. وهذا يشمل
المقاومة الفلسطينية ضد الجيش الصهيوني، كما يشمل الذين يعتقدون أن
الإسلام ينهى عن الشذوذ ويقول: إنه ذنب ومخالف لأمر الله، والذين لا يدينون
قتل الجنود البريطانيين في العراق وأفغانستان.

ويقول المقال: إن الحكومة ستوسع تعريف التطرف بحيث يشمل أولئك

الذين يرون آراء تتصادم مع ما تعرفه الحكومة بأنه القيم البريطانية المشتركة. ويقول المقال أيضًا: إن الذين يدعون إلى التعريف الموسع يقولون: إن تأويل المتشددين للقرآن هو الذي يؤدي إلى معتقدات هي السبب الجذري للإرهاب الذي تواجهه بريطانيا. لكن المخالفين يقولون: إن الاستراتيجية ستصم معظم المسلمين البريطانيين بالتطرف وتؤدي بذلك إلى عزلهم أكثر فأكثر.

ويقول الكاتب: لكن من يُعتبرون متطرفين لن يكونوا هدفًا لقانون الجنائيات، غير أنهم سيعزلون ويحرمون من الأموال العامة. ونقل الكاتب عن وزير الداخلية أنه قال في شهر ديسمبر الماضي: إن استراتيجية الحكومة لمكافحة الإرهاب يجب أن تتضمن تحديدًا للجماعات المتطرفة غير العنيفة التي تتحاشى حدود القانون لتدعو إلى أيديولوجيات مليئة بالكراهية.

ويقول في النهاية: إنه لما سئلت وزارة الداخلية عن الوثيقة كان ردّها أنها لا تتعامل مع وثائق مسربة^(١).

فائدة: ماذا الدول الغربية تتسامح مع المسلمين الذين يعيشون فيها:

الجواب: لأنهم قلة لا تأثير لها على المجتمع، ولأنهم لم يكونوا متفاعلين معه ويتخرجون في مؤسساته العلمية ويتقنون لغته، ويتقنون فكره. أما حين صاروا قوة لها بعض الشأن، وحين بدأ دينهم ينتشر؛ كان الخوف منهم، وكان

(١) هل نشهد نهاية الليبرالية السياسية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥٢٨)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٨).

هذا التشدد معهم والذي يتوقع أن يزيد مع مرور الأيام إذا ما استمر بقاء المسلمين في تلك البلاد وازداد تأثيرهم. وهل تستبعدون أن يصدر قانون في المستقبل يجعل التطرف شاملاً لكل من يقول: إن عقيدة التوحيد هي وحدها العقيدة الصحيحة، وأن الشرك والإلحاد عقائد باطلة؟ أما أنا فلا أستغرب هذا.

وقد كنا نقول لإخواننا بالولايات المتحدة منذ زمن طويل: إن حرية الدعوة التي كانوا يستمتعون بها آنذاك لن تطول؛ فمن الخير لهم أن يستغلوها إلى أكبر حد ما دامت مستمرة. وما أرى الدول الغربية الآن ستقف عند حدود من معهم من مواطنيهم المسلمين، بل إن الأمر سيتعدى ذلك إلى محاربة المسلمين المستمسكين بدينهم في كل مكان بحسب قوة موقفهم في وجه الحضارة الغربية، وهذا هو الأمر الذي تدل عليه مئات الكتب التي يصدرونها ومئات البحوث التي تصدر عن مراكز البحث عندهم.

نعم! إنهم سيكررون للمسلمين القول: إنهم ليسوا ضد الدين الإسلامي وليسوا أعداء للمسلمين وإنما هم ضد التطرف الذي يؤدي إلى الإرهاب، ثم يعرفون التطرف كما يعرفه هذا القانون المزعم إصداره تعريفاً مفادُه أن كل ما يخالف قيم الحضارة الغربية وموروثاتها بل عاداتها هو من التطرف الذي يحول دون التعايش والتعاون.

هل سيستنكر هذا كل من ينتسبون إلى الإسلام اليوم في بقية أنحاء العالم؟ كلا! فإن من هؤلاء من هو أخ لأمثال هؤلاء الغربيين بقلبه وإن كان مخالفاً لهم في

لغته وسحته وداره، وسيسرُه أن يتغلب إخوانه أولئك على من يعدُّهم أعداء له من مواطنيه، كما فعلت ذلك أقوام الرسل الكافرة بهم على مرِّ التاريخ.

والسبب في هذا هو أن كل أمة تحب ما هي عليه من معتقدات وأنواع سلوك، وترى أن في زعزعتها خطراً عليها، كما قرر الله تعالى هذه القاعدة العامة بقوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وهم لا يرون أن أعمالهم حسنة فقط بل يريدون من كل الناس أن يكونوا مثلهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٩٨]. ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَدَأَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعَالَمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ٢١٠].

ولكن إذا كان التضييق على إخواننا المستمسكين بدينهم في الغرب أو في أي مكان سواه يسووناً؛ فإننا نرى فيه بشرى بأن هؤلاء المؤمنين صارت لهم قوة يحسب لها الأعداء ألف حساب، وهذا يدعونا ويدعوهم إلى الاستمرار في الاستمسك بهذا الدين والدعوة إليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً؛ لأنه إذا كان بعض الملأ من الذين كفروا يحاربون المؤمنين فإن في أقوامهم من سيرى فيه الحق حين يعرض عليه في صفائه، فيجعله ينضم إلى صفوف المؤمنين المجاهدين، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] (١).

(١) هل تشهد نهاية الليبرالية السياسية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٨٢٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٨).

فائدة: الإسلام الذي يسمح به الغرب للمسلمين هو إسلام في حدود

النظام العلماني؛

قال السياسي الغربي للداعية المسلم: إننا نأخذ عليكم أنكم لستم أمناء في نقل صورتنا لجماهيركم؛ لأنكم دأبتم على تصويرنا لهم بأننا ضد الإسلام، مع أن الحقيقة أننا لسنا ضده.

قال الداعية: ما الإسلام الذي لستم أنتم ضده؟ إن جوهر الإسلام هو الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن القرآن كلام الله؛ فهل أنتم لستم ضد شيء من هذا؟

قال الغربي: لو كنا نؤمن بكل هذا لكنا مسلمين! وأنا لم أقل: إننا مسلمون، وإنما قلت: إننا لسنا ضد الإسلام؛ بمعنى أننا لسنا ضد من يؤمن بما ذكرت؛ لأننا باعتبارنا ليبراليين نؤمن بأن من حق كل إنسان أن يؤمن بما شاء من دين ويدعو إليه ويعمل به.

قال الداعية: هل أفهم من هذا أنكم تسمعون بكل هذا للمسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيكم؟

قال الغربي: نعم! ما دام ذلك لا يتعارض مع شيء من قوانيننا أو قيمنا؛ فنحن لا نسمح للمسلم -مثلاً- أن يتزوج بأكثر من امرأة، وإن كنا نسمح له -بحسب قوانيننا وأعرافنا- بأن يعاشر من شاء من النساء أو الرجال ويفعل معهم ما تسمونه أنتم (فاحشة) ما دام ذلك عن تراضي منهم، وربما ذهبنا الآن إلى أكثر من هذا، فاعتبرنا أشياء مثل الحجاب مخالفة لقيمنا.

قال الداعية: إذن فالإسلام الذي أنتم لستم ضده في بلادكم هو إسلام في حدود نظامكم العلماني؛ فإذا تجاوزه كنتم ضده ونسيتم لير اليكم! دعني أسألك سؤالاً آخر: ما موقفكم من المسلمين الذين ليسوا مواطنين في بلادكم والذين يريدون أن ينظموا حياتهم بحسب تعاليم دينهم؟

الغربي: نحن باعتبارنا لبراليين نؤمن بأن من حق كل شعب أن ينظم حياته وفق مبادئه، لكننا نؤمن بأن مبادئ الليبرالية وقيمنا كالديمقراطية وحقوق الإنسان لم تعد قيمًا غربية بحتة وإنما هي قيم إنسانية، ولهذا فنحن نسعى بكل الطرق السلمية لأن تكون قيمنا هذه هي القيم السائدة في العالم، بما في ذلك العالم الإسلامي.

الداعية: إذن فأنتم ضد كل شيء في العالم الإسلامي يتعارض مع ما تسمونه (قيمكم الليبرالية) حتى لو كان مما يأمر الإسلام به، وتسعون لتغييره.

الغربي: أجل! ولكننا نفعل ذلك بالطرق السلمية ومنها الضغوط السياسية والاقتصادية والإعلامية؛ لأننا نرى أن من مصلحة الشعوب المسلمة أن تتبنى مبادئ الليبرالية التي صارت - كما قلت لك - مبادئ إنسانية لا غربية.

الداعية: لكن الواقع أنكم لا تقفون عند هذه الحدود - مع ما فيها من عدوان - بل تتعدون ذلك إلى استعمال السلاح.

الغربي: نعم! نفعل ذلك لمساعدة الشعب في دولة تكون ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها ضد المعتدين عليها من حكامها، كما فعلنا ذلك في العراق.

الداعية: هل تعني أن الدول الغربية كلها: كندا وأوروبا وأستراليا

ونيوزيلندا... وغيرها اجتمعت على غزو العراق وقتل الألو ف من أبنائه
وتدميره وتخريبه؛ لتخلصه من حكم رجل واحد؟

الغربي: إنكم تبالغون في هذا الأمر؛ فالعراق الآن دولة ديمقراطية يحكمها
رئيس منتخب وبها من الحريات ما لم تكن تنعم بها أيام الحكم الدكتاتوري.
الداعية: دعك من دعاوانا نحن واستمع إلى شهادة مؤسسات غربية.

الغربي: ما هي، وماذا تقول؟

الداعية: هذه مجلة السياسات الخارجية (Foreign Policy) تقول في
عددها الإلكتروني الصادر في يونيو من هذا العام: إن العراق كان بلدًا ساكانه من
الطبقة المتوسطة يملكون منازل وسيارات ومدارس خاصة، لكنه دُمّر، وتقول:
إنه مات في الحرب ٤٣٠٠ من قوات التحالف و ٢٠٠٠٠ من الجنود ورجال
الأمن العراقيين، ومات ٩٠٠٠٠ من المدنيين بسبب القتال و ٥٠٠٠٠٠ لأسباب
غير مباشرة، ومات ١٦٣ صحفي، وفُقدت ١٥٠٠ قطعة من قطع المتاحف التي
نُهبت. هذا ما ذكرته الصحيفة في عددها الصادر في ٢٢ يونيو ٢٠٠٩، لكن
التخريب والموت ما زال مستمرًا؛ فهل تقول لي: إن كل هذا الموت والتخريب
إنما كان من أجل تخليص بلد مسلم من دكتاتور من بني جنسهم؟ هل هذا كلام
يقبله من كان فيه ذرة من عقل؟

الغربي: لا تنس أنه وإن كان تخليص العراق من حاكم دكتاتور من دوافعنا
لخوض تلك الحرب، إلا أنه كان هنالك دافع ثانٍ أقوى، هو الدفاع عن
مصالحنا التي كان يهددها امتلاك صدام لأسلحة دمار شامل.

الداعية: اسمع لي أن أقول لك: إن ذلك لم يكن دافعاً وإنما كان ذريعة لتسويغ الاعتداء، والدليل على ذلك أن الحرب استمرت، وأن جزءاً كبيراً من ذلك التخريب والقتل حدث حتى بعد أن عرف العالم كله وحتى بعد اعتراف الحكومة الأمريكية أن صدقاً لم يكن يملك من أسلحة الدمار الشامل شيئاً.

الغربي: لماذا لا تعترف بأن الرئيس الجديد للولايات المتحدة فاز بشعار التغيير، وأنه وعد ببداية صفحة جديدة مع العالم الإسلامي؟

الداعية: نعم! إن الرئيس الجديد وعد بذلك، لكن ثبت أن تغييره إنما هو في اللغة التي يخاطب بها المسلمين وغيرهم؛ إنه يلجأ إلى الكلام المعسول، ولسنا ممن نخدعه الكلمات المعسولة.

نعم! إنه وعد بالخروج من العراق، لكن هذا أمر كان قد وعد به الرئيس السابق، لأنهم يرون أن مهمتهم هنالك قد انتهت، لكن الرئيس الجديد خرج من العراق ليركز على بلد مسلم آخر هو أفغانستان، بل وحتى باكستان؛ تروي المجلة التي ذكرت لك سابقاً في العدد نفسه عن كرزاي الذي نصبه الأمريكان حاكماً على أفغانستان: «إذا كنت دمية لأنني أعتزف بالفضل لأمريكا، فليكن ذلك لقبني» وتقول: إنه مات في الحرب ١١٦٠ من قوات التحالف و١٠٠٠٠ - على الأقل - من الجنود وقوات الأمن الأفغانية، ومات - على الأقل - ١١.٠٠٠ من المدنيين بسبب الحرب و٢٠٠٠٠ لأسباب غير مباشرة، ومات ستة صحفيين، ونُهبت من المصنوعات الأثرية حتى قال وزير الثقافة: إن أفغانستان

متحف كبير يُسلب رويدًا رويدًا^(١).

فائدة: ليس في الديمقراطية معيار يحدّد به نوع القرار حسنًا كان أم سيئًا، وإنما الذي يقرر ذلك هو الجهة التي تتخذ القرار حسب معتقداتها وتصوراتها ومصالحها:

قرار منح المآذن في سويسرا جاء بطريقة ديمقراطية؛ فكونه ظالمًا أو خاطئًا لا ينفي كونه ديمقراطيًا، لكن كثيرًا من الناس ولا سيّما المعجبين بالديمقراطية في بلادنا يخلطون بين هذين الأمرين؛ فيصفون كل قرار أو سياسة أو سلوك يرونه جائرًا بأنه غير ديمقراطي. وطالما حاولتُ أن أطلب من هؤلاء المعجبين أن يتذكروا بأن غزو أفغانستان جاء نتيجة قرار ديمقراطي، وأن غزو العراق كذلك، بل إن قرارات الدول الأوربية باحتلال كثير من الدول ولا سيّما الدول الإسلامية واستعمارها، كانت قرارات ديمقراطية.

ليس في الديمقراطية معيار يحدّد به نوع القرار حسنًا كان أم سيئًا، وإنما الذي يقرر ذلك هو الجهة التي تتخذ القرار. والجهة تفعل ذلك بحسب ثقافتها ومعتقداتها وتصوراتها لمصالحها أو مصالح بلدها؛ ولذلك فإن قرارات ديمقراطية في مسألة واحدة في بلدان متعددة، أو في بلد واحد في أزمان مختلفة قد تكون متناقضة. لا تقل لي: وكذلك يكون الأمر بالنسبة للمسلمين؟ نعم! قد

(١) لستنا ضد الإسلام ولكن، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥٥٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٨٨).

يكون كذلك بالنسبة للمسلمين في المسائل الاجتهادية، لكنه لا يكون كذلك بالنسبة للإسلام.

في الديمقراطية يكون القرار ظالمًا وخاطئًا حتى لو توفرت فيه كل شروط الديمقراطية. أما في الإسلام فلا يكون القرار خاطئًا وجائرًا إذا توفرت فيه الشروط الإسلامية، بل لا بُدَّ أن تكون فيه مخالفة لهذه الشروط، ولذلك قال صاحب (الموافقات) كلمته الرائعة: «الشرعية كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف، كما أنها في أصولها كذلك، ولا يصلح فيها غير ذلك»^(١).

فائدة: العلاقة بين الديمقراطية والليبرالية: أيهما الأساس:

يقول بعضهم: إن الليبرالية هي الأساس وأنه مستعد لأن يضحى بالديمقراطية من أجلها، ومن هؤلاء من يؤيد وقوف حكومته مع حكومات غير ديمقراطية، لكنها أكثر ليبرالية من معارضيه المطالبين بالديمقراطية ولا سيما في قضايا المرأة؛ فهؤلاء يؤمنون بديمقراطية تكون مقيّدة بقيود ليبرالية، ويرون أن الديمقراطية المطلقة إنما هي حكم الرعاع Mobocracy، وأنها من أسوأ أنواع الحكم الذي يصفه بعضهم بدكتاتورية الأغلبية.

ومنهم من يقول: بل إن الديمقراطية هي الأساس.

ومنهم من يرى أن أحسن نظام يحقق الليبرالية هو الديمقراطية.

(١) القرار السويسري بمنع المآذن قرار ديمقراطي، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥٧٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٨).

لكن، ماذا يقول أمثال هؤلاء في قضية مثل هذه القضية السويسرية (منع المسلمين من المآذن) التي لا شك في منافاتها لمبدأ الحرية الدينية الذي تنادي به الليبرالية؟ هل يقال للأغلبية السويسرية: إنكم قد تعدّيتم على حقوق دينية لبعض مواطنيكم؟ قد ينكرون أنهم فعلوا ذلك.

لكن هب أنهم قالوا: نعم؛ لأننا رأينا أن هذا من مصلحة بلدنا، ورأينا في الرموز الإسلامية ومنها المآذن خطراً علينا؛ فبأي حق تطالبون أغليبتنا بأن تلتزم بأمر لا تراه في مصلحة بلادها؟ هذه هي مشكلة الليبرالية: إنها مجموعة من المبادئ التي يُقال عنها إنها حقوق للإنسان باعتباره إنساناً؛ ولذلك لا يجوز لأحد أن يتغول عليها، لكن ما الأساس الذي تستند عليه هذه المبادئ؟

فالليبراليون لا يدّعون أنها شيء أمر الله تعالى به، ولا يدّعون الآن - كما كان بعضهم يقول في الماضي - أنها حقوق مستندةا طبيعة الإنسان. لا يقولون ذلك ولا هذا؛ لأنهم علماء يرون (على الأقل في فكرهم السياسي) لا يرجعون إلى تشريع خالق، ولأنهم ليس لهم دليل على ماهية الطبيعة البشرية وما تقتضيه. ماذا بقي؟ هل يقال: إنها حقوق رأت الأغلبية في بلد ما أو في الجمعية العامة للأمم المتحدة أنها حقوق؟

إذا كان الأمر كذلك؛ فإنها لا تكون حقوقاً إنسانية كما هو الادعاء الآن، وإنما تكون حقوقاً أعطتها دولة لمواطنيها، أو رأت أغلبية الدول أنها يجب أن تُعطى للمواطنين، وإذن؛ فإنها تكون مستندة في النهاية إلى الديمقراطية ورأي الأغلبية وهو رأي يمكن أن يتغير، ويكون السويسريون محقّين في ما قرّره أغليبتهم: من منع

تشيد المساجد، بل قد تُقرَّر الأغلبية في بلدهم أو في أي بلد آخر منع بناء المساجد لا مجرد المآذن، بل قد تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في المستقبل، كما أتوقع.

وإذا لم تكن الليبرالية مستندة إلى شرع إلهي، ولا إلى حق طبيعي، ولا إلى ديمقراطية، فماذا يكون مستندها؟ لا يكون لها مستند؛ إلا كونها مبادئ رأت قلة من الناس أنه يجب على البشرية كلها الالتزام بها وتضمينها في دساتير بلادها. وهذا هو الواقع^(١).

فائدة: من حجج الملحدين بأن الإيمان بالخالق ليس له فائدة وأن الأديان

هي سبب الشرور والحروب؛

من أغرب ما قرأت من حجج الملحدين ما ذكره بعضهم من أنه رجل مختص بعلم النفس وله اطلاع على علم الأجناس (الانثروبولوجيا)، وأنه نظر في ثقافات الشعوب فوجدها كلها بغض النظر عن مواقعها الجغرافية واختلافاتها تتضمن القول بوجود الخالق، وأنه استنتج من هذا أنه لا بُدَّ أن يكون لهذا الإيمان إذن أصل في النفس البشرية. قال لكنه ظل مع هذا ملحدًا. أتدرون لماذا؟ قال إنه لم يجد لهذا الإيمان من فائدة! إذا كان يعني بالإيمان الإيمان الذي يقف صاحبه عند توحيد الربوبية ولا يتعدها؛ فما كان قوله صحيحًا فقد قال الله تعالى عن إيمان بعض الناس: ﴿يَتَّكِمُ بِأُمُورِهِمْ يَوْمَئِذٍ وَيَمْنَعُ مِنَ النَّاسِ﴾

(١) القرار السويسري بمنع المآذن قرار ديمقراطي، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥٧٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٨).

مُؤْمِنِينَ ﴿ [البقرة: ١٩٣]. لكن أهم نتيجة وأكبر فائدة - الفائدة التي تنتج عنها فوائد لا حصر لها - هي الإيمان بأن هذا الرب الواحد يلزم أن يكون هو وحده الإله الذي يستحق أن يُعبد، إذا توصل الإنسان إلى هذه الحقيقة وعرف ربه وأحبه وعبده كان هذا مصدر سعادة روحية له لا تعادلها سعادة؛ لأنه سيكون سبباً لرضى الله عنه.

فهذه هي الفائدة الكبرى للإيمان بوجود الخالق. أما الذين لم يجربوا هذه السعادة فيقال لهم: هناك فوائد أخرى لعبادة الله بإمكانكم معرفتها. من هذه الفوائد البدهية أن الإيمان بالله تعالى يجعل للحياة معنى؛ لأنه يجعل لها غاية كما يجعل لما بعد الموت غاية. إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة من غير غاية، ولذلك تجد كل إنسان في هذه الحياة مشغولاً بتحقيق غاية، لكنها غايات متكاثرة ومتضاربة ومؤقتة.

فهذا طالب غايته أن يجتاز الاختبار، وهذا موظف غايته أن يرتقي في سلمه الوظيفي، وهذا رجل أعمال غايته أن يحصل على أرباح، وهذا باحث غايته أن يصل إلى نتائج باهرة في مجال تخصصه لعلها تنشر وتذاع وتكون سبب شهرة له واحترام، وهذا زعيم سياسي غايته أن يتبوأ منصباً عالياً في دولته، وهكذا.

لكن كل واحد من هؤلاء إذا كان ممن يخلو إلى نفسه ويتفكر في مستقبله الحقيقي، قال لنفسه: ثم ماذا؟ ماذا بعد هذا؟ وماذا بعد الموت؟ وكيف الاستعداد له؟ حين تلح هذه الأسئلة على بعض الناس فإنهم يحاولون التهرب منها بالانشغال ببعض الملهيات وتحقيق بعض الغايات القريبة.

وإذا كان ذلك الملحّد قد ادعى بأنه لم يجد للإيمان من فائدة فإن آخرين من شكله قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فادّعوا أن الدين سبب لمعظم الشرور الموجودة في العالم، فهذا دوكنز الذي أشرنا إليه سابقاً والذي سنكرر الإشارة إليه، يعدد من ضمن الشرور الناتجة عن الدين وجود الحروب؛ الحرب العربية الإسرائيلية، وحرب أفغانستان وحروب أيرلندا وغيرها، ويذكر من ضمن هذه الشرور وجود الإرهاب والتعصب ويعقد فصلاً خاصاً يعدد فيه ما أثاره المسلمون في العالم كله من أنواع الاحتجاج على الرسومات الدنماركية. يكرر دوكنز في هذا كما يكرر في غيره من اعتراضاته على الدين ما سبقه إليه غيره من الملحدين.

يجب أن يذكر أمثال هؤلاء كما ذكرهم غيري بأن أكبر حريين عالميتين أزهق فيهما من الأرواح ما لم يسبق أن أزهق في حروب قبلهما في تاريخ البشرية لم يكن لهما علاقة بأي دين، بل كانا بين دول علمانية غربية، بل إن الاتحاد السوفيتي كان تحت حكم حزب شيوعي إلحادي.

وأن يذكروا ثانياً بأن غزو الدول الغربية لكثير من دول العالم واستعمارها لها إنما كان بسبب أطماع اقتصادية وتوسعية استغل فيها الدين استغلالاً بشعاً. وأن يذكروا ثالثاً بأن مثل هذه الحروب ذات الدوافع غير الدينية كانت معروفة في تاريخ البشرية كله. ألم تكن القبائل العربية مثلاً تتقاتل قبل الإسلام قتالاً عنيفاً بغير دوافع دينية؟

وأن ينهوا رابعاً إلى أن الأديان وإن كانت تشترك في القول بوجود الخالق،

إلا أنها لا تقوم جميعاً على هذا الإيمان، إن أول ثمرات الإيمان بالخالق الإيمان بأنه هو وحده الذي ينبغي أن يعبد، لكن معظم الأديان المعروفة في العالم هي أديان شركية لا تجعل الله تعالى مصدرًا لشرعها. ولذلك فإن جعل تصرفاتها معيارًا يحكم به على وجوده سبحانه منطوق خاطئ. كيف وهي أديان مختلفة في هذه الشرائع، بل في أمور عقيدتها اختلافات تجعلها تتحارب وتتناحر؟ لكننا مع هذا نؤكد القول الذي سبق أن ذكرناه بأن الإيمان بوجود الخالق هو أساس الدين الصحيح، ولذلك فإنه لما كان العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ من أكثر الأمم إيمانًا بالله خالقًا رازقًا محييًا مميتًا؛ جعلت الرسالة المحمدية هذا الإيمان منطلقها في دعوتهم إلى عبادة الله وحده. هذه المكانة العظيمة للإيمان بوجود الخالق هي سبب اهتمامنا به.

ونقول خامسًا للمتعللين في إنكارهم لوجود الخالق بأن الأديان هي سبب معظم الشرور في العالم: هل تعنون أنه إذا ما صار الناس في العالم كله منكرين لوجود الخالق ولوجود دار آخرة يلقي فيها المحسن جزاء إحسانه ويعاقب فيها المسيء على إساءته؛ أن السلام سيعم العالم كله، وأن الناس سيعيشون إخوة متحابين متآزرين متسامحين لا يعتدي أحد منهم على أحد، ولا يطمع أحد منهم فيما عند أحد؟ أليس هذا من السذاجة البالغة والمغالطة الواضحة؟ أليس العكس هو ما يتوقعه كل عاقل متفكر؟^(١)

(١) اضطراب الملحدين (١)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٥٩٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٨).

فائدة: من شبهات الملحدين الزعم بأن الأدلة العقلية على وجود

الخالق أدلة باطلة:

حشد ريتشارد دوكنز Richard Dawking في كتاب له حديث نال شهرة واسعة كل ما عرف الغربيون من شبهات تشكك في وجود الخالق، وكان من هذه الشبهات: الزعم بأن الأدلة العقلية على وجوده أدلة باطلة.

اختار دوكنز ثلاثة براهين لكنني سأختار واحداً منها فقط؛ لأنه انتقدها كلها نقداً واحداً. يقول دوكنز مقررًا هذا البرهان الذي أسموه بالسبب الذي لا مسبب له: «لا شيء يكون سبباً لنفسه. كل أثر له سبب سابق، وهكذا نجد أنفسنا مدفوعين إلى تسلسل قبلي يجب أن يوقف بسبب أول، وهو الذي نسميه الله».

ويقول دوكنز: «كل هذه الحجج تعتمد على فكرة التسلسل القبلي وتلجأ إلى الخالق لينتهي. إنها تفترض افتراضاً لا مسوغ له، هو أن الخالق نفسه غير خاضع لهذا التسلسل، حتى لو سمحنا بالتurf المشكوك في فائدته، ترف استحضار قاطع للتسلسل بطريقة تحكّمية، وإعطائه اسماً لا لسبب إلا لأننا بحاجة إليه، فليس هنالك سبب على الإطلاق لإضفاء أي من الصفات عليه التي يوصف بها الله في العادة».

أقول: إن نقد دوكنز هذا يدل على أنه لم يفهم الدليل؛ ربما لأن تشبّهه بالإلحاد، واعتقاده أنه لا يمكن أن يقوم دليل على وجود الخالق منعه من أن يتأمله، فتعجّل في نقده له نقداً جائراً، إن جوهر الدليل، هو إثبات أن الكون حادث، وهذا ما كان ليوجد لولا وجود موجّد غير حادث؛ فالدليل يقول: إن

الحادث لا بُدَّ له من محدث؛ فإذا كان سبب الحادث حادثًا فلا بُدَّ لهذا الثاني من محدث وهكذا في الثالث والرابع وإلى ما شئت. لكن هذا معناه: أن وجود الحادث معلق على عدد لا ينتهي من الأسباب المحدثة، وهذا معناه: أنه لن يحدث. لا بُدَّ لوجود الحوادث إذن من سبب أزلي غير حادث. لماذا لا يكون الخالق خاضعًا للتسلسل؟ أي لماذا لا نقول عنه كما نقول عن الحوادث: ما سبب وجوده، وما سبب وجود ما أوجده؟ وهكذا. هذا سؤال أراه في غاية الغباء؛ لكنه سؤال يكرره بعض عليّة القوم المتخصصين بالفيزياء، كما فعل الفيزيائي المعاصر المشهور هوكنج. إنه سؤال في غاية الغباء؛ لأنه ما دام الخالق أزليًا غير حادث، فلا مجال للسؤال عن موجد له. فإذا قيل: من أوجده قلنا: لا شيء أوجده؛ لأنه ظل موجودًا منذ الأزل.

يقول بعضهم: ما الدليل على أنه أزلي؟ ونقول كما قال من سبقنا من العلماء: إن الدليل على أزليته هو وجود الأشياء الحادثة التي ما كانت لتحدث -كما قدمنا- لو أنها كانت معتمدة في وجودها على حوادث مثلها، فوجود الحوادث هو الدليل على موجد غير حادث.

وقول دوكنز: إنه لا سبب على الإطلاق لإضفاء شيء من الصفات التي يوصف بها الله تعالى على السبب الذي يقطع التسلسل، هو من أعظم الأدلة على أن الكفر يُعمي قلب الإنسان ويذهب بعقله. كيف لا يتصف بشيء من صفات الله، تعالى؟ ألا تدل الحجة على أنه أزلي غير حادث؟ وأليست هذه من أول صفات الخالق التي يعرفها كل مؤمن به؟ ثم إذا كان أزليًا فلا بُدَّ أن يكون

أبدياً لا يزول، وهذه صفة ثانية من صفات الخالق، وهما الصفتان المعبر عنهما في القرآن بوصف الله تعالى بكونه: هو الأول والآخر. وإذا لم يكن حادثاً فإنه لا يحدث آثاره كما تحدث الأسباب الحادثة آثارها بطريقة طبيعية لا إرادة فيها، بل لا بد أن يكون فاعلاً مريداً. وإذا كان مريداً فلا بد أن يكون حياً.

وهكذا نستطيع أن ندلل على كثير من صفات الخالق الواردة في الشرع بأدلة عقلية، وهذا أمر قد عرفه كثير من أئمة أهل السنة؛ حتى إن بعضهم قال: إن صفة العلو يمكن أن تُعرف بالعقل؟ إن حجة التسلسل التي كنا ننصرها حتى الآن حجة صحيحة، لكن الحجة العقلية القرآنية على وجوده سبحانه أحسن منها، وأخصر، وأبين، وأبسط. يقول الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

تقول هذه الآيات للمنكرين لوجود الخالق: إذا لم يكن هنالك خالق؛ فكيف وجدتم؟ هل جئتم من العدم، أم أنكم أنتم الذين خلقتهم أنفسكم؟ ومن الذي خلق هذا الكون؟ هل كنتم أنتم الذين خلقتموه؟ فلا بد أن يكون الذي خلقه هو الله تعالى؛ لأنه يستحيل أن يأتي من العدم ويستحيل أن يخلق نفسه.

هذا الذي قلنا إنه مستحيل عقلاً، كان أمراً مسلماً به عند كل العقلاء؛ من آمن منهم ومن كفر، لكن بعض علماء الفيزياء في عصرنا صاروا يقولون بإمكانه، أتدرون لماذا؟ لأن نظرية الانفجار العظيم أخرجتهم فصاروا مضطربين؛ لأن يختاروا بين القول بوجود خالق للكون أو القول بكونه أوجد نفسه من العدم، فاختروا هذا المستحيل هرباً من الاعتراف بوجود الخالق.

يقول الفيزيائي هوكنج في كتاب له حديث، كما روى عنه مستعرضو كتابه: «لأن هنالك قانونًا مثل قانون الجاذبية؛ فإن الكون يستطيع أن يوجد نفسه من العدم، بل إنه سيفعل ذلك... إن الخلق التلقائي هو السبب في أن هنالك شيئًا، وليس لا شيء، وهو السبب في وجود الكون وفي وجودنا. وبناءً عليه فلا داعي للرجوع إلى الله لجعل الكون يسير». هذا كلام لو قاله شخص عادي لظن الناس أن في عقله خللاً. أليس قانون الجاذبية قانونًا في داخل الكون؟ كيف يكون إذن سببًا في وجوده؟ ثم ما معنى أن يُخلق شيء من العدم؟ إن العدم ليس بشيء؛ فكيف يُخلق منه أو به شيء؟ ومن الغرائب أنه قبل ظهور نظرية الانفجار العظيم، كان أكثر ما يأخذه علماء الطبيعة والفلاسفة الملحدون على الدين كونه يقول: إن الله تعالى خلق الإنسان أو الكون من العدم.

هذا مع أن فكرة الخلق من العدم - رغم ذبوعها - ليست مما جاء به الدين؛ فلا يوجد في الإسلام نص على خلق شيء من العدم، وكذلك الأمر بالنسبة للكتب (المقدسة) عند النصارى واليهود؛ كما تقول دائرة المعارف الدينية. اعترض كثير من الفيزيائيين، بل حتى من الملحدين منهم على كلام هوكنز ذلك فقال بعضهم: إنه حشره حشرًا في الموضوع، وقال بعضهم: إنه إذا كانت هنالك مشكلة في وجود الخالق، فإن المشكلات الموجودة في نظرية الانفجار أعظم منها^(١).

(١) اضطراب الملحدين (٢)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٠١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٨٩).

فائدة: الفهم القاصر للخالق سبحانه في الخلط بين المخلوقية والسببية:

مِنَ الْفَهْمِ الْقَاصِرِ لِلخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْمَلَاحِدَةِ يَخْلَطُونَ بَيْنَ الْمَخْلُوقِيَّةِ وَالسَّبَبِيَّةِ، إِنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُ إِذَا اكْتَشَفَ سَبَبٌ حَدُوثَ شَيْءٍ فَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ مَخْلُوقًا، وَأَنَّ السَّبَبَ النِّهَائِيَّ لِحُدُوثِهِ هُوَ هَذَا السَّبَبُ الْمَشَاهِدُ، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِوُجُودِ الخَالِقِ يَسْتَدَلُّونَ عَلَى وُجُودِهِ بِالْحَوَادِثِ الَّتِي لَمْ يَصِلْ الْعِلْمُ التَّجْرِبِيُّ إِلَى اكْتِشَافِ أَسْبَابِ لَهَا؛ لِذَلِكَ كَانَ الْمَلْحَدُونَ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَيَسْمُونَ خَالِقَهُمْ إِلَهَ الْفَجْوَاتِ، وَلَا سِيَّمًا أَنَّ الْعِلْمَ الطَّبِيعِيَّ كَانَ يَسُدُّ بَعْضَ هَذِهِ الْفَجْوَاتِ بِاكتشافه لأسباب الحوادث التي قيل: إنه لا يحدثها إلا الله تعالى^(١).

فائدة: الدارونية والإلحاد:

زعم دوكنز أن الدارونية أخرجت الخالق من نطاق الأحياء، ويزعم أن لديه بديلاً أحسن من القول بوجود خالق خلق الخلق بإرادته وعلمه. ما هذا البديل؟ يقول: «إن أي خلاق ذي وعي يكون من التعقيد بحيث يستطيع أن يصمم أي شيء، لا يأتي إلى الوجود إلا نتيجة لعملية تطورية طويلة. بما أن الوعي الخلاق يأتي عن طريق التطور فإنه يكون بالضرورة في آخر الكون، فلا يمكن لذلك أن يكون مسؤولاً عن تصميمه».

إن حجة دوكنز هذه من النوع الذي يسمى بالمصادرة على المطلوب،

(١) اضطراب الملحدين (٣)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٠٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ (ص: ٥٨٩).

وهي أن يجعل الإنسان ما يُطلب منه برهانه من مقدمات ذلك البرهان. لقد بدأ حجته بدعوى أنه سيأتي ببديل عن وجود الخالق، والذي يزعم أن بديله هو الأحسن لا بُدَّ أن يأتي بأدلة مستقلة عن دليله تبرهن أفضليته. لا يمكن أن يدَّعي إنسان -مثلاً- أن الدكتاتورية خير من الديمقراطية، ثم يدل على ذلك بحجج مبنية على أفضلية الدكتاتورية. لكن هذا بالضبط هو الذي فعله دوكنز.

لقد افترض أنه لا يوجد موجود ذو وعي إلا إذا كان مثل الكائنات الحية التي يتعامل معها علم الأحياء، والتي تنطبق عليها قوانين الدارونية. هذا مع أن خصمه يزعم أن هذه الأحياء التي نتحدث عنها الدارونية ما كانت لتوجد لولا وجود خالق ليس هو من نوعها، خالق لا يصدق عليه وصفه بأنه لا يأتي إلى الوجود إلا نتيجة عملية تطويرية طويلة. إن نظرية دوكنز التي جعلها بديلاً عن القول بوجود الخالق لا تحل أهم إشكال يحله القول بوجوده سبحانه، وهو أن النظر في طبيعة هذه الكائنات يدل كما قلنا من قبل على أنها ليست أزلية، وأنها لا يمكن أن تكون قد جاءت من العدم، ولا يمكن أن تكون هي الخالقة لنفسها؛ فلا بد لها لذلك من خالق، وكما أن هذا يقال عن الكائنات الكبيرة المشهودة، فإنه يصدق أيضاً على الكائنات الصغيرة التي زعم دوكنز أن كائنها الواعي الخلاق تكون منها.

إن العلماء الطبيعيين من أمثال هوكنز ودوكنز بدؤوا يفتنون الناس في بلادهم وفي غيرها من البلاد التي يتأثر فيها بفكرهم، وما أكثرها! بدؤوا يصورون لهم الإلحاد على أنه هو المعتقد الصحيح الذي يدل عليه علمهم

ویدعمه. إن ثقة الناس الشديدة بالعلوم الطبيعية هي التي تجعلهم يعتقدون صحة كل ما يقال لهم: إن هذا العلم يدل عليه علمهم ويدعمه^(١).

فائدة: الرد على من قال أن القوانين الفيزيائية - ولا سيما قانون الجاذبية - كافية وحدها لإخراج الكون من العدم إلى الوجود،

قال هوكنز في الدليل على عدم الحاجة إلى الخالق سبحانه: أن القوانين الفيزيائية - ولا سيما قانون الجاذبية - كافية وحدها لإخراج الكون من العدم إلى الوجود، ونقول: إن قانون الجاذبية نفسه يفترض وجود موجودات؛ لأن الجاذبية إنما تكون بين أشياء موجودة؛ فكيف يكون هذا القانون هو الذي يوجد الكون من العدم؟ ثم نقول: إن القوانين الطبيعية ليست بالأزلي، وإنما محدثة شأنها في ذلك شأن المخلوقات التي تحكمها؛ فكيف تكون هي التي تحدثها من العدم؟

إن مشكلة هؤلاء الملحدين هي أن تصوّرهم للخالق تصوّر في غاية القصور، حتى يمكن للمرء أن يقول: إنه لا داعي لإنكار وجوده؛ لأنه أصلاً شيء لا يمكن أن يوجد. لَمَّا كانت مهمة الإله في تصوّر كثير ممن يسمّون بالمفكرين الغربيين محصورة في أن يبدأ الخلق، ثم يتركه بعد ذلك يسير وحده بالقوانين الطبيعية، كما يحرك إنسان عجلةً من مكان عالٍ متدحرج، كان من السهل على رجال من أمثال هوكنز أن يقولوا: إن الكون مستغن عن خالق كهذا؛

(١) اضطراب الملحدين (٣)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٠٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٩).

لأنه يمكن أن يبدأ سيره مستقلاً عنه.

هذا مع أن الخالق الحق هو خالق لا يكون شيء في الوجود إلا بإذنه وعلمه وقدرته، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وكما قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] (١).

فائدة: قلة الثقافة العلمية بين المتخصصين في العلوم الشرعية:

لا أحد بالطبع يتوقع أن يكون كل من جعل همه دراسة التفسير أو الحديث أو الفروع الفقهية أو اللغة العربية متبحراً في العلوم التجريبية، كما أنه لا يُتَوَقَّع من كل متخصص بفرع من العلوم التجريبية أن يكون إلى جانب ذلك متبحراً في الدراسات الشرعية. بل إنه لا يُتَوَقَّع ممن تخصص بفرع من العلوم التجريبية أن يكون عالماً بها كلها؛ فمن تخصص بالفيزياء لا يكون عالماً بالأحياء كعلم المتخصص بها... وهكذا؛ فكيف يُطلَب ذلك من المتخصص بفرع من العلوم الشرعية؟ ولذلك فإننا إنما نتحدث عن الثقافة العلمية التي تؤهل كل مثقف أن يكون ملماً بنتائج تلك العلوم، عارفاً بالقضايا العامة التي

(١) اضطراب الملحدين (٣)، كتاب الإسلام لعصرتنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٠٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٩).

تثيرها، أعني القضايا التي يسميها القوم بالفلسفية؛ وكذلك صاحب العلوم الطبيعية بالنسبة للعلوم الشرعية، إن المطلوب منه أن يعرف أمور دينه معرفة عامة وأن يكون ذا صلة مستمرة بكتاب الله تعالى حتى يبني تصوُّره العام عليه، بل لا بُدَّ له من أن يعرف بقدر من التفصيل بعض ما يتعلق بقضايا علمه من مسائل العقيدة؛ لا بُدَّ له من معرفة التصور الصحيح لصفات الخالق، تصوُّر أئمة أهل السنة الذي ربما كان هو السبب الأساس في إنقاذ المسلمين من الإلحاد. كيف ذلك؟ لقد انقسم خصوم أهل السنة في هذه المسألة إلى فريقين فريق الجهمية الذين لا يكادون يُثبتون لله صفة، وفريق المجسِّمة الذين يشبهون الخالق بمخلوقاته مع فارق واحد هو كونه أكبر منها.

ولذلك لخص أئمة أهل السنة هذين المذهبين بقولهم: الجهمية يعبدون عدمًا والمجسمة يعبدون صنمًا. واضح أن الانتقال من إله الجهمية إلى الإلحاد أمر في غاية الاحتمال. إن المفكر الذي يأخذ اعتقاد الجهمية مأخذ الجد يوشك أن يقول لنفسه: ما الفرق بين أن أقول: إنني مؤمن بشيء لا يوصف بصفة من الصفات، وأن أقول: إنني لا أؤمن بشيء؟ كذلك الانتقال من التجسيم إلى إنكار وجود الخالق؛ فقد يقول الإنسان لنفسه: إذا كان الدليل على وجود الخالق هو كون هذه المخلوقات تحتاج بطبيعتها إلى من يخلقها، وكان هذا الذي يقال إنه خالق هو مثلها مع فارق الحجم، فإنه أيضًا يحتاج إلى خالق؛ لأن الحجم لا تأثير له في كونه محتاجًا إلى خالق.

إن اهتمام بعض المسلمين بهذه القضايا سيكون فيه بإذن الله تعالى هداية

للناس المعرّضين للتأثر بمثل هذا النوع من الدعاوى التي تربط بين العلم الطبيعي والإلحاد؛ ذلك أن التصور الصحيح لصفات الخالق هو الذي يثبت لله تعالى كل صفات الكمال وينفي عنه كل صفات النقص ويقول مع ذلك: إنه ليس كمثله شيء^٤.

هذا التصور - وهو تصور أهل السنة المبنى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو الذي سيعصم الناس بإذن الله تعالى من الوقوع في شرك الإلحاد مهما كانت أنواعها^(١).

فائدة: المفهوم العربي الإسلامي للأخلاق:

المفهوم العربي الإسلامي للأخلاق: الخلق (بضم الخاء واللام) في الاستعمال العربي هو الطريقة التي يعامل بها الواحد غيره، وبما أنه لا بُد لكل أحد من التعامل مع غيره، فلا بُد إذن أن يكون لكل أحد خلق، وهذا أمر يشمل حتى بعض الحيوانات؛ فعندما بركت ناقة رسول الله ﷺ وهم في طريقهم إلى مكة في غزوة الحديبية، قال بعض أصحابه: «خلأت القصواء»، فأجابهم الرسول ﷺ بقوله كما في صحيح البخاري: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق». وبما أن المعاملة لا تكون إلا حسنة أو سيئة، فإن الخلق لا يكون إلا حسناً أو سيئاً؛ ولذلك تجد الخلق في التعبير العربي وفي الشرع الإسلامي لا يكون إلا

(١) اضطراب الملحدين (٣)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٠٦)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٨٩).

موصوفاً بالحُسن أو السوء.

من ذلك وَصَفَهُ تعالى رسوله الكريم بأنه على خُلُقٍ عظيم، وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه مالك في (الموطأ): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومدَّحه في أحاديث كثيرة لحُسن الخلق، وذمَّه لسوئها. لكننا صرنا الآن نقول للسلوك الذميم: إنه سلوك لا أخلاقي؛ ترجمة للكلمة الغربية Immoral، وهو تعبير لا معنى له في اللسان العربي؛ لأنه ما من سلوك -حسناً كان أم سيئاً- إلا وهو خُلُقِي كما رأينا^(١).

فائدة: ما العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق كالصدق والأمانة والوفاء؟

هنالك طرفان ووسط في الإجابة عن هذا السؤال:

طرف يقول: إن من لا يؤمن بالله لا يلتزم بشيء من مكارم الأخلاق، بل ربما قال: إنه لا يعرف لها معنى.

وطرف مقابل يقول: إنه لا علاقة البتة بين الإيمان بالله ومكارم الأخلاق.

أما الوسط -وهو الصواب- فيقول: إن مكارم الأخلاق لها أصل في فطرة الإنسان؛ ولهذا يقول ردًّا على الطرف الأول: إن معرفة هذه المكارم واعتبارها شيئاً حسناً أمر يبني عليه الدين مخاطبته للإنسان. فكما يفترض الدين أن من يخاطبه

(١) اضطراب الملحدين (٤)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦١٢)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٩٠).

مخلوق له عقل، فهو يفترض أيضاً أنه مخلوق يعرف معنى المكارم والمساوى الخلقية؛ فالدين يدعو الإنسان إلى عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعلل هذا الطلب بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المنعم على الإنسان بكل أنواع النعم.

وجوهر العبادة هو الشكر. فإذا كان المرء لا يعرف للشكر معنى، فإنه لن يعقل لخطاب الوحي معنى؛ فالله تعالى يقول مثلاً: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢١-٢٢﴾.

إذا كان المخاطب لا يعرف للشكر معنى، فربما قال: إنني معترف بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي أنعم عليّ بكل هذه النعم ولكن ما معنى كوني أشكره وأعبده؟ وإذا قال الله تعالى في أول آيات من وحيه يخاطب بها الإنسان: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿العلق: ١-٥﴾، فربما قال - إذا لم يكن لمكارم الأخلاق أصل في قلبه -: إنني معترف بأن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان من علق، ولكن ما معنى كونه الأكرم، ولماذا يكون خلقه لي سبباً لعبادتي له؟ ولكن إذا كان لمكارم الأخلاق هذا الأصل الثابت في الفطرة البشرية، فإنه لا يعني أنه ليس بينها وبين الإيمان بالله تعالى صلة كما يدعي الملحدون من أمثال دوكنز؛ وذلك أنه:

أولاً: إذا كانت مكارم الأخلاق في أصل الفطرة، فإن الإيمان بالله تعالى هو الآخر في أصلها، بل في أصل أصلها؛ ولهذا فإنه مما يقويها ويثبتها؛ فكلما قوي

الإيمان بالله تعالى كانت هذه المكارم أحياناً في قلب الإنسان وكانت مراعاته لها أشد.

ثانياً: المؤمن بالله تعالى يعلم أنه سبحانه يحب هذه المكارم فهو يحبها بحبه لله، تعالى.

ثالثاً: كما أنه يحبها بحب الله سبحانه وتعالى لها، فإنه يحبها ويحاول الاستمساك بها بحب رسل الله لها واستمساكهم بها، كما قال الله سبحانه وتعالى عن رسوله الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

رابعاً: إذا كان الإنسان يعلم بفطرته مبادئ الأخلاق الفاضلة، فإنه لا يعلم كل مقتضياتها، الوحي هو الذي يهديه إلى كثير من هذه المقتضيات. إن الإنسان يعلم بفطرته -مثلاً- أن العدل شيء حسن، ولكن هل يصل علمه به إلى ما وصفه الوحي بمثل قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُورًا قَوْمِينَ بِأَلْسِنَةٍ شَاهِدَةً لِّهِمْ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أُوّٰلَآئِ الَّذِينَ ءَأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ عَنِيَّآ أَوْ فَقِيرًا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ إِنْ تَعَدَّلُوا وَإِنْ تَلُؤْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]؟ وإذا كان الإنسان يعلم أنه من الخير للناس أن يعيشوا متحابين؛ فهل يعلم كل ما يتنافى مع هذا الهدف، وهل هو مستعد لأن يخالف داعية هواه ليحققه؟ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخُبْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

ينقل دوكتز في إعجاب عن آينشتاين قوله: «إذا كان الناس إنما يكونون خيرين لأنهم يخشون العقاب ويرجون الثواب فإننا أمة يرثي لها». فهل تدرون

كيف كانت الحياة الشخصية لهذا الفيزيائي الشهير قائل هذا القول؟ أنجب أول طفل له من امرأة قبل أن يتزوجها! ثم لَمَّا تزوجها وأنجب منها طفلين طلقته بسبب الخيانة الزوجية! أما زوجته الثانية التي كان عمرها اثنتين وأربعين سنة، فقد رضيت بالأمر الواقع وعاشت معه، رغم اعترافه لها بأن له علاقة بست نساء غيرها!

خامساً: يكاد المفكرون الغربيون يُجمعون على أن طلب الجزاء على عمل الخير مما يتنافى مع القيم الخُلُقِيَّة، ويرون لذلك أن من شرط العمل الخُلُقِي أن لا يكون عليه جزاء. لكن الدين الحق يقرر أن جزاء الإحسان بالإحسان هو نفسه أمر يقتضيه الإحسان: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. نعم إن طلب الجزاء الدنيوي على الإحسان أمر يتنافى مع مكارم الأخلاق، لكن هذا لا يعني أن كل جزاء على الإحسان يتنافى معها وإلا كان عمل الخير عبثاً، وكان مثله كمثل من يلقي بماله في البحر أو يحرقه؛ لأنه لا معنى للعبث إلا أن يعمل الإنسان عملاً لا يحقق له أي نوع من النفع؛ ولذلك كان من الأدلة على وجود الخالق ضرورة وجود دار أخرى يثاب فيها المحسن ويعاقب المسيء، وإلا كان المحسن هو الخاسر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ [القلم: ٣٥-٣٦].

هل معنى ذلك أن الملحد لا يمكن أن يُحسن أبداً؟ كلا. لكنه إذا أحسن فإن إحسانه لا يكون مبنياً على إلحاده وإنما على دوافع أخرى؛ فقد يصدق لأن من مصلحته أن يفعل ذلك في موقف معين؛ ولذلك فإن أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علل

صدقه لهرقل بقوله كما في صحيح البخاري: «فو الله لولا الحياء من أن يَأثروا عليّ كذبًا لكذبت». فأبو سفيان الذي لم يكن ملحدًا ولكنه كان مشركًا لم يعلل امتناعه عن الصدق اعتمادًا على شركه، وإنما اعتمادًا على مصلحته؛ لأنه كان يعيش في مجتمع يرى رغم شركه أنه من العيب أن يكذب رجل من سادة قومه، وكذلك الملحد قد يصدق؛ لأن الصدق في مصلحته الدنيوية، ولأن الكذب أو السرقة أو الخيانة تعرّضه لإشانة السمعة أو للعقوبة أو لأي نوع من أنواع الخسارة المادية. إلا يمكن أن يصدق الملحد لأنه بشر يجد حُسن الصدق في فطرته؟ نعم قد يصدق إذا لم يكن الصدق ضارًا به كما قلنا.

أمّا أن يصدق رغم أن الصدق يكلفه نوعًا من التضحية، فإنه إن صدق يكون قد فعل فعلاً يتنافى مع معتقده. إن فطرته قد تقول له: اصدق رغم أنك إذا صدقت تخسر ألف دولار مثلاً، لكن فكره الإلحادي - إذا كان واعياً به ومنطلقاً منه - يقول له: إنك تكون حينئذ مغفلاً لا عقل لك. إنك تؤمن بأن هذه الحياة هي فرصتك الوحيدة للاستمتاع بما فيها من لذات؛ فلماذا تضحي بها إذن؟ إن مشكلة الذي لا يؤمن بالله ولا بالدار الآخرة أنه يجد في نفسه نزاعاً بين فطرته (إذا كان ما يزال محتفظاً بشيء من نقائها) وبين معتقده؛ ففطرته تدعوه لفعل الخير وإن كان يقتضي شيئاً من تضحية، لكن معتقده يجعل هذا الفعل فعلاً غير عقلائي. وإذن فلا يغرنك عمل خير يصدر عن ملحد أو عن منكر لوجود الآخرة؛ فتظن أن عمله دليل على صحة معتقده أو على أنه لا منافاة بين هذا المعتقد وبين فعل الخير. قد يقال: إذا كان الملحد لا يلتزم دائماً

بمكارم الأخلاق، فإن المؤمن أيضًا قد يرتكب ما يتنافى معها؟ الفرق بين الاثنين أن الملحد حين يفعل فعلًا يتنافى مع مكارم الأخلاق لا يكون قد فعل فعلًا يتنافى مع معتقده، بل ربما كان معتقده هو الذي يسوغ له هذا الفعل. أما المؤمن فإنه إذا ما وقع في مثل هذا الفعل، فإنه يعلم أنه أذنب؛ ولذلك فإنه - إذا كان صادق الإيمان - يحزن ويستغفر ويتوب، ويعزم على أن لا يعود.

سادسًا: إذا كانت مكارم الأخلاق من الفطرة، فما كل ما في الفطرة مما يظل الإنسان له ذاكرًا، وإذا كان الإنسان محتاجًا إلى أن يُذكر بالله، فمن باب أولى أن يكون محتاجًا إلى أن يذكر بمكارم الأخلاق ويحث على الاستمسك بها.

وهذا الذي يفعله الدين الحق؛ إذ يذكره بالعلاقة القوية بينه وبين دينه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. «البر حُسن الخلق»، «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»، «إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا. وعليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا».

ومما استدل به دوكنز على عدم الفرق بين المؤمن بالله والمنكر لوجوده في مسألة الأخلاق تجربةٌ قال: إنه أجراها شخصان: أحدهما عالم أحياء، والآخر فيلسوف أخلاق، ملخصها: أنهما جمعا عددًا من المواطنين من

المؤمنين بوجود الله والمنكرين لوجوده وسألاهم أسئلة افتراضية، وطلبنا منهم أن يجيبوا عنها بمعايير خُلُقِيَّة فيختاروا ما إذا كان العمل المفترض واجباً فعله، أم مباحاً، أم ممنوعاً. وهذا ملخص الأسئلة ونتائجها.

- قطار إذا تُرك يسير في خطه المعتاد قتل خمسة أشخاص، وإذا ما حُوِّل قتل شخصاً واحداً؟ أجاب تسعون بالمئة بأنه يجوز تحويله لإنقاذ الخمسة والتضحية بالواحد.

- ترى طفلاً يكاد يغرق في بركة لكنك إذا أنقذته خسرت بنطالك؟ أجاب سبعة وتسعون بالمئة بأن إنقاذه واجب.

- خمسة أشخاص في مستشفى يحتاج كل منهم لعضو لإنقاذ حياته، وهناك شخص سليم في حجرة الانتظار؛ فهل يُقتل وتؤخذ أعضاؤه لإنقاذ الخمسة؟ أجاب سبعة وتسعون بالمئة بأنه يُمنع قتله.

قال اللذان أجريا هذه التجربة: إنهما لم يجدا فرقاً كبيراً في الأجوبة بين المؤمنين وغير المؤمنين؛ فاستنتجا من ذلك: أنه لا علاقة للإيمان بمسألة الأخلاق. لكن على هذه التجربة وما استنتجه اللذان أجرياها ملاحظات:

- منها: أن كون غير المؤمن له معرفة ببعض مكارم الأخلاق وتطبيقه لها أمر لا يحتاج إلى تجربة كما قررنا من قبل.

- ومنها: أنه من السهل على الإنسان مؤمناً كان أم غير مؤمن أن يلتزم بالمعيار الخُلُقِي الكريم إذا لم يقتض منه تضحية، والأسئلة التي سألها أصحاب التجربة كلها من هذا النوع ما عدا قصة البنتال الذي كان يمكن أن تضحى به حتى

بعض الحيوانات، ماذا لو تضمّنت الأسئلة سؤالاً، مثل: إذا اتهم شخصان بسرقة شيء وكان أحدهما بريئاً وكنت تعلم أن المجرم هو ابنك؛ فهل تشهد بأنه هو السارق؟ إذا ارتكبت جرماً يعرضك للحبس أو الغرامة الكبيرة وقال لك محاميك: إنه لا مخرج لك إلا أن تكذب؛ فهل يجوز لك ذلك، أم يجب، أم يمنع؟

- ومنها: أن الآثار السلوكية والخلقية الحسنة للإيمان بالله لا تكون بمجرد الإيمان بوجوده، لقد كان العرب في جاهليتهم يؤمنون بوجود الخالق، بل بكونه هو الذي يحيي ويميت ويرزق وينجي لكن بعضهم كان مع ذلك يئد البنات. إن الإيمان الحق هو الإيمان بخالق متصف بصفات الكمال، وبأنه يبعث الناس ويحاسبهم، وبأنه يرسل رسلاً وينزل كتباً لهديته؟^(١).

فائدة: مفهوم الدين بالمعنى العربي الواسع:

الدين بهذا المعنى هو كل ما يكون عادة مستمرة، وبهذا المعنى جاء قول

الشاعر عن نفسه وعن ناقته:

تقول إذا درأت لها وضيئي أهذا دينه أبداً وديني؟
أكل الدهر حلّ وارتحال أما يُبقي عليّ ولا يقيني؟

وكما تكون العادة المستمرة لفرد - كما في هذا المثال - فإنها تكون أيضاً

لجماعة. قال تعالى عن نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ

(١) اضطراب الملحدين (٤)، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦١٢)،

وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا

للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٩٠).

الْمَلِكِ ﴿ [يوسف: ٧٦]. ودين الملك هنا: هو نظامه والقوانين التي تسير عليها دولته، والتي لم يكن ليوسف أن يأخذ أخاه بمقتضاها. ولكن بما أن كل دولة بل كل جماعة متعايشة لا بُد لها من قوانين أو تقاليد أو أعراف تسير عليها، فكل دولة هي بالضرورة دينية بهذا المعنى العربي الواسع للكلمة. فالدولة الديمقراطية دينية، والدكتاتورية دينية، وكذلك الشيوعية أو العلمانية، وهكذا^(١).

فائدة: المفهوم العلماني للدين:

الدين بهذا المعنى هو أمر محصور في الشؤون الخاصة ولا سيما العبادات، وعليه فلا يمكن أن تكون الدولة دينية بهذا المعنى. لكن بعض العلمانيين في البلاد العربية يفترضون أن هذا المفهوم العلماني للدين هو المفهوم الوحيد له. ولذلك ترى بعضهم يعترض على مادة الدستور المصري التي تقرر بأن دين الدولة الرسمي هو الإسلام بحجة أن الدولة ليس لها دين لأن الدين إنما يكون للأفراد^(٢).

فائدة: المعنى الثيوقراطي للدولة الدينية:

تكون الدولة دينية بهذا المعنى الغربي إذا كان حاكمها أو حكامها يزعمون أنهم يصدرون في كل ما يقولون ويفعلون عن وحي من الله تعالى إليهم مباشرة.

(١) الدولة الدينية والدولة المدنية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٣١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٩٠).

(٢) الدولة الدينية والدولة المدنية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٣١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٩٠).

ولذلك لا يمكن مناقشتهم أو محاسبتهم. والذي يدّعي مثل هذه الدعوى لا يُشترط فيه أن يكون رجُلَ دين بالمعنى المعروف في الغرب؛ فقد ثبت عن الرئيس بوش -مثلاً- أنه كان يدّعي مثل هذه الدعاوى. وبالرغم من أنه كان يتصرف على أساس هذه الدعاوى في حدود السلطات التي يتيحها له الدستور الأمريكي؛ إلا أن بعض المفكرين الغربيين وصفوا حكمه بالثيوقراطي وأطلقوا عليه اسم الثيوقراطية الأمريكية.

هذا هو المعنى الأساس للحكم الثيوقراطي؛ لكن بعض الناس في بلادنا صاروا يعرفونه بأنه حكم رجال الدين ويجعلون رجل الدين هو الذي تخرّج في مؤسسات تعليمية دينية، وهذا ليس بصحيح؛ لأن الشخص يمكن أن يدرس مثل هذه الدراسة ثم يكون مع هذا رجلاً علمانياً، ولأن آخر يمكن أن يتخرج في جامعات غير دينية لكنه يكون مع ذلك مؤمناً بالثيوقراطية كما كان بوش. وإذا كان بعض الناس قد عرفوا الدولة الدينية بنوع الدراسة التي يتلقاها الحاكم، فقد صار الساسة الغربيون الآن يوسعون معناها لتشمل كل دولة تتسبب إلى الدين حتى لو لم تكن ثيوقراطية^(١).

فائدة: المفهوم الإسلامي للدولة الدينية:

الإسلام دين بالمعنى العربي العام وبالمعنى الشائع الآن، وفيه أمر بالحكم بما أنزل الله تعالى في كل شؤون الحياة؛ بما في ذلك في الأمور المتعلقة بالدولة من

(١) الدولة الدينية والدولة المدنية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٣١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٩٠).

نظام حكم وقضاء وسياسات وغير ذلك. فالدولة الإسلامية هي إذن بالضرورة دولة دينية؛ لكنها ليست دولة ثيوقراطية لأن الحاكم فيها لا يحكم فيها بأوامر أو أخبار يتلقاها من الله تعالى مباشرة؛ وإنما يحكم بنصوص مكتوبة يستوي هو وغيره في إمكان معرفتها؛ ولذلك يمكن أن يحاسب ويمكن للناس أن يختلفوا معه. وهو في هذا يشبه الحاكم في الدولة التي تسمى بالمدنية؛ لأن هذا الأخير إنما يحكم في إطار قوانين يستوي هو وغيره في معرفتها، وفي إطار صلاحيات حُدِّت له.

ربما كان هذا الذي ذكرناه هو السبب في قول بعض الإسلاميين في أيامنا هذه بأن الدولة الإسلامية ليست دولة دينية؛ وإنما هي دولة مدنية. لكن الكلام بهذا الإطلاق ليس صحيحًا؛ بل ربما كان فيه عدم بيان لمعنى الدولة المسلمة. لذلك كان من الأحسن أن يوضح هذا الأمر حتى لا يكون مثار خلاف لا داعي له بين الإسلاميين؛ يجب أن يوضح بأن الدولة الإسلامية ليست دينية بالمعنى الثيوقراطي للدولة الدينية، بل ربما كان من الأحسن أن تستعمل هذه الكلمة الغربية التي لا مقابل لها في ما أعلم في اللغة العربية. وربما كان من الأحسن أيضًا أن يبين معنى كونها دولة مدنية.

إن إطلاق القول بأن الدولة الإسلامية ليست دينية جعل بعض الإسلاميين المصريين يتناقضون؛ لأنهم في الوقت الذي يؤكدون هذا يستمسكون استمساكًا شديدًا بالمادة التي تقول: إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام^(١).

(١) الدولة الدينية والدولة المدنية، كتاب الإسلام نعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٣١)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إنشيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٩٠).

فائدة: أصناف الليبرالية:

الليبرالية صنفان:

- صنف أصلي مصنوع في الغرب.

- وصنف مغشوش يباع في العالم العربي باسم الصنف الأصلي.

أصحاب الصنف الأول: يبيعون بضاعة هي من صنع أيديهم فتستطيع لذلك أن تتحاور معهم وتدلّهم على مواطن الخلل في بضاعتهم، وهي كثيرة. وقد يستمعون إليك، وقد يعترفون لك بما في بضاعتهم من عيوب ثم يحاولون تغييرها كما ظلوا يفعلون على مرّ السنين.

لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع مروجي البضاعة المغشوشة؛ لأن بائعيها ليسوا أصلاء؛ وإنما هم مقلدون مزيفون لا يستطيعون ترويح بضاعتهم إلا بتسميتها بالاسم الذي اختاره المصنعون الأصلاء ودافعوا عنه وأعطوا أنفسهم حرية إعادة النظر في بضاعتهم وتعديلها وتبديلها. كيف تتجادل مع إنسان يعترف لك بأن مثلك الأعلى أن يتحول إلى أوروبي يأخذ من أوروبا كل شيء حتى الديدان التي في بطون أبنائها كما كان أتاتورك يقول: «لكي نكون مثل الأوروبيين، يجب أن نسير في الدرب نفسه الذي ساروا عليه.

ونأخذ حضارتهم بما فيها من حلو ومُرٍّ، وخير وشر». أو يردد ما كان يقوله الدكتور زكي نجيب محمود قبل أن يمنّ الله عليه بالهداية: «إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترًا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة، ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إنّي تمنيت عندئذٍ أن نأكل كما

يأكلون، ونجدد كما يجدون، ونلعب كما يلعبون، ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون». كيف يمكن أن تتحاور مع إنسان مثل هؤلاء غمس نفسه في بؤرة التقليد والتبعية فلم يعد يرى إلا ما رآه له من اتبعه؟

رأى الليبراليون الزائفون كما رأى الشيوعيون من قبلهم أن أكبر عائق يسد على الأمة طريق التبعية هذا هو الإسلام، فأصيبوا كما أصيب الشيوعيون من قبلهم بداء عضال يسميه بعض الغربيين (الإسلامفوبيا).

تحولت دعوة الشيوعيين بسبب هذا المرض من دعوة ذات أساس اقتصادي إلى دعوة همها الترويج لثقافة الشارع الغربي الرأسمالي، ثقافة الرقص والغناء والسفور ومعاقرة الخمر، حتى أصبحوا - كما كنا نقول لهم - مجرد وكلاء لثقافة ذلك الشارع الرأسمالي. والذي حملهم على هذا هو أنهم وجدوا أن القيم الإسلامية المعادية لذلك الفجور هي التي كانت من أهم أسباب ابتعاد الشباب عنهم، فأرادوا أن يقولوا للشباب كونوا معنا نحرركم من تلك القيود ولا تكونوا مع الإسلاميين الذين أثقلوا كواهلكم بتكاليف المعتقدات والعبادات والحلال والحرام. وما علم المساكين كما لا يعلم إخوانهم المسمون اليوم بالليبراليين: أنهم إنما يتبعون بذلك طريقاً خطئاً لهم العدو منذ زمان بعيد وحذرهم ربهم منه: ﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ لَا يَقْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ١٦٩]. إذا كان الشيوعيون في بلادنا

كانوا قد صاروا مجرد عملاء لثقافة الشارع الغربي الرأسمالي، فما هكذا كان

إخوانهم في البلاد الغربية. لقد كان أولئك يحاربون تلك الثقافة؛ حتى إن ابنة ستالين قالت في كتاب لها: إن والدها كان ينهاتها من ارتداء التنانير القصيرة! وكانت تسجيلات بعض الأغاني والموسيقى الغربية كموسيقى الروك أند رول لا تدخل البلاد الشيوعية إلا مهربة.

وعندما هياً الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لنا زيارة موسكو بعد سقوط الاتحاد السوفيتي مباشرة، وجدنا نساءهم يرتدين ثياباً هي أكثر حشمة مما رأينا النساء في البلاد الأوروبية والأمريكية يرتدينه. لكننا علمنا بعد أن الأمر تغير بعد أن فُتح باب الاتصال بالغرب على مصراعيه. والليبراليون المضيفون في بلادنا يكررون الآن مأساة مرضى الإسلاموفوبيا مع فارق كبير: هو أن الشيوعيين كانوا بسبب تبعيتهم للاتحاد السوفيتي أعداء للاستعمار الغربي. لكن أصحاب الليبرالية المغشوشة في بلادنا يشيدون بهذا الاستعمار ويرون فيه المنقذ الوحيد لهم من آثار القيم الإسلامية، والقادر وحده على تحقيق ليبراليتهم المعادية للإسلام.

لقد سمعت والله بأذني رجلاً في إحدى دول الخليج كان يتمنى أن تزحف القوات الأمريكية على بلده بعد أن تنهي مهمتها في العراق. ثم عرفت بعد أن ذلك لم يكن موقفاً شاذاً؛ وإنما كان أمراً يعجأ به أصحاب الليبرالية المغشوشة من العرب الساكنين في البلاد الغربية، بل ينظمون مظاهرات تؤيد بوش وتصفق له. المقلدون من أمثال من يسمون أنفسهم بالليبراليين في بلادنا يأخذون عن الغرب مذاهب باطلة لجأ إليها الغرب لظنه أنها تحل مشكلات يواجهها، فيتبنون تلك الفلسفات والمذاهب الباطلة ثم يزيدون الأمر ضخماً على إباله

بمحاولتهم فرضها على بيئة ليس فيها أمثال تلك المشكلات.

بعض منتقديهم في بلادنا - بما فيهم بعض الإسلاميين - يأخذون عليهم هذا الجانب الأخير، أعني جانب محاولتهم لفرض الأفكار والقيم والفلسفات الغربية على بيئة لا تشبه البيئة الغربية التي نشأت فيها تلك الأفكار، لكنهم يهملون بهذا جانباً مهماً: هو أن تلك الأفكار والمعتقدات بما أنها في نفسها باطلة فإنها لا تصلح لا للشرق ولا للغرب. نعم! إنها قد تكون قد أدت من الناحية العملية إلى وضع هو أخف ضرراً من الوضع الذي حلّت محلّه في البلاد الغربية؛ لكن هذا لا يجعلها حقاً أو صواباً. ثم إنهم لا يكتفون بأخذ المذهب الباطل، بل يحاولون أن يتقمصوا الشخصية الغربية وأن ينظروا إلى الأمور بنظرتها حتى لو لم يكن لتلك النظرة علاقة بالفلسفة أو بالمذهب الذي أخذوه منهم وتبنّوه.

البليّة الثالثة التي أصابت هؤلاء المقلدين العميين: أنهم يستوردون بعض المذاهب والأفكار الغربية لحل مشكلات لا وجود لها في العالم الإسلامي. من أحسن الأمثلة على ذلك دعوتهم جميعاً إلى العلمانية التي يسوّغ الغربيون لجوءهم إليها بكثرة الحروب التي حدثت عندهم بسبب الحكم الديني. كانوا إذا حكمت طائفة منهم (كاثوليكية أو برتستانية) لا تكتفي بسيطرتها السياسية، بل تحاول أن تُكره أصحاب الطوائف الأخرى على تغيير معتقداتهم والدخول معهم في طائفتهم. وهذا شيء لم يحدث في العالم الإسلامي؛ بل إن أهل السنة الذين كانوا مسيطرين سياسياً على معظم العالم الإسلامي لم يجبروا المعتزلة -

مثلاً - على تغيير عقائدهم، بل لم يجبروا اليهود والنصارى على تغيير أديانهم. لقد أعطوا خصومهم من حرية العبادة وحرية التصرف في شؤونهم الخاصة ما لا تعطيه العلمانية. ثم إن العلمانية حدثت في أوروبا بموافقة رجال الدين وربما مساعدتهم؛ فلماذا يحاول هؤلاء العموم فرضها على أناس يرونها مضادة لدينهم؟^(١).

فائدة: فكرة العقد الاجتماعي؛

كلمة الليبرالية: تعني الحرية، ولذلك فإن المبدأ الذي لا يكاد الليبراليون الغربيون يُجمعون على مبدأ سواه: هو الدعوة إلى الحرية الفردية. لكن من حق كل عاقل يُدعى إلى الإيمان بمبدأ جديد أو العمل به أن يسأل: ما الدليل على صحته؟ يعتمد مشاهير الليبراليين من أمثال جون لوك في القرن السابع عشر الميلادي إلى جان جاك روسو في القرن الثامن عشر إلى جون رولز في عصرنا على ما يسمى بنظرية العقد الاجتماعي ليؤسسوا عليها القول بأسبقية الفرد على الجماعة، ومن ثمَّ على أن الأصل فيه أن يكون حرًا يفعل ما يشاء.

ونظرية العقد الاجتماعي - كما يقول أحد الكتاب - قديمة قدم الفلسفة الغربية، وكان لها تأثير عظيم في مجال الفلسفة الخُلُقِيَّة والسياسية طوال التاريخ الحديث للغرب. أول من فصَّل في هذه النظرية في العصر الحديث ثم تبعه آخرون - وإن لم يوافقوه في كل ما ذهب إليه - هو الفيلسوف الإنجليزي ثومس

(١) ألبريون هؤلاء، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٣٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشيبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٩٠).

هوبز Hobbes (١٥٨٨-١٦٧٩م). رأي هوبز هو - باختصار - : أن الناس كانوا في حال يسميها بحال الطبيعة State of Nature قبل أن يكون لهم مجتمع مدني. كان الناس في الحال الطبيعة تلك أنانيين، وكانوا متساوين، ولم تكن هنالك قوة قادرة على أن تجبرهم على أن يتعاونوا. الحياة في تلك الحال كانت حياة لا تطاق؛ لأن كل فرد فيها لم يكن يأمن على نفسه، ولم يكن يستطيع أن يحقق رغباته. فالحياة في حال الطبيعة تلك أسوأ حياة يمكن أن يحيها إنسان. لكن بما أن الناس عقلاء وأنهم حريصون على مصالحهم فإن المخرج من تلك الحال البائسة كان ممكناً؛ خرج الناس منها بأن عقدوا بينهم عقداً يتيح لهم حياة أفضل.

يتكون هذا العقد من عقدين متميزين:

- في العقد الأول: اتفق الناس في ما بينهم على التنازل عن كل حق لأحدهم على الآخر.

- وفي العقد الثاني: خولوا أحدهم أو مجموعة منهم سلطة وقوة تمكّنهم من تنفيذ العقد الأول؛ أي أنهم اتفقوا على أن يعيشوا سوياً تحت قوانين مشتركة، وأن ينشئوا آلية لتنفيذ بنود العقد الاجتماعي.

وبالرغم من أن الحياة تحت الحاكم الذي يُعطى تلك السلطات قد تكون شاقة، فإنه يجب أن يُعطى سلطة مطلقة؛ لأن العيش تحت سلطانه خير من حال الطبيعة؛ ولذلك فإنه لا يكون لنا مسوغ في الخروج عليه لأنه الأمر الوحيد الذي يقينا من أكثر شيء نريد أن نتحاشاه؛ إلا وهو حال الطبيعة.

أما جون لوك (John Lock ١٦٣٢-١٧٠٤م) الفيلسوف الإنجليزي الذي كان له تأثير كبير على واضعي الدستور الأمريكي فقد كان له تصور مختلف عن تصور هوبز لحال الطبيعة ومن ثمّ لطبيعة العقد الاجتماعي.

رأى لوك أن حال الطبيعة -وهي الحال الطبيعية للبشر- هي الحال التي يكون فيها الإنسان حرًا حرة كاملة ليتصرف في نفسه كيف يشاء ومن غير تدخل من الآخرين، لكنها ليست حال إباحية يفعل فيها الفرد ما يريد. وبالرغم من أنه لا توجد في حال الطبيعة سلطة مدنية أو حكومة تعاقب المعتدين؛ إلا أنها ليست حالًا تنعدم فيها القيم الخلقية؛ لأن الناس فيها ملتزمون بالقانون الطبيعي الذي هو أساس القيم الخلقية الذي منحه الله تعالى لنا، وهو قانون ينهانا عن أن نعتدي على غيرنا في حياتهم أو صحتهم أو حريتهم أو ممتلكاتهم.

وعليه، فإن حال الطبيعة هي حال سلام. إنها ليست في أصلها حال حرب كما تصوّرها هوبز؛ لكنها يمكن أن تكون كذلك حين يعتدي فرد على آخر ولا سيّما بالنسبة لممتلكاته: كأن يسرق منه، أو يلجأ إلى القوة ليسلبه حقه. وبما أن القانون الطبيعي يسمح للإنسان بأن يدافع عن نفسه؛ فإنه قد يقتل من يعتدي على ممتلكاته وبهذا تبدأ الحرب. وهذا من أقوى الأسباب التي تجعل الناس يتركون حال الطبيعة ويتعاقدون على إنشاء حكومة مدنية. حال الطبيعة ليست حال أفراد كما تصوّرها هوبز؛ وإنما هي حال أسر تتعاهد في ما بينها لتكون المجتمع المدني. فإذا فعلوا ذلك أصبحوا خاضعين لإرادة الأغلبية.

أما في عصرنا فإن جون رولز (John Rawls ١٩٢١-٢٠٠٢م) الفيلسوف

الأمريكي الذي يعدونه أكبر فلاسفة الأخلاق والسياسة الغربيين المعاصرين، والذي يعتبر فيلسوف الليبرالية السياسية؛ فإنه يعتمد أيضًا على فكرة قريبة من فكرة العقد الاجتماعي في نظريته عن العدل، لكن رولز يصرح منذ البداية بأن ما يقوله هو مجرد (تجربة ذهنية) Thought Experiment الغرض منها الوصول إلى تصور للعدل يقوم عليه النظام السياسي الليبرالي. تطلب منا هذه النظرية أن نتصور الناس يعيشون في حالة أولية، في هذه الحال يكون الإنسان جاهلاً بكل ما يمكن أن يجعله متحيزًا؛ فهو لا يعرف جنسه (أذكرًا هو أم أنثى؟) ولا عنصره ولا مواهبه الشخصية ولا معوقاته ولا عمره ولا مكانته الاجتماعية، ولا تصوّره الخاص للحياة الطيبة ولا حال المجتمع الذي يعيش فيه. هذه في رأي رولز هي الحال التي يستطيع فيها الإنسان أن يختار مبادئ المجتمع العادل التي هي في نفسها مختارة من ظروف أولية يكمن فيها عدم الانحياز. الإنسان في هذه الحال هو إنسان مجرد عن الجسد، عاقل، وعالمي.

إذا سألت سائل: متى حدث هذا العقد؟ قيل له: إن القائلين بنظرية العقد الاجتماعي لا يلزمهم أن يفترضوا صحة هذا الاتفاق من الناحية التاريخية؛ لأنهم - في الغالب - معنيون بالكشف عن حدود الالتزام السياسي بالرجوع إلى ما يمكن أن يكون الفاعل العاقل مستعدًا لأن يوافق عليه مع وجود تلك المنافع والمضار. ما هذا المنطق؟ إذا سألنا عن الدليل على أن الفرد هو الأساس قيل لنا: إنه العقد الاجتماعي. وإذا سألنا عن نظرية العقد الاجتماعي قيل لنا: إنه ليس حدثًا تاريخيًا؛ إنما هي نظرية أتت بها للتدليل على أن الفرد هو الأساس. إن

نظرية العقد الاجتماعي تثير في ذهن الإنسان المتفكر عدة تساؤلات:

فأولاً: كيف تقوم مبادئ نظام سياسي واقعي على دعوى هي من نسج

خيال فلسفي؟

ثانياً: إن الذي يقوم بالتجربة إنما يقوم بها ليعرف النتائج التي تؤدي إليها أو ليتأكد منها. لكن تجربة رولز إنما أجريت لتؤدي إلى نتيجة كان يريدونها ويعرفها. لقد كان يعرف - كما يعرف غيره - أن الإنسان يمكن أن ينحاز لجنسه أو عنصره أو سائر ما ذكر ولذلك جعله جاهلاً بأسباب الانحياز هذه ليكون عادلاً. لكن الحقيقة أن الجاهل الذي ذكره وإن عصم الإنسان من أن يكون متحيزاً فلن يجعله عادلاً لأن عدم التحيز قد لا يعني أكثر من معاملة الطرفين معاملة واحدة. وهذا يعني أن غير المتحيز هذا إذا وضع قانوناً فإنه سيسوي فيه بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير والغني والفقير، وهذا قد لا يكون عادلاً.

وعليه، فلن يكون الإنسان عادلاً فإنه لا يكفي أن يكون جاهلاً بأسباب التحيز، بل لا بُدَّ أن يكون عالماً بالحقائق المتعلقة بالطرفين التي قد تقتضي معاملة أحدهما معاملة مختلفة عن الأخر، معاملة قد تبدو للجاهل بتلك الفروق بينهما أنها ليست عادلة بل متحيزة.

ثالثاً: إن أصحاب نظرية العقد الاجتماعي يحاولون أن يجعلوا الإنسان قادراً على أن يشرع تشريعاً مناسباً لكل الناس؛ ولذلك تراهم يتحدثون عن الإنسان ذي النظرة العالمية، لكن هذا شيء مستحيل؛ لأن هذه النظرة تقتضي أن يكون للإنسان علم بكل الحقائق المتعلقة بالناس، وهو أمر لا يعرفه إلا

خالقهم. وصدق الله العظيم: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] (١).

(١) نظرات نقدية في أسس الإيدلوجية الليبرالية الغربية، كتاب الإسلام لعصرنا، للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٤٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ، (ص: ٥٩١).

فائدة: أنواع الحريات التي يتحدث الناس:

الحريات التي يتحدث الناس عنها ثلاثة أنواع: حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية العمل.

أما حرية الاعتقاد: فهي حاصلة لكل إنسان بحكم الفطرة فلا داعي للدعوة إليها؛ أعني أن كل إنسان يستطيع أن يعتقد ما شاء، ولا أحد غير الله تعالى يمكن أن يطلع اطلاعاً مباشراً على معتقده، أو يمكن أن يجبره على اعتقاد ما لا يريد اعتقاده، فعندما يتحدث بعضهم عن معاقبة المرتد ويرى أنها اعتداء على حرية الفرد يخطئ في التصور أو في التعبير؛ لأن العقوبة ليست على المعتقد - إذ ما أكثر المنافقين الذين يظهرون ما لا يضمرون - وإنما هي على التعبير عن المعتقد الدال على الردة، لكن حتى حرية الاعتقاد هذه محدودة بمدى علم الإنسان، ولما كان علم الإنسان محدوداً كانت حرية اعتقاده بالضرورة محدودة؛ لأن المرء لا يستطيع أن يعتقد ما لا علم له به.

وأما حرية التعبير وحرية العمل: فلا شك أنهما محدودتان، فالإنسان لا يستطيع أن يقول أو يفعل كل ما يريد، إن الله تعالى هو وحده الفعال لما يريد أما الإنسان فإنه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد، وكل الناس متفقون على أن حرية الإنسان محدودة بعوامل كثيرة، منها: تركيبه الجسماني؛ فهو لا يستطيع - مثلاً - أن يجري أو يمشي إلا في حدود، وهو يمرض ويموت، وهو في ما بين ذلك مقيد بقوانين وضعها الله في الكون تحد من حريته وتقيدها.

ونظرية العقد الاجتماعي نفسها تعترف بأن الإنسان إنما انتقل من الحياة الفردية إلى الجماعية؛ لأنه وجد أن هنالك أشياء كثيرة يحتاج إليها في حياته، لكنه لا يستطيع أن يحققها إلا بمعاونة غيره.

فالحديث عن الحرية هو إذن حديث عما يستطيع الإنسان اعتقاده، أو قوله أو فعله؛ فهل نستطيع أن نقول: إن من مصلحة كل فرد أن يعتقد أو يقول أو يفعل كل ما يريد؟ يقول بعض الليبراليين أن نعم! وحجتهم في ذلك أن الإنسان الفرد هو وحدَه الذي يعرف مصلحته، فلا ينبغي لغيره أن يفرض عليه اختيارًا لا يريد، ولكن أصحح أن كل إنسان يعرف كل ما ينفعه أو يضره؟ إن حال الإنسان يكذب هذا الزعم؛ إذ لو كان الإنسان عارفًا بكل ما ينفعه ويضره لكان مفضوًّا على هذه المعرفة، ولظلت معرفة مصاحبة له طول حياته، لكن الذي نراه في الواقع أن رأي الإنسان في كثير مما ينفعه أو يضره يظل يتغير بتغير ما يكتسب من علوم ويخوض من تجارب.

ما أكثر ما يفعل الإنسان في يومه فعلاً ثم يندم عليه في غده؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَوَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَوَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإذا لم يكن من مصلحة الفرد أن يقول أو يفعل كل ما يستطيع قوله أو فعله، فهل من مصلحة المجتمع أن يتيح لأفراده مثل هذه الحرية؟ وإذا أراد أن يضع عليها قيودًا فبأي حق وعلى أي أساس يضعها؟ في عام ١٨٩٥م كتب المفكر البريطاني جون استيورت مل (١٨٠٦-١٨٧٣م) كتيبًا عن الحرية حاول

أن يجيب فيه عن مثل هذه الأسئلة.

تقول المراجع: إن الحجج التي ذكرها في هذا الكتيب لدعم الحرية ما تزال هي أكثر الحجج التي يلجأ إليها الليبراليون للدفاع عن حرية التعبير والمناقشة. ولن نستطيع بالطبع أن نبسط الكلام في تقويمنا لآراء (مل) في مقال قصير كهذا؛ ولذلك سنكتفي بتعليقات جزئية نرجو أن تكون مفيدة.

يبني مل دفاعه عن حرية المناقشة على غاية صحيحة هي الدفاع عن الحقيقة. فيقول: إن الحقيقة إما أن تكون مع الأغلبية في المجتمع أو تكون مع الأقلية، أو يكون مع هؤلاء جزء منها ومع أولئك جزء آخر، ويرى أن فتح باب حرية المناقشة وعدم كبت المعارض، فيه انتصار للحقيقة في كل هذه الحالات الثلاث:

أما في الحالة الأولى: فإنه من مصلحة الأغلبية أن تتيح المجال لمخالفاتها لكي تستمر في الدفاع عن الحقيقة التي آمنت بها؛ وإلا فستنسى الأسباب التي دعته للتمسك بها، ولا خير في اعتقاد لا يعرف الإنسان أدلته.

وأما في الحالة الثانية: التي يكون فيها الحق مع الأقلية: فإنه من مصلحة الأغلبية نفسها أن تتيح لها حرية التعبير عن رأيها والدفاع عنه لأن هذا من مصلحة الأغلبية نفسها؛ إذ إنه هو الطريق الوحيد الذي يمكنها من معرفة الحقيقة.

وأما في الحالة الثالثة: فالحجة واضحة؛ لأن كل طرف سيستفيد من الآخر فيعرف الحق الذي غاب عنه. لكن (مل) يبني دفاعه عن حرية التعبير أو

المناقشة على دعوى أخرى لم يوافق عليها كثير من المفكرين الغربيين؛ وإن كانت ما تزال مؤثرة في الفكر الغربي.

هذه الدعوى هي: إن الإنسان لا يمكن أن يكون على يقين من صحة أي اعتقاد يُعتقد، لكن معارضة من أمثال صاحب المقال المذكور أنفاً يذكرون أمثلة مثل الحقائق الرياضية والحقائق الحسية المشاهدة في الرد عليه.

يعترف (مل) بأن الحرية لا يمكن أن تكون مُطلقة، وأنه ما من جماعة بشرية وإلا ووضعت قيوداً على حرية التعبير. أما هو فيرى أن القيد الوحيد الذي يجب وضعه على الحرية هو قيد الضرر؛ أي أن كل تعبير يؤدي إلى ضرر فيجب منعه.

ومفهوم التعبير يشمل عند الغربيين كل أنواع الفنون: من رسم ونحت وشعر وأغانٍ وموسيقى وغير ذلك. لكن ناقدني (مل) وجَّهوا إلى رأيه -ونوجه معهم- سؤالين: هل يكفي الضرر وحده قيداً؟ وما الضرر الذي يُعد قيداً؟

نقول: إن الأضرار أنواع منها أضرار حسية يجمع الناس كلهم على كونها ضرراً، لكن حتى هذه قد لا يعرف الواحد من الناس ضررها بل قد لا يعرف حتى المجتمع هذا الضرر إلا بعد أن يتبين، وهو قد لا يتبين إلا بعد حين. وأما الأضرار الأخرى فإنها تعتمد على المعيار الذي يقيس به الناس النفع والضرر، والمعايير تابعة للمعتقدات أو ما يسمى الآن بالأيديولوجيات.

ففي الإسلام -مثلاً- أنواع من التعابير تمنع لكونها تدعو إلى الباطل أو

الفجور أو لكونها تلهي الناس عن ذكر الله فتكون ضارة بهم في آخرهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ يُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

ذكر كاتب المقال الذي أشرنا إليه من قبل أن الحكومة البريطانية كونت في عام ١٩٧٧م لجنة؛ لتنظر في نشر صور الجنس والعنف في وسائل الإعلام المختلفة، وإن هذه اللجنة انتهت إلى أنها لم تجد دليلاً على وجود أي ضرر في التعبير عن الفحش (الذي يسمونه بورنوجر في)، كما أنها لم تجد دليلاً على عدم الضرر. لكنها اعتمدت معياراً آخر لم يذكره (مل) هو استفزاز مشاعر الناس فوجدت دليلاً على أن هذا النوع من التعبير هو -فعالاً- مثير لأشمتزار كثير من الناس ومع أنها لم توصل بمنعه إلا أنها أوصت بتقييده؛ بحيث إن الكتب والمجلات التي فيها مثل هذا الفحش لا تُعرض في أماكن عامة كسائر الكتب والمجلات؛ وإنما تُعرض في أماكن خاصة.

مما لا شك فيه أن قراراً كهذا مبنيٌّ على معتقدات أصحاب اللجنة وقيمهم الخلقية؛ فمن التقليد الأعمى والبليد أن يظن إنسان أنه ما دام ليبرالياً فيجب أن يرى ما رآوا حتى لو كانت قيمه الخلقية ومعتقداته مختلفة عن قيم أصحاب تلك اللجنة ومعتقداتها.

قارن ذلك الذي انتهت إليه اللجنة البريطانية بقول الله تعالى: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٨]. إن قبول أي قيد على حرية التعبير يدل على أن التعبير ليس غاية في نفسه وإنما هو وسيلة؛ إذا

أدى إلى خير وحق فهو خير، وإذا أدى إلى ضرر وشر وباطل فهو شر. والقيد على حرية التعبير كما يعترف (مل) نفسه ليس دائماً قيداً قانونياً؛ بحيث إن مخالف التعبير الفلاني يعاقب؛ وإنما يمكن أن يكون قيداً اجتماعياً والقيود الاجتماعية تخطئ وتصيب. ولذلك نجد في الإسلام دعوة قوية للناس إلى استعمال التعبير لنصرة الحق وإزهاق الباطل بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ولأن التعبير إنما هو وسيلة جاء الأمر للناس بأن يقول أحدهم خيراً أو ليصمت.

نخلص من كل ما ذكرنا إلى أنه ليس هنالك شيء اسمه الحرية المطلقة -سواء في التعبير أو في غيره- وإن التعبير يجب أن تكون عليه قيود تبيح ما كان منه في صالح الناس وتمنع ما كان منه في ضررهم، وأن هذه القيود لا يلزم أن تكون كلها قيوداً يعاقب القانون على مخالفتها؛ وإنما هي في أكثرها قيود اجتماعية يقوم بها بعض الناس نيابة عن الآخرين، وكلما كثر عدد هؤلاء وكانوا على الحق والخير كان ذلك في مصلحة المجتمع.

ونخلص مما ذكرنا إلى الحقيقة الكبرى التي تقول: إنه لا بُد للناس من هدى إلهي يهديهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم^(١).

(١) نظرات نقدية في أسس الايدلوجية الليبرالية الغربية، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٣٩)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩ هـ (ص: ٥٩١).

فائدة: ليس في الديمقراطية مبدأ خُلِقًا يلزم البلد الديمقراطي بأن يحب لغيره ما أحب لنفسه.

من قال: إن في الديمقراطية مبدأ خُلِقًا يلزم البلد الديمقراطي بأن يحب لغيره ما أحب لنفسه؟ إن الديمقراطية هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم أكثرية نوابه في المجالس التشريعية، أو هي حكم المسؤولين الذين أعطاهم الدستور سلطات يقضون فيها بما يرونه في مصلحة شعوبهم.

لكن النواب والمسؤولين - وربما كثير من أفراد الشعب - قد يقولون: نعم، إن الديمقراطية هي النظام المفضل لنا في بلادنا، ولكنها ليست هي التي تحقق مصالحنا إذا ما تبناها غيرنا ولا سيما في العالم العربي. هكذا كان يقول بعض قادة الفكر السياسي الغربي في تسويغ ما يعدُّه العرب كيلاً بمكيالين. لكن مشكلة الغرب أن هذه الحجة لم تعد - حتى بين الغربيين - حجة مقبولة يمكن التصريح بها والدفاع عنها. بل إن مساندة الحكام الدكتاتوريين صارت أمراً محرّجاً للسياسة الغربية حتى في داخل بلادهم؛ ولذلك أرادوا أن يخرجوا من هذا الحرج باللجوء إلى وسائل:

- منها: كثرة الحديث عن الديمقراطية، والقول بأنها ليست مسألة خاصة بالثقافة الغربية؛ وإنما هي حاجة إنسانية صالحة لكل أمة في كل مكان.
- ومنها: إقناع أبواقهم بأن يقوموا بإصلاحات تأخذ شكل الديمقراطية الغربية انتخابات، مجالس تشريعية، أحزاب، صحف، وغير ذلك. لكن سرعان ما تبين للناس في داخل البلاد التي يحكمها المتعاونون مع الغرب، وفي الغرب

نفسه أن كل هذه أشكال زائفة للديمقراطية المعروفة في الغرب.

ثم تبيّن للغرب كما تبيّن للمواطنين في البلاد العربية أن النظم التي كانت تحكمهم ليست ديمقراطيات زائفة فحسب؛ وإنما هي نظم فاسدة أيضًا. والناس قد يصبرون على الحاكم المستبد أكثر من صبرهم على الحاكم الذي يروونه ينهب أموالهم ويظلمهم، وأكثر من صبرهم على الحاكم الكذاب الذي يخون الأمانة ويعقد اتفاقات سرية مع الأعداء.

إن معرفة الغرب بهذه الحقائق هي التي جعلته يسارع إلى تأييد ثورات الشباب واعتبار أهدافها من الأمور التي كان يدعو إليها، بل التي يعدّها جزءًا من حضارته وثقافته ونظمه السياسية. كيف يعترض الغرب على ثورات تطالب بالحرية والديمقراطية والشفافية والمساءلة وتكوين الأحزاب وغير ذلك؟

لكن الغرب رغم هذا التأييد الظاهر الذي كان لا بُد منه يظل حائرًا إزاء هذه الأوضاع الجديدة في العالم العربي ما السياسات الجديدة التي ستؤدي إليها الحريات التي طالب بها المتظاهرون إذا صارت أمرًا واقعًا؟ كيف يمكننا أن نتعاون مع برلمانات مكونة من أحزاب شتى لكل منها تأثير مهمما كان ضئيلاً على سياسة البلاد؟ كيف سنتعامل مع حكومات قد لا تستطيع أن تجعل

اتفاقاتنا معها باقية في حيز الكتمان في ظل المطالبة بالشفافية؟^(١)

فائدة، هل يؤيد الغرب ما تطالب به الثورات في العالم العربي من

الانتقال إلى نُظُم سياسية ديمقراطية؟

هذا يثير مشكلات: أولها: أن الديمقراطية - كما يفهمها الغرب - مرتبطة ارتباطاً لا فكاك له بالعلمانية. إن الديمقراطية نظام يعطي السلطة التشريعية العليا للبشر؛ سواء كانوا أكثرية المواطنين أو أكثرية ممثليهم. لكن هذا في ما يبدو ليس هو الذي سيحدث في العالم العربي. كيف تكون السلطة العليا للبشر في بلد ينص دستورهما على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام؟ إنه نص أقل ما يعنيه أن كل قانون مخالف لدين الإسلام سيكون قانوناً غير دستوري.

ثانيها: أنه حتى لو افترضنا أن الديمقراطية صارت كما هو الحال في الغرب ديمقراطية علمانية، فإن أغلبية الشعب العربي الذي سيكون القرار في يده ليس شعباً متعاطفاً مع إسرائيل، كما أن أغلبية الشعب الإسرائيلي ليست متعاطفة مع العرب. وهذا يعني أن الدولة العربية الديمقراطية لن يكون من السهل عليها أن تنتهج السياسات التي يفضلها الغرب في العلاقة بين العرب وإسرائيل.

ثالثها: أن الغرب حضارة وثقافة، وإن مما يخدم مصالحه أن تنتشر هذه

(١) الانتفاضات التي حيرت الغرب، كتاب الإسلام لعصرنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٢٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٩٠).

الحضارة وأن تتبناها أكثر شعوب العالم؛ ولذلك تراهم يكثرون في هذه الأيام من الحديث عن كسب العقول والقلوب، ويحاولون جاهدين أن يُبرزوا كل مكون من مكونات ثقافتهم على أنه ليس أمرًا ثقافيًا خاصًا بالغرب؛ وإنما هو قيمة إنسانية صالحة، بل لازمة للبشر كلهم. وهم يرون أنه بالرغم من أن الشعوب الإسلامية قد تأثرت تأثرًا كبيرًا كما تأثر غيرها بالثقافة والقيم الغربية؛ إلا أنها ظلت أكثر أمة مستعصية على الانفتاح الكامل لكل قيم لا تتناسب مع دينهم، ويستشهدون على ذلك بصمود المسلمين في وجه الزحف الأيديولوجي الشيوعي.

لكن إذا كانت الانتفاضات الشبابية قد أخذت بعض السمات الدينية، فهذا يعني أنه سيكون للصوت الديني أثر قوي في الدولة الديمقراطية.

إذن: ماذا يفعل الغرب؟

أولاً: سيستمر في دعوته إلى الديمقراطية وتأييدها لكنه سيحاول سرق حكوماتها ما أمكن إلى الطرق التي تؤيد مصالحه. فهم الآن يؤيدون رحيل القذافي؛ لأن هذا أصبح مطلبًا شعبيًا عامًا لا قبيل لأحد بمعارضته، لكن هذا لا يعني الوقوف مع الثوار بمعنى تمكينهم من أن يكونوا هم الحكام الذين يخلُقون القذافي.

وقد حذر بعضهم فعلاً من عدم التعجل في تأييد الثوار قبل معرفة حقيقتهم. هذا بالرغم من أن قادة الثورة المعترف بهم حتى الآن يصرحون بأن الدولة التي يريدونها هي دولة مدنية (أي غير دينية)، وأنها ستكون دولة تعددية،

إلى آخر الأوصاف التي يرضى عنها الغرب

ثانياً: سيستمرون في سياستهم المؤيدة للجماعات والأحزاب والاتجاهات العلمانية، أو الأبعد فالأبعد منها عن التوجه الإسلامي، ودعمها بالمال والدعاية والتدخل لتمكينها من التأثير السياسي والثقافي.

ثالثاً: سيدجؤون إلى الضغوط الاقتصادية والسياسية لفرض السياسات التي يريدونها كما يفعلون ذلك الآن مع بعض البلاد التي لم تخضع لهم الخضوع الذي يريدونه.

رابعاً: ماذا سيحدث إذا لم ينجح هذا كله؟ إن الغرب لن يتنازل بالطبع عن أهدافه الكبرى. وإذا رأى أنه لا خيار له إلا بين ديمقراطية لا تحقق أهدافه، ونظم استبدادية يأمل أن تحققها فلن يتردد في اللجوء إلى الخيار الثاني.

وسيجد أن لديه وسائل كثيرة لإفشال الديمقراطيات التي لا يريدتها وتأسيس المواطنين منها وجعلهم يقبلون غيرها؟ ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ [الأنفال: ٣٠] (١).

(١) الانتفاضات التي حيرت الغرب، كتاب الإسلام لعصرتنا للدكتور جعفر شيخ إدريس (ص: ٦٢٥)، وانظر كتابي: جعفر شيخ إدريس (سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص: ٥٩٠).

﴿ مصادر مقالات الحضارة ﴾

١ - إطلالة إسلامية على الحضارة الغربية^(١):

في هذه المقالة تحدث الشيخ عن الأسباب التي منعت الدول الغربية من الإقدام على التدخل العسكري لإنقاذ المسلمين في البوسنة من الصرب.

٢ - العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية^(٢):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية؛ وذلك بأن نبادر نحن بإعطائهم المعلومات التي نراها مناسبة ونرد على الشبهات التي يشيرونها عمن يسمونهم بالأصوليين. ولا نترك غيرنا من المستشرقين والمنصرين والعلمانيين يحدثونهم عنا حديثاً يقصد به تغييرهم من الدعوة التي نحملها.

٣ - العلمانية ليست محايدة وماهي بالقومية^(٣)

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن العلمانية ليست محايدة؛ لأن الواقع الذي تدل عليه طبيعة أنظمة الحكم، والذي تؤيده التجربة الغربية نفسها، أن العلمانية ليست محايدة بين الأديان، بل إنه لا يوجد على وجه الأرض لأنه لا

(١) جريدة المسلمون السعودية، العدد (٤٣٢)، تاريخ ٢٣/١١/١٤١٣هـ.

(٢) ورقة مقدمة للحلقة العلمية بكلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام ٢٧/١١/١٤١٣هـ.

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية، ٧ رجب ١٤٣٤هـ - الموافق ١٥ مايو ٢٠١٣م.

يمكن عقلاً أن يوجد نظام سياسي دينياً كان أو علمانياً محايداً كاملاً بين كل المعتقدات الشائعة بين البشر؛ وذلك لأن من مهام النظام السياسي أن يضع قوانين ونظماً لحياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية. وما من منهج من مناهج الحياة دينياً كان أم غير دين إلا وله بعض التصورات المتعلقة بهذه الأمور كلها أو بعضها؛ وهي تصورات مختلفة، بل كثيراً ما تكون متناقضة، فلا يمكن للنظام السياسي أن يقرّها كلها، بل لا بُد له من أن يأخذ بعضها فيضع قوانين تلزم الناس به، وأن ينكر بعضها فيضع قوانين تحظره.

٤- العلمانية والجاهلية وجهان لعملة واحدة^(١):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن العلمانية والجاهلية وجهان لعملة واحدة؛ وذلك أن الحضارة أو الثقافة العلمانية حضارة تحل الهوى محل الإله الحق، فإن لها في كل أشكالها - القديمة أو الحديثة، اليونانية والأوربية أو العربية - سمات مشتركة، نابعة من ذلك الأصل الكفري المشترك؛ لأن قيم الناس وثقافتهم هي ثمرة معتقداتهم وأحوال قلوبهم، فإذا تشابهت المعتقدات وتشابهت لتشابهها القيم، تشابهت الأقوال والأعمال والتحليلات والتفسيرات.

٥- أمريكا المنشقة^(٢):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن الانقسام بين الناس في أمريكا لم يكن في الانتخابات الماضية انقساماً في سياسات عابرة تختلف فيها الآراء، لكنه كان

(١) مجلة منار السبيل ١٩٩٣ م.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية ٢١/١٢/١٤٢٥ هـ - الموافق ٣١ يناير ٢٠٠٥ م.

خلافًا في مسائل جوهرية أهمها قضية الدين وبعض القضايا الخلقية.

٦- حرب الكذابين^(١):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن الحرب على العراق لم يكن سببه أسلحة الدمار الشامل، فقد أظهرت نتائج تحقيقات اللجنة التي كونها الكونغرس أن المعلومات التي قدمتها وكالة... الاستخبارات الأمريكية CIA للحكومة عن أسلحة الدمار الشامل لم تكن صحيحة؛ وكذلك تتوصل لجنة بلير البريطانية إلى النتيجة نفسها بالنسبة للمعلومات التي قدمتها الاستخبارات البريطانية.

٧- حين تصير الديمقراطية وثنا يعبد^(٢)

تحدث الشيخ في هذا المقال عن تقديس بعض الناس للديمقراطية وأنهم يظنون أن كل أمر مهما كان خطيرًا فهو خاضع للديمقراطية، وأن ما تقرره الأغلبية فيه هو الأمر الذي يجب الالتزام به مهما كان نوعه.

٨- علمانية باسم الإسلام^(٣):

في هذه المقالة يرد الشيخ على محجوب حسين ممثل حركة تحرير السودان قوله: «سنداً بإعلان المبادئ ونحن نريد الفصل بشكل واضح بين الدين والدولة، في الوقت الحالي تفضل الحكومة الإسلام على الديانات

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ١٣ محرم ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢١ فبراير ٢٠٠٥ م.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٩ رجب ١٤٢٨ هـ - الموافق ١١ أغسطس ٢٠٠٧ م.

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية، ١ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ - الموافق ١١ ديسمبر ٢٠٠٤ م.

الأخرى وهو ما لا يجب أن تكون عليه الحال، وعلى الرغم من كوني مسلمًا فإننا نريد أن يكون الدين شأنًا خاصًا، وأن يكون كل مواطن حرًا في ممارسة الدين الذي يؤمن به».

ثم يقول الشيخ: أن محجوبًا هذا لا يتحدث باسم أهل دارفور المسلمين، ولا يعبر عن اعتقادهم، وإنما يتحدث باسم الدول التي أعطته المال والسلاح، وأغرته بالتمرد، فكانت له قوة عسكرية أجبرت الحكومة على التفاوض.

٩- عنز و لوطارت^(١):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن غزو العراق بحجة وجود دعوى أسلحة الدار الشامل، وأنه كان الواجب الذي تقتضيه الأمانة والصدق مع المواطنين، ومع العراقيين، ومع سائر سكان المعمورة أن يعلن أولئك القادة الذين تولوا كبر الغزو أنهم كانوا مخطئين، وأنهم يعتذرون عما حدث. بل كانت الأمانة تقتضي أن يستقيلوا من مناصبهم؛ لأن التقليد السياسي المتبع عندهم أن يستقيل المسئول إذا تبين أنه ارتكب خطأ جسيمًا: سواء بحسن نية أو بسوءها، لكن شيئًا من هذا لم يحدث بل الذي حدث هو مزيد من الإصرار على أن الحرب كان لها ما يسوغها حتى بعد أن ظهر بطلان كل الأسباب التي كانت قد سيقنت لتسويغها.

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ - الموافق ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤ م.

١٠- فشل النظرية الرأسمالية^(١):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن النظرية التي كان العمل بها هو السبب الحقيقي لما يعانيه النظام الرأسمالي من مشكلات.

١١- فلنحدد ماذا نعني بالديمقراطية^(٢):

تحدث الشيخ في هذا المقال عن الحكم على الديمقراطية وأنه يحسن أن يبين كل منا ما الذي تعنيه الديمقراطية بالنسبة له، ثم يحكم بعضنا على بعض بما قصد بالديمقراطية لا بالمعنى الذي يراه هو المعنى الحقيقي لها. وقدِيمًا قال علماؤنا إذا اتضحت المعاني فلا مشاحة في الألفاظ.

١٢- ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي^(٣):

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن مخططات الغرب لمواجهة الخطر الديني الإسلامي؛ وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصاديًا وعسكريًا، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية.

(١) مقال للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بمناسبة الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٨م، ونُشر

هذا المقال في صحيفة الاقتصادية بتاريخ ١١/١٠/٢٠٠٨م.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ - الموافق ٢١ أكتوبر ٢٠١١م.

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية، ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - الموافق ٢٧ يونيو ٢٠٠٤م.

١٣- ما هؤلاء بمسلمين^(١):

تحدث الشيخ في هذا المقال عن تصرف هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون؛ ثم يستعينون بالكفار على المسلمين من دولهم وأقوامهم

١٤- مجتمع الرذيلة^(٢):

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن ما قرأه في بعض الصحف الغربية من السخرية من الحجاب، ومن قتل القاتل، ومن منع اختلاط الرجال بالنساء، ومن توقف العمل لأداء الصلاة في المجتمع السعودي.

١٥- هل تحمل العلمانية مشكلة التعددية^(٣):

في هذا المقال يناقش الشيخ دعوى دعاة العلمانية ولا سيما في بلادنا العربية في هذه الأيام، يقولون إن الحل الأمثل هو الحل الذي لجأت إليه أوروبا وأمريكا وسائر الدول التي قلدتها، وهو أن تكون الدولة علمانية لا تلتزم بدين لكنها لا تمنع أحداً من ممارسة دينه في حياته الخاصة وبهذا يكون المجال العام، مجال التشريع والتنفيذ والقضاء، مجالاً مفتوحاً لكل أفراد المجتمع يشاركون فيه باعتبارهم مواطنين لا باعتبارهم متممين إلى هذا الدين أو ذاك، ويكونون بهذا متساوين في حقوقهم السياسية.

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ٨ شوال ١٤٢٥هـ - الموافق ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ - الموافق ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م.

(٣) شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٧ شوال ١٤٣٢هـ - الموافق ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٢م.

١٦- هل يكون الحكم الديمقراطي فاسداً؟^(١):

في هذا المقال تحدث الشيخ عن أنه لما كثرت معاناة الناس من الفساد المرتبط بالنظم الاستبدادية الدكتاتورية صاروا يعتقدون أن النظام السياسي الديمقراطي الحق هو الإكسير الذي سيءاوى هذا الداء، ويجعل المواطنين يعيشون في أمن من ذلك الفساد. لكن هذا وهم مرده إلى عدم النظر في النظرية الديمقراطية وتطبيقاتها.

١٧- ودوا لو تكفرون كما كفروا؟^(٢):

في هذه المقالة يرد الشيخ على ما كتبه جريدة الواشنطن بوست بعنوان (فرصة سعودية) تقول فيها إن القضاء على الإرهاب لا يكون إلا بمعالجة جذوره، وأن هذه الجذور هي الوهابية! وأن هذه الوهابية المتطرفة هي التي تربي عليها الإسلاميون الراديكاليون، وأن على السعودية أن تبحث عن بديل لهذه الوهابية.

١٨- الانفراط العظيم^(٣):

في هذه المقالة يستعرض الشيخ كتاب الانفراط العظيم لعالم الاجتماع الأمريكي فرانسيس فوكوياما الذي يتحدث عمّا أسماه الانفراط العظيم في مجال القيم الخلقية والتدهور في العلاقات الاجتماعية في البلدان الغربية الصناعية.

(١) شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ.

(٢) شبكة المشكاة الإسلامية، ٢٠ محرم ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢٨ فبراير ٢٠٠٥ م.

(٣) مجلة البيان (١٤٢)، جمادى الآخرة ١٤٢٠ هـ - أكتوبر ١٩٩٩ م.

١٩- الأمم المتحدة ما حدود صلاحيتها؟^(١)

يتحدث الشيخ عن قرارات الأمم المتحدة فيما يتعلق بحقوق الإنسان وغيرها التي تفرض على الشعوب وهي في الواقع تطاول على السيادة القومية للدول والشعوب وأن هذا يتعارض مع اعتبار الحرية الدينية حقاً من الحقوق الإنسانية التي تدافع عنها الأمم المتحدة.

٢٠- الحضارة الغربية ضجة عن الحرية وممارسة لهيمنة

الثقافية^(٢):

في هذه المقولة يتحدث الشيخ عن التناقضات في الحضارة الغربية؛ وذلك مثل تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخلقية وتجربتها السياسية ونظمها الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض ووصم كل من يخالفها، بل كل ما يتعارض مع مصالحها بكونه انتهاكاً لحقوق الإنسانية أو إضراراً بالمصالح العالمية أو ممارسة الإرهاب وغيرها من التهم الجائرة والأقوال الأفاكة.

٢١- هيئة الأمم^(٣)

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن أنه ينبغي أن يكون دور هيئة الأمم هو الرقي بالمجتمع الإنساني، وفي المشكلات التي تواجه الأمم جميعاً سواء كانت

(١) مجلة البيان (١٥٦)، شعبان ١٤٢١هـ - نوفمبر ٢٠٠٠م.

(٢) مجلة البيان، رمضان ١٤٢١هـ.

(٣) مجلة البيان (١٥٤)، شوال ١٤٢١هـ - سبتمبر ٢٠٠٠م.

طبيعية أو سياسية أو اجتماعية، ويرى الشيخ أن هذا رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها وقيمها وخصوصياتها، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، وألاً تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها، وقمع المخالفين لها.

٢٢- فصل الدين عن الدولة^(١):

يناقش الشيخ في هذه المقولة دعوى أن قضية فصل الدين عن الدولة، أو ما يسميه الغربيون فصل الدولة عن الكنيسة، أصبحت من القضايا المسلّم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية.

ويقرر الشيخ أن هذا الافتراض لا يكون صحيحاً إلا إذا كان الدين محصوراً بطبعه في بعض المعتقدات وبعض الشعائر التعبدية، وبعض أنواع السلوك الشخصي الذي لا علاقة له بالجماعة، ولا يدخل لذلك في مجال الدولة، لكن الواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على أي من الأديان الكبيرة المشهورة: اليهودية والنصرانية والإسلام؛ فما منها إلا وله حكم في العلاقات بين الجنسين وفي العلاقات الأسرية، والاجتماعية، وفيما يحل أكله وشربه، وما يحرم، وهكذا. وكلها أمور تدخل بالضرورة في مجال الدولة.

(١) مجلة البيان (١٥٩)، ذو القعدة ١٤٢١ هـ - فبراير ٢٠٠١ م.

٢٣- النسبية^(١):

في هذه المقالة يورد نظرية النسبية التي فحواها أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر، بل إن هذه الأحكام أحكام نسبية. ولكن نسبة إلى ماذا؟ هنا يختلف القائلون بهذه النسبية؛ فالغلاة منهم ينسبونها إلى الأفراد، أي إن ما يراه زيد حقًا أو خيرًا فهو حق أو خير بالنسبة له وإن خالفه في ذلك عمرو وغيره من الناس. ويرى بعضهم أنها تنسب إلى ثقافة كل مجتمع. والثقافة Culture عندهم هي منهاج حياة مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من تاريخه، وهي تشمل معتقداته، وأنواع سلوكه، ولغته، وتشمل كذلك عاداته وتقاليده وفنونه ومخترعاته وتقنيته وتراثه؛ فما يراه أصحاب كل ثقافة حقًا أو خيرًا فهو حق أو خير بالنسبة لثقافتهم هذه؛ لأنه ليس هنالك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس، ثم يذكر الشيخ الملاحظات على بطلانها.

٢٤- ثبت بطلان الجبرية الجينية^(٢):

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على ما يقوله الشواذ بأنهم لا يلامون على ذلك؛ لأنها شيء ولدوا به؛ فهو في جيناتهم الوراثية وهذه الدعوى كما يقول الشيخ لا تكون صادقة لأسباب ينبغي أن يسلم بها كل مؤمن بوجود الخالق معترف بصفتين من صفات كماله هما: العدل، والحكمة؛ فالخالق العادل

(١) مجلة البيان (١٦٠)، ذو الحجة ١٤٢١ هـ - مارس ٢٠٠١ م.

(٢) مجلة البيان (١٦٣)، ربيع الأول ١٤٢٢ هـ - يونيو ٢٠٠١ م.

الحكيم لا يمكن أن يغرَس في فطرة الإنسان سلوكًا لا مفر له منه، ثم يجعل ذلك السلوك محرّمًا عليه، بل يعاقب عليه أشد العقوبات.

والخالق العادل الحكيم إذا غرس شيئًا في فطرة الإنسان هداه إلى أحسن السبل لإشباع رغبته منه. فهو لما جعل الحاجة إلى الطعام في خلق الإنسان أمره بأن يأكل ويشرب ولا يسرف، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث. ولما جعل في الناس ميلًا جنسيًا هداهم إلى الزواج وحرم عليهم الزنا، بل فصل لهم أحسن الطرق للمعاشرة. فلما حرم فاحشة الشذوذ تحرّمًا مطلقًا، علمنا أنه ليس لها في الفطرة أصل، ودعك أن يكون الإنسان عليها مجبرًا.

٢٥- حوار عن العلمانية الديمقراطية بين مثقفين عربيين^(١):

وفي هذه المقالة يفترض الشيخ حوارًا عن العلمانية والديمقراطية بين مثقفين عربيين، وينتهي الحوار بقول أحدهم للثاني: الحديث في هذا قد يطول؛ فسأكتف لك بذكر أحسن ما أراه عندهم، أحسن ما عندهم هو هذا التطور الكبير في العلوم الطبيعية وما بني عليه من تقنية في شتى جوانب الحياة ومنها الجانب العسكري. وقد كنت أتمنى لو أننا ركّزنا على هذا الجانب العلمي التقني فيما نأخذه من الغرب، لكن العلمانيين في بلادنا شغلونا بمثل هذه القضايا التي كنا نتحدث عنها الآن؛ لأنهم لسذاجتهم ظنوا أن السبب الأساس لتطور الغرب هو فصله للدين عن الدولة.

(١) مجلة البيان (١٦٦)، جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ - سبتمبر ٢٠٠١م.

وقد كان هذا التركيز على الجانب الثقافي في التجربة الغربية هو السبب الأساس لضعفنا وعدم تطورنا؛ لأنه كان السبب الأساس في النزاع بيننا؛ وأنت تعلم أن الأمم لا تستطيع أن تحقق إنجازًا كبيرًا دينيًا أو دنيويًا وهي منقسمة على نفسها متنازعة فيما بينها، فأسال الله تعالى أن يجمعنا على الخير، وأن يوفقنا إلى الأخذ بأسباب النهضة والقوة والرفعة في كل جوانب حياتنا المادية والروحية.

٢٦- حماة الرذيلة^(١):

وفي هذا المقال يذكر الشيخ بعض النماذج من الرذائل في المجتمعات الغربية.

٢٧- العولمة وصراع الحضارات^(٢):

في هذه المقال يتحدث الشيخ عن مفهوم الحضارة والثقافة والعولمة وان الحضارة الإسلامية هي المؤهلة بأن تكون الحضارة العالمية.

٢٨- يافوكوكوياما نحن مع التحديث وأبعد الله التفرير^(٣):

وفي هذه المقالة رد على فوكوكوياما في دعوته إلى تبني القيم الغربية، وإذ يزعم أن دعوته هذه ليست ناتجة عمّا يسمى بالعمى الثقافي؛ وإنما لأن القيم الغربية هي القيم العصرية الصالحة لأن تكون عالمية، وأنا إذا لم تأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا؟

(١) مجلة البيان (١٦٧)، رجب ١٤٢٢هـ - أكتوبر ٢٠٠١م.

(٢) مجلة البيان (١٦٩)، رمضان ١٤٢٢هـ - نوفمبر/ ديسمبر ٢٠٠١م.

(٣) مجلة البيان (١٧٣)، محرم ١٤٢٣هـ - مارس/ إبريل ٢٠٠٢م.

٢٩- هل نداوي بالتي كانت هي الداء^(١):

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على فكرة سخيفة يدندن الغربيون حولها وهي أنه لن تتقدم أمة تقدمهم المادي إلا إذا سلكت طريقهم الراهن حذو القُذة بالقُذة. أي إلا إذا صار نظامها السياسي مثل نظامهم، وموقفها من دينها مثل موقفهم من دينهم يحرفونه كما شاءوا، ويخضعونه لأهواء عصرهم، ويفصلون بينه وبين دولتهم، وإلا إذا صارت حياتهم الجنسية مثل حياتهم اختلاطاً بغير ضابط بين الرجال والنساء، وإباحة لكل علاقة جنسية بين كل بالغين متراضين رجلين كانا أو امرأتين أو رجل وامرأة، بل إلا إذا كانوا مع ذلك موالين للغرب خاضعين له خادمين لمصالحه.

٣٠- سياسة التناقضات المستعلة^(٢):

وفي المقالة يورد الشيخ تساؤل عن سياسة الغرب المتناقضة في اعتدائها على غزو الشعوب والدول كالعراق ودعوة حكام هذه الدول الغربية وبعض مناصريهم من قادة فكرهم إلى الخروج على هذه القيم التي عاشوا عليها سنين طويلة من حياتهم وهو خوفهم من الإسلام.

٣١- يريدوننا غنماً^(٣):

في هذه المقالة يتحدث الشيخ عن أئمة البغي والاحتلال لشعب العراق،

(١) مجلة البيان (١٨٤)، ذو الحجة ١٤٢٣ هـ - فبراير ٢٠٠٢ م.

(٢) مجلة البيان (١٨٦)، صفر ١٤٢٤ هـ - إبريل ٢٠٠٢ م.

(٣) مجلة البيان (١٨٧)، ربيع الأول ١٤٢٤ هـ - مايو ٢٠٠٣ م.

ومن ورائه كل شعب عربي وغير عربي يريدون تسخيرها لما يسمونه بمصلحتهم الوطنية، فيذكر حفظه الله أن أئمة البغى والاحتلال يريدون لشعب العراق، ولكل شعب عربي أن يكون قطيعاً من الغنم يأكل، ويشرب، ويداوى؛ لكنه لا يحمل عصا ولا يصد عدواً. إنما الذي يحمل العصا هو سيده؛ فيها يهش عليه، ويسخره، وبها يحد له الحمى الذي لا يتجاوزه.

٣٢- أديمقراطية أم أمريطانية؟^(١)

يشير الشيخ حفظه الله أن الديمقراطية عند الأمريكان والبريطانيين في تعاملهم مع الشعوب الأخرى كالعراق مثلاً تختلف عن الديمقراطية المعهودة فالإدارة الأمريكية، وأحياناً المسؤولون البريطانيون، يُصرحون، وأحياناً يُعبرون بلسان الحال عن أنه بعد أن تخلّص العراقيون من حكم صدام الدكتاتوري قد صاروا أحراراً يختارون لبلدهم ما يشاؤون بالطرق الديمقراطية، فلهم أن يختاروا الدستور الذي يرتضونه لبلادهم، لكنه يجب أن يكون دستوراً يفصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الدستور الأمريكي، بل يجب أن يكون العراقيون وسائر العرب والمسلمون أكثر تطوراً من الغرب في مجال العلمانية، فدستور الولايات المتحدة مثلاً قد اكتفى بفصل الدين عن الدولة؛ بمعنى أنه ليس للدولة أن تؤسس، أو تتبنى ديناً من الأديان، ولا أن ترعى المؤسسات الدينية، لكنه لا يمنع من أن تكون الدوافع السياسية دينية، كما هو الحال في الموقف من إسرائيل.

(١) مجلة البيان (١٨٩)، جمادى الأولى ١٤٢٤ هـ - يوليو ٢٠٠٣.

أما العراقيون وسائر العرب والمسلمين فيجب أن يذهبوا أبعد من ذلك،
يجب أن يمنعوا حتى الدوافع الدينية، ويعاقبوا كل مسؤول، أو حزب يُظهر مثل
هذه الدوافع في أقواله، أو أعماله، ويجب أن لا يكتفوا كما اكتفت أمريكا بعدم
تبني المؤسسات الدينية، وتركها حرة تتصرف كيف شاءت في حدود القانون،
بل يجب أن تتأكد من أنها لا تعمل عملاً ينمي مثل تلك الدوافع الدينية التي
تقود في النهاية إلى العمليات الإرهابية، ولا سيما ضد إسرائيل.

٣٣- المفهوم الغربي للوهابية^(١):

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة خطأ من يتصور أن المفهوم الغربي
للهابية هو محصور فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه
وأحاديثه ودروسه، أو أن الوهابيين هم فقط أولئك الذين وافقوا الشيخ فيما دعا
إليه. الوهابية عند هؤلاء هي وصف لكل أخذ لدين الإسلام مأخذ الجسد؛ حتى
لو كان الأخذ إنساناً لم يقرأ للشيخ حرفاً واحداً ولم يتسم باسمه ولا كان موافقاً
له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجسد بعض ما أجمع عليه
المسلمون حتى لو كان ممارساً لبعض البدع، أو مؤمناً ببعض الخرافات.

الوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام
الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم. الوهابي هو المسلم الذي
يواظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويحج إن استطاع

(١) مجلة البيان (١٩١)، رجب ١٤٢٤هـ - سبتمبر ٢٠٠٢م.

إلى بيت الله الحرام. إنه المسلم الذي لا يشرب خمراً ولا يتناول ريباً ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام. المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه هو الحق وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام. الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية.

٣٤- الديمقراطية اسم لا حقيقة له^(١):

يشرح الشيخ في هذه المقالة كيف أن الديمقراطية اسم لا حقيقة له بسبب الدعاية الواسعة لها التي أعمت كثيراً من الناس ولا سيما في بلادنا عن عيوبها التي يعرفها منظروها الغربيون بل إن المفتونين بها المروجين لها، صاروا بصورتها كالبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع السياسية وغير السياسية، فأول ما يؤخذ على الديمقراطية كونها اسمًا لا حقيقة له؛ أعني أنه إذا وُصف لك نظام سياسي بأنه دكتاتوري أو ديني مثلاً، تصوّرت ما المقصود بهذا الوصف، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للديمقراطية؛ إذ إن الديمقراطية كما يدل عليها اسمها، وكما يعرفها كبار منظريها وساستها، هي حكم الشعب، لكن الصورة الواقعية لما يُسمى بالديمقراطية مهما كانت حسناتها أو سيئاتها ليست هي حكم الشعب ثم يذكر الشيخ لماذا أن الديمقراطية ليست هي حكم الشعب.

(١) مجلة البيان (١٩٦)، ذو الحجة ١٤٢٤هـ - يناير / فبراير ٢٠٠٤م.

٣٥- سهام بوش ضد الإرهاب^(١):

في هذه المقالة يبين الشيخ كيف أن ما قام به الرئيس بوش ضد الإرهاب تبين أنها سهام تصيب، في الوقت نفسه المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية وهي القيم السياسية والقضائية باعتبارهن المقوم الأول هو القوة المادية.

٣٦- ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي^(٢):

وفي هذه المقالة يبين الشيخ حفظه مخططات الدول الغربية لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة الخطر الديني الإسلامي؛ وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصاديًا وعسكريًا، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية. إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشارًا حتى في البلاد الغربية.

بل أقول: إنه أكثر انتشارًا لا بالنسبة للأديان فحسب بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم. هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بُد من إعداد الخطط للمكربه.

٣٧- أمريكا المريضة^(٣):

يبين الشيخ في هذه المقالة كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية أكبر قوة

(١) مجلة البيان (١٩٨)، صفر ١٤٢٥ هـ - مارس / إبريل ٢٠٠٤ م.

(٢) مجلة البيان (٢٠٠)، ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ - مايو / يونيو ٢٠٠٤ م.

(٣) مجلة البيان (٢٠١)، جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ - يونيو / يوليو ٢٠٠٤ م.

اقتصادية وأكبر ترسانة حربية وأوسع امكانات إعلامية؛ لكنها مع ذلك مصابة بداء عضال لا تجدي معه كل هذه القوى إنه الداء الذي فضحه سجن أبي غريب داء التدهور الاخلاقي الجنسي المتسارع ثم يفصل الشيخ حفظه ذلك.

٣٨- قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية^(١)

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة خطأ زعم ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا من أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية، وأن القوم هناك قد اتفقوا جميعاً المؤمنون منهم بالأديان وغير المؤمنين على أن الدولة يجب أن تكون علمانية وأن الدين لا دخل له بالشؤون العامة، بل يجب أن يكون محصوراً في الحياة الخاصة.

لكنك إذا تتبعت ما يقوله الغربيون أنفسهم، ولا سيما في الولايات المتحدة تبين لك أن الأمر على غير ما صور لك أولئك العلمانيون في بلدك، وتبين لك أن هذه القضية ما زالت تثير عند أولئك القوم معارك حامية الوطيس، وما يزال كثير من الناس فيها يتجادلون، وعنهما يكتبون ويخطبون، وبسببها يتحزبون، وعلى أساس منها يصوتون. بل إذا ترجمت لك معاركهم الكلامية في هذه المسألة، وأخفي عنك المكان الذي دارت فيه فلربما تخيلت أنها تدور في بلد إسلامي ثم ذكر الشيخ أمثلة على ذلك.

(١) مجلة البيان، ذو الحجة ١٤٢٥ هـ - يناير فبراير ٢٠٠٥ م.

٣٩ - الإسلام مذبوحاً^(١):

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة عن ما يسمى بالإسلام فويبا وأسبابه، ففي الغرب يتحدث الناس عن مرض نفسي يسمونه الإسلام فويبا يحسبونه جديداً وهو قديم قدم الرسالات السماوية. يتمثل المرض في كراهية أو خوف من الإسلام لا مسوغ له. يدفع هذا المرض المصابين به إلى اتخاذ مواقف عدائية من الدين الإسلامي وأهله تتمثل في مظاهر كثيرة يذكرون منها: الكلام غير اللائق عن النبي ﷺ والافتراء عليه، الاستشهاد بآيات من القرآن أو نصوص من السنة وبترها على سياقها، تصوير ما يهتم به بعض المسلمين من أعمال إرهابية بأنه ليس عملاً معزولاً يقوم به أفراد، وإنما هو واجب ديني يأمرهم به الإسلام.

الإدعاء بأن الإسلام سبب تخلف المسلمين؛ لأنه مصاد للعلوم الطبيعية والتقنية ولكل ما هو من ضرورات الحياة المعاصرة، إتهام الإسلام بأنه هو السبب في انتشار الحكم الدكتاتوري ولاسيما في البلاد العربية، القول بأن الإسلام لا يحترم المرأة بل يدعو إلى معاملتها معاملة الرقيق. وغير ذلك ثم يذكر الشيخ أثر ذلك في التعامل مع المسلمين؛ وكذلك الأسباب التي أوجدت هذا التصور الخاطيء.

(١) مجلة البيان (٢١٠)، صفر ١٤٢٦هـ - مارس / إبريل ٢٠٠٥م.

٤٠ - القسطنطية لا الديمقراطية^(١):

وفي هذه المقالة يحاول الشيخ حفظه الله مناقشة صلة الديمقراطية بالإسلام بحسب المعاني المختلفة التي يقصدها أنصارها من المسلمين؛ لأن الإنسان إنما يُسأل عن المعنى الذي قصده من عبارته، حتى لو كان استعماله للعبارة خطأ، وقد مثل الشيخ حوارًا في مسائل الديمقراطية هذه بين مسلمين يدعو أحدهما إلى نظام سياسي إسلامي خالص يسميه القسطنطية، وآخر من دعاة الديمقراطية.

٤١ - يريدون ليظفئوا نور الله^(٢):

وفي هذه المقالة يذكر الشيخ حفظه الله بعض المقالات التي يكتبها الغرب ضد الإسلام مثل مقال تحت عنوان (القلوب والعقول والدولارات) وذكر فيه أنه قضى أربعة أشهر يجمع فيه معلومات عن مشروع جديد سري للدارة الأمريكية اسمه (البلوغ إلى العالم الإسلامي)، وهذا المشروع يعبر عن سياسة جديدة هي التصريح بأن هدف الولايات المتحدة الذي تراه محققًا لمصلحتها الوطنية هو تغيير وجه الإسلام.

(١) مجلة البيان (٢١٢)، ربيع الثاني ١٤٢٦ هـ - مايو/ يونيو ٢٠٠٥ م.

(٢) مجلة البيان (٢١٤)، جمادى الثاني ١٤٢٦ هـ - يوليو/ أغسطس ٢٠٠٥ م.

٤٢- خبط عشواء^(١):

وفي هذه المقالة يذكر الشيخ حفظه الله قصة منع تدريس نظرية التصميم الذكي في مدارس بنسلفانيا؛ لأنها تعارض نظرية التطور لدارون، وهذه النظرية تؤكد أن تصميم الخلق من خبير حكيم وليس خبط عشواء كما تدل عليه كثير من نظريات الخلق.

٤٣- سخافة التعليل بحرية التعبير^(٢):

وفي هذه المقالة تقب الشيخ حفظه الله حجة الغربيين بالتعليل بحرية التعبير في نشر الرسومات المسيئة للنبي ﷺ، واعتبر أن هذا التعليل أشبه ما يكون بالسخافة وأفاض في هذا في ثنايا المقال.

٤٤- عندما يكون دين خرافة اسسا لسياسة دولة كبرى^(٣):

وفي هذا المقال بين الشيخ حفظه الله ما المقصود بالدين الخرافي؟ فالمقصود بالدين الخرافي الدين غير العلمي؛ بمعنى أنه لا يقوم على حقائق واقعية، ولا يلتزم بمكارم خلقية، وعليه فليس هنالك من دليل عقلي ولا علمي على دعاواه، بل في العقل والعلم ما يدل على بطلانها. وكلما كثرت مثل هذه الدعاوى في دين ما أو في طائفة تنسب إليه، كان ذلك الدين أو كانت تلك الطائفة أقرب إلى الخرافة، وكلما كان اعتماد من يؤمنون بمثل هذا الدين عليه

(١) مجلة البيان (٢٢١)، محرم ١٤٢٧هـ - فبراير ٢٠٠٦م.

(٢) مجلة البيان (٢٢٣)، ربيع الأول ١٤٢٧هـ - مارس ٢٠٠٦م.

(٣) مجلة البيان (٢٢٨)، شعبان ١٤٢٧هـ - سبتمبر ٢٠٠٦م.

في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسياساتهم، كان ضررهم على أنفسهم وعلى غيرهم أكبر ثم أشار حفظه الله في هذا المقال كيف أن الولايات المتحدة وقعت في ذلك بل هي أكبر مشكلة تعاني منها الولايات المتحدة، ويعاني منها العالم بسببها؛ ذلك أن ساكني بيتها الأبيض اليوم يؤمنون بخرافات دينية وقيمون عليها سياساتهم الداخلية والخارجية. وقد خرج إلى السوق قبل أشهر كتاب اسمه (الثيوقراطية الأمريكية)، بيّن فيه مؤلفه مدى تأثر السياسة الأمريكية الراهنة بمعتقدات دينية خرافية، ومدى خطورة هذه السياسة الدينية على الولايات المتحدة.

٤٥- انتشار التصراعية بالسيف^(١):

وفي هذه المقالة رد الشيخ على كلام للبابا زعم فيه أن الإسلام انتشر بالسيف، وبيّن حفظه الله الفرق بين الحروب التي خاضها المسلمون مع غيرهم ضد الظلم الذي يقع على المسلمين، أو ظلم الصادين الناس عن الدين وظلم الناقضين لعهود أبرموها مع المسلمين، ولم تكن لإكراه الناس في الدخول في الإسلام بينما الحروب التي خاضها المسيحيون على مر الزمان هي حروب ظلم وعدوا وإكراه الناس على قبول دينهم وثقافتهم.

(١) مجلة البيان، شوال ١٤٢٧ هـ - نوفمبر ٢٠٠٦ م.

٤٦ - هيام بانقرب يعمي ويصم^(١):

وفي هذه المقالة قام الشيخ بالرد على مقال فيه تمجيد للغرب واطراء له، وقد حشد جملة من الحُجج الواهية والأفكار المتناقضة ما لو قرأه مثقف عربي لسخر منه وأنهضه دليلاً على انحطاط الفكر العربي، ثم أخذ الشيخ حفظه الله بتفنيد مقاله والرد عليه.

٤٧ - عناصر الشرك الاستكبار والفحش في اقيم الغربية^(٢):

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة اننا إذا نظرنا إلى الثقافة المعترف بها تاريخياً عند الغرب وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. ثم ذكر الشيخ أمثلة على ذلك.

٤٨ - المعتقدات والمصالح^(٣):

وفي هذه المقالة يرد الشيخ حفظه الله على الذين يظنون أن سياسة الغرب والسياسة الخارجية الأمريكية تقوم على المصالح وأنها لذلك لا تتغير، وأن أيديولوجيات السياسة والحكام لا تغير من هذه الحقيقة. لكن الحقيقة أن هنالك صلة قوية بين الأمرين، فالمعتقدات والتصورات هي العدسات التي ينظر الناس بها إلى الأمور فيقررون ما هو مصلحة للوطن وما ليس بمصلحة؛ فالشيء

(١) مجلة البيان (٢٣١)، ذو القعدة ١٤٢٧هـ - ديسمبر ٢٠٠٧م.

(٢) مجلة البيان (٢٣٤)، صفر ١٤٢٨هـ - فبراير ٢٠٠٧م.

(٣) مجلة البيان (٢٣٧)، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ - مايو ٢٠٠٧م.

الواحد قد يبدو مصلحة بمنظار اعتقادي معين ويبدو مفسدة بمنظار آخر ثم يضرب الشيخ أمثلة على ذلك.

٤٩- البابا يرفض الحوار مع المسلمين^(١):

في هذه المقالة يذكر الشيخ حفظه الله السبب الذي جعل البابا يرفض الحوار مع المسلمين، حيث قال البابا: «إن حوارًا لاهوتيًا حقيقيًا مع المسلمين أمر صعب؛ لأنهم ينظرون إلى القرآن أنه كلمة الله بالمعنى الحرفي، إن المسلمين لا يقبلون أن يناقش أحد القرآن بعمق؛ لأنهم يقولون إنه كتب بإملاء من الله يصعب بهذا التفسير المطلق مناقشة محتويات الإيمان»، ثم يرد الشيخ على هذا الكلام الذي وصفه بالباطل.

٥٠- لماذا هذا الهلع الغربي من الإسلام^(٢):

يبين الشيخ سبب هلع الغرب من الإسلام مع أن عدد المنتسبين إلى الإسلام أقل بكثير من عدد غير المسلمين، بل هو كما يقولون أقل من عدد المنتسبين إلى النصرانية، وعدد الملتزمين من هؤلاء بدينهم توحيدًا وصلاة وصيامًا وحجًا وزكاة أقل بكثير من المنتسبين إليه، والمهتمون من هؤلاء بأمر الدعوة إلى الإسلام ولا سيّما في البلاد الغربية إنما هم طائفة قليلة.

وقوة المسلمين الاقتصادية والعلمية والقتالية لا تكاد تساوي شيئًا بالنسبة

(١) مجلة البيان (٢٤٤)، ذو الحجة ١٤٢٨ هـ - ديسمبر ٢٠٠٧ م.

(٢) مجلة البيان (٢٤٦)، صفر ١٤٢٩ هـ - فبراير ٢٠٠٨ م.

لما عند الغربيين من قوة، وبين المتتسبين إلى الإسلام أعداد كبيرة صارت موالية للغرب فكراً وسياسةً وواقعاً عملياً، لكن الغرب على الرغم من ذلك يتحدث عن الإسلام وكأنه عدو على الأبواب، ويصفونه بأنه أكبر خطر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. ولذلك تراهم لا يزالون يقومون بالدراسات بعد الدراسات، ويعقدون المؤتمرات عقب المؤتمرات، ويصدرون الكتب تلو الكتب والمجلات تلو المجلات، ويقدمون البرامج المسموعة والمشهودة للدعاية ضد الإسلام وبيان خطر المسلمين ثم يبين الشيخ حفظه الله سبب هذا الخوف والهلع.

٥١- ناصرون للإسلام من غير أهله^(١):

ذكر الشيخ في هذه المقالة أن من سنن الله أنه كثيراً ما يؤيد دين الحق بأناس لا يؤمنون به، ومن ذلك كلام كبير أساقفة كانتربري - وهو لقب يلقب به رئيس الكنيسة الإنجيلية في العالم - ورئيس الأساقفة هذا هو - بحكم منصبه - عضو في مجلس اللوردات البريطاني، ألقى هذا الأسقف (وليامز) محاضرة أكاديمية نشرتها بنصها جريدة الجارديان البريطانية، ودعا في نهايتها إلى أن يتضمن القانون البريطاني بعض أحكام الشريعة الإسلامية كي يتحاكم إليها المسلمون في محاكم خاصة بهم، وذكر من بين هذه الأحكام أحكام: الزواج، والطلاق، والموارث والمعاملات، والصلح، لكنه كان قد قدم لهذه

(١) مجلة البيان (٢٤٩)، جمادى الأولى ١٤٢٩هـ - مايو ٢٠٠٨م.

المقترحات بكلام طويل عن طبيعة القانون في الدولة العلمانية.

وكان مما قاله في ذلك: إن هنالك تحديًا متناميًا في المجتمع، هو وجود جماعات من المواطنين ليست بأقل من غيرها التزامًا بالقانون، لكنها تنتمي بحكم معتقداتها إلى شيء آخر غير القانون البريطاني، ثم سأل سؤالاً مهمًا فقال: ما الذي نفهمه ونتوقعه من القانون في الدولة العلمانية؟

وأجاب: بأن هنالك خطرًا ينشأ عندما يعتقد المتدين أن انتماءه لا يكون إلا إلى جماعته الدينية (الأمة أو الكنيسة)، وأن كل أنواع الانتماءات الأخرى السياسية والاجتماعية هي نوع من الخيانة لجماعته، لكنه ينشأ أيضًا عندما تحتكر الدولة العلمانية تعريف الهويات السياسية والاجتماعية، ولذلك أكد أن القضية ليست قضية خاصة بالمسلمين، بل هي قضية تهم كل أصحاب الديانات في دولة علمانية.

٥٢- أمدع جنایات هو أم مرتكب جنایة؟^(١)

في هذه المقالة يشير الشيخ حفظه الله إلى موضوع الاتهامات التي وجهها مدّعي ما يسمى بـ(محكمة الجنایات الدولية) ومطالبته بإيقاف رئيس البلاد وتسليمه إلى المحكمة لمحاكمته!، إن المدّعي الذي طالب بتوقيف رئيس بلد إسلامي يدّعي أنه إنما فعل ذلك لتأخذ العدالة مجراها؛ ولأن هذا الرئيس متهم بارتكاب جرائم فظيعة؛ منها: ما يسمى بالإبادة الجماعية، وما سُمّي بالتطهير

(١) مجلة البيان (٢٥٣)، رمضان ١٤٢٩هـ - سبتمبر ٢٠٠٨م.

العُرقي وبجرائم الحرب. ثم يتحدث الشيخ عن عدالة هذه الشكوى ونزاهة المحكمة في دعواها.

٥٣- هل تستعيد أمريكا مركزها^(١):

وفي هذه المقالة يستعرض الشيخ أقوال الكاتب الأمريكيين الذين يرون أن عهد القيادة والسيطرة الأمريكية انتهى إلى غير رجعة بعد تولي أوباما الرئاسة في أمريكا.

٥٤- فتنة اجتماع الكفر والقوة المادية^(٢):

في هذه المقالة يشير الشيخ حفظه الله إلى ما يحصل للناس من فتنة بسبب اجتماع الكفر مع النعمة والقوة المادية.

٥٥- العدوان أصل أصيل في الحروب الغربية^(٣):

في هذه المقالة يذكر الشيخ المبدأ الذي يركز عليه ويلجأ إليه القادة الغربيون الآن؛ لتوسيع ما يشنون من حروب على غيرهم هو ما صار يعرف بـ(المصلحة القومية) والمقصود بالمصلحة القومية هو مصلحة دولة قومية كالولايات المتحدة الأمريكية أو مجموع الدول التي تسمى بالدول الغربية التي تنتمي إلى حضارة واحدة ثم يورد الشيخ حفظه الله الاعتراضات على هذا المبدأ.

(١) مجلة البيان، ذو الحجة ١٤٢٩هـ - ديسمبر ٢٠٠٨م.

(٢) مجلة البيان (٢٥٧)، محرم ١٤٣٠هـ - يناير ٢٠٠٩م.

(٣) مجلة البيان (٢٥٨)، صفر ١٤٣٠هـ - فبراير ٢٠٠٩م.

٥٦- هل نشهد نهاية الليبرالية السياسية^(١):

وفي هذه المقال يبين الشيخ تحول المجتمعات الغربية من النظام السياسي القائم على النظام الديمقراطي الذي يقبل التعددية ويتيح للمواطنين المختلفين في العقائد الدينية، والقيم الخلقية والتصورات الفلسفية فرصًا سياسية متساوية إلى التحول إلى التركيز على المجتمع المتناسك الذي يقتضي التضييق على المخالفين لا سيّما المسلمين.

٥٧- لسنا ضد الإسلام ولكن^(٢):

وهذا المقال عبارة عن تمثيل حوار بين سياسي غربي وبين داعية عربي يبين فيه السياسي العربي أنه الغرب ليسوا مسلمين، ولكنهم ليسوا ضد الإسلام، ولكن الداعية المسلم يبين له أن الإسلام الذي أنتم لستم ضده هو إسلام في حدود نظامكم العلماني فإذا تجاوزه كنتم ضده ونسيتم ليبراليتكم.

٥٨- القرار السويسري يمنع المآذن قرار ديمقراطي^(٣):

يشير الشيخ حفظه الله في هذا المقال إلى أن نتيجة الاستفتاء الذي أجري في سويسرا لمنع المآذن فوافق ٥٧٪، والقرار الذي يأتي عن طريق الاستفتاء العام، هو أقوى القرارات الديمقراطية. وقرار منع المآذن في سويسرا جاء بهذه الطريقة؛ فهو إذن قرار ديمقراطي لا ريب في ديمقراطيته؛ فكونه ظالمًا أو خاطئًا

(١) مجلة البيان (٢٦٠)، ربيع الآخر ١٤٣٠ هـ - إبريل ٢٠٠٩ م.

(٢) مجلة البيان (٢٦٦)، شوال ١٤٣٠ هـ - أكتوبر ٢٠٠٩ م.

(٣) مجلة البيان (٢٧٠)، صفر ١٤٣١ هـ - فبراير ٢٠١٠ م.

لا ينفي كونه ديمقراطيًا، لكن كثيرًا من الناس ولا سيّما المعجبين بالديمقراطية في بلادنا يخلطون بين هذين الأمرين؛ فيصفون كل قرار أو سياسة أو سلوك يرونه جائرًا بأنه غير ديمقراطي. وطالما حاولتُ أن أطلب من هؤلاء المعجبين أن يتذكروا بأن غزو أفغانستان جاء نتيجة قرار ديمقراطي، وأن غزو العراق كذلك، بل إن قرارات الدول الأوربية باحتلال كثير من الدول ولا سيّما الدول الإسلامية واستعمارها، كانت قرارات ديمقراطية.

٥٩- اضطراب الملحدين^(١):

يبين الشيخ في هذا المقال والمقالات التي بعده اضطراب الملحدين في دعوى إقامة الحجة على الإلحاد وعدم وجود إله، ففي هذا المقال يذكر الشيخ أن أكثر ما يلجأ إليه الملحدون في الاحتجاج لإلحادهم هو أن المؤمنين بوجود الخالق لم يعطوهم على وجوده حجة مقنعة، لكنهم حين يفعلون ذلك يفترضون أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدعي وجوده هو المطالب بإعطاء الدليل على وجوده. لماذا لا يكون العكس؟ لماذا لا يكون الأمر الطبيعي هو الأمر الذي يؤمن به جماهير الناس والذي يجدون له أصلًا في نفوسهم، وأن الذي يشذ عن هذا هو المطالب بالدليل؟

إن المؤمنين بوجود الخالق يعتقدون كما سنرى أنه لا تفسير لوجود الكون إلا بوجود الخالق. فهل يرى الملحد أن مسألة وجود الكون هذه مسألة لا تمهمه وأن المطالبين بتفسيرها هم المؤمنون وحدهم؟ الواقع أن هذه مسألة

(١) مجلة البيان (٣٧٩)، ذو القعدة ١٤٣١ هـ - أكتوبر / نوفمبر ٢٠١٠ م.

تهم كل إنسان عاقل، فإذا لم يرَ في وجود الخالق حلاً لها فعليه هو أن يفسرها بشيء آخر يقول للمؤمنين إنه البديل عن وجود الخالق. وقد حاول بعضهم شيئاً من هذا لكنها محاولة بائسة.

٦٠- اضطراب الملحدين (٢) (١):

وقد ناقشهم الشيخ في هذا المقال في اضطرابهم في تقديم أدلة وجود الخالق.

٦١- اضطراب الملحدين (٣) (٢):

وفي هذه المقالة ناقش الشيخ دعوى الفيزيائي هوكنز بأنه ليس هناك من حاجة لوجود الخالق سبحانه، وأن الدارونية تغني عن وجود الخالق.

٦٢- اضطراب الملحدين (٣):

وفي هذه المقالة تناول الشيخ اضطرابهم في العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق.

٦٣- الانتفاضات التي حيرت الغرب (٤):

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ عن سياسة الغرب المتوقعة مع العالم العربي بعد هذه الانتفاضات التي عمّت كثيراً من بلاده والتي أيد أهدافها

(١) مجلة البيان (٢٨١)، محرم ١٤٣٢ هـ - ديسمبر ٢٠١٠ م.

(٢) مجلة البيان (٢٨٢)، صفر ١٤٣٢ هـ - يناير ٢٠١١ م.

(٣) مجلة البيان (٢٨٣)، ربيع الأول ١٤٣٢ هـ - فبراير ٢٠١١ م.

(٤) مجلة البيان (٢٨٦)، جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ - مايو ٢٠١١ م.

آخرون لم تحدث انتفاضات مثلها في بلادهم.

٦٤- الدولة الدينية والدولة المدنية^(١):

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن طبيعة الدولة الدينية والتي تعتمد على نوع الدين التي هي منسوبة إليه، وعلى هذا تعتمد الإجابة عن كونها يمكن أن تكون إسلامية أو غير إسلامية، ثم يذكر الشيخ معاني الدين بمعناه الواسع أو بالمفهوم العلماني أو المعنى الشيوعي للدولة الدينية ثم يصل للمعنى الإسلامي للدولة الدينية.

٦٥- أيرانيون هؤلاء^(٢):

يتحدث الشيخ في هذا المقال بأن الليبرالية صنفان: صنف أصلي مصنوع في الغرب، وصنف مغشوش يباع في العالم العربي باسم الصنف الأصلي. أصحاب الصنف الأول يبيعون بضاعة هي من صنع أيديهم فتستطيع لذلك أن تتحاور معهم وتدلّهم على مواطن الخلل في بضاعتهم، وهي كثيرة. وقد يستمعون إليك، وقد يعترفون لك بما في بضاعتهم من عيوب ثم يحاولون تغييرها كما ظلوا يفعلون على مرّ السنين.

لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع مروجي البضاعة المغشوشة؛ لأن بائعيها ليسوا أصلاء؛ وإنما هم مقلدون مزيفون لا يستطيعون ترويح بضاعتهم إلا بتسميتها بالاسم الذي اختاره المصنعون الأصلاء ودافعوا عنه وأعطوا

(١) مجلة البيان (٢٨٧)، رجب ١٤٣٢هـ - يونيو ٢٠١١م.

(٢) مجلة البيان (٢٨٨)، شعبان ١٤٣٢هـ - يوليو ٢٠١١م.

أنفسهم حربة إعادة النظر في بضاعتهم وتعديلها وتبديلها. فالشيخ يتحدث عن هذا الصنف المغشوش الذي يباع في العالم العربي باسم الصنف الأصلي.

٦٦- نظرات نقدية في أسس الأيدولوجية الليبرالية الغربية^(١):

وفي هذا المقال ينتقد الشيخ أساسًا من الأسس الأيدولوجية لليبرالية الغربية وهو فكرة العقد الاجتماعي.

٦٧- نظرات نقدية في أسس الأيدولوجية الليبرالية الغربية^(٢):

وهذا المقال هو تكملة للمقال الذي قبله في نقد الأسس الأيدولوجية لليبرالية الغربية وقد تعرض الشيخ هنا إلى نقد الحرية بأنواعها الثلاثة (حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية العمل) ويخلص إلى أنه ليس هنالك شيء اسمه الحرية المطلقة - سواء في التعبير أو في غيره - وأن التعبير يجب أن تكون عليه قيود تبيح ما كان منه في صالح الناس وتمنع ما كان منه في ضررهم، وأن هذه القيود لا يلزم أن تكون كلها قيودًا يعاقب القانون على مخالفتها؛ وإنما هي في أكثرها قيود اجتماعية يقوم بها بعض الناس نيابة عن الآخرين، وكما كثر عدد هؤلاء وكانوا على الحق والخير كان ذلك في مصلحة المجتمع. ونخلص مما ذكرنا إلى الحقيقة الكبرى التي تقول: إنه لا بُد للناس من هدى إلهي يهديهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

(١) مجلة البيان (٢٨٩)، رمضان ١٤٣٢ هـ - أغسطس ٢٠١١ م.

(٢) مجلة البيان (٢٩٠)، شوال ١٤٣٢ هـ - سبتمبر ٢٠١١ م.